

التربية الإسلامية

الجزء الأول

تأليف

دكتور عبد الغني عبود

كلية التربية ـ جامعة عين شمس

الطبعة الثالثة

١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة ٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر

ت: ٢٦١٩٠٤٩

الطبعة الأولى ١٩٧٧

الطبعة الثانية ١٩٨٥

الطبعة الثالثة ١٩٩٤

٣٧٧,١	عبد الغنى عبود.
غ ن. ف ى	فى التربية الإسلامية / تأليف عبد الغنى عبود.
	ـ ط٢ .ـ القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩٤.
	٢٨١ ص ؛ ٢٤ سم.
	يشتمل على ببليوجرافيات.
	تدمك : ـ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.
	١ ـ التربية الإسلامية. أ ـ العنوان.

تصميم وإخراج فنى : سهيل سيد العبد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر، كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدنْ حكيمٍ خبير﴾

(قرآن كريم : هُود ـ ١١ : ١).

﴿... وإنه لكتابٌ عزيز* لايأتيهِ الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه،

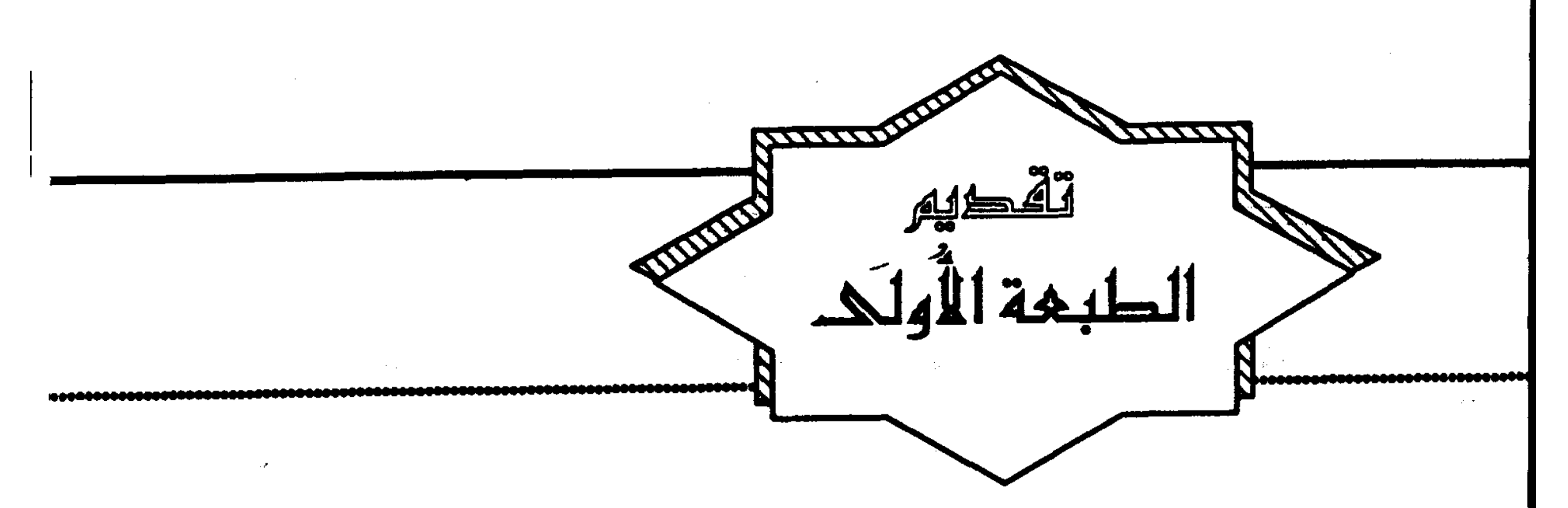
تنزيلٌ من حكيم حميد﴾

(قرآن كريم : فصّلت ـ ٤١ : ٤١ ، ٤٢).

﴿لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ لمنْ كان يرجو اللهَ

واليومَ الآخِرَ وذكرَ اللهَ كثيرا﴾

(قرآن كريم : الأحزاب ـ ٣٣ : ٢١).



مِن الموضوعات التي أتذكّرها بين اللحظة واللحظة، فترسم الابتسامة على وجهي، أنني أوّلَ اشتغالي بالعَمَلِ العِلميّ، كنتُ مشغولا بأمر أساسيّ واحد، هو هذا الفيض الهائل من المعرفة، ومِن الكُتُب التي تقذف بها المطابع كل يوم إلى القُرَّاء ليقرءوها،بما لايدع لمثلي مِمَّن يبدءُون سير الطريق مِن أوّله، فرصة للبحث عن موضوع يدرُسونه، أو مسألة يقولون فيها جديدا يجب أن يُقال.

وقد وصل (انشغالي) بهذه القضيّة، إلى حدّ أنني بدأتُ أختار موضوعات للدراسة، أدرُسها، وأكتب فيها، وأُعِدُّها للنشر، وكان بعضُها مقالات لمجلات علمية - في تصوُّري - وبعضُها الآخَر كُتُبا كاملة ... وأحمد الله اليوم أن واحدا منها لم ير النور، لأني - بعد ذلك - كما سأقول فيما بعد - حكمتُ عليها بالحبس المُطلَق الذي لااستئناف فيه، ولا نقضَ ولا إبرام.

ولم تَعُد لهذه الكتب والمقالات قيمة في حياتي، سوى أنها بصمة لفترة معيَّنة مِن فترات حياتي أعتزُّ بها، ولذلك فإنني أعود إليها بين فترة وأخرَى، كلما ضِقتُ بالحياة والعَمَل، وأردتُ أن أرسم على شفتي بسمة بعد طول غياب، تجديدا للنشاط، حتى أستأنف - مِن جديد - مسيرةَ العَمَل .... الشاقّ.

وقد توقَّفتُ عن هذا العمل فجأة، بعد أن ضقت بالكتابة ... وبدأت أتجه إلى القراءة.

وصرتُ كلما قرأتُ كتابا، وجدت تَعَطُّشي للقراءة يزداد، حتى صار حجم قراءاتي اليوم، وأنا محسوب مِن العلميّين، أضعافَ أضعافَ قراءاتي، أيام كنتُ في مرحلة الإعداد العِلميّ.

ولم تعد القضيّة القديمة - بعد أن اتجهتُ إلى القراءة - تشغل بالى.

فلقد أكّدت لى قراءاتى أن هناك عشرات - بل مئات - الموضوعات، التى لم تُطرَق، فى أىّ فرع من فروع المعرفة، رغم الانفجار العِلمىّ والمعرفىّ الذى نعيشه، ورغم أن المطابع صارت تلهث، بسبب وفرة ما تُخْرِج مِن كُتب ومؤلّفات.

كما أكّدت لى هذه القراءات، أنّ أىّ موضوع مِن الموضوعات التى طُرقت، يمكن أن يُطرَق مِن جديد، ويُتَنَاوَل مِن منظور جديد، أو بروح جديدة، أو مِن وِجهة نَظَر جديدة.

وأكثرُ من ذلك، أن هذه القراءات أكّدت لى، أن المؤلف الواحد قد يتناول موضوعا مُعَيَّنا اليوم - وبعدَ عام مِن تناوُله، يُعيد تناوُل نفس الموضوع، فإذا بالتناوُل جديد، جِدَّةً تجعل مِن الموضوع القديم موضوعا جديدا تماماً.

وبعد أن كان ما يشغل بالى، هو ألاّ أجد موضوعا أدرُسه وأبحَث فيه، صار ما يشغَل بالى اليوم، بعد أن دخلتُ على العمَل العِلمىّ مِن بابه - بابِ القراءة، هو أننى لا أجد وقتا يكفِينى لمعالجة ما يشغَل بالى مِن موضوعات .. أراها جديرة بالدراسة، وهى تزداد يوما بعدَ يوم.

لقد صرتُ أنتهِى مِن دراسة قضيّة، وأحمَدُ اللهَ أننى (انتهيتُ) منها، فإذا بانتهائى مِن القضيّة فى حَدِّ ذاتِه، يخلُق أمامى قضايا بعدَها، لابُدَّ أن تُدرَس.

وهكذا صارت حياتى العِلمية ... قضايا كثيرة تشغَل بالى، ولابُدَّ - مِن وجهة نظرى - أن تُدرَس، والوقت يضِيق، فأرانى - لأدرُسها كما أُحِبّ - لايَتَّسِع لها وقتى.

وأحسَب أن هذه القَضِيّة ليست قَضِيَّتى وحدى، وإنما هى قَضِيّة كل العِلميين، الذين يدخُلون موضوع العِلم مِن بابه - باب القراءة.

ولم أكن أحسَب فى يوم من الأيام أن موضوع (التربية الإسلامية) سيكون مِن الموضوعات التى ستثِير اهتمامى.

ذلك أن (الإسلاميات) عموما تحتاج إلى نوعين من الناس، لا أعتقد أنى واحد

منهم، لالشئ إلا لأن إعدادى الأوّل مَدَنِىٌّ تماما، ومِن ثَمَّ فرصيدى مِن القرآن والحديث وعلومهما محدود ومحدود. والقرآن والحديث فى نظرى هما الأساس الذى يجب أن يتوفّر لأىّ دارس فى (الإسلاميّات).

وقد كانت نتيجة (اقتحامى) مجالَ (الإسلاميّات) بدون هذا الرصيد، أننى أجعَل (المعجم المفَهْرَس لألفاظ القرآن الكريم) دائما بينَ يدَىّ ... وما أحسبه كافيا، لكننى أستعين به، على طريقة (ما لايُدرَك كُلُّه، لايُترَك كُلُّه).

وكانت نتيجتُه أيضاً، أننى قَلَّما أستعين بحديث مِن الأحاديث، فيما أكتب مِن (إسلاميّات)، فى التربية أو فى غير التربية، لأنى لاأجد نفسى أهلا للتعامُل مع الأحاديث الشريفة، واجتناب ما بها من (إسرائيليّات)، رغم أن (صحيح البخارِىّ) واحد مِن المراجع الهامة الموجودة فى مكتبتى.

وكانت نتيجته كذلك، أننى أُضطَرُّ إلى أن أقرأ عشرات الكُتُب، لأحصُل على فِكرة واحدة، قد لاتستغرق كتابتها أكثرَ مِن صفحة واحدة مِن صفحات كتاب.

فلم يكن تخطيطى أن أبعد عن الإسلاميّات، إلا لونا من ألوان معرِفتى لقدر نفسى، ورحم الله امرَأً عرفَ قَدْرَ نفسه، كما يقولون.

ولم يكن غريبا أن أختم كتاب (نحوَ فلسفة عربية للتربية) بالدعوة إلى (فريق بحث)، يضُمُّ رجال الدين ورجال التربية معا، لاقتحام آفاق (التربية الإسلامية)، ويمكن الرجوع إلى هذه (الدعوة) فى ختام الكتاب، وفى الصفحتين الأخيرتين من هذا الكتاب، أو من هذه المَقُولات.

إلا أن (المُضطَرَّ) أحيانا (يركَب الصعب)، كما يقولون، وقد اضطُرِرْتُ أنا إلى ركوب الصعب فرَكِبْتُه، ولم يكن أمامى سوى أن أطلُب من الله وحدَه العون، وقد طلبتُه منه سبحانه.

ولم تكن (الحِكمة) تقضِى بالبُعد عن هذا الموضوع ـ موضوع التربية الإسلامية ـ لمجرّد أنه صعب بالنسبة لمثلى، وإنما كانت (الحكمة) تقضِى بالبُعد عنه، لأسباب أخرَى كثيرة، فى مقدّمتها أنه موضوع (شائك) أيضاً.

وهو ليس شائكاً لأن (المادّة العِلمية) فيه صعبة المنال، صعبة الاستغلال، ولكنه شائك لسبَب آخَر يتّصل بنا نحن، فى العالَم العربىّ والإسلامىّ.

إنك ـ فى الإسلاميّات ـ تجد نفسك مُضطراً، إما إلى أن تكتُب كلاماً، لايُرضِى ضميرَك العِلمىّ، وإما إلى أن تكتُب كلاماً لايُرضِى أحداً مِن المهتمّين (بالإسلاميّات).

فهو شائك، لأنك لن تجد أحداً تُرضِيه، بما تقوله فيه.

وهو شائك، لأسباب أخرَى أكثر خطورة، مِن مجرّد الاسترضاء.

إنك يمكن أن تكتُب عن الرأسمالية والتربية الرأسمالية، فتجد المراجع متوفّرة، والتناوُل سهلاً، ثم تكون ـ بعد ذلك ـ فى نظَر الناس ـ (عَصْرِيًا)، ويمكن أن تكتُب عن الشيوعية والتربية الشيوعية، فتجد المراجع متوفّرة، والتناوُل سهلاً، ثم تكون ـ بعد ذلك ـ فى نظر الناس ـ (تقَدُّمِيّا)، ولكنك حين تكتُب عن الإسلام، أو عن التربية الإسلامية، فلن تجد المراجع التى تنشُدها، وستُحِسّ بأنك تزرَع فى الماء، أو تنحت فى الصخر، ثم تكون ـ بعد ذلك ـ فى نظر الناس رجعيًا أو سَلَفيا، أو ما إلى ذلك من الصفات، التى فاض بها قاموس حياتنا السياسية، حتى طَفَح.

وقد تنتاب موجةٌ مِن الموجات المجتمع، فيكون هؤلاء الرجعيّون السلَفيّون عُمَلاء للاستعمار، ومُخَرِّبين، فتجد نفسك، وأنت تبحَث عن الحقيقة بصُعوبة، تصل إلى حيث لاتُحِبّ أن ترَى نفسك أو أحد أحِبّائك ... بسُهولة.

فالمهتَمّون بالإسلام ـ فى العالَم الإسلامىّ المعاصر ـ هم السلعة الوحيدة التى تُباع فى (سوق النخاسة الدولية) اليوم، والمشترُون هم الصهيونيون ومَن يحمونهم مِن (أبناء الحُرّة). وبأيدِى هؤلاء وهؤلاء .... المال، والقدرة على إسقاط الحكومات، وإقامة حكومات جديدة.

ومِن ثَمّ كان البُعد عن الموضوع برمّته، مَطلَبا مِن مطالب (الحِكمة) أيضا، لأنه إجراء من إجراءات السلامة والأمن، والسلامة والأمن مطلَب إنسانىٌّ عزيز.

إلا أنه إذا كانت (الحِكمة) - فى نظَر البعض - لما سبق - تقضِى بالبُعد عن هذا المجال، فقد كانت (الحِكمة) - فى نظَرى - تقضِى باقتحامه.

ذلك أن (رُكوبَ الصعب) يجب أن يكون سِمة مِن سمات المشتَغِلين بالعِلم فى نظرِى.

ولو لم يركب المشتَغِلون بالعِلم هذا الصعب، ما وصل العلم إلى ما وصل إليه اليوم.

فليس مِن عادة المشتغلين بالعِلم دائما أن ينشُدُوا (السلامة)، لأنهم إذا نشدوا (السلامة)، فلن يَصِلوا إلى (الحقيقة).

يُضاف إلى ذلك، أن هناك (مُثيرا) دفعنى إلى رُكوب هذا الصعب، وقد جاء هذا المُثير بعد فترة قصيرة مِن اشتغالى بالعَمَل العِلمىّ، حيث أراد أحد طلبة الدراسات العليا تسجيلَ موضوع فى (التربية الإسلامية)، يحصُل به على درجة الماچستير فى التربية، فإذا بأحَد الزملاء يَرُدُّ عليه، بأنه لا يُوجَد - للأسف - ما يُسَمَّى بالتربية الإسلامية.

وهو رأى شائع بين رجال التربية، تَعَوَّدنا على سماعه، وجهلُنا بالتربية الإسلامية، والصعوبات التى تعترِض سبيل الاشتغال بها، هى التى تجعَلنا نسكُت عن مِثل هذه المغالَطة العِلمية.

وقد اتَّجهتُ بالفعل إلى التربية الإسلامية، اقرأ فيها وعنها، بعد ما سمعتُ، فوجدتُ العجب العُجاب، كما يقولون. وجدت الكُتُب التى تعالج موضوع (التربية الإسلامية) كثيرة كثيرة، ولكن مُعظَمها كان لايتّصل بالتربية الإسلامية فى شئ، وإنما كان يدور حول (الإسلام) عموما، بشكل مِن الأشكال، يستريح إليه الكاتب، ولكن مَن يُريد أن يعرف عن (التربية الإسلامية)، لايمكن أن يستريح إليه.

ولايستطيع الإنسان - بطبيعة الحال - أن يُنكِر محاولات سابقة لخوض هذا الموضوع، كمحاولات المرحوم الأستاذ أحمد أمين، والدكتور أحمد شلبى، والدكتور أحمد فؤاد الأهوانى، والمرحومة أسماء حسن فهمى، وغيرهم ... إلا أن

هذه المحاولات - فى نظَرى - كانت تركّز على جانب دون جانب، ولاتخدم القَضِيّة - قضيّة التربية الإسلامية - برمّتها. ولكنها محاولات ... رائدة .. على أية حال.

وكان انطباعى، هو أن هذا الجيل مِن الرُّوَّاد قد أدّى دوره فى ظروف أعترِفُ بصُعُوبتها، وأن على جيلنا أن يؤدّى دورَه، وظروفُه - ولاشكّ - أحسنُ، ويكفيه أن يجد محاولات هؤلاء الرّوّاد، وقد ذَلَّلت له بعض الطريق.

وبدأتُ أدرس الموضوع دراسة مُكَثَّفة، ثم كتبتُ كتابا كاملا متكاملا عنه، واتّفقتُ على نشره، فى مطلع عام ١٩٧٥، ولكنى - فى آخِر لحظة - غيَّرتُ قرارى، فقد كان الموضوع - فى نظَرى - أخطرَ وأكبرَ مِن الجهد الذى بذلتُه.

ومِن ثَمّ لخَّصتُ الكتاب، بنفس العنوان الذى اخترتُه للكتاب (الأيديُولُوجْيَا والتربية فى الإسلام)، ونشرتُه فى (الكتاب السنَوِىّ، فى التربية وعِلم النفس)، فى المجلد الثالث، الصادر فى يناير ١٩٧٦ (المقُولة الثالثة فى هذا الكتاب).

وكان هدَفى مِن تلخيصه ونشره، أن أقدّم للمهتمّين بالموضوع وِجهة نظَر، لعلَّها تكون ذاتَ فائدة لهم، ولعل أحدَهم أن يبدأ فيما بدأتُ فيه. فالقضية - فى نظَرى - تتطلّب جُهدَ فريق، لأنها أكبرُ مِن جُهد فرد.

وكانت العقَبة الأساسية التى تعترض طريقى، هى أننى اكتشفتُ أننى لاأفهَم الإسلام، شأنى شأنُ الكثيرين مِن أبناء المسلمين، الذين تخرَّجوا فى نُظُم التعليم العربية والإسلامية المعاصِرَة، التى تُوصَف (بالعَصْريّة).

وبدأتُ أدرُس الإسلام، مِن أَلِفه إلى يائه، بادئا مِن الألف، محتَمِلاً فى سبيل ذلك مِن الجُهد والوقت والمشَقّة، ما أحتَسِبُه عند الله وحدَه.

ثم رأيتُ أن تكون دراستى للإسلام وَفْقَ منهَج مُعَيَّن، أستطيع به فهم (الإطار الأيديُولُوجِىّ) للإسلام، لأستطيع مِن خلاله فهم (التربية الإسلامية) فيما بعد. ثم رأيتُ أن تكون دراستى بصوت مسموع، فتترجم هذه الدراسة إلى شئ مكتوب، أحكُم به على خُطاى فى الدراسة أوّلا بأوّل، حتى أطمئِنَّ إلى أننى على الطريق أسير.

ومِن هنا، كانت كتاباتى فى (منبر الإسلام)،فى بعض أعدادها.

ومِن هنا - أيضا - كانت سِلْسِلة (الإسلام وتَحدّيات العَصْر)، التى صدر منها حتى الآن ثلاثة كُتب، أوّلها عن (العقيدة الإسلامية والأيديولوجيّات المعاصِرة)، الذى صدر فى مايو ١٩٧٦، وثانيها عن (الله والإنسان المعاصِر)، الذى صدر فى فبراير ١٩٧٧، وثالثها عن (الإسلام والكون)، الذى صدر فى مايو ١٩٧٧، والتى أعددتُ الكتاب الرابع منها عن (الإنسان فى الإسلام والإنسان المعاصِر)، ليصدُر فى مطلع سنة ١٩٧٨ بإذن الله.

بل ومِن هنا أيضا كانت (الإسلاميات) التى ظهرت فى (نحوَ فلسفة عربية للتربية)، وفى مقالتين لى فى مجلّة (تعليم الجماهير)، التى يُصدِرها الجهاز العربىّ لمحو الأميّة وتعليم الكبار).

فلم تكن هذه (الإسلاميات) نابعة - إذن - مِن مجرّد (إحساس) دينىّ يدفع إلى الكتابة، ولكنها كانت نابعة - بالدرجة الأُولَى - مِن (إحساس) عِلمِىّ، أو أكاديمِىّ خالص.

وكان محورها جميعها هو : التربية الإسلامية.

ومِن ثَمّ كانت (التربية الإسلامية) هى الإطار العامّ، الذى دار فيه هذا التفكير الدينىّ، الذى كُتِبَ فى مناسبات مختلفة، وفى أماكن مختلفة أيضا، وسيجد القارئ هذا الإطار العامّ واضحا، فى هذه المَقُولات، بعدَ جمعها فى هذا الكتاب.

وتُعتَبر المَقُولة الأُولَى مِن هذه المقولات، مَدخَلا عقائديا للتربية الإسلامية، وهى الفصل الثالث من الكتاب الأوّل، مِن سلسلة (الإسلام وتَحدّيات العَصْر)، التى صدرت - كما وضَّحتُ - على طريق (التربية الإسلامية).

وهى توضّح - باختصار شديد - الخطوط العريضة للعقيدة الإسلامية، ووضع الإنسان فى هذه العقيدة، وعلاقته بربّه، ونظرته إلى الكون وإلى المجتمع.

أما المَقُولة الثانية مِن المَقُولات، فهى بمثابة مدخَل أيديولوجىّ للتربية الإسلامية، والفرق بينها وبين المَقُولة الأُولَى، هو أن المَقُولة الأُولَى تركّز على (الإطار النظَرِىّ) أو (المِثالِىّ)، بينما تركّز هذه المَقُولة الثانية، على الجانب التطبيقىّ.

ومِن ثَمّ كانت هذه المَقولة الثانية دفعا بالمَقولات .... فى طريق (التربية الإسلامية)، لأنها تنتقل مِن الإطارين - العَقائِدىّ والأيديولُوجىّ - إلى إطار التربية.

وأذكر أننى، فى أثناء تلخيص هذه المَقُولة، وإعدادها (للكتاب السنوىّ)، قرأتُ فى عدد ١٩٧٥ مِن (الكتاب السنوىّ)، وعَددَىْ سبتمبر ١٩٧٤ ويناير ١٩٧٥ مِن (تعليم الجماهير)، مقالين عن (التربية المستَمِرّة)، و(التعليم المستَمِرّ)، و(تعليم الكبار)، بوصفها أحدث (صيحات) التربية المعاصِرة، ففكّرتُ فى القضيّة مِن وِجهة نظَر الإسلام، فوجدتُ الإسلام أكثرَ (عصريّة) مِن النظُم المعاصِرة ذاتها - فكانت هذه المَقُولة الرابعة، وربما دَلّ عنوانها، على ما كان يدور فى صدرى ساعة التفكير فيها وكتابتها (الإسلام وتَحَدّى العصر : التربية المستَمِرّة فى الإسلام).

إلا أن المَقُولة قد نُشرت، مليئة بالأخطاء المطبعية، التى لم يسلَم منها العنوان ذاته، ولا الآيات القرآنية أيضا. ومن ثم كان لابُدّ مِن إعادة نشرها .... هنا.

وأخيرا تأتِى المَقُولة الخامسة - والأخيرة - مِن المَقُولات، وهى انتقالة بالقَضِيّة برمّتها، مِن الدراسة النظرية - إلى المجال التطبيقىّ، كما نراه فى واقع البلاد الإسلامية اليوم.

والمَقُولة، هى الباب الأخير مِن كتاب (نحوَ فلسفة عربية للتربية)، الذى صدر فى نهاية سنة ١٩٧٥.

وهى مَقُولة ذات ثلاث شعب، الشعبة الأُولَى منها هى الفصل الرابع من الكتاب، وتختصّ بوضع التربية فى البلاد العربية - والإسلامية - اليوم، مع تمهيد تاريخىّ لهذا الوضع.

أما الشعبة الثانية، فهى الفصل الثامن مَن الكتاب، وتهتمّ (بتحليل) الوضع الراهن للتربية فى البلاد العربية - والإسلامية - من خلال توضيح (القُوَى الثقافية) المؤثّرة فيه.

وأخيرا تأتِى الشعبة الثالثة، وهى الفصل التاسع والأخير مِن الكتاب، وتهتمّ

بوضع مقترَحات للتربية الإسلامية، فى ضوء الوضع الراهن، وتحليل هذا الوضع الراهن، كما رأيناه فى الشعبتين الأُولَيَيْن مِن المَقُولة.

وارجو أن أكون بهذه المَقُولات، وجمعها وترتيبها وإخراجها، على هذا النحو، الذى جُمِعَت ورُتِّبَت وأُخرِجَت به، قد أضفتُ جديدا يستحقّ أن يُضاف إلى هذا المجال الرحب، الواجب خوضه، والبحث فيه، إن لم يكن مِن باب الغيرة الدينية، فمِن باب الأصالة العِلمية.

فنحن مُصابون - فى العالَم العربىّ - منذُ مطلع القرن العشرين - لأسباب كثيرة - (بمرَض) التفكير فى هذا العالم العرَبىّ، وحاضره، ومستقبله، فى ضوء الحضارة الغربية، وما أنجزته هذه الحضارة وحقّقته، ناسين - أو متناسين - أننا لن نستطيع تقدُّما ننشُده حقًّا، إلا فى إطار واقعنا، وقيَمِنا ومُعتقَداتنا.

ولايعنِى ذلك نَبْذ الحضارة الغربية.

ولكنه لايعنِى - أيضا - أخذ الحضارة الغربية كما هى، بحُلْوِها ومُرِّها - بخيرها وشَرِّها.

وقبلَنا جرَّبَت اليابانُ والصين هذه الحضارة الغربية، بل وجرَّبَها الاتحاد السوفييتّى، بعد ثورته البَلْشَفية، ولكن أيا منها لم تستطع التقدُّم، إلا عندما أخضعت هذه الحضارة ... لواقعها القومىّ، وزرعتها فى (تُرْبَتها) الوطنية.

ومن الغريب حقا، أن انتهاء القرن التاسع عشر فى مصر، قد شهد أيضا انتهاء الدعوة إلى (الأصالة)، بعد أن أفلح الاستعمار الإنجليزىّ فى تحويل القضية برمّتها، مِن (الأصالة) أو (الاستغراب) فى التعليم، إلى (التعليم) أو (فرض الجهل).

وكانت النتيجة أن صار (التعليم) هدَف الأهداف فى كل دعوة إصلاحية تظهر، وتنحّت قضيّة (الأصالة) .... وآن لها أن تعود من جديد.

والذى يتصدَّى لموضوع (التربية الإسلامية) أو غيره من الموضوعات التى تمسّ الإسلام، يجد نفسه يسلُك أحد سبيلين : فهو إما أن (يلوِى ذراع) الحقيقة، وأحيانا (يلوِى ذراع) النصّ القرآنىّ ذاته، وقد يلجأ إلى حديث شريف مشكوك

فيه .... ليدافع - مِن خلال ذلك - عن الإسلام - وإما أن يكون (عصريّا) جدّا، فيأتِى بكلام المستشرِقين، ودراساتُهم فى الإسلام متقدّمةٌ ومتفوّقة، تسيل لُعابنا نحن المسلمين .... ولكنهم : مستشرِقون.

ومعنَى ذلك - أيضا - أنهم يفهمون الإسلام كما يُحبّون أن يفهَموه، لا كما يَجبُ أن يفهموه.

ثم إن أكثرهم يُدفَعون إلى دراسة الإسلام متعصّبين ضدّه.

وإذا ساقوا لنا فى دراستهم عَسَلا، فإنهم يضعون فى هذا العَسَل سُمّا.

ونُقَاد نحن إلى الشَّرَك .... بأرجُلنا.

وأشهَد أنه قد ظهر - فى السنوات الأخيرة - سبيل ثالث، لم يحاول أن (يلوِى ذراع) الحقيقة، ولم ينخَدِع بشِراك المستشرقين.

ولكنه ... أوّلُ (الغيث)، وقد آن لهذا الغيث أن .... (ينهمر).

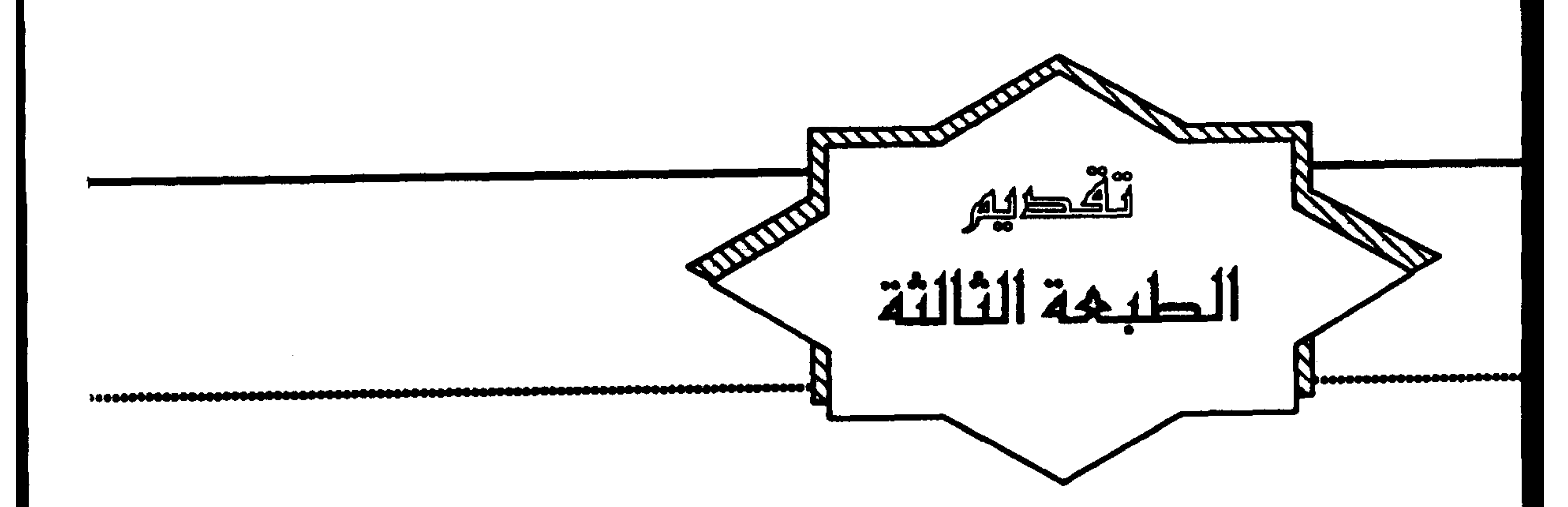
وقد حاولتُ - فى هذه المقولات - أن أسلُك هذا السبيل الثالث، لا فى هذه المقُولات وحدَها، بل وفى سلسلة (الإسلام وتحدّيات العصر) أيضا.

وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ فيما قصدت، ووُفِّقْتُ فيما صنعت ... وأن يكون هذا العمل كله مقبولا عند الله، فمنه - وحدَه - سبحانه - أرجو حُسْنَ الجزاء.

دكتور عبد الغنى عبود

القاهرة فى : جُمادَى الثانية ١٣٩٧هـ.

يونية ١٩٧٧م.



هذه هى الطبعة الثالثة للجزء الأول مِن كتاب (فى التربية الإسلامية)، تصدُر بعدَ صدور الجزء الثانِى منه بفترة وجيزة، مِمّا يدُلّ على الصدَى الطيِّب الذى وجده الكتاب فى نفس قارئه العزيز.

ولاندَّعى اننا اضفنا إلى الطبعة الأُولَى، ولا إلى الطبعة الثانية من الكتاب، شيئا، ولا اجرينا فيه أىّ تعديل، لأنه عبارة عن (مَقُولات) قِيلَت بمناسبات مختلفة، أحببنا أن نكون أُمَناء فى المحافظة عليها كما قُدّمت.

ولاشكّ أن هناك افكاراً ورُؤَى جديدة، ومِن هنا كان صدور الجزء الثانى مِن الكتاب لتسجيل تلك الأفكار والرُّؤَى.

فالحمدُ لِلّهَ أولا، والحمدُ لِلّه أخيرا، وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لِلّه ربّ العالَمين.

دكتور عبد الغنى عبود

- أوائل ذى القعدة ١٤١٤ هـ.

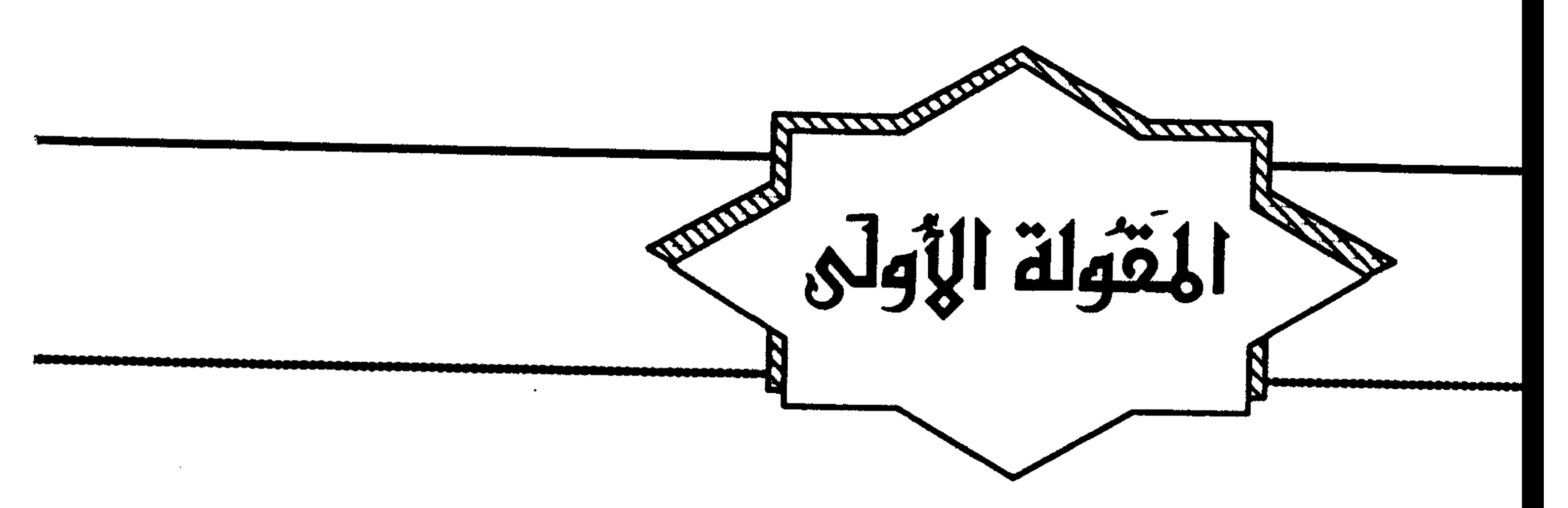
- أوائل مايو ١٩٩٣ م.



الموضــوع	الصــفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصـفحة



المقولة الأولى

مدخل عقائدي

تقوم هذه المقُولة الأُولى على الفصل الثالث مِن كتاب (العقيدة الإسلامية والأيديولوجيات المعاصِرة).

والكتاب، الذى تُعتبر هذه المقولة الفصلَ الثالث منه، هو الكتاب الأوّل مِن سِلسلة (الإسلام وتحدّيات العصر)، التى قرَّرتُ إصدارها فى عشرة كُتُب تقريباً، بمعدّل كِتابين كل عام، انتهى منها بإيضاح (إيجابية) الإسلام، وقُدرته على مسايرة خُطَى التقدُّم الإنسانىّ، بل ودفعه على حثّ خُطَى الإنسان نحوَ التقدّم .... فى كلّ زمان ومكان.

ولإصدار هذه السلسلة ظروف، وضّحتُها فى تقديمى لهذه المقُولات (تقديم الكتاب)،ثم زدتُها توضيحا فى تقديم المقُولة الثالثة (الأيديولُوجيا والتربية فى الإسلام).

والفصل الثالث المختار مِن هذا الكتاب الأوّل مِن كُتُب السلسِلة، عنوانُه (العقيدة الإسلامية .... والإنسان)، وهو يحتلّ فى الكتاب الصفحات ٧٠ ـ ٨٨ منه، وهو يوضّح الإطار الأيديوُلوجىّ والعقائدى للإسلام، كما تصورتُه، بعدَ دراستى لهذا الموضوع.

ومِن ثَمَّ، يُلقِى هذا الفصل، أو هذه المقُولة الأُولَى، ضوءا على ما ستتناوله المقُولات التالية مِن أفكار وآراء، تتّصل بالتربية الإسلامية، لأنه ـ بدون الإطار الأيديولوجىّ لأىّ نظام تعليمىّ ـ لايمكن فهم هذا النظام، وفهم أبعاده، واستيعاب مختلف جوانبه.

وقد نقلتُ هذا الفصل كاملا، كما جاء فى الكتاب الأوّل مِن السلسلة، ولم أُحدِث به أىّ تغيير، سِوى تغيير طفيف فى نظام المراجع، فقد كان بعضها ـ كما ورد فى هذا الفصل ـ غير كامل، لأنه سبق ذِكرُه فى الفصلين الأوّلين مِن الكتاب، قمتُ بتكملته هنا ـ استكمالا للفائدة، كما قمتُ بحصر المراجع الواردة فيه، وعمل ثَبْتٍ بها فى نهاية المقُولة.



العقيدة الإسلامية .... والإنسان

محور العقيدة الإسلامية :

ليس من المبالغة فى شئ أن نقول : إن الله سبحانه وتعالىَ هو جوهر العقيدة الإسلامية، ومحورها الأساسىّ.

فالله سبحانه هو خالق هذا الكون الفسيح الواسع، بكل ما به من عوالم ومخلوقات وأسرار .. لايحصيها عدّ، ويستعصى عليها الحصر، وكلّ منها، لو دقّق الإنسان فيها النظر قليلا، لوجد فيها قدرة الله واضحة :

- ﴿وما أنزلنا عليك الكتابَ إلا لتبيّن لهم الذى اختلفوا فيه، هُدًى ورحمةً لقوم يؤمنون* والله أنزَلَ مِن السماء ماء، فأحيى به الأرضَ بعدَ موتِها إنَّ فى ذلك لآيةً لقوم يسمعون* وإنَّ لكم فى الأنعامِ لَعِبرَة، نُسقِيكُم مِمّا فى بطونه مِن بينِ فَرْثٍ ودمٍ لبنا خالصا سائغا للشاربين* ومِن ثمرات النخيل والأعناب تتّخذون منه سَكَراً ورزقاً حَسَنا، إنَّ فى ذلك لآية لقوم يعقِلون* وأَوْحَى ربّك إلى النحل أن اتّخِذِى مِن الجبالِ بُيوتاً، ومِنَ الشجر ومِمّا يعرِشون* ثم كُلِى مِن كُلّ الثمرات فاسلُكِى سُبُل ربّك ذُلُلا، يَخْرُجُ مِن بُطونها شرابٌ مختلِفٌ ألوانُه، فيهِ شفاءٌ للناس، إنَّ فى ذلك لآيةً لِقومٍ يتفكّرون* واللّهُ خلقَكُم ثُمَّ يتوفّاكم، ومنكم مَنْ يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُر، لِكَىْ لايعلَمَ بعدَ عِلم شيئا، إن الله عليم قدير* واللّهُ فَضَّلَ بعضكم على بعض فى الرزق .... ويعبُدُون مِن دون الله ما لا يَملِكُ لهم رِزقاً فى السمَواتِ والأرض شيئا، ولايستطيعون* فلا تَضرِبُوا لِلّهِ الأمثال، إن اللّه يعلَم وأنتم لاتعلَمون﴾[1].

- ﴿خلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحقّ، تعالَى عمّا يُشركون* خلَقَ الإنسانَ مِن نُطفَة، فإذا هو خَصِيمٌ مُبِينٌ* والأنعامَ خلَقَها، لكم فيها

(١) قرآن كريم : سورة النحل ـ ١٦ : ٦٤ - ٧٤.

دِفْءٌ ومنافع، ومنها تأكُلون * ولكم فيها جَمالٌ حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس، إنَّ ربّكم لرءوفٌ رحيم. والخيلَ والبغالَ والحميرَ .... هو الذى أنزل من السماء ماءً، لكم منه شرابٌ، ومنه شجرٌ فيه تُسِيمون * يُنبِتُ لكم به الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومِن كُلّ الثمرات، إنَّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يتفكّرون * وسخّر لكم الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمر..... وهو الذى سخّر البحرَ لتأكُلوا منه لحماً طريّاً، وتستخرجوا منه حِليةً تلبَسونها .... وألقى فى الأرض رَوَاسِيَ أن تميدَ بكم، وأنهاراً وسُبلاً، لعلكم تهتَدُون * وعَلاماتٍ، وبالنجم هم يهتَدُون * أفمَنْ يخلُق كمَنْ لا يخلُق؟ أفلا تذكرون؟﴾[1].

ووجودُ (الخالِق) العظيم على هذا النحو، يستدعِى أن تكون كلّ (المخلوقات) خاضعةً له خضوعا تامًّا، لأن مقاليد أمورها بيديه وحدَه، ومِن ثَمّ كانت (شهادة أن لا إلهَ إلاَّ اللّه) أُولَى الخُطُوات على طريق الإسلام، وكان المطلَبُ الحقيقىّ للإنسان ـ فى الإسلام ـ «هو أن يخلُق فى نفسه حالة العبودية الكاملة لِلّه»، و«العبوديةُ هى أن يُسْلِم المرءُ نفسَه لِلّه، ويتوجّه بكل مشاعره نحوَه سبحانه»[2]، إيمانا منه بأن «الذاتَ الإلهيّة هى الحقيقة المُطلَقة الوحيدة»[3].

ومِن ثَمّ، «تتلخص عقيدة الإسلام فى مُطلَق وحدانية الله، خالِق الكون ومالِكه. ويسجل الإسلام بذلك المرحلةَ النهائية فى تطوّر الفكرة الدينية، التى تؤيّد سنة الكتاب المقدّس لدَى اليهود والنصارَى، وتوضّحها وتعمّقها. ومِن هذا المبدأ الأساسىّ، تنتجُ وحدة الخَلْق، ومصير العالَم، أى الوحدة الحيّة بين المادّة والروح، وبين المكان والزمان، فى تطوّر الكون، الذى يتّحد بالله على نحو ما، لأن وجودَ هذا الكون المادّىّ نفسه، هو الذى يعبّر عن وجود الله، ويكشِف عنه»[4].

(١) قرآن كريم : سورة النحل ـ ١٦ : ٢ ـ ١٧.

(٢) وحيد الدين خان : حِكمة الدين، تفسير عَناصر الإسلام ومُكتشفاته ـ ترجمة ظُفر الإسلام خَان ـ الطبعة الأولَى ـ المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ ١٩٧٣، ص ٣٣

(٣) مهندس وائل عثمان : حِزب الله، فى مُواجَهة حِزب الشيطان ـ تقديم فضيلة الشيخ محمد متولّى الشعراوى ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٧٥ ص١٩

(٤) الدكتور أحمد عروة : الإسلام فى مفترَق الطرُق ـ نقله عن الفرنسية : الدكتور عثمان أمين ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ١٩٧٥، ص ٥٢

ومِن ثَمَّ - أيضاً - كان إعلانُ الإسلامِ الحربَ على الوثنيّة، بمقدار اهتمامه بشهادة ألّا إلهَ إلّا الله، لأن الإيمان بأنه لا إله إلّا الله، يجعل الإنسان يرَى الأمور كما يَجِبُ أن تُرَى، فيتصرّف فى حياته التصرُّف الجدير به وبعقله، وبما لَهُ بينَ خلق الله مِن منزِلة كريمة، بينما «الوثنيّة هَوانٌ يأتِى مِن داخل النفس، لا من خارج الحياة، فكما يفرِضُ المحزونُ كآبتَه على ما حوله، وكما يتخيّل المرعوبَ الأجسامَ القائمة أشباحاً جاثمة، كذلك يفرِض المرءُ الممسوخُ صَغَارَ نفسِه، وغباءَ عقلِه، على البيئة التى يحيَا فيها، فيؤلّهُ مِن جَمادها وحيوانها ما يشاء»(١).

وعندما يؤلّه الإنسان إنساناً مِثْلَه، أو حيواناً دُونَه، أو جماداً دُونَه ودُونَ الحيوان، فإن ذلك يعنِي فسادَ عقله وذوقه، مِمّا لابُدَّ أن ينعكس تماما على حياته، وعلى تصرُّفاته فى هذه الحياة، فتكون حياتُه دون حياة الإنسان، وتكون تصرفاتُه دُونَ تصرُّفاته.

مكان الإنسان فى العقيدة الإسلامية:

وليس مِن المبالَغة فى شىء - أيضاً - أن نقول: إن الإنسانَ يحتلُّ - فى العقيدة الإسلامية - مَنزِلة لاتعلُو عليها سِوَى منزِلة الله سبحانه.

وقِصّة خلق الإنسان ذاتُها تدلُّ على هذه المنزِلة، ولنَدَعِ القرآنَ الكريم ذاته يقصُّ علينا قِصّة خلق الإنسان هذه، لنتبيَّن منها مكانَ الإنسان ومكانتَه فى العقيدة الإسلامية:

- ﴿وإذْ قالَ ربُّكَ للملائكةِ: إنّى جاعِلٌ فى الأرضِ خليفة. قالوا: أتجعَلُ فيها مَنْ يُفسِد فيها ويسفِكُ الدماء، ونحن نسبّح بحمدِك ونقدّس لك؟ قال: إنّى أعلَم مالا تعلَمون﴾(٢).

وكانت هذه المنزِلة الكريمة التى احتلّها الإنسان فى هذا الكون، بعدَ منزِلة الله سبحانه، ودونَها كلّ منزِلة لغير الإنسان مِن المخلوقات، حتى الملائكة المقرّبين

---

(١) محمد الغزالى: فِقه السيرة - مطابع على بن على - الدوحة - قَطَر، ص ١٧.
(٢) قرآن كريم: البقرة - ٢: ٣٠.

انفسهم، مِمَّا (الحقد) واحدا منهم على آدم، حقدا دفعه إلى الفُسُوق عن أمر ربّه، فرفَض أن يسجُد لآدَم كما أمر الله، فطُرِدَ مِن رحمته جزاءً لهذا الفُسُوق :

- ﴿وإذْ قُلنَا للمَلائكة : اسجُدُوا لآدَم، فسَجَدُوا إلاّ إبليسَ، أبَى واستكبَر، وكان مِن الكافرين﴾[1].

- ﴿وإذ قال رَبُّكَ للمَلائكة : إنّى خالق بَشَرا مِن صَلْصَالٍ مِن حَمَإٍ مسنون. فإذا سَوَّيتُه ونفختُ فيه مِن رُوحِى فقَعُوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلُّهم أجمعُون. إلا إبليسَ أبَى أن يكون مع الساجدين. قال : يا إبليسُ، مالَكَ ألاَّ تكونَ مِن الساجدين؟ قال : لم أكُنْ لأسجُدَ لِبَشَرٍ خلقتَهُ مِن صَلْصَال مِن حَمَإٍ مسنون. قال : فاخرُج منها فإنّكَ رجيم، وإنَّ عليك اللعنةَ إلى يومِ الدّين﴾[2].

وقد رأينا عند حديثنا عن (الطبيعة الإنسانية)، فى مطلَع الفصلِ الثانى[3]، أن الإنسانَ ـ بطبيعته ـ قادرٌ على أن يقومَ بمهامّ ذلك الاستخلاف، وأن فِطرته التى فطَرَه اللهُ عليها، تمكّنه مِن أن يقومَ بها على خير وجه، فقد «خَلَقَ اللهُ الإنسانَ جسما كثيفا، وروحا شفّافا، جِسما يشدُّه إلى الأرض، ورُوحا يتطلّع إلى السماء، جسما له دوافِعُه وشهَواته، وروحا له آفاقُه وتطلّعاته، جسما له مطالب أشبَهُ بمطالب الحيَوان، وروحا له أشواق كأشواق الملائكة».

«وهذه الطبيعة المزدوجة ليست أمرا طارئا على الإنسان، ولاثانَوِيًّا فيه، بل هى فِطرته التى فَطَرَهُ عليها، وأهّلَهُ بها للخلافة فى الأرض، منذُ خلق آدم خلقا جمع بين قبضةِ الطين ونفخةِ الروح»[4].

فهو أقدَرُ مِن الحيوان على القيام بمهامّ ذلك الاستخلاف.

وهو أقدَرُ كذلك مِن الملائكة على القيام بتلك المهامّ.

وهو أقدَرُ منهما على القيام بهذه المهامّ، لأنه جمع ـ بين جنبيه ـ ما تفرّقَ

(١) قرآن كريم : البقرة ـ ٢ : ٣٤.
(٢) قرآن كريم : الحِجْر ـ ١٥ : ٢٨ ـ ٣٥.
(٣) ارجع إلى ص ٤٢ ـ ٤٦ مِن الطبعة الأولَى مِن الكتاب الأصلىّ (العقيدة الإسلامية والأيديولوجياتُ المعاصرة).
(٤) الدكتور يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة وهبه ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ ، ص ٧٦ ، ٧٧.

فيهما، وزاد عليهما مُعجزة الله الكبرَى فى الإنسان، وهى العقل، فزاد به عنهما مجتمعين.

وجملة «هذه القُوَى، مِن النفس والعقل والروح، هى (الذات الإنسانية)، تدلّ كلّ قوّة منها على (الذات الإنسانية) فى حالة مِن حالاتها، ولاتتعدّد (الذاتُ) الإنسانية بأية صورة مِن صُوَر التعدّد، لأنها ذات نفس، أو ذات روح، أو ذات عقل، فإنما هى إنسان واحد، فى جميع هذه الحالات»[1].

و(الذات الإنسانية) ليست مُحَصّلة جَمْع هذه القُوَى المتعدّدة، مِن نفس وعقل وروح، بطريقة حسابية، وإنما هى محصّلتها بطريقة جَدَلِيّة.

وبعبارة أُخرَى : إن الناس يتفاوَتون فيما بينَهم، بطريقة تتفاوَتُ بها ذواتُهم، فيما مُنِحَت مِن قُدرات وإمكانيات ومَوَاهب، فقد يكون سلطان الروح على النفس أقوَى، وقد يكون سلطان الجسد، بما فيه مِن غرائزَ وشهَوَات، هو السلطان الطاغِى.

ذلك أن «الإنسان رغمَ كونِه أعلَى الأجناس، ففيه حَيَوانية، وفيه نَباتية، وفيه جمادية»، وما «ما فى الإنسان مِن جمادية ونباتية وحيوانية مسيَّر كهذه الأجناس تماما، ولااختيار له فى شىء».

و«الخاصّيّة التى تجعَله إنسانا»، «هى العقل والفِكر»، «فتلك المنطِقَةُ التى يُوجَد فيها الاختيار، وهى منطِقَةُ التكليف مِن الله، ولذلك فإن فَاقِدَ هذه لايُكَلَّفُ مِن الله»[2]، كما يحدُث بالنسبة للطفل، وللمجنون مثلا.

ولذلك، فإنه بينما نجد أنه قَلَّما (يختلف) نباتان مِن نفس النوع، زُرِعا فى حقل واحد، وقَلَّما (يختلف) حيوانان مِن نفس النوع، يعيشان فى بيئة واحدة، نجد أنه قَلَّما (يتّفق) إنسانان، حتى ولو نَشَآ فى نفس البيئة، ورُبِّيَا بنفس التربية.

ومِن ثَمَّ، فقد تكون محصّلة هذه القُوَى أن تكون (الذات الإنسانية) قادرة على القيام بمَهامّ ذلك الاستخلاف وتبِعَاته، إذا اتّبع الإنسانُ طريقَ الفِطرة

(١) عبّاس محمود العقّاد : الإنسان، فى القرآن الكريم - دار الإسلام - القاهرة - ١٩٧٣، ص ٣٧.
(٢) فضيلة الشيخ محمد متولّى الشعراوىّ : القضاء والقدَر، مُعجِزات الرسول، إعجاز القرآن، مكانة المرأة فى الإسلام - إعداد وتقديم أحمد فرّاج - الطبعة الثانية - دار الشروق - القاهرة - سبتمبر ١٩٧٥، ص ٤٠ - ٤٢.

التى فطَرَ اللهُ عليها، وقد تكون محصّلتها أن تكون تلك (الذات) غيرَ قادرة على القيام بها، بل قد تكون محصّلتها أن تكون تلك (الذاتُ)، بحيث تقِفُ فى طريق الفِطرة، فتَصُدَّ عن طريق الله.

مواصفات الإنسان المسلم :

ومِن ثَمّ كان الإنسانُ المسلم، أو الإنسان كما ينشُدُه الإسلام، إنسانا عاديًّا تماما، بسيطا كل البَساطة، فهو (إنسانٌ) وكَفَى.

(فالإنسانية) فى حَدّ ذاتها مجموعةُ صفات، وهى ليست مجرّد كيان بيُولُوجِىّ مَحْض، كما هو الحال بالنسبة (للحيوانية).

وهذه الصفات التى تتّسم بها الإنسانية فيها نِقاطُ القوّة، وفيها نِقاطُ الضعف، ومِن مجموع نقاط القوّة والضعف تتكوّنُ (الإنسانية).

والإنسان الجدير بذلك التكريم الذى كرّمه به ربّه، هو ذلك الإنسانُ الذى يعرِف نقاطَ قوّته ونقاطَ ضعفِه، ثم يعمَل على التخلُّص مِن نقاط الضعف تلك، بتوجّهه دوما نحو ذلك الهدَف الأسمَى، الذى يجب أن يسعَى إليه، وهو الله سبحانه، فهو المثَلُ الأعلَى للإنسان المسلم.

والإنسان مخلوق، وإن كانت كل المخلوقات دُونَه، والفطرة ـ هنا ـ تقضِى أن يخضَع خضوعا تامًّا لِلّه وحدَه، يسبّح له، ويقرّ مِن أعماق قلبه بعبوديّته له، ويتشرّف بهذه العبودية.

وعبودية الإنسان لِلّه، تفرِض عليه أن يأتمِرَ بما يأمُرُه به، وينتَهِىَ عمّا ينهاه عنه.

والإنسانُ فِى ائتماره بما يأمُرُه به ربّه، وانتهائه عمّا ينهاه عنه، إنما يسير فى طريق هذا المثَل الأعلَى، وبالتالِى يقترب مِن الكمال، ويكون ـ بقدر اقترابه منه ـ بحقّ ـ خليفةً لِلّه فى الأرض، كما أراد الله به أن يكون :

ـ ﴿وما اختلفتُم فيه مِن شىء فحُكْمُه إلى الله، ذلكم اللّهُ ربِّى،

عليه توكّلتُ وإليه أُنيب، فاطرُ السّمَوات والأرض، جَعَلَ لكم مِن أنفُسِكم أزواجا، ومِن الأنعامِ أزواجا، يذرَؤُكم فيه، ليس كمِثْلِه شيء، وهو السميع البصير﴾(١).

- ﴿لِلّذينَ لايُؤمِنون بالآخِرةِ مثلُ السَّوْءِ، ولِلّهِ المثَلُ الأعلَى، وهو العزيز الحكيم﴾(٢).

وعبودية الإنسان لِلّه - فى الوقت ذاته - تُعتَبَر قِمّة تحرُّره، وبدون هذه العبودية، لايمكن أن يحسّ الإنسان بتحرّر.

إن هذه العبودية تحرّره مِن نفسه ومِن هَواه، ومِن وساوِس شيطانه، وطالما تحرّر الإنسانُ مِن نفسه وهواه، فقد صار حُرًّا حقيقة، أما إذا لم يتحرّرْ مِن نفسه ومِن هواه، فهو عبد، تقيِّده الأغلال .... وإن بدا للعينِ حُرًّا طليقا.

ومِن ثَمَّ فالإنسانُ المسلم رافعٌ رأسَه دائما، حتى فى أحلَكِ الظروف، وغيرُ المسلم، الذى يُنكِر عبوديّته لِلّه، دائما يحنى رأسه ... لينال ما يريد، حتى ولو كان هذا الذى يُريده ليس مطلَبا أساسيّا مِن مطالب حياته.

وكَمْ مِن أحرار - على هذا الأساس - يعيشون بينَ قُضبان السجون.

وكَمْ مِن سُجَناء - بهذا المنطِق أيضا - ينطلِقُون بين الناس دون عوائق، بل وقد يتربّعون على قِمّة السلطة، ويوجّهون الأحداث، ويسجِنون مَنْ يشاءون، ويصادرون أموالَ مَنْ يشاءون.

أولئك أحرار، رغم السجن والقيد وذُلّ الإسار، لأن السجن لم يقتُلْ مِن نفوسهم، ولم يَحْنِ هامَاتِهم، ولم يجعلهم يُحِسّون بأنهم دُونَ سجّانيهم قدرا، بقدر ما يجعلهم يُحِسُّون (بالرثاء) لهؤلاء السجّانين.

وهؤلاء سُجَناء، رغم السلطة والقوّة وإمكانية التحرُّك والتحريك، لأنهم خائفون دائما، مِن كلّ شيء، ومِن لاشيء، فهم يُحِسّون بأن أشباحا تطاردهم، تريد أن تسلُبهم ما نهبوه وينهَبُونه مِن مال، وأن تستلّ مِن تحتهم ما يجلِسون عليه

(١) قرآن كريم : الشورى - ٤٢ : ١٠ ، ١١.
(٢) قرآن كريم : النحل - ١٦ : ٦٠.

مِن كَرَاسِىّ، يُريدون الّا يفارقوها ـ وان تقبض على ما يقبضون عليه مِن سُلْطة ... ويغير المال والسلطة والكَراسِىّ ... لايُحِسّ هؤلاء بأنّ لهم قِيمَة.

إن هذه العبودية لِلّه تحرّر الإنسانَ المسلم مِن الدنيا كلّها، وتزرَعُ فى نفسه حقيقة أن هناك «حياة دُنيا، هى التى يحياها بَنُو آدَمَ على الأرض، وخيرَ ما تُوصَف به هذه الحياة هو انها حياة دُنيَا، اى سُفْلَى، واحقَرُ واقلُّ شأنا، وهناك حياة آخرة، هى الحياة الحقيقية الدائمة، التى لاتنتهى بموت، كما هو الشأن فى الحياة الدنيا، ومِن أجل هذه الحياة الآخِرة فلْيَعْمَل العاملون فى حياتهم الدنيا»[1].

وليس معنَى أن الإسلام يزرَعُ فى نفس المسلم مبدَا وَضْعِ الدنيا فى منزِلتها الدنيا تلك، هو أن يترُك المسلمون الدنيا لطُلَّابِ الدنيا، ليتفرَّغوا هم للآخِرة.

ذلك أن طريق الدنيا هو نفسُه طريق الآخِرة، فالإنسان المسلم يَشُقّ طريقَه إلى الآخِرة، مِن خلال حياته الدنيا، لامِن خلال غيرها.

ومِن ثَمَّ فالإسلام يزرَع فى نفس المسلم الاهتمامَ بحياته الدنيا اساسا، إلّا أنَّ متاع تلك الحياة، مِن مالٍ وولَدٍ ومَنْصِب وجَاه .... يجب الا يكون (هدَفَ) اهدافه، فيصرِفه عن هدَفه الحقيقىّ فى الحياة، وإنما يجب أن يكون مجرّد (وسيلة)، لتحقيق رسالة الإنسان فى الحياة، ولتمكينه مِن القيام بمهامّ (الاستخلاف)، الذى كرَّمه به ربُّه.

«فالإنسان فى دنياه يشقَى ويتعَب، ويعمَل ويكدّ، ويأكُل ويتمتّع، وينعَم بالمال والولَد، إن رُزِقَ المالَ والولد، ويلاقى المصائب والأهوال، ويذوق الجوع والفقر والحرمان، ولكنه فى كلِّ الحالات راضٍ سعيد، لا المالُ يُطغِيه، ولا الولَد يُعْمِيه، ولا السلطان والقوة تلهيه، ولا الفقر والحرمان والجوع يُشقِيه»، «لأن تلك كلّها اعراض زائلة، يبتلِى بها اللهُ عبادَه المؤمنين : ايشكرون على النعَم، ويصبرون على البأساء، أم يُعمِيهم العرَضُ الزائل عن الحياة الحقيقية؟»[2].

فالإنسان المسلم ـ بإحساسه بعبوديّته لِلّه ـ لاتُطغِيه الدنيا إذا اقبلَت عليه، ولاتُشقِيه إذا هى وَلّتْ عنه، وإنما هو سعيد دوما باقترابه مِن الله، وهو يزداد سعادة كلما ازداد مِن الله اقترابا.

والإنسان المسلم، بإحساسِه العميق بعبوديّته لِلّه، مطمئنّ إلى انه مرزوق

---

(١) الدكتور عبد الغنى عبُّود «الإسلام، والصحّة النفسِيّة» ـ منبر الإسلام ـ يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ـ العدد ٢ ـ السنة ٣٣ ـ صفر ١٣٩٥ ـ فبراير ١٩٧٥ (عدد ممتاز)، ص ١٥٩

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٩.

فى يومه وغَدِه، وإلى أنّ اللّه ربّه هو الذى يرزُقه، كما يرزُق الطير، على حدّ تعبير الرسول الكريم (ﷺ)، أو على حدّ قولِه سبحانَه :

- ﴿اللّهُ يبسُط الرزقَ لمنِ يشاءُ ويقدِر، وفرِحُوا بالحياةِ الدنيا، وما الحياةُ الدنيا فى الآخرة إلّا متاع﴾[1].

- ﴿ولا تقتُلوا أولادَكم خشيةَ إملاقٍ، نحنُ نرزُقُهم وإيّاكم، إنَّ قتلَهم كان خِطئا كبيرا﴾[2].

- ﴿.. ولاتقتُلوا أولادَكم مِن إملاقٍ، نحن نرزُقُكم وإيّاهم ..﴾[3].

والإنسـان المسلم، رغمَ اطمـئنانِه إلى رِزق الله له ولأولاده، إنما يعـمَل، لأن العمَل فى حدّ ذاتِه عبادة، يحرِص المسلم عليها، حِرْصَهُ على الصلاة والصوم وأداء الزكاة ... ومِن ثَمَّ فهو يعمَل، غيرَ رابط عمَله برزقِه ... فإن كان هذا الرزق كثيرا شكر الله عليه أيضاً، ولم يحقِد على من وَسَّع الله عليهم فى الرزق.

وإحساسُ الإنسان المسلم بعبوديّته لِلّه، يفرِض عليه أن يضع يدَه فى أيدِى غيرِه مِن عباد الله، الذى يسعون لإقرار الحقّ والخير، ودَعْم (إنسانية) الإنسان، ومِن ثَمَّ فهو يأمُر بالمعروف، وينهَى عن المُنكَر، ويتّخذ له فى الحياة موقِفا إيجابيا، يكون به مِن صانِعِى الأحداث، لا مِن مَوادّ هذه الأحداث، وبذلك يحسّ بأنه - بحقّ - خليفة لِلّه فى الأرض.

وإحساسُ الإنسان المسلم بعبوديّته لِلّه، يجعَله يحسّ أيضاً بأنه جزءٌ مِن هذا الكون، لاينفَصِل عنه، وبأنه لابُدَّ أن يدرُسه ويتفهّمه ويعرِف أسرارَه.

فهى دعوة إلى البحث العِلمىّ، بكل ما يحمِله مِن معَان.

ولم يكن غريبا - لذلك - أن يكون الأمرُ بالقراءة هو مُستَهَلّ الدعوة الإسلامية. والقراءة - كما يقولون - هى مِفتاح باب المعرفة، والمعرفة هى المادّة الخام للبحث العِلمىّ، والبحثُ العِلمىُّ هو طريق التنمية والتقدّم، فإنّ «هناك ترابُطا واضحا بين كون الشعبِ متقدّما، وكونه قارئا»، فإنّ «القراءة تنمّى الفرد، والفرد ينمّى المجتمع، ولن تكون تنمية بغير قراءة»[4].

---

(١) قرآن كريم : الرعْد - ١٣ : ٢٦.
(٢) قرآن كريم : الإسراء - ١٧ : ٣١
(٣) قرآن كريم : الأنعام - ٦ : ١٥١.
(٤) الدكتور السيد أبو النجا : «القراءة مبدأ حسابى». لماذا نقرأ؟ - لطائفة مِن المفكّرين - دار المعارف بمصر - القاهرة، ص ٦٦

ولم يكن غريبا - لذلك - أن «القرآن لا يفتح المجال للبحث فحسب، بل يشبع كذلك الغريزة العقلية فى الإنسان، ويستميلها، بل يدفعها ويلزمها أن تقوم بوظيفتها، بما يضربه لها من أمثال، وما يذكره من آيات»[1].

وليس غريبا أن يلفت نظر قارئ القرآن الكريم، وفرة الآيات التى تلفت نظر الإنسان إلى التفكر والتأمل، وإعمال العقل والفكر، فى النفس، وفى السموات والأرض، وفى خلق الله الكثير من حولنا، وفى ذلك الانتظام الدقيق الذى تسير عليه الحياة.

الإنسان المسلم ومجتمعه :

الإنسان - فى الإسلام - كما سبق - مخلوق ذو رسالة، وهذه الرسالة هى المبرر الأساسى لاستخلافه، فإن قام بهذه الرسالة، كان عند حسن ظن ربه به، واستحق الجنة فى أخراه - نفس الجنة التى أسكنه الله فيها يوم خلقه، لولا أن استدرجه الشيطان حتى اقترب من الشجرة التى نهاه الله عن الاقتراب منها :

- ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا : اهبطوا، بعضكم لبعض عدو، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[2]

وإن لم يقم الإنسان بهذه الرسالة، كان مقصرا فى حق نفسه .. لأنه سيخلد فى النار - نفس النار التى كتبها الله يوم القيامة على الشيطان وأتباعه.

- ﴿وبرزوا لله جميعا، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، ما لنا من محيص * وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق،

(١) الدكتور محمود حب الله : موقف الإسلام من المعرفة والتقدم الفكرى - الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة - مجموعة البحوث التى قدمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية - جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ص ٣١

(٢) قرآن كريم : البقرة - ٢ : ٣٥ - ٣٦

ووعدْتُكم فأخلفتكم، وما كان لى عليكم مِن سُلطان إلاّ أنْ دعوتُكم فاستجبتم لى، فلا تلومونى ولوموا أنفسَكم، ما أنا بمُصْرِخِكم وما أنتم بمُصْرِخِىَّ، إنّى كفرتُ بما أشركتمُونِ مِن قبْل، إنَّ الظالمين لهم عَذاب أليم﴾[1].

وتتلخَّص رسالة الإنسان المسلم فى نَشْر الحَقّ والعدل والخير.

ولايتسنَّى للإنسان المسلم أن ينشُر الحقّ والعدل والخير، ما لم يكن هو نفسُه صورة لما يدعو إليه :

ـ ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا لِمَ تقُولون مالا تفعَلون* كبُرَ مقْتًا عِندَ الله أن تقُولوا مالا تفعَلون﴾[2].

ومِن ثَمَّ كانت رسالةُ الإنسان المسلم تبدَأ بنفسه، يُقَوِّم مُعْوَجَّها، ويحارب شيطانها، ويوجّهها الوِجهَة التى تجعله جديرا بذلك الاستخلاف الذى كرَّمَه بِه ربُّه:

ـ ﴿وإذا قِيلَ لهم : تعالَوْا إلى ما أنزلَ اللَّهُ وإلى الرسول، قالوا : حَسْبُنَا ما وجَدْنا عليهِ آباءَنا، أوَ لو كان آباؤُهم لايعلَمون شيئا ولايهتَدُون* يأيها الذين آمنُوا عليكم أنفُسَكم، لايضُرُّكم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتُم، إلى اللَّهِ مرجِعُكم جميعا، فيُنَبِّئكم بما كنتم تعمَلون﴾[3].

وإذا استطاع الإنسان أنْ يملك زِمَام نفسه، فقد ملك الدنيا كُلَّها، وصارت مِلكَ يمينِه، وصارت كلّها لاتساوِى عنده شيئا، أما إذا فَشِل فى أن يملِك زمامَ نفسه، فقد خَسِرَ الدنيا والآخِرة جميعا .. وإن بدا لبعض قِصار النظَر يملِك الكثير.

وعلى الإنسان المسلم ـ بعدَ نفسِه ـ أن يتَّجه إلى غيره، الأقربِ فالأقرب، فهو مسئولٌ عن إصلاح غيره، مسئوليَّتَهُ عن إصلاح نفسِه، فتلك مسئوليّته كإنسان، وكخليفة لِلّه فى الأرض.

---

(١) قرآن كريم : إبراهيم ـ ١٤ : ٢١ ، ٢٢.

(٢) قرآن كريم : الصفّ ـ ٦١ : ٢ ، ٣.

(٣) قرآن كريم : المائدة ـ ٥ : ١٠٤ ، ١٠٥.

ولاتعنى مسئولية الإنسان المسلم عن إصلاح غيره، أحقيته فى أن يمسك بالسيف، وينطلق فى الأرض، يقطع رقاب العصاة والمنحرفين فليست القوة والعنف فى الإسلام سبيل الهداية، وإنما سبيلها هو الكلمة الطيّبة والقدوة الحسنة :

- ﴿قُلْ يأيُّها الكافرون* لا أعبُدُ ما تعبُدون* ولا أنتم عابدون ما أعبُد* ولا أنا عابِدٌ ما عبدتُم* ولا أنتم عابدون ما أعبُد* لكم دينُكم ولِيَ دين﴾[1].

فالعُنفُ فى الدعوة إلى الله لايؤلّف القلوب حولها، بقدرِ ما ينفّر القلوب منها، وهذا العنفُ إن جمع حول الدعوة، فإنه لايجمع حولها المؤمنين الصادقين، بقدر ما يجمَع حولها الخائفين المرتاعين ... الانتهازيّين.

وإذا خُوطِب الإنسان مدعُوًّا إلى الله، فإنما يُخاطَب فيه أغلى ما فيه، وهو قلبُه وعقلُه، فهما ـ كما سبق فى الفصل الأوّل ـ مَوْطِنُ الفِطرة التى فطرَ اللهُ الناسَ عليها[2]، ولايخاطب فيه بطنَه أو جسَدَه.

ومِن ثَمَّ لايحفظ لنا التاريخ عن نبىّ مِن أنبياء الله عليهم السلام شيئا مِن عُنف لجَئُوا إليه ضِدَّ من يريدون هدايتهم، وإنما حَفِظ لنا ـ على العكسِ مِن ذلك ـ عُنفا وغِلظة مِمَّن عصوهم، كان الأنبياء يقِفُون منهما موقفا سلبيّا فى معظم الأحيان، ويتّخذون مواقفَ دفاعية فى أحيان قليلة.

وكانت (الكلِمة الطيّبة) التى ينطِق بها هؤلاء الأنبياء وحوارِيّوهم، هى (العُنف) كله فى نَظَر أعداء الله، لأنها كانت بداية طريق المجتمع كلِّه إلى الله، ولو تحوّل المجتمع إلى طريق الله، فلن يكون فيه مكان لظالم أو مستبِدّ، لأن الظلم والاستبداد لايتّفقان مع (الإنسانية) التى وهبها الله للإنسان، والتى سعى الأنبياء جميعا إلى إعادتها إليه، بعد أن سلبه إيّاها الظالمون والمستبدّون

وكانت هذه (الكلمة الطيّبة) ذاتها، هى التى ألّبت كفّار مكّة على الإسلام والمسلمين، فشرعوا يكيدون له ولهم بكل سبيل، حتى (يحاصِروا) هذا (الخطر) الذى يتهدّدهم من كُلّ جانب

---

(١) قرآن كريم : الكافرون ـ ١٠٩ : ١ ـ ٦

(٢) ارجع إلى ص ٤٥ ـ ٤٧ من الطبعة الأولى من الكتاب الأصلىّ العقيدة الإسلامية والأيديولوجيا المعاصرة

ولم يحفظ تاريخُ الإسلام كله انه دخلَ الحربَ إلا مضطرًا إليها، إمّا مُدافِعا عن نفسه فى حرب أُعلِنت عليه، أو قاطعا السبيل على عُدوان يُدَبّر ضِدَّه.

والتاريخ الإسلامىّ فى تطوّره هذا متّفق مع منطِق الإسلام، كما نراه من خلال كتابه المُحْكَم :

ـ ﴿وأعِدُّوا لهم ما استطعتُم مِن قُوّة ومِن رِباط الخيل، تُرهِبُون به عَدُوّ اللّهِ وعَدُوّكم، وآخَرِين مِن دُونِهم، لاتعلَمونهم، اللّهُ يعلَمُهم، وما تُنفِقُوا مِن شىء فى سبيلِ اللّهِ يُوَفَّ إليكم وانتم لا تُظلَمون* وإنْ جنَحُوا لِلسَّلْم فاجْنَحْ لها وتَوَكَّلْ على الله، إنه هو السميع العَلِيم﴾[1].

فالاستعدادُ للحرب، فى الإسلام، ضرورىّ ... ولكِن ضَرُورَته تنبُع مِن انّ الكُفّار، الذين تعلّقوا بالدنيا ويتعلّقون بها، لايفهَمون غيرَ لُغَة القُوّة، ويوم لايفهَم المسلمون هذه اللغة التى لايفهَم الكُفّار غيرَها، فإنهم يكونون عُرْضَة للإغارة عليهم، وتزوُّدُ المسلمين بوسائل القُوّة فى حَدِّ ذاته رَدْعُ للكفّار، حتى لايعتَدُوا، او يفكّروا فى العُدوان.

ومِن اسباب القوّة فى المجتمع الإسلامىّ ـ كذلك ـ امتلاك ناصية العلم والحضارة، والقُدرة على استغلال قُوَى الطبيعة، لغير المسلمين، ومِن هنا كان الأمرُ بالقراءة ـ كما سبق ـ هو المفتاح إلى فهم (الشخصيّة الإسلامية) الحقّة، وكان هو المفتاح الذى فَتَحَ به المسلمون باب حضارة رائعة فى العصور الوُسطَى، قامت على اكتافها الحضارة الحديثة ـ حضارة القرن العشرين[2].

وإذا كان العدلُ والحقّ والخير .... وكرامة الإنسان، هى الدعائم التى يقوم عليها المجتمع المسلم، فإن مجرَّد وجود هذا المجتمع يُعَدُّ (تهديدا) للنظُم الفاسدة المعاصِرة له، لأن النظُم الصالحة تنتَشِر، وتنتقل بسرعة إلى ما حولها، لأنها مطلَب إنسانىّ عزيز.

---

(١) قرآن كريم : الأنفال ـ ٨ : ٦٠ ، ٦١.

(٢) ارجع إلى ص ٣٥ ـ ٣٧ مِن الطبعة الأُولَى مِن الكتاب الأصلىّ(العقيدة الإسلامية والأيديولوجيّات المعاصرة).

ومن هنا كان عُدوان الديكتاتوريّات على الديموقراطيّات المعاصرة، ولايزال ... ولم تكن الديموقراطيّات ابدا هى البادئة بالعُدوان.

وعندما تستَنِيمَ الديموقراطيّات، فإنها تزول فى طريق الديكتاتوريّات، كما حدَث فى أثينا على يد اسبرطة قبلَ الميلاد، وعندما تستعِدّ الديموقراطيّات، لمواجهة الديكتاتوريّات، فإنها تستطيع الحياة، كما حدث فى إنجلترا، فى مواجهة استبداد وتعطُّش نابليون للفتح والتوسّع .... فى عصر النهضة الأوروبيّة الحديثة.

ومن هناكان أمر الإسلام (بالاستعداد)، مع عدم العُدوان ... ودعم السلام، إن وُجِدَت للسلام فُرصة.

الإسلام وغير المسلمين:

الإنسان هدَفُ الأهداف فى الإسلام، ومن أجله كانت تلك النظُم والقوانين التى وضعَها الإسلام .. لتضمَن له العدلَ والحقّ والخير ..... والكرامة.

والمقصود بهذا (الإنسان) فى الإسلام ... هو الإنسان، فى أىّ زمان ومكان، رجلا كان أو امرأة، أبيضَ كان أو أسوَد، عربيًّا كان أو أعجَمِيًّا ... مُسلمًا كان أو غيرَ مسلم.

فليس الإسلام دينا (مُغْلَقا) على نفسه، كما هو الحال فى اليهوديّة، كما أرادها بنو إسرائيل، وحرَّفوها لتلائم نفسيّاتهم، وإنما هو دين إنسانىّ، يشمَل الناس جميعا، وإن لم يُؤمِنوا به.

وهو دين سَمْح، يعترف بالأنبياء جميعاً، ولايُعتَبر المسلمُ مُسلِما ما لم يؤمن بهم جميعا، إيمانَه برَسُوله، وما لم يؤمِن بكلّ الكتبِ السابقة إيمانه بكتابه:

- ﴿آمَنَ الرسولُ بما أُنْزِلَ إليه مِن رَبّه والمؤمِنون، كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكَتِه وكُتُبه ورُسُله، لانفرّق بينَ أحَدٍ مِن رُسُله، وقالوا: سَمِعْنا وأطَعْنا، غُفرانَك ربَّنا وإليكَ المصير﴾[1].

(١) قرآن كريم: البقرة ـ ٢ : ٢١٥.

وتلك إيجابية مِن إيجابيات الإسلام التى لايُحصيها عَدّ، لاتتوفَّر لكثير مِن الأديان الكتابية الأُخرَى، بسبَب ما دخل عليها مِن تحريف :

ـ ﴿وقـالُوا : كُـونُوا هُـوداً أو نصَـارَى تهـتَـدُوا، قُلْ : بَلْ مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً،وما كان مِن المشركين* قولوا : آمنَّا بالله، ومـا أُنزِلَ إلينا، وما أُنزِلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحٰقَ ويعقُوبَ والأسباط، وما أُوتِىَ مُوسَى وعِيسَى، وما أُوتِىَ النبيُّون مِن ربّهم، لانفرّق بين أحدٍ منهم، ونحن له مُسلِمون* فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتَدَوا، وإن تولّوا فإنما هم فى شِقَاق، فسيكفِيكَهُم اللهُ، وهو السميعُ العليم﴾[1].

ومِن ثَمّ اتَّسم التاريخ الإسلامىّ كلّه (بالتسامُح) مع الذمّيّين والكتابيّين، بينما كان المسلمون ـ ولايزالون فى كثير مِن الأحيان ـ يلقَوْن مِن الكتابيّين مِن ألوان العَنَتِ والإرهاق ... وحُروب الإبادة، ما تقشَعِرّ منه جلودُ (الإنسان) فى كل زمان ومكان[2].

والمسلمون حين يُحسِنون معامَلة الأقلّيّة الدينية لديهم خصوصا، والإنسان عموما، إنما يفعَلون ذلك نزولا على أمر الله ورسوله صراحة، مِن أنّ (لهم ما لنا، وعليهم ما علينا). والكتابيون حين يُسيئون معاملة المسلمين على هذا النحو، إنما ينتَهِكُون حُرمة دينهم نفسه، فالإنسان لم يعزَّز ولم يكرَّم مِن حيث هو (إنسان)، فى الإسلام وحدَه، وإنما عُزِّزَ وكُرِّم فى كل دين سماوىّ، لم يدخُل عليه تحريف.

بل ولقـــــد بلغَ الاضطهادُ حَدًّا تعدَّى المسلمين إلى أبناء الدين نفسه، الذين يتَّبِعون مذهَبا مِن مذاهب الدين، لاتؤمن به الجماعة، أو لاترضَى عنه الفئة الحاكمة، كما حدثَ فى مصر القِبطية قُبيلَ الفتح الإسلامىّ، على يد البيزنطيّين، وكان هذا (الاضطهاد) مِن أسباب فَرَح المصريين بالإسلام، وإقبالهم عليه إقبالا، حتى صارت مصر القِبطية ـ بعدَ سنوات مِن الفتح ـ معقِل الإسلام، ومنارة كُبرَى مِن مناراته.

---

(١) قرآن كريم : البقرة ـ ٢ : ١٣٥ ـ ١٣٧.

(٢) أرى أنه لابدّ ـ فى هذا المجال ـ مِن الرجوع إلى هذه الدراسة المُمتِعة كلّها :
محمد الغزالى : التعصُّب والتسامُح بين المسيحية والإسلام ـ دار الكتاب العربى فى مصر (بدون تاريخ).
وقد طُبِعت الطبعةُ الأولى مِن هذا الكتاب فى منتصف هذا القرن، ثم أعِيدَ طبعُه عِدّة مرات كان آخرها حتى الآن طبعته العاشرة، فى الدوحة بقطَر، على نفقة أميرها.



مراجع المقولة الأولى

(١) الدكتور أحمد عروة : الإسلام فى مفترق الطرق - نقله عن الفرنسية : الدكتور عثمان أمين - دار الشروق - القاهرة - ١٩٧٥.

(٢) الدكتور سيّد أبو النجا : «القراءة مبدأ حسابى» - لماذا نقرأ؟ - لطائفة من المفكّرين - دار المعارف بمصر - القاهرة (بدون تاريخ).

(٣) عبّاس محمود العقّاد : الإنسان، فى القرآن الكريم - دار الإسلام - القاهرة - ١٩٧٣م.

(٤) الدكتور عبد الغنى عبود : «الإسلام والصحّة النفسية» - منبر الإسلام - يُصدرها المجلس الأعلىّ للشئون الإسلامية - القاهرة - العدد ٢ - السنة ٣٣ - صفر ١٣٩٥ - فبراير ١٩٧٥ (عددممتاز).

(٥) قرآن كريم.

(٦) محمد الغزالىّ : التعصُّب والتسامُح، بين المسيحية والإسلام - دار الكتاب العربىّ فى مصر (بدون تاريخ).

(٧) محمد الغزالىّ : فقه السيرة - مطابع على بن على - الدوحة (قطر)(بدون تاريخ).

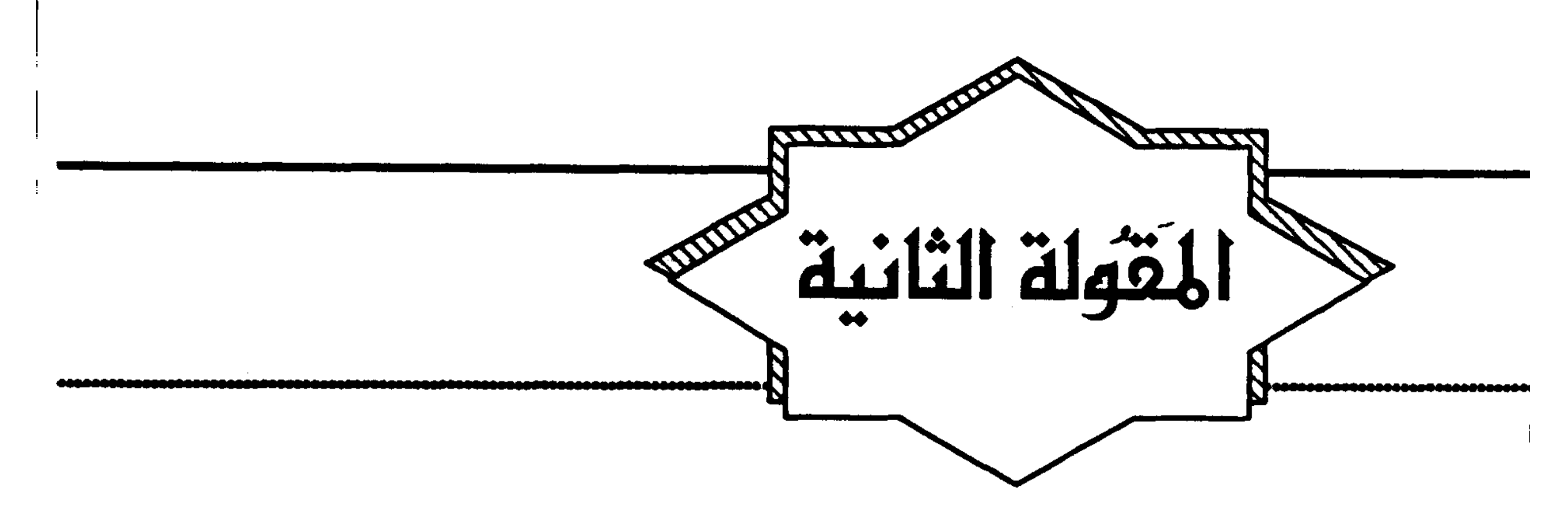
(٨) فضيلة الشيخ محمد متولّى الشعراوىّ : القضاء والقدر، مُعجزات الرسول، إعجاز القرآن، مكانة المرأة فى الإسلام - إعداد وتقديم أحمد فرّاج - الطبعة الثانية - دار الشروق - القاهرة - سبتمبر ١٩٧٥.

(٩) الدكتور محمود حُبّ الله : «موقف الإسلام من المعرفة والتقدُّم الفكرىّ» - الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة - مجموعة البحوث التى قُدِّمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية - جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة (بدون تاريخ).

(١٠) مهندس وائل عثمان : حزب الله، فى مواجهة حزب الشيطان - تقديم فضيلة الشيخ محمد متولّى الشعراوى - الطبعة الثانية - مطبعة نهضة مصر - القاهرة - ١٩٧٥.

(١١) وحيد الدين خان : حكمة الدين، تفسير عناصر الدين ومقتضياته - ترجمة ظفر الإسلام خان - الطبعة الأولَى - المختار الإسلامىّ للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٧٣.

(١٢) الدكتور يوسف القرضاوىّ : الإيمان والحياة - الطبعة الثانية - مكتبة وهبه - القاهرة - ١٩٧٣.



.... ومَدخَل أيديُولُوجِيّ



تضمّ هذه المَقُولة الثانية، مجموعة مِن المقالات التى كنتُ قد نشرتُها فى مجلّة (مَنبَر الإسلام)، التى يُصدِرها (المجلِس الأعلىَ للشئون الإسلامية) فى القاهرة،فى موضوعات مختلفة - غير عقائدية.

ومِن ثَمَّ رأيتُها مكمِّلة للمَقُولة الأُولَى، ورأيتُ ضرورة وضعها هنا - بعد المدخَل العقائدىّ للمَقُولات - كمدخَل أيديُولُوجِىّ لها.

ولم تُرَتَّب هذه المقالات هنا بترتيب نشرها، وإنما أعدتُ ترتيبَها بما يحقّق الهدَف، بحيث تبدو - فى النهاية - كما لو كانت مجموعة فصول متتالية لكتاب واحد، أو مجموعة عناوين متتالية لموضوع واحد.

وقد وضعتُ تحت كل عنوان العددَ الذى نُشِرَ فيه المقال، وتاريخ نشره، ثم نقلتُ كل مقال كما هو فى (منبر الإسلام)، مُحدِثا تغييرا واحدا فقط عمَّا نُشِر، وهو كتابة رقم كُلّ سُورة فى المُصْحَف، ثُمَّ رقَم الآية التى استشهدتُ بها، بينما كانت (منبَر الإسلام) تنشُر المقالات دون ذِكر الرقمين، أو رقم السورة، مكتَفِيَة بذِكر رقم الآية.

وذِكْرُ رقَم السورة فى نظرِى يُسَهِّل مُهِمَّة الرجوع إليها فى المصحف لمن شاء.



(١) مع الخليل إبراهيم فى يقينه(١) :

﴿وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمْنا، واتّخِذوا مِن مقام إبراهيمَ مصلّى، وعهِدْنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيْتِىَ للطائفِينَ والعاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجود﴾ (البقرة - ٢ : ١٢٥).

مع دُنُوّ العاشر مِن ذى الحِجَّة مِن كل عام، يتوجّه المسلمون - كل المسلمين - بمشاعرهم وأحاسيسهم إلى البلَد الطيّب، الذى شرّفه الله برسالة الإسلام، وبالمسجِد الحرام، الذى يتّجهون نحوَهُ خمسَ مرّات فى اليوم على الأقلّ، عندَ كل صلاة، يتمنّى كلّ منهم أن يكون هناك فى هذه الأيام مع الساعين إلى الله، مُهرْوِلِينَ إليه، تأديةً لرُكن مِن أركان الإسلام، لايتخلّف عن أدائه - مع القُدرة - إلا كافر بالله :

- ﴿قُلْ : صَدَق الله، فاتَّبِعُوا مِلّة إبراهيمَ حنيفا وما كان مِن المُشرِكين* إنَّ أوّلَ بيت وُضِعَ للناس لَلّذى ببكّة مُباركا وهُدًى للعالَمِين* فيهِ آياتٌ بيّنات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمِنا ، ولِلّه على الناسِ حِجُّ البيتِ مَن استطاع إليه سبيلا، ومَنْ كفَر فإنَّ الله غنِىٌّ عن العالَمِين﴾ (آل عمران - ٣ : ٩٥ - ٩٧).

ومدارُ آيات الحجّ فى الإسلام أمران، هما الخليلُ إبراهيم، وبيتُ الله الحَرَام الذى أرسى دعائمَه. ومِن أجلهما كانت رِحلة الحج المقدّسة، التى كانت الركنَ الخامس مِن أركان الإسلام.

وهما يستمدّان قيمتهما مِن ذلك (الخير) الذى يرمزان إليه.

والخير الذى يرمز إليه الخليل إبراهيم يتمثّل فى اتباع الفِطرة الإنسانية التى فطر اللهُ الناسَ عليها، والتى تقضِى باللجوء إلى الله الواحد القادر، مدبّر الأمر كله، والاعتراف بعبوديته، والاعتزاز بتلك العبودية لله، واستمداد القوّة كلها منها:

- ﴿ومَنْ أحسنَ دينا مِمن أسلَمَ وَجْهه لِلّه وهو مُحْسِن، واتّبَعَ مِلّة إبراهيم حنيفا، واتّخذ اللّهُ إبراهيم خليلا﴾ (النساء - ٤ : ١٢٥).

---

(١) نُشِرت فى مجلة (منبر الإسلام) . السنة ٣٢ - العدد ١٢ - ذو الحجة ١٣٩٤هـ - ديسمبر ١٩٧٤م - ص ١٤ ١٤٢

- ﴿ما كان إبراهيمُ يهُوديًا ولا نصرانيًا ، ولكن كان حنيفًا مُسلِما، وما كان مِن المُشرِكين﴾ (آل عمران ـ ٣ : ٦٧).

وتبدأ هذه (الفِطرة) مع الخليل إبراهيم مع بداية تفكيره، الذى يرَى به وبتلك الفِطرة ضَلالِ قومه ـ ومِن بينهم أبوه ـ وهم يعبُدون أصناما صنعوها بأيديهم، ومِن ثَمَّ تبرَّأ منهم ومِمَّا يعبُدون ويفكّرون :

- ﴿وإذْ قال إبراهيمُ لأبيه وقومه إنَّنى براءٌ مِمَّا تعبُدون﴾

(الزخرف ـ ٤٣ : ٢٦).

وتستمرّ تلك (الفِطرة) مع الخليل إبراهيم، فلا يكتفِى بمجرّد البراءة كموقِف سلبىّ ضِدّ الضلال وصانعيه وضحاياه، بل يسلُك مسلَكا إيجابيّا يرَى نفسه جديراً بسلوكه، تكريما للإنسان فى نفسه، وما هو جدير به من إعزاز وتكريم، وتمثَّل هذا الموقِف الإيجابىّ فى بحثه عن إله يرضاه ضميرُه، ويقبَله عقله، ويقطَع به الشكّ باليقين :

- ﴿وإذْ قال إبراهيمُ لأبيهِ آزرَ : أتتَّخِذُ أصناما آلِهة؟ إنّى أراكَ وقومَكَ فى ضَلال مُبين* وكذلك نُرِى إبراهيمَ مَلكُوتَ السمٰواتِ والأرض ، ولِيكُونَ مِن المُوقِنين* فلما جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكبا قال هذا ربِّى : فلما أفل قال : لا أحِب الآفلين* فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربِّى : فلمَّا أفَلَ قال : لئِنْ لم يهْدِنى ربِّى لأكونَنَّ مِن القوم الضالّين* فلمّا رأى الشمس بازغة قال : هذا ربِّى، هذا أكبَر، فلمَّا أفلَت قال : يا قوم إنّى برىءٌ مِمَّا تُشرِكون* إنّى وجَّهتُ وَجْهِى لِلَّذى فَطَر السمواتِ والأرضَ حنيفًا، وما أنا مِن المشرِكين﴾

(الأنعام ـ ٦ : ٧٤ ـ ٧٩).

فهى مرحَلةُ شكّ وتساؤل خاضها الخليل إبراهيم، كما خاضها ويخوضُها كل شابّ فى مقتَبل العُمر، وخرج الخليل إبراهيم فيها باليقين الذى ما بعدَهُ يَقين، فتقودُه الفِطرة والعقل إلى المرحَلة التالية مِن مراحل الدعوة إلى الحقّ الذى آمَنَ به، وثبت فى يَقِينه، مُدرِكا ما فى تلك (الدعوة) مِن تضحيات، قد ينوءُ بها غيرُ أُولِى العزْم مِن الرسُل، ولكنها الترجَمة العَمَلية لليقين الذى وصل إليه.

ويبدأ إبراهيمُ (ببيته) - فهكذا هدته فطرته، وهداه عقلُه :

- ﴿واذكر فى الكتابِ إبراهيم، إنَّه كان صِدّيقا نبيًّا# إذْ قال لأبيه يابتِ لِم تعبُدُ ما لا يسمَع ولايُبْصِرُ ولايُغْنِى عنكَ شيئا# .... قال : اراغِبٌ انت عن آلهتى يا إبراهيم؟ لئِنْ لم تَنْتَهِ لأرجُمَنَّكَ، واهجُرْنى مَليّا# قال : سلام عليكَ، ساستَغْفِرُ لكَ ربِّى، إنه كان بى حَفيًا﴾
(مريم - ١٩ : ٤١، ٤٢، ٤٦، ٤٧).

والخليل إبراهيم رجل ذو رسالة، وصاحب دعوة، ومِنْ ثَمَّ فهو يجمَع بين دعوة يجب ان يُبلّغها، وادب يجب ان يلتزم به، فهو يدعو والده إلى الحقّ الذى استيقنته نفسُه، واستراح إليه ضميرُه، مع برّ بذلك الأب، وادَب فى مخاطبته، يفرض عليه ان يقابل صَلَفه وغُروره، وإصراره على الكُفر والضلال، بأدَب جَمّ، يتمثّل فى ذلك الدعاء له، وفى الاستغفار عَمَّا فرّط فى حقّ نفسه. وعندما يتأكّد الخليل إبراهيم مِن انّ اباه عدوّ لِلّه، يجد نفسَه بين خيارين : ربّه الذى آمَنَ به، واستيقنَتهُ نفسُه، وابيه الذى تعهّده وربّاه ورعَاه، ويجب ان يكون به بارّا، فلا يتردّد فى ان يختار جِوارَ الله على كُلِّ جِوار :

- ﴿وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلا عن مَوْعِدَةٍ وعَدَها إيّاه، فلمّا تبيَّنَ له انه عدوٌّ لِلّه تبرّا منه، إن إبراهيم لأوّاه حليم﴾
(التوبة - ٩ : ١١٤).

وينتقل الخليل إبراهيم مِن (بيته) إلى (مجتمعه)، يؤدّى الأمانة، التى عرضها الله سبحانه على السموات والأرض، فأشفَقْنَ منها وحمَلها الإنسان، مع ما فى تأديتها مِن متاعب ومخاطر، كان عليه السلام على وَعْيٍ بها، وكان مستعدّا لها:

- ﴿الم تَرَ إلى الذى حاجَّ إبراهيم فى ربّه ان آتاهُ اللهُ الملك، إذْ قال إبراهيمَ : ربِّىَ الذى يُحْيِى ويُميت. قال : انا أُحيِى وأُميت. قال إبراهيم : فإن اللهَ يأتِى بالشمس مِن المشرق، فأْتِ بها مِن المَغْرِب، فبُهِتَ الذى كفر، واللهُ لايهدِى القوم الظالمين﴾ (البقرة - ٢ : ٢٥٨).

ثم ينتقل الخليل إبراهيم بعدَ ذلك مِن مرحلة (الدعوة الفردية) إلى ما يُمكِن تسميتُه (بالدعوة الجماعية)، التى يُثير بها (الرأى العامّ) وينبّهه، فيُحدِث ما يسمَّى (بلُغَة العصر) (ثورة ثقافية) فى المجتمع، ومِنْ ثَمَّ يتوجّه إلى الأصنام، التى تجتمع حولَها القلوب، ليبيّن زيْفَ ما تجتمع عليه تلك القلوب. وهو واثق وهو يتّجه وِجهته الجديدة، مِن أنَّ الخطَر الذى يتربّص به أشدّ، ولكنه واثق أيضا من أنه الثمَن المتَواضِع لتلك الرسالة الكُبرَى، التى شرَّفه الله سبحانه بحَمْلها، ولذلك اليقين العظيم الذى حصل عليه.

ويتَّجه الخليل إبراهيم إلى تلك الأصنام فيحطّمها، ويُحدِث تلك (الثورة الثقافية) فى الرأى العامّ الغافل. ويكون ما توقَّعه مِن شرّ داهم، وخطَر جسيم، ولكنه يُقبِل عليهما فى ثقة تامّة، ويقين لايتزعْزَع، راضِىَ النفس سعيدا، لاينحرِف عما استيقَنَتْهُ نفسه قيدَ أَنْمُلة:

- ﴿قالوا مَنْ فَعَل هذا بآلِهَتِنا، إنَّه لِمَنَ الظالمين* قالوا سَمِعْنا فَتًى يذكُرهم يُقَالُ له إبراهيم ..* قال أفتعبُدون مِن دونِ الله ما لا ينفَعُكم شيئا ولايضرُّكم، أُفٍّ لكم ولِما تعبُدون مِنْ دون الله، أفلا تعقِلون* قالوا: حَرِّقُوه وانصُروا آلِهَتَكم إن كنتم فاعِلين*قُلنَا يا نارُ كُونِي بَرْداً وسلاما على إبراهيم﴾(الأنبياء ـ ٢١ : ٥٩، ٦٠، ٦٦ ـ ٦٩).

وهنا يصل اليقين بالله مداه، فى نفس جعلت اليقينَ مدارَها فى تلك الحياة، وتتَّضح (الحقيقة) فى تلك النفس الصافية المؤمنة اتّضاحا يبدّد ظلمة أىّ شكّ، فيكون (الإسلام) لِلّه، بمعنَى التسليم التامّ له، هو ثمرة تلك الحقيقة، وذلك اليقين.

وقد أسلم إبراهيمُ عليه السلام نفسَه إلى ربِّه ساعة ألقوا به فى النار، فنجح فى ذلك الابتلاء العظيم الذى ابتلَى اللهُ سبحانه به يقينَه ـ ولكنه كان ابتلاء يتعلّق بالنفس على كل حال، وللخليل أن يتصرّف فى نفسه كيف يشاء، وعلى النحو الذى يختار، وقد اختار عليه السلام طريق التضحية.

ولكن كيف يكون الوضع حين يتعلّق ذلك الابتلاء بالنفس والغير، وحين يكون هذا الغير ـ فى حالة الخليل ـ أغلَى مِن النفس؟

وهو سؤال يفرض نفسه على مَن يساومون بمنطق الدنيا، ولكنه سؤال لايكون له وجود فى حياة مَن أسلموا لِلّه، كالخليل عليه السلام، ومِن ثَمَّ تكون النتيجة واحدة، وهى (التضحية) :

ـ ﴿وقال : إنِّى ذاهبٌ إلى ربِّى سيهدين* ربِّ هَبْ لى مِن الصالحين* فبشَّرناه بغُلام حليم* فلما بلغَ معه السعْىَ قال : يا بُنَىَّ إنّى أرى فى المنام أنّى أذبحُك* فانظُر ماذا ترَى؟ قال : يأبَتِ افْعَلْ ما تُؤمَر، ستجدنى إن شاءَ اللهُ مِن الصابرين* فلمَّا أسلَمَا وتلَّهُ للجَبين* وناديناه أنْ : يإبراهيم* قد صدَّقتَ الرؤيَا* إنَّا كذلك نَجْزِى المُحسنين* إن هذا لَهُوَ البَلاءُ المُبين* وفديْناه بِذِبح عظيم﴾ (الصافات ـ ٣٧ : ٩٩ ـ ١٠٧).

هذا هو الخير الذى يرمز إليه الخليل إبراهيم فى قصّة الحج، وهو خير بمقدور أىّ إنسان أن يحصُل عليه، وهو الإسلام لِلّه، والتسليم التامّ له، إسلاما وتسليما مبنيّين على العقل والمنطِق، لاعلى مجرّد التقليد للآخرين، مهما كان هؤلاء الآخَرون على حقّ. والإسلام والتسليم يعنيان الاستعدادَ للتضحية والبذل بالنفس والنفيس، فى سبيل الحقّ الذى استيقنته نفسُ المسلم.

أما الخير الذى يرمِز إليه البيتُ الحَرام فى تلك القصّة، فهو ذلك الحقّ ذاته الذى يجب أن يتَّجه إليه قلبُ المسلم، لايتَّجهُ إلى غيره، والذى يجب أن تدور حولَه قلوبُ أبناء المجتمع المسلم، مِن أجلِه تُحِبّ، ومِن أجْلِه تكرَه، وعلى هُداه تسير فى طريق الحياة الدنيا، حتى تصل إلى غايتها فى الحياة الآخِرة، الباقية.

فرحلة الحجّ ليست رحلة جَسَد، وإنَّما هى سياحة روح، وهى ليست شعائر ماديّة ظاهريّة، وإنما هى نَبْضُ قلب مُؤمِن، خاضَ مع إبراهيم عليه السلام، ومع المصطفَى محمد عليه الصلاة والسلام مِن بعدِه، تجربةَ استشعار الحقّ، وخرج مِن تلك التجربة بالدرس العظيم ـ درس الإسلام لِلّه، واستشعار قُدرته وعظَمته فى كلّ خُطوة وفى كلّ لحظة :

ـ ﴿وإذ بوَّأنا لإبراهيمَ مكانَ البيت، أن لاتُشْرِكْ بى شيئا، وطَهِّرْ بيْتى للطائفين والقائمين والرُّكَّعِ السُّجُود* وأذِّنْ فى الناس بالحجّ

يأتُوكَ رجالا، وعلى كُل ضامِرٍ يأتِين مِن كَلّ فجّ عميق* ليشهدُوا منافِعَ لهم، ويذكُروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم مِن بهِيمَة الأنعام، فكُلُوا منها وأطعِمُوا البَائِسَ الفقير* ثُمَّ لْيقْضُوا تفثَهُم، ولْيُوفُوا نُذورهم، وليطّوّفُوا بالبيتِ العَتِيق﴾

(الحجّ ـ ٢٢ : ٢٦ ـ ٢٩).

(٢) الهجرة إلى الله مُستَمِرّة(١):

قَلّمَا يحتلّ (حَدَث) مِن (أحداث) الإسلام مِن الأهمّيّة ما يحتلّه (حَدَث) الهجرة، حيث أَذِنَ اللهُ سبحانه وتعالَى لرسوله وللقلّة المؤمنة معه فى مكّة، أن تهاجر إلى الإِخْوَة المجاهِدين فى المدينة، فاستقبَلُوهم الاستقبالَ اللائق مِن المؤمِن لأخيه المؤمِن، لاأجد أبلَغَ فى وصفه مِن وصف الله سبحانه وتعالَى له ولهم، حيث يقول سبحانه :

ـ ﴿للفُقَراء المهاجِرين، الذين أُخرِجُوا مِن ديارهم وأموالهم، يبتَغُون فضلا مِن الله ورِضوانا، وينصُرُون اللهَ ورسولَه، أولئك هم الصادقون* والذين تبوَّءوا الدارَ والإيمان مِن قَبْلِهم، يُحِبُّون مَنْ هاجَرَ إليهم، ولايَجِدُونَ فى صدورِهم حاجة مِمَّا أُوتُوا، ويُؤْثِرُون على أنفُسِهم ولو كان بِهِمْ خصاصَة، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المُفْلِحُون﴾ (الحشر ـ ٥٩ : ٨ ـ ٩).

وقد ضرب الرسول الكريم (ﷺ) المثلَ الأعلَى فى (الوطنيّة) والوفاء، حيث نظر إلى مكّة ـ وقد خرج منها فى الطريق إلى المدينة ـ بعد أن أذاقه أهلُها الأمَرّيْن، وقال عبارته المشهورة، التى تَشِفُّ عن سُمُوِّ نفسه، ورَحَابة صدرِه (ﷺ) :

ـ ﴿والله إنك لأحَبُّ أرضِ اللّهِ إلَيّ، وأحَبّ أرضِ اللهِ إلى الله، ولولا أنَّ قومَكِ أخرجُونى مِنكِ ما خرجت﴾.

(١) نُشِرت فى مجلّة (منبر الإسلام) ـ السنة ٣٢ ـ العدد ١ ـ المحرّم ١٣٩٤هـ ـ يناير ١٩٧٤م، ص ١٥٢ ـ ١٥٥

ولم تكن (الهجرة) لتحتلّ هذه المنزلَة الرفيعة فى الإسلام، دونَ غيرِها مِن الأحداث العظيمة، كبَدْءِ نُزولِ الوحْى، بدايةِ الإشراق السماوىّ على الرسول وعلى الناس، وكغزوة بَدْر، بدايةِ فتوحات الإسلام، وكغيرِ ذلك مِن (الأحداث)، حتى لقد أرَّخَ بها الإسلام - دون أن يكون (للهجرة) معنًى خاصّ، يُحِبُّ الإسلام أن يلفِت نَظَر اتباعه إليه.

والقِلّة المؤمنة، التى تحمّلت ما تحمّلت فى مكة مع الرسول الكريم (ﷺ) قبلَ الهجرة، ثم أُذِنَ لها بالهجرة فهاجَرت، تحتلّ فى الإسلام - عندَ الله - منزِلة المصطَفَيْنَ مِن خَلْقِ الله، وهى أسمَى مِن أية منزِلة لخلق آخَرين - فيما عدا الأنبياء عليهم السلام - إذ يأتِى ذكرُهم دائما - فى مقام الفضل - فى الصدارة، ليتبَعهم الأنصارُ، الذين اتّبعوهم بإحسان :

- ﴿والسابقون الأوَّلُونَ مِن المهاجِرين والأنصار، والذين اتَّبَعُوهم بإحسان، رَضِىَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه، وأعدَّ لهم جنّاتٍ تجرِى مِن تحتِها الأنهار، خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم﴾

(التوبة - ٩ : ١٠٠).

- ﴿ لقد تَابَ اللهُ على النبىّ والمهاجِرين والأنصار، الذين اتّبَعُوه فى ساعة العُسْرة، مِن بَعْدِ ما كاد يَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم، ثم تابَ عليهم، إنه بهِمْ رءوفٌ رحيم* وعلى الثلاثة الذى خُلِّفُوا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ، وضاقت عليهم أنفُسُهم، وظنُّوا أنْ لاملجَأَ من الله إلا إليه، ثم تابَ عليهم ليتُوبوا، إن اللهَ هو التوّاب الرحيم﴾ (التوبة - ٩ : ١١٧ ، ١١٨).

وليس مِن طبيعة الإسلام أن يلتَفِت إلى الماضى، وإنما شأنُه دائما أن يتطلّع إلى المستقبَل، وهو إذا ارتدّ إلى الماضِى، إنما يرتَدُّ إليه ليأخُذ منه العظة والعِبرة، فيُقيمَ هذا المستقبَل على أساس ثابت مَتين، وبهذا المنطِق وحدَه وَرَدَ ذِكْرُ الأنبياء والمُرسَلين والأُمَم السابقة فى القُرآن الكريم :

- ﴿ كذلكَ نقُصُّ عليكَ مِن أنباء ما قد سبَق، وقد آتيناكَ مِن لَدُنَّا ذِكرا* مَنْ أعرضَ عنه فإنَّه يحمِل يومَ القيامة وِزْرًا* خالدين فيه، وساءَ لهم يومَ القيامة حِمْلا﴾ (طه - ٢٠ : ٩٩ - ١٠١).

- ﴿وكُلًّا نَقُصُّ عليكَ مِن أنباء الرُّسُلِ ما نثبّتُ به فؤادَك، وجاءك فى هذه الحَقُّ وموعِظةٌ وذِكْرَى للمُؤمِنين* وقُلْ لِلّذين لايُؤمنون: اعمَلُوا على مكانَتِكم، إنّا عامِلون* وانتظِروا، إنّا منتظِرون﴾ (هُود - ١١ : ١٢٠ - ١٢٢).

وعلى ذلك، فإنه حينَ يتحَدّثُ عن (الهِجرة)، ويشِيدُ بها، ويذكُر فضلَ القلّة المؤمنة التي صنعَتْها، سواء فى ذلك المهاجرون مِن مكة، وأنصارُ المدينة، وحين يضع كُلًّا مِن هؤلاء وهؤلاء فى المنزلة التى تَليق به ويَليق بها، إنما يفعَل ذلك للعظة والعِبرة قبلَ أىّ شئ آخَر، وحتى تكون هذه الهجرة الأُولَى مجرّد علامة على دَرْبِ الإيمان الطويل، فى كلّ زمان ومكان، حيث تكون (الهجرة) ضرورة لامهرَب منها، تماما كما كانت تلك (الهِجرة) الأُولَى.

ولا يقلّل مِن قيمة هذا الرأى، ما يذهَب إليه عبد الله بن عُمَر، رَضِىَ اللهُ عنهما، وما تقول به السيدة عائشة رضِىَ اللهُ عنها، فيما يرويه البُخارِىّ عنهما.

فعبدُ الله بن عُمَر يقول : «لاهِجرَةَ بعدَ الفَتْح».

وعائشة تقول : «لاهجرةَ بعدَ اليوم. كان المؤمنون يفِرُّ أحدُهم بدينِه إلى اللّهِ تعالَى، وإلى رسول الله (ﷺ)، مخافةَ أن يُفْتَن عليه، فأمّا اليوم، فقد أظهَر اللهُ الإسلام، واليوم يَعْبُد رَبّه حيثُ يشاء، ولكن جهادٌ ونيّة».

وظاهر قوليهما يدلّ على أن المقصود بالهجرة هو (الهجرة) الكُبرَى، مِن مكّة إلى المدينة، التى أعَزَّ بها الله سبحانه الإسلام والمسلمين، فى عهد رسوله (ﷺ). ولكن المتأمّل للقولين يرى أن هذا القصد - رغمَ أنّه وارد فعلا - إلا أنّه لايُغلِق البابَ على تلك (الهجرة) الكبرى وحدَها، كما يتبادَرُ إلى الذهن للوَهْلة الأُولَى، بقدر ما يفتح باب الهجرة على مِصراعيه رحْبا إذا اقتضت الضرورة.

فقولُ عبد الله (لاهجرةَ بعد الفتح)، وقولُ عائشة (لاهِجرةَ بعدَ اليوم)، مقصودٌ به إغلاقُ الباب - يومها - على أولئك الذين فاتتهم فرصةُ الحصول على هذا الفضل الأعظم الذى حصل عليه المهاجِرون، وتفويتُ الفُرصة على الشيطان أن يتسرَّب إلى نفوسهم، فيتصوّرون - بُطلانا وخِداعا - أنّهم قادرون على أن يهاجِروا، وعلى أن ينالوا تلك المنزِلة العُظمَى، وتوجيهٌ لهم أن يبحثوا عن (باب) جديد، يحصُلون منه على ذلك الفضل، كباب الجهاد فى سبيل الله مثلا، وإن كان لايمكن أن يصل - فى فضلِه - إلى مرتَبة تلك الهجرة. والتاريخ الإسلامىّ يؤكّد أنّ باب الجهاد - مثلا - قد وَلِجَهُ كثيرون مِمّن فاتتهم فُرصة الهِجرة.

وتضع لنا تَتِمَّةُ كلام السيّدة عائشة رَضِىَ اللهُ عنها النقطَ على الحُروف هنا، حيث لاتكتفِى بإغلاق باب الهجرة فقط، كما فعل عبدُ الله بنُ عُمَر، وإنما هى تُتِمّ كلامها، لتأتِىَ بسبَب الإغلاق، فيكون ذلك السبَب نفسُه هو الذى يفتح الباب رَحْبًا لهِجرات وهِجرات لاتنتهِى؛ طالما كان الصراع بين الحقّ والباطل، وبين الإيمان والكُفر، مُشْتَعِلَةً نارُه. والسبب الذى تسوقه، هو أن باب الهِجرة الأُولَى قد أُغلِق، لأنها تَمَّت فى وقت «كان المؤمنون يَفِرُّ أحدُهم بدينه»، «مَخَافَةَ أن يُفْتَن عليه، فأمّا اليوم؛ فقد أظهر اللهُ الإسلام».

ومعنى ذلك أن البابَ إلى الهجرة مفتوح، حيث يكون الموقِف شبيها بالموقِف الأوَّل، الذى تمَّت فيه الهجرة الأُولَى، وحيث يكون المؤمنون فى وضع يجب أن «يفِرَّ أحدُهم بدينه»، «مخافةَ أن يُفْتَن عليه»، وما أكثرَ أوضاع المؤمنين الشبيهة بهذا الوضع فى عالمنا المعاصِر، الذى طغت فيه المادّيّة طُغيانا جارفا، فأعمَت العقول والقلوب، وأفسدت النفوس، وقتلت الضمائر، فصار (الإيمان) شُذوذا لا تحتَمِلُه بعض المجتمعات، وصار المؤمنون يعيشون مأساة المآسِى، بشذوذهم عن بَقِيَّةِ أبناء المجتمع الذى يعيشون فيه.

والحرب التى تَشنّ اليوم على الإسلام والمسلمين، فى أجزاء كثيرة مِن العالَم؛ بسبب وبغير سبَب، وحمَلات (الإبادة) المنظَّمة التى تشنُّها بعض الحكومات والهيئات للقضاء عليه وعليهم؛ ليست مِنّا ببعيدة، فهى تُنشَر فى الصحف؛ وتتناقلها الإذاعات، وهى لم تعُدْ سِرًّا، فى عصرٍ لم تعد به أسرار.

فهل مِن سبيلٍ أمامَ المسلمين الذين يعيشون فى مِثل تلك الظروف غير الهجرة؟

وما الفرقُ بين الهجرة حينئذ - إن تمّت - وبين تلكَ الهجرة الأُولَى ؟

ومِمّا يلفِت النظرَ أن القرآن الكريم حين يتحدّث عن الهجرة، لايتحدّث عن هِجرة واحدة تمّت وانتهَى أمرُها، وإنما هو يتحدّث عن هجرتين، تمّت إحداهما أوّل الإسلام مِن مكّة إلى المدينة، وتتمّ الثانية - أو يُمكن أن تَتِمّ - أو يجب أن تَتِمّ - فى أىّ زمان ومكان.

وهو عندما يتحدّث عن تلك الهجرة الأُولَى، يضعها حيث يجب أن تُوضَع مِن التعظيم والتكريم وإعلاء الشأن، مُشيرا إلى كلّ (أبطالها)، واضعا كلا منهم حيث يجب أن يُوضَع، فيبدأ بالمهاجرين، ثم يُثنّى بالأنصار، ولم يحدُث أن ذَكَرَ المهاجرين فيها دون أن يُتْبِعَهم بالأنصار.

أما عندما يتحدّث عن الهجرة الثانية، فإنه يأتِى بالحديث عنها، مسبوقا بالحديث عن الإيمان، ثم يُتبِع الحديثَ عنها بالحديث عن الجهاد فى سبيل الله، وبهذا تبدو هذه الهجرة - فى بعض الأحيان - وكأنها الترجَمة الصحيحة للإيمان، كما تبدو أفضل مِن الجهاد :

- ﴿إن الّذينَ آمَنُوا، والّذين هاجَرُوا وجاهَدُوا فى سبيلِ اللّه، أولئكَ يَرجُونَ رحمةَ اللّه، واللّهُ غفورٌ رحيم﴾ (البقرة - ٢ : ٢١٨).

- ﴿الذين آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا فى سبيل اللّهِ بأموالِهم وأنفُسِهم أعظَمُ درجةً عند الله،وأولئكَ هم الفائزون﴾ (التوبة - ٩ : ٢٠).

وأحيانا تُشِير هذه الآيات مِن بعيد إلى سرّ ذلك التفضيل الكبير للمهاجِرين على المجاهِدين أنفُسِهم، حيث تُحِسُّ بأنها لم تكن مجرّد هِجرة وكفَى، وإنما كانت هِجرَة وعذابا يؤدّى إلى الموت أحيانا :

- ﴿المُلكُ يومَئِذٍ لِلّه، يحكُم بينَهم، فالذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات فى جنّات النعيم* والذين كفروا وكذَّبوا بآياتِنا فأولئكَ

لهم عذابٌ مُهين* والذين هاجَروا فى سبيل الله ثم قُتِلوا أو ماتُوا لَيرْزُقَنَّهم رِزقا حسَنًا ، وإن اللّهَ لَهُوَ خيرُ الرازقين* لَيُدْخِلَنَّهم مُدْخلا يرضَوْنه، وإن الله لعليمٌ حليم﴾ (الحَجّ ـ ٢٢ : ٥٦ ـ ٥٩).

وأحيانا تُشير هذه الآياتُ مِن قريب إلى سرّ ذلك التفضيل، فتُشير إلى التضحيات التى بُذِلَت، وإلى الجهاد الذى تَمّ فى سبيلها، فهى هجرة وجهاد معا :

ـ ﴿ رَبّنا إنّنا سمِعنا مُنادِيا يُنادِى للإيمان أن آمِنُوا بربّكم فآمَنّا، ربّنا فاغفِرْ لنا ذُنوبَنا، و .... فاستجاب لهم ربُّهم أنّى لا أُضِيعُ عَمَل عامل منكم، مِن ذَكرٍ أو أُنثى، بعضُكم مِن بَعْض، فالذين هاجَروا، وأُخرِجوا مِن ديارهم، وأُوذُوا فى سبيلى، وقاتَلوا وقُتِلوا، لأُكَفِّرَنّ عنهم سيّئاتِهم، ولأُدخِلَنّهم جنّاتٍ تجرِى مِن تحتِها الأنهار، ثواباً مِن عندِ الله، واللّهُ عِندَه حُسْنُ الثواب﴾ (آل عِمران ـ ٣ : ١٩٣ ـ ١٩٥).

ـ ﴿والّذين هاجَروا فى اللّه مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا، لنُبَوِّئَنَّهم فى الدنيا حَسَنة، ولأَجْرُ الآخِرةِ أكبَرُ لو كانوا يعلمون* الذين صبَروا وعلى رَبِّهم يتوكّلون﴾ (النحل ـ ١٦ : ٤١ ـ ٤٢).

وأحيانا تكون هذه الهجرة بهذا المعنَى العامّ (فرضا) واجبا تحقيقُه، كالجهاد سواء بسواء، ويكون النكُوصُ عنها كُفرا بالله، مستحقّا صاحبُه غضبَ ربّه ـ إلا من استُكْرِهَ على عدَم القيام بها :

ـ ﴿إن الّذين توفّاهُمُ الملائكةُ ظالِمِى أنفُسِهم، قالوا : فِيمَ كُنتم؟ قالوا : كُنّا مستضعَفِينَ فى الأرض، قالوا : ألم تَكُنْ أرضُ اللّهِ واسِعةً فتُهاجِرُوا فيها ؟ فأولئك مأواهم جَهَنّمُ وساءَت مصيرا* إلا المستضعَفِين مِن الرجالِ والنساءِ والولدانِ،لايستَطِيعُون حِيلةً، ولايهتَدُونَ سَبيلا* فأولئك عسَى اللّهُ أن يعفُوَ عنهم، وكان الله عَفُوّا غفُورا* ومَنْ يهاجِرْفى سَبيلِ الله يَجِدْ فى الأرْضِ مُراغَماً كثيرا وسَعَة، ومَنْ يخرُجْ مِن بيتِه مهاجِرا إلى الله ورسوله، ثم يُدرِكْهُ الموتُ، فقد وَقَعَ أجرُه على اللّه، وكان اللّهُ غفوراً رَحيما﴾

(النساء ـ ٤ : ٩٧ ـ ١٠٠).

والهجرةُ بهذا المعنى العامّ .... الهجرةُ المستمرّةَ إلى الله، يمكن أن تتّخذ لها أشكالا مختلفة - يمكن أن تكون هجرة بالجسد، من أرض يقع فيها على المؤمن ظلم، إلى أرض ينشُدُ فيها العدلَ وحرّيّةَ عبادةِ الله، تماما كالهجرة الأمّ، أو الهجرة المثَل أو النمَوذَج، الهجرةِ الأولى، إذا تيسّرت أسبابُها، ويمكن أن تكون هجرة بالروح وحدَها، إن لم تتيسّر الأسبابُ إلى هجرة الجَسد، وكانت تلك هجرَة المتصوّفين في كلّ زمان ومكان، حيث كانوا يعيشون في المجتمع بأجسادهم، أما أرواحهم فهِيَ معلّقة بالله، متشبّثة بنوره، تستعيض به عن شقاء دنياهم، وترتاح إلى جواره، بعدَ أن تألّمت من جوار خلق الله.

ويمكن أن تكون هناك أشكالٌ أخرَى للهجرة، ولكنّ الهجرة - مهما كان شكلُها - يجمَعُها إطار واحد عامّ، هو اللجوءُ إلى الله وحدَه، فذلك اللجوءُ إليه سبحانه، هو سبيلُ الصالحين، في كُلّ زمان ومكان.

o o o

(٣) الهجرة المستمِرّة إلى الله(١):

في مثل هذه الأيام المباركات من العام الماضي، كتبتُ في (منبر الإسلام) مقالا بعُنوان (الهجرَة إلى الله مستمِرّة)، ذهبتُ فيه إلى أنّ (حدَث) الهجرة احتلّ ما احتلّه من منزِلة في الإسلام، لا لهذا الحدَث في حَدّ ذاته، رغم أهميته، ولكن للفْتِ النظَر إلى أهمّيّة (الهجرة) كأسلوب حياة في الإسلام. وقلتُ إن لفظ (الهجرة) يرِدُ في كتاب الله الكريم بمعنيين، أوّلهما خاصّ، هو الذي يُشير فيه الكِتاب الكريم إلى ذلك (الحدَث) الذي غيّر وجهَ التاريخ، وهو خروج الرسول (ﷺ) وصَحْبه من مكّة إلى المدينة، لينشئ للإسلام دولة هناك، بعدَ ما تحمّل وتحمّلوا في مَكّة من ألوان العَنتِ والإرهاق والضيق ما تفيض به كُتُبُ التاريخ.

أما المعنَى العامّ، فيشير القرآن الكريم في مواقفَ أكثر من المواقف التي تُشير إلى الهجرة فيها بذلك المعنَى الخاصّ، ممّا يدلّ على أن مقصِد الإسلام من الاحتفاء (بحَدَث) الهجرة، هو لَفْتُ النظَر إلى الهجرة بهذا المعنَى العامّ.

---

(١) نُشِرت في مجلّة (منبَر الإسلام) - السنة ٣٣ - العدد ١ - المحرّم ١٣٩٥هـ - يناير ١٩٧٥م، ص ٢٥ - ٣ من مُلحَق العدد (الهدية).

والإشارة في مستهلّ المقال، إشارة للمقال السابق (الهجرة إلى الله .. مستمرة) الذي يبدأ من ص ٥٠ من هذا الكتاب

والإنسانُ بطبيعته مهاجِر، بمعنَى أنَّ أيامَه على الأرض ـ مهما طالت ـ محدودة، يهاجِرَ الإنسانُ بعدها مضطرًا إلى الآخِرة، حيث تبدأ حياته التى لاتنتهِى، فى الجنة أو فى النار.

فالإنسان ـ فى نظَر الإسلام ـ ليس مجرَّد مخلوق مِن تلك المخلوقات الكثيرة التى خلقها اللهُ سبحانه، وإنما هو أسمَى مِن ذلك وأعظَم، فقد فضَّلَه ربُّه على سائر المخلوقات على الإطلاق، ومِن بينها الملائكةُ المقرَّبُون أنفُسهم، بذلك (الاستخلاف) الذى شرَّفه به، والذى ألقَى به على كاهله ـ فى الوقت ذاته ـ تبِعَاتٍ جِساما، لايقدِر عليها إلا مَنْ هَدَى اللهُ قلبَه. ولْنَعُدْ إلى القرآن الكريم يقصّ علينا تِلك القِصَّة، ففيها ضوء كثير على ما نقصِد إليه :

ـ ﴿وإذْ قال رَبُّكَ للملائكةِ : إنِّى جاعلٌ فى الأرضِ خليفة، قالوا : أتَجعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيهاويَسْفِكُ الدماء، ونحنُ نُسَبِّحُ بحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لك؟ قال : إنِّى أعلَمُ ما لاتعلَمُون﴾ (البقرة ـ ٢ : ٣٠).

تبدأ القِصَّة باستخلاف الله سبحانه وتعالَى للإنسان على الأرض، مِمَّا يُثِير دهشة الملائكة، ولكنهم أمامَ أمْرِ الله سبحانه يُسَلِّمون ويستسلِمون ـ إلا إبليس، الذى أخذته العِزَّة بالإثم :

ـ ﴿وإذ قُلنا للملائكةِ : اسجُدوا لآدَم، فسجَدُوا إلَّا إبليسَ، أبَى واستكبَر، وكان مِنَ الكافِرين﴾ (البقرة ـ ٢ : ٣٤).

وتستمرّ القِصَّة ـ قِصَّةُ الاستخلاف ـ حتى تبلُغ ذروتَها المحتومة :

ـ ﴿قالَ : فاخرُجْ منها فإنَّكَ رَجيم* وإنَّ عليكَ لعنتِى إلى يَوْمِ الدِّين* قال : رَبِّ فأنْظِرْنِى إلى يَوْمِ يُبعَثُون* قال : فإنَّك مِن المُنْظَرِين* إلى يَوْمِ الوقتِ المعلُوم* قال: فبِعِزَّتِك لأُغْوِيَنَّهُمْ أجمَعِين* إلَّا عبادَك منهمُ المُخْلَصِين* قال : فالحقّ والحقّ أقول* لأمْلأنَّ جهنَّمَ مِنك ومِمَّنْ تبِعَك منهم أجمَعِين﴾ (ص ـ ٣٨ : ٧٧ ـ ٨٥).

ومنذُ ذلك الوقت، تشَعَّبت الهجرة، فصار لها مساران متمايزان، يتحدّث عنهما الرسول (ﷺ)، فيما يرويه عنه البُخارِىّ فى صحيحه، عن عبد الله بن

مسلمة، قال : أخبرنا مالك عن يحْيَى بنِ سعيد، عن محمد بن إبراهيم، عن علقَمَة بنِ وقّاص، عن عُمر، أنّ رسول الله (ﷺ) قال :

- ﴿الأعمالُ بالنيّة، ولكلّ امرئ ما نوَى، فمَن كانت هِجرَتُه إلى الله ورَسُولِه، فهِجْرَتُه إلى اللّهِ ورَسُوله، ومَنْ كانت هِجرَته لِدُنْيَا يُصِيبُها، أو امرأةٍ يتزَوّجها، فهِجرَتُه إلى ما هَاجَرَ إليه﴾.

فالاستخلافُ تشريفٌ للإنسان حقّا، بدليل انه أحقَدَ أحدَ الملائكة المقرّبين - وهو إبليس - عليه، ففَسَقَ - فى غَمْرةِ الحِقد الأعمَى - عن أمْرِ رَبّه، ونَسِىَ المنزِلة الكريمة التى أنزلَها إيّاه - مع غيرِه مِن الملائكة، ولكنّه - فى الوقت ذاته - يُلقِى عليه عبئا ثقيلا، لايستطيع حَمْلَهُ إلا إذا كان مدرّبا عليه تدريبا عنيفا، يستطيع به أن يتصدّى للشيطان وزَبانِيَته، ولذلك يلفِتُ النظر أنّ لفظ الهجرة بمعناه العامّ هذا، لايَرِدُ فى كتاب الله وحيدا، وإنما يأتِى مسبوقا بالإيمان، ومتبوعا بالجهاد :

- ﴿والذين آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا فى سبيل اللّه ،والّذين آوَوْا ونَصَرُوا، أولئك هُمُ المؤمِنُون حَقًّا، لهم مغفِرة ورِزقٌ كَريم﴾
(الأنفال - ٨ : ٧٤).

- ﴿إنّ الّذينَ آمَنُوا والّذينَ هاجَرُوا وجاهَدُوا فى سبيلِ اللّه، أُولئكَ يرجُونَ رحمةَ اللّه، واللّهُ غفورٌ رحيم﴾ (البقرة - ٢ : ٢١٨).

- ﴿الّذين آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا فى سبيل اللّهِ بأموالِهم وأنفُسِهم أعظمُ درَجة عندَ اللّه ،وأولئكَ هُم الفائزون﴾(التوبة - ٩ : ٢٠).

وكأنما يأتِى النسَقُ القرآنىّ على هذا النحو، ليبيّن أن الإيمان ليس مجرّد أُمْنِيَةٍ تُتَمَنّى، أو كلمات تُقال، أو ادّعاء يُدّعَى، وإنما هو سلوك عَمَلىّ يُمارَس، وحياة تُحيَا، وعلاقات تَقُوم، وأن الهجرة هى التجسيد الحَىّ لذلك الإيمان - إن كان صادقا - وأن سبيل الهجرة هو سبيل الجهاد والكِفاح والنضال، لأن الشيطان وزَبانيته لن يترُكوا المهاجرين إلى الله دون أن يعترِضوا طريقَهم، ويتصدّوا لهم بكل سبيل، بدليل قول إبليس السابق لربّه : ﴿فبعِزّتِك لأُغوِيَنّهُمْ أجمعِين* إلا عبادَك مِنهُم المُخْلَصِين﴾.

صار للهجرة ـ منذُ فَسَقَ إبليسُ عن أمرِ ربِّه ـ مساران أو طريقان، فطريقٌ يصل بالمهاجر إلى الله سبحانه، وهو طريق وَعْر، محفوفٌ بالمخاطر فى الدنيا، وهذه المخاطر هى المَهْرُ الغَالِى لذلك الاستخلاف، أو التكريم، الذى كرَّم الله به الإنسان يومَ خلَقه واستخلَفه، وطريقٌ يصل بالمهاجر إلى الشيطان، ليكون تابعا ذليلا له، وهو طريق سهل ميسور، لايحتاج الإنسان فيه إلى جهاد، وكُلُّ ما يستطيع أن يفعَله فى دنياه، هو أن يسلِّم قِيادَهُ إلى الشيطان، فيسير بلا جُهد ولاتَعَب، إلى حيث يَقُوده.

والطريق الأوَّل يصل بالمهاجر إلى الجَنَّة، والطريقُ الثانى يصل بالمهاجر إلى النار.

والهجرة المستَمِرَّة إلى الجَنَّة، موضوع هذا المقال، هى الطريق الأول، وهو ـ كما سبق ـ طريق جهاد مستمرّ :

ـ ﴿قُلْ إن كان آباؤُكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم، وأموالٌ اقترفتُموها، وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كسادَها، ومسَاكِنُ ترضَوْنَها، أَحَبَّ إليكم مِنَ الله ورسولِه، وجهادٍ فى سبيلِه، فتربَّصُوا حَتَّى يأتِيَ اللَّهُ بأمرِه، واللَّهُ لا يهدى القومَ الفاسقين﴾ (التوبة ـ ٩ : ٢٤).

وهذا الجهاد المستمرّ ليس إلا صقلا لنفوس المؤمنين، وتطهيرًا لها، حتى تكونَ جديرة بذلك الفضل الذى ينتَظِرها، وذلك التكريم الذى كُرِّمَتْه :

ـ ﴿ولَنَبْلُوَنَّكُمْ، حَتَّى نعلَمَ المجاهِدين منكم والصابِرِينَ ونَبْلُوَ أخبارَكم﴾ (محمّد ـ ٤٧ : ٣١).

ـ ﴿ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بشيءٍ مِن الخوفِ والجُوعِ، ونَقْصٍ مِن الأموالِ والأنفُسِ والثمرات، وبَشِّرِ الصَّابِرين* الذين إذا أصابَتْهُم مُصِيبَةٌ قالوا : إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إليه راجعون* أولئك عليهم صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهم ورَحْمَة،وأولئك هُم المهتَدُون﴾ (البقرة ـ ٢ : ١٥٥ ـ ١٥٧).

ورغمَ ما فى هذا الطريق مِن وُعورة ومشقّة، ومِن مَخَاطِرَ وأهوال، فهو طريق محبَّب إلى نفس المؤمن الصادق الإيمان، لأنه طريق الله، والمؤمن الصادق الإيمان لايرضَى بغير جوارِ الله جِوارا، ولا بغير الهِجرة إليه هِجرة :

- ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أنا ورُسُلِى، إنَّ اللَّهَ قوىٌّ عزيزٌ* لاتجِدُ قوما يؤمنون باللَّهِ واليوم الآخِرِ يُوادُّون منْ حادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم، أولئك كتَبَ فى قُلوبِهم الإيمانَ وأيَّدَهم بروحٍ منه، ويُدْخِلَهم جنَّاتٍ تجرِى مِن تحتِها الأنهار، خالدين فيها، رضِىَ اللَّهُ عنهُم ورضُوا عنه، أولئكَ حِزْبُ الله، ألا إنّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المفلِحُون﴾ (المجادَلَة ـ ٥٨ : ٢١ ـ ٢٢).

وفى هذا الطريق ـ رغمَ مشقَّة السير فيه ـ حلاوةٌ فى نفس المؤمن، دونها أية حلاوة مهما عَذُبَت، لأنّ المؤمن إنسانٌ شفَّافُ النفس، ثاقب الفِكر، بعيدُ النظر، لاتشغَلُه ظَواهِر الأمور عن حقائقها، وهو بهذه المواهب الفريدة يستطيع أن يخُوضَ المستقبَل، ليرَى لذّة الحياة الخالدة التى يستعدّ لها ـ بتضحياته فى دُنياه ـ إلى جوارِ الله، ومِنْ ثَمَّ يذوق حلاوتها فى دُنياه، فيحلُو فى فِيه مُرُّ الدنيا، ويهُون عِندَه شقاؤها، ويلذّ له فيها التعَب والمشقّة، حُبًّا فى الله ورسوله، اللّذَيْنِ اختارَ جوارَهما على كُلّ جِوار، ولعلَّ ذلك هو معنَى قول الرسول (ﷺ)، فيما يرويه عنه البُخارِىُّ فى صحيحه، عن محمد بن المثنى قال : حدَّثنا عبد الوهاب الثقَفِىّ قال : حدّثنا أيوب، عن أبى قلابة، عن أنَس، عن النبىّ (ﷺ) قال :

- ﴿ثلاثة مَنْ كُنَّ فيه وَجَد حلاوةَ الإيمان : أن يكونَ اللَّهُ ورسولُه أحَبَّ إليه مِمَّا سِواهُما، وأن يُحِبّ المرءَ لايُحِبّه إلا لِلّه، وأنْ يكرهَ أن يعُودَ فى الكُفر كما يكرَهُ أن يُقذَفَ فى النار﴾.

وقد بَسَّطَ الرسولُ الكريم (ﷺ) طريقَ الهِجرة المستمرّة إلى الله تبسيطا عميقا، يفتَحُ به بابَ تلك الهِجرة على مصراعيه أمامَ كلّ راغب فيها، وذلك حيث يقول، فيما يرويه عنه البُخارِىّ، عن شُعْبة، عن عبد الله بن أبى السفر وإسماعيل، عن الشعبىّ، عن عبد الله بن عُمَر رضى اللهُ عنهما، عن النبىّ (ﷺ) قال :

- ﴿المسلِم مَنْ سلم المسلمون مِن لسانِه ويدِه، والمهاجِر مَنْ هجر ما نَهَى اللهُ عنه﴾.

فاللهم اجعلنا مِن المسلمين، المؤمنين بك، المتوكّلين عليك، المهاجرين إليك، إنك نِعمَ المولَى ونعمَ النصير

(٤) العُبُودِيَّة لِلَّه والتحرُّر الإنسانِيّ[1]:

﴿الَّذين قالَ لَهُمُ الناسُ : إنَّ الناسَ قد جَمعُوا لكم فاخشَوْهُم، فزادَهُمْ إيمانًا، وقالوا : حَسْبُنا اللّهُ، ونِعْمَ الوَكيل* فانقلَبُوا بنِعْمةٍ مِن اللّهِ وفَضْلٍ لم يَمْسَسْهُمْ سُوء، واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللّه، واللّهُ ذو فضلٍ عظيم* إنّما ذلكُمُ الشيطانُ يُخَوِّفُ أولياءَه، فلا تخافُوهم وخافُونِ إنْ كُنتم مؤمِنين﴾ (آل عمران ـ ٣ : ١٧٣ ـ ١٧٥).

o o o

مِن المضاحَكات التى يُثيرها بعضُ المتفَيْهِقِين والمتفَلْسِفِين فى العصرِ الحديث ـ عصرِ تحرير الإنسان ـ تلك القضيَّة التى تتعلّق بعبودية الإنسان لِلّه، كما تعرضِها أو تفرِضها الأديانُ السماوِيّة على المؤمنين بها، وهم يرون أن هذه (العبودية) لاتليق بكرامة الإنسان، أو لم تعد تَلِيق بكرامته، فى العصر الحديث، الذى حَرّر الإنسان، فأطلَق بتحريره طاقاته المبدِعَة الخلّاقة، متمثّلة فى قُدرته المتزايِدة على الكشف والاختراع، ومعرفة أسرار الطبيعة المحيطة به، وسيطرته عليها.

وواضح أن هؤلاء المتفَيْهِقِين والمتفَلْسِفِين، يتَّخِذُونَ مِن هذه المقدّمات منطلَقًا لنتائجَ يبنُونَها عليها، وتتلخَّص هذه النتائج فى أنَّ الأديان السماوية لم تعد تتّفق مع ظروف العصر الذى نعيش فيه، لأن كلّ دين من هذه الأديان السماوية يُقِيمُ نفسه على أساس واحد، عليه يقوم بِنْيَانُه كلّه، وهذا الأساس هو أساس العبوديةِ لِلّه، وإذا ما تحقَّقَت ـ فى هذه الأديان ـ عبودية الإنسان لِلّه، كعقيدة تتغلغَلُ فى أعماق النفس، فقد تحقَّق للفرد ـ وللمجتمع بالتالِى ـ خيرُ الدنيا، ونعيمُ الآخِرة.

ويقع هؤلاء المتفيهِقُون والمتفلسِفُون فى شِراك الغفلة فيما يُقِيمون من مقدّمات، ومِنْ ثَمَّ يسقُطون فى هُوَّة الخطأ الفاحش فيما يتوصَّلون إليه مِن نتائج.

ذلك أن الإنسان ليس حُرّا فى العصر الحديث حُرِّيّة مُطلَقة، كما يدَّعون، وهو لايمكن أن يكون حُرّا حُرِّيّة مطلَقة، وإلا تحوّلت الحياة إلى فوضَى، وفى جوّ

---

(١) نُشِرت فى مجلّة (منبَر الإسلام) ـ السنة ٣٥ ـ العدد ١ ـ المحرَّم ١٣٩٧هـ ـ يناير ١٩٧٧م، ص ١٢٤ ، ١٢٥.

الفوضى تنعدِمُ الحرّيات ـ كلّ الحرّيات، ويتحوّل المجتمع إلى غابة، لايسود فيها إلا وحوشها الكاسرة، وتحت أقدام الوحوش، تعيش بقيّة القطيع.

والإنسان فى العصر الحديث (مقيَّد) بعمله، ومواعيد ذلك العَمل، ونُظُمه ولوائحه وقوانينه، وهو (مرتَبِط) بمجتمعه، وبرفاهية هذا المجتمع وخيره، و(ملتَزِم) بنَمَط الحياة ونظامها فى ذلك المجتمع، ومع ذلك فهو لايعتبر ذلك كله قيودا تكبّله، أو تحدّ مِن حرّيّته، ولايعتبر نفسه (عبدا) لصاحب العمل أو مُديره أو رئيسه المباشِر، أو لرئيس دولته.

إنه التزام من الإنسان فى العصر الحديث ـ وفى كل عصر ـ نحوَ نفسِه ونحوَ مجتمعِه، وهذا الالتزام لم ولن يكون نقيضا للحرّيّة، بل لعله أن يكون أقوى ضماناتها، لأنه هو الذى (يضمَن) له لُقمةَ العيش التى يأكلُها، والمسكَن الذى يعيش فيه، والملبَس الذى يلبَسُه، وغير ذلك من ضروريّات الحياة وكماليّاتها على السواء، وبدون ذلك الالتزام سيُحِسُّ بالحاجة إلى غيره للحصول منه على ذلك كلّه، وسيستذلّه هذا الغير، لأنه لاحَقَّ له عنده، وبمقدوره أن يُعطِيه أو يحرِمَه، وبالتالى سيتحوّل ـ بدون هذا الالتزام ـ إلى (عبد) لدَى الآخَرين.

فالحرية ـ على عكس ما يرَى هؤلاء المتفيهِقُون والمتفلسِفُون ـ مسألة نسبية، وليست مسألة مُطلَقة، وهى فى الوقت نفسه مسألة نفسيّة خالصة، يُحِسُّها الإنسان ـ لو أراد ـ والقيودُ والأغلالُ تُثقِلُ كاهلَه، وجدرانُ السجن الكثيفة تحجُب عنه النور والهواء، ويفتَقِدُها الإنسان ـ لو شاء ـ وهو حُرّ طليق، لايُثْقِلُه قيد، ولايحجبه عن الحرَكة سجن، بل قد يفتقدها وهو يتربّع على العرش، بيده مقاليد السلطة كلّها، بينما لا يفتَقِدُها مَنْ يستذلّهم مِن جماهير شعبه، رغم أن سيفَه مسلَّط عليهم، وأبوابُ سجونه مفتوحةٌ لهم، تتلقّفُ منهم مَنْ يفتح فَمَه، لينبِس ببِنْتِ شَفَة.

وعلى هذا الأساس يستطيع الإنسان أن يجزِم بأن هذه (العبودية) لِلَّه ـ على عكس ما يراه هؤلاء المتفيهِقُون والمتفلسِفُون ـ هى قِمّة (التحرُّر) الإنسانىّ، لأن هذه العبودية لِلَّه ـ لو كانت صادقة ـ لابدّ أن (تحرّر) الإنسان من كل حاجة مِن حاجات الدنيا، حتى ما يُعتَبر أساسيّا مِن هذه الحاجات، كلقمة العيش :

- ﴿اللَّهُ يبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ مِن عِبادِهِ ويقْدِرُ له، إنَّ اللّهَ بكُلّ شيءٍ عليم﴾ (العنكبوت ـ ٢٩ : ٦٢).

- ﴿وما مِنْ دابَّةٍ فى الأرض إلا على اللَّهِ رِزقُها، ويعلَمُ مستَقَرَّها ومستودَعَهَا، كُلٌّ فى كِتابٍ مُبِين﴾ (هود ـ ١١ : ٦).

وليس مِن الصدفة أن يقف الأنبياء والمرسَلُون ـ عليهم السلام ـ فى عصور مختلفة، وأماكن متعدّدة، عُزلا من السلاح، فى وجه جبابرة أشِدَّاء، معهم المال والرجال، فإنا بسلاح الإيمان باللَّه، والإحساس العميق بالعبودية له،يكون فى قلوبهم أقوَى مِن السلاح المادّىّ فى أيدِى الجبَّارين والطغاة، وأنصارهم وأعوانهم، فسيّدنا إبراهيم عليه السلام يحرّره سلاحه هذا (العبوديّةُ لِلّه) مِن كل خوف مِنْ أنْ يقول لقومه : ما تصنَعُون؟ وأن يتحرَّك ليهدِم أصنامَ هؤلاء القوم، مع ما يعلَمه مقدَّما مِن أنَّ هذا العَمَل سيجرّ عليه متاعب لايُطيقها بمقياس المادَّة الذى يفكّر به هؤلاء المتفيهِقُون والمتفلسِفُون، وأن يفتح صدرَه للنيران، يقذِفُون فى أتُونِها، عقابا له على ما فعل.

ولعل فى وقفة سيّدنا موسَى فى وجه أعتَى الطغاة الذين عرفهم التاريخ، وهو فرعون مصر، أكبر دليل على ما نقول. ولم يكن فرعون هذا بالحاكم المستبدّ العادىّ، ولكنه كان جبّارا فى الأرض، يعتقد أنه إله، مفتوناً بما وهبه الله من مُلْك عريض، وخير كثير :

- ﴿ونادَى فرعونُ فى قومِه، قال : يا قوم، أليس لى مُلْكُ مِصرَ، وهذه الأنهارُ تَجْرِى مِنْ تَحتِى؟ أفلا تُبْصِرون؟﴾ (الزخْرُف ـ ٤٣ : ٥١).

- ﴿إنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فى الأرضِ، وجَعَلَ أهلَها شِيَعًا، يستَضْعِفُ طائِفَةً مِنهُم، يُذَبّح أبناءَهم، ويَستَحْيِى نساءَهم، إنَّهُ كانَ مِنَ المُفْسِدِين﴾ (القصَص ـ ٢٨ : ٤).

وصدر الأمر الإلهىّ الكريم إلى عبده موسى بأن يتوجَّه إلى أعتَى الجبّارين :

- ﴿اذهبْ إلى فِرعَوْنَ إنّه طَغَى* فقُلْ : هلْ لَكَ إلى أنْ تَزكَّى* وأهْدِيكَ إلى ربِّكَ فتخشَى؟﴾ (النازِعَات ـ ٧٩ : ١٧ ـ ١٩).

- ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وأخُـوكَ بآياتِي، ولا تَنِيَا في ذِكْرِي* اذْهَـبا إلى فِرْعونَ، إنَّهُ طَغَى* فقولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا، لعَلَّهُ يتذكَّرُ أو يخْشَى* قالا : ربَّنَا إنَّنا نَخَـافُ أن يفْـرُطَ علينا أوْ أنْ يطْغَى* قـال : لا تـخَـافَـا، إنَّنِي معَكُمَا، أسمَعُ وأرَى﴾ (طه ـ ٢٠ : ٤٢ ـ ٤٦).

ويطلُبُ فرعون الدليل، فيقدَّم له الدليل، ولكن الجبّار العنيد ـ الذى كان أسيرَ هواه ونزَواته وشيطانِه ـ لم يكن يريد الدليلَ حقا، بل كان يريد دليلا له، فإذا بالدليل عليه :

- ﴿ولقد أرَيْنَاهُ آياتِنَا كُلَّهَا، فكذَّبَ وأبَى* قـال : أجئتَنَا لتُـخْرِجَنا مِن أرضِنَا بسِحْرِك يا مُوسَى؟﴾ (طه ـ ٢٠ : ٥٦ ـ ٥٧).

وجاء السحَرة بكلّ براعتهم، ليُرضُوا فرعونَ مصر، بإبطال سِحر مُوسَى، فإذا بهم يرون الحقيقة الناصعة، فلا يكون أمامهم ـ وقد رأوها ـ إلا أن يتخلّوا عن ربّهم المزعوم، إلى ربّهم الحقيقىّ، خالِقِهم وخالِقِ فرعون، وخالِقِ كلّ شىء، وكانوا يعلَمون مقدَّما أن موقفهم هذا سيجلِب عليهم مِن العذاب والشرّ ما لاطائل لهم به، ولكنها العبودية لله تمسّ قلوبهم، فتحرّرهم مِن فرعون ومِن الدنيا كلها :

- ﴿وأُلْقِىَ السَّـحَـرَةُ ساجدين* قالوا : آمَنَّا بِرَبّ العالَمِين* رَبّ مُوسَى وهَارُون* قالَ فِرْعَوْنُ : آمَنْتُمْ به قبلَ أن آذَنَ لكم؟ إنَّه لمَكْرٌ مكَرْتُمُوهُ في المدينة لتُخْرِجُوا منها أهلَها، فسوف تعلَمون* لأُقَطِّعَنَّ أيدِيَكُمْ وأرجُلَكُم مِن خِلاف، ثم لأُصَلِّبَنَّكُم أجمَعين. قالوا : إنَّا إلى ربِّنا مُنْقَلِبُون* وما تَنْقِمُ منا إلا أنْ آمَنَّا بآيات ربّنا لمَّا جاءَتْنا، ربَّنا أفرِغْ علينا صَبْرا، وتوَفَّنَا مُسلِمين﴾ (الأعراف ـ ٧ : ١٢٠ ـ ١٢٦).

وتبلغ تلك الملحَمة الرائعة مِن ملاحم الصراع بين الخير والشر ذِروتها المحتومة، حيث يتحوَّل الأحرار فى نظر المتفيهقِينَ والمتفلسِفِينَ إلى عبيد للحيرة والاضطراب والجهل والتخبُّط، الناتجين عن الغرور والعبودية للشيطان والهوَى، ويتحوَّل العبيد فى نظَرهم ـ عبادِ الله ـ إلى أحرار :

- ﴿قالَ فِرْعَوْنُ : ما ربُّ العالَمِين* قال : ربّ السمَواتِ والأرضِ وما بينَهُما، إن كنتُمْ مُوقِنِين* قال لمَنْ حوْلَهُ : ألا تَسْتَمِعُون ؟ قال :

رَبُّكـم وربُّ آبائِكم الأوّلِين. قــال : إنَّ رَسُــولَكم الَّذِى أُرْسِلَ إليكُمْ لمجنون* قـال : ربُّ المشْرِقِ والمَغْرِبِ ومـا بينَهُمـا إن كُنتُمْ تعقِلون* قال: لَئِن اتَّخَذْتَ إلهًا غيرِى لأجعَلَنَّك مِن المسجُونين»

(الشُّعَرَاء ـ ٢٦ : ٢٣ ـ ٢٩).

ـ «وقـالَ فِرْعَوْنَ : يأيُّهـا المَلأُ، مـا عَلِمْتُ لكُمْ مِن إله غَيْرِى، فأوْقِدْ لِى يا هَامَانُ علىَ الطِّينِ، فـاجعَلْ لى صَرْحًـا لعَلّى أطَّلِعُ إلى إله مُوسَى، وإنّى لأظُنّه مِن الكاذبين* واستَكْبَرَ هُوَ وجنودُه، فنبَذْناهُم فِى الْيَمِّ، فانظُر كيفَ كان عَاقِبَةُ الظالمين؟» (القصص ـ ٢٨ : ٣٨ ـ ٤٠).

وتبدو صورة الأحـرار فى نظَر هؤلاء المتفيهقِين والمتفلسِفين على حقيقـتها فى المشـهَد الأخـيـر للمَمَة فـرعون ومـوسى، فى مـشـهـد غَرَق فرعـون وجنوده، وهم يلاحقون موسى ومَنْ معه عبرَ البحر :

ـ «وجـاوَزْنَا بِبَنِى إسْرَائيلَ البَحْر، فـأتْبَعَهُمْ فِرْعَـونُ وجنودُه بَغْيًا وعَدْوًا، حتَّى إذا أدرَكَهُ الغَرَقُ قال : آمَنْتُ أنَّه لا إلهَ إلاَّ الذِى آمنَتْ بِهِ بَنُو إسرَائيل، وأنا مِن المسلِمين» (يونُس ـ ١٠ : ٩٠).

وفرقٌ كـبير بين هذا الموقف المتخـاذِل الضـعيف فى لحظة الضـعف، وموقِف عباد الله فى المواقف الشبيهة به، كموقِف موسى أمـام فرعون، كمـا عرضناه من قبل، وكمـوقف إبراهيم مِن النار عندمـا ألقَى به قومُه فيها، بعـد أن هدَم الأصنام التى كانوا يعبدونها.

إن الموقِفين ـ موقِف عباد الله، وموقِف عباد الشيطان ـ على طرفَىْ نقيض.

وهذا الذى حـدث لموسى وفـرعـون، حـدث بصـورة أو أُخرَى لكل نبىٍّ مِن أنبيـاء الله مع قـومـه، وكـان لعبـاد الله فى كل حـالة مـوقِف منـاقِض لموقِف عبـاد الشيطان، فقد كانوا دائما أحرارا، وهـم ـ بمنطِق الدنيـا ومنطِق المتفيهقين ـ ضعاف مجـرَّدون مِن المال والسلاح، إلا سـلاحَ الإيمان بالله، والاعتـزاز بالعبـودية له، وكان عباد الشيطان دائما عبيدا، مع أنهم كـانوا بمنطِق الدنيا ومنطِق المتفيهقين ـ أحرارا، يملِكون المال والرجال والقُوَّة والسلطان.

وهذا الذى حدث لموسى ولغيره من أنبياء الله عليهم السلام، حدث ويحدُث لكثيرين مِن الدعاة إلى الحقّ، الذين يستشعِرون العبودية لله ويستعذِبونها، فيدعون إلى الله، دونَ ما خوف مِن جاه أو سلطان، ودون ما خشية لفقر أو حرمان، لأن عبوديتهم لله تحرّرهم مِن كل حاجة مِن حاجات الدنيا الفانية.

والتاريخ الإسلاميّ القديم والوسيط والحديث يفيض بمواقف هؤلاء وهؤلاء، ويشهَد على أن عبد الله كان دائما هو الحرّ وحدَه، وعبدَ شيطانه وهواه كان هو العبد دائما، مهما أُوتِيَ مِن مال أو سلطان أو قوّة أو نفوذ.

فـفرق كبير بين المنهَج الإلهىّ الكريم لتحرير الإنسان، ومنطِق المتفيهقين والمتفلسفين فى ذلك التحرير، وهو نفسه الفرق بين خالق الأرض والسموات وما بينَهما، ربّ الناس، سبحانه وتعالىَ، الخبير بما خلق، وبين مخلوقات الله العظيم، التى تدّعى أنها تعلَم كلّ شئ، وهى لاتعلَم مِن أمور هذه الحياة إلا القليل.

○ ○ ○

(٥) سِلاح المؤمن(١):

﴿سبَّحَ لِلَّهِ ما فى السَّمٰوٰاتِ وما فى الأرض ، وهُوَ العزيزُ الحكيم* هو الَّذِى أخرَجَ الَّذينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الحشْر، ما ظننتُمْ أَنْ يخرُجوا، وظَنُّوا أنهم مانِعتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِن اللّه، فأتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حيْثُ لم يحتَسِبُوا، وقذَفَ فِى قُلُوبِهِم الرُّعْب، يُخْرِبُونَ بيُوتَهُمْ بأيديهِمْ وأيدِى المؤمِنين، فاعْتَبِرُوا يا أُولِى الأبْصَار﴾. ﴿والَّذِينَ تبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمَان مِنْ قَبْلِهِمْ، يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إليهِم، ولا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتوا، ويُؤْثِرُونَ علىَ أنفُسِهِمْ ولَوْ كَانَ بِهِمْ خصَاصَة، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولَئِكَ هُمَ المُفْلِحُونَ﴾ (الحشر ـ ٥٩ : ١، ٢، ٩).

○ ○ ○

(١) نُشِرَت فى مجلّة (منبر الإسلام) ـ السنة ٣٢ ـ العدد ٢ ـ صفر ١٣٩٤هـ ـ فبراير ١٩٧٤م، ص٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢

الصراعُ بينَ الحقّ والباطل صراع أبَدِيّ، بدأ مع بداية الحياة البشَريّة على الأرض، وسيظلّ طبيعة هذه الحياة البشَريّة على الأرض، حتّى يَرِثَ اللّهُ سبحانه الأرض ومَنْ عليها، ليكون يومُ الحَشْر الأعظم، وليكون حسابُ كل إنسان على ما قدّمت يداه، ولتكون حياةُ البَشَر التى لايقطَعُها مَوْت، حياة خالدة، إما فى الجنة إذا كان ما قدّمته اليدان خيرا وحقّا، وإمّا فى النار إذا كان ما قدمته اليدان شرّا وظُلما.

ولقد جَرَت سُنّةُ اللّه سبحانه وتعالَى فى هذا الصراع على أن ينصر الحَقّ على الباطل، مهما بدَا الحقُّ للعين البشَرية قليلَ الأتباع، ضعيف السلاح، ومهما بدا الباطل لهذه العين كثيرَ الأتباع، قَوِيَّ السلاح كثيرهُ، مِمّا يدلّ على أنّ الله لم يتخلّ يوما عن أتباعه وأنصاره :

- ﴿إنّا لننصُرُ رُسُلَنَا والّذِينَ آمَنُوا فِى الحَيَاةِ الدُّنيَا، ويَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ﴾ (غافِر - ٤٠ : ٥١).

- ﴿إنّ اللّهَ يُدَافِعُ عن الّذِينَ آمَنُوا، إنّ اللّهَ لايُحِبُّ كُلَّ خَوّانٍ كَفُورٍ﴾ (الحَجّ - ٢٢ : ٣٨).

والآياتُ الكريمة مِن سُورَة الحَشْر، التى استفتَحْنا بها هذا المقال، تُلْقِى لنا ضوءا على (ديناميكيّة) الحياة فى كِلْتا الجماعتين - جماعةِ المؤمنين، وجماعةِ الكُفّار - وَجْهًا لِوَجْه، ليبدُوَ للقارِئ - ببساطة - سِرُّ استحقاق المؤمنين لنصر الله، وسبب استحقاق الكُفّار للهزيمة، يوم يلتقِى الجَيْشان وَجهًا لِوَجْه فى ساحة القتال.

إن لقاء الجيشين فى الساحة إنما يكون لقاءً بين ديناميكيّتين مختلفتين تماما، بل متناقِضتين، نرَى فيها ديناميكية المؤمنين قِوَامُها العطاء والبذل، تقابلها ديناميكيّة الكُفّار، وقِوامها الأخذ والإفادة.

فالمؤمنون قوم اعتصَمُوا بالله وبالإيمان، وهم يُحِبُّون مَنْ هاجَر إليهم مِن إخوانهم فى الله، ولايجدون فى صدورهم حاجة مِمّا أُوتوا، ويؤثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة ... أىْ أنهم - باختصار - قد انتصَروا على أنفُسهم، فوقاهم الله شُحّها وبُخْلَها، وتكالُبَها على الحياة ومَتَاعِها.

أما الكُفَّار فهم قوم قد اعتصموا بالحُصُون والأسلحة، يحمى بها كلّ منهم نفسَه، ويحافظ على حياته، وإذا ما انهارت الحُصُون أو اجْتيزَتْ، استبدَّ الخوف بهم، وسيطَر الجزَع على نُفُوسهم، وكان السلاح فى أيديهم عديمَ الفائدة، إذْ ما قيمةُ السلاح فى يد الجبان المُرْتَاع؟ ولذلك فإنهم يخربون بيوتَهم بأيديهم وأيدِى المؤمنين.

وتؤثّر الديناميكيّتان المتناقِضتان للجماعتين فى كل شئ يتَّصل بهما، فتجعل ديناميكيّة الحياة فى مجتمع المؤمنين من هذا المجتمعِ - المجتمعَ المنتصِر - وتجعلُ ديناميكيّة الحياة فى مجتمع الكفار من هذا المجتمعِ - المجتمعَ المنهَزِم - المندَحِر.

إن ديناميكيّة الحياة فى مجتمع المؤمنين تجعل الحياة فى هذا المجتمع متماسِكة، قِوَامُها الحُبّ والتعاوُن :

- ﴿وإنْ يُرِيدُوا أن يخدَعُوكَ فإنَّ حَسْبَكَ اللّه، هو الَّذِى أيَّدَكَ بِنَصْرِه وبالمؤمنِين* وألَّفَ بينَ قُلُوبِهِمْ، لو أنفَقْتَ ما فِى الأرْضِ جَمِيعًا ما ألَّفْتَ بينَ قُلُوبِهِمْ، ولكنَّ اللَّهَ ألَّفَ بينَهُم، إنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم﴾ (الأنفال - ٨ : ٦٢، ٦٣).

والحُبُّ والتعاوُن فى هذا المجتمع لايقوم على أىّ أساس مِن روابط الدنيا وعَلائِقها، فهو لايقوم على أساس رَوابط الدم، أو على أساس المصلَحة الدنيويَّة، أو على أساس الجِوار، أو ما إلى ذلك، وإنما هو يقوم على أساس أسْمَى وأطْهَر، وهو حُبّ الله، والإيمان به، والتضحية فى سبيله، ففِى الله تجتمع تلك الجماعة، وعلى الله تتوكَّل، وعلى بَرَكَتِه تسير، ومِنْ أجله وفى سبيله تجاهد وتضحّى. وليس معنَى ذلك أن روابط الدنيا وعلائقها تنتَفِى من حياة هذه الجماعة، وإنَّما معناه أنَّ تلك الروابط والعلائق لاتكون منزِلتها سِوَى منزِلة ثانويَّة فقط :

- ﴿قُلْ إنْ كَانَ آباؤُكُم وأبْنَاؤُكُمْ وإخْوانُكُمْ وأزْوَاجُكُم وعَشِيرَتُكُمْ، وأمْوالٌ اقْتَرفْتُمُوهَا، وتِجَارَةٌ تخشَوْنَ كَسَادَهَا، ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَها، أحَبَّ إليكم مِنَ اللَّه ورَسُوله، وجِهَادٍ فى سبِيلِه، فتَرَبَّصُوا حتَّى يأتِىَ اللَّهُ بأمْرِه، واللَّهُ لايَهْدِى القَوْمَ الفَاسِقِين﴾ (التوبة - ٩ : ٢٤).

- ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ (التوبة ـ ٩ : ٢٣).

اما ديناميكية الحياة فى مجتمع الكفار فإنها تفتت الحياة فى هذا المجتمع، لأنها حياة قِوامها المصلحة الدنيوية وحدها، ويوم تنتفى المصلحة، تفتر العلائق والروابط، ويوم تتناقض المصالح، يعلن البعض الحرب على البعض الآخر :

- ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا، يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب؛ لئن أخرجتم لنخرجن معكم، ولانطيع فيكم أحدا أبدا، وإن قوتلتم لننصرنكم، والله يشهد إنهم لكاذبون* لئن أخرجوا لايخرجون معهم، ولئن قوتلوا لاينصرونهم، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون* لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله، ذلك بأنهم قوم لايفقهون* لايقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لايعقلون﴾ (الحشر ـ ٥٩ : ١١ ـ ١٤).

وهكذا يكون الصراع بين الحق والباطل، بين المؤمنين والكفار، بين حزب الله وحزب الشيطان، صراعا بين ديناميكيتين متناقضتين من ديناميكيات الحياة فى هذا العالم، تؤدى إحداهما بمجتمعها إلى القوة نتيجة لما يسوده من حب وإخاء وتسامح وإيثار، وتضحية بالنفس والنفيس فى سبيل الجماعة، وفى سبيل المبادئ والمثل العليا، بينما تؤدى الأخرى بمجتمعها إلى الضعف والتفكك والتحلل، ثم الانهيار، نتيجة لما يسوده من تباغض وتحاسد وأثرة، وتصارع على متاع الحياة الدنيا، يحاول كل فرد أن يأخذ منه أكثر ما يستطيع أخذه، بحق وبغير حق.

ويكون الصراع بين الديناميكيتين هو الشرارة، التى بموجبها تبدأ الحياة للصالح من نظم الحياة، وقد صقلته الحياة، فجعلته أصلب عودا، وأقدر على مواجهة أحداث الأيام .. كما تبدأ النهاية للفاسد من تلك النظم، بعد أن حطمته الحياة، التى تشبث بها أتباعه، فأفسدوا دينهم ودنياهم :

- ﴿... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرَّعْد - ١٣ : ١٧).

- ﴿... وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُه، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (الحَجّ - ٢٢ : ٤٠ ، ٤١).

ويحمِل انتصارُ الحقِّ على الباطل، فى الصراع الحتمِىّ بينَهما، بينَ طيَّاته، أسبابَ انتصار الحقّ وأهله، كما يحمِل - بينَ طيَّاته أيضاً - أسبابَ اندِحار الباطل وأهله.

وبعبارة أُخرَى : إن انتصارَ الحقّ واندحارَ الباطل فى الصراع الحتمِىّ بينهما متوقّف على (نوعيات) الأسلحة التِى يستخدمها كِلاَ الطرَفين المتصارِعين، وانتصارُ الحقّ يدلّ على أنَّ أسلِحَتَه التى يستخدِمها أبناؤه هِىَ الأقوَى والأكثرُ فَعَالية، وانيِهارَ الباطل يدلّ على أن أسلِحَتَهُ التى يستخدِمُها أتباعُه هِىَ الأضعَف والأقلّ فَعَالية. وهل كانت الحربُ دائما إلاّ حربَ سلاحٍ لسلاح؟

والمقصودُ بالسلاح هنا هو السلاحُ بأوسَع معانيه، لا السلاحُ التقليدِىُّ وحدَه، الذى لايمكن اعتباره إلا السلاحَ المرئِىَّ فقط، دون أن يكون السلاحَ الحاسم بالضرورة، لأنَّه فى يد الجبان يتحوّل إلى عبء عليه، يُثْقِلُ كاهله، أكثرَ مما يتحوّل إلى عون له، يفلّ بِهِ شوكةَ عدوّه.

والسلاح الحاسم الذى ينتصر به المؤمن هو إيمانه بِربِّه، وثقتُه به، واعتمادُه عليه، بشكل تَهُون معه الصعاب، وتعذُب التضحيات، وترخُص النفس، وتتراءَى صورة الجنة للنفس والعين والقلب. وهذا الإيمان الذى يعمُر قلبَ الجندىّ المؤمن يعمُرُ قلبَ القيادة المؤمنة، فتخطّط وتدبّر وتعمَل، وتُعِدُّ العُدَّة، عاملة للنصر بكل مقياس يتحقّق به ذلك النصر.

أما السلاح الذى يندحر به الباطلُ وأهلُه، فهو اعتمادُه على (قُدرته الذاتية) وحدَها، إنْ صَحَّ هذا التعبير، ناسيًا أن قدرة الله فوقَ كُلّ قدرة، وأنَّه يسعَى لتحقيق أهداف دنيوية وكَفَى، ناسيا أنه لايُوجَد فى الدنيا أغلَى مِن الروح والنفس،

وأنّه يقيس الأمور بميزان العقل وحدَه، فَيُعِدّ الخُطَط ويدبّر الأمور ويحشد الرجال ويعدّ السلاح، ناسيا أن للعقل الإنسانيّ حدودا، وأنه قاصر كل القصور.

ويومَ يفكر المؤمن - فى ساعة مِن ساعات ضعفِه - تفكيرَ الكافر، فيعتمد على هذه (القدرة الذاتية) وحدَها، لِما يرَى مِن توفّرها بين يديه، ناسيا قدرة الله التى تشدّ ازرَه، فإنه يُلَقّن فى الميدان درسا لا يُنْسَى :

- ﴿لقد نصَرَكُمُ اللَّهُ فى مَوَاطِنَ كَثِيرَة، ويَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكم فَلَمْ تُغْنِ عنكُمْ شَيْئاً، وضَاقَت عليكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَّ وَلَّيتُم مُدبِرِين * ثم أنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَه على رَسُوله وعلى المؤمنين، وأنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا، وعَذَّبَ الّذِينَ كَفَرُوا، وذَلِك جَزَاءُ الكَافِرين﴾
(التوبة - ٩ : ٢٥ ، ٢٦).

○ ○ ○

(٦) الإسلام والصّحّة النفسيّة[١]:

عرف الإنسانُ الطبّ منذُ أقدم العصور، فقد عرَفه منذُ ذاق المرض، والتمَس الطريق إلى التخلّص منه، وكان سبيلُ (المحاولة والخطأ) هو سبيل المعرفة الطبّيّة أوّل الأمر، ومنه تكوّن لدَى الإنسان الأول مجموعة مِن المعارف الطبية كان الإلمامُ بها يؤهّل لممارسة الطبّ، ومكافحة المرَض، بيدَ أنه كانت هناك أمراض يفشَل الطبّ فى علاجها، وكانت هذه الأمراض تُعزَى عادة إلى قُوَى خارقة.

وبتَقَدُّم العِلم والتكنولوجْيا فى العصر الحاضر، استطاع الإنسان المعاصِر أن يضع يده على كل أمراض الجَسَد تقريبا، ويشخّصها ويصف الدواء المناسِب لكل منها.

وإلى جانب الطبّ العُضويّ، ازدهَر فى العصر الحديث الطبّ النفسيّ، والطبّ العقليّ، والفرقُ بين الأنواع الثلاثة مِن الطبّ معروف، فالطبّ العضويّ هو الطبّ الذى يختصّ بوظائف الأعضاء - أعضاء الجسم المختلفة، والطبُّ العقليّ هو الذى يختصّ بالعقل وحدَه، أما الطبّ النفسيّ، فهو الطبّ الذى يهتمّ باللاشعور،

(١) نُشرت فى مجلّة (منبَر الإسلام) - السنة ٣٣ - العدَد ٢ - صفَر ١٣٩٥هـ - يناير ١٩٧٥م، ص ١٥٨ ، ١٥٩.

وما يُخْتزنُ فيه مِن ذِكريات أليمة، تؤثر فى تصرُّفات الإنسان، فتجعله يتصرّف بشكل معيَّن، يرْضى ـ أو لا يرضَى ـ عنه الناس.

وقد كان هناك خلطٌ حتى عهد قريب بينَ الطبِّ النفسِيِّ والطبِّ العقليِّ، حتى تقدَّم الطبّ فى العصر الحديث فكشف النقابَ عن أمرين، أوَّلهما هو أنه لاعلاقة بينَ المرَض العقليّ والمرَض النفسيّ، فالمرض العقليّ مرَض عضويّ يُصيب المخّ، شأنُه فى ذلك شأنُ المرض الذى يصيب الكَبِد أو القلب أو الرئة مثلا، بينماالمرَض النفسيّ مرض يصعُب وضع اليد عليه، لأنه لايُصيب عُضوا معيَّنا من أعضاء الجسم، كالمرض العقلى أو المرض العضوى. أمَّا الأمرُ الثانِى فهو أنه رغمَ الفصل بين هذه المجالات الثلاثة مِن مجالات الطبّ، فإن كُلاً منها يؤثّر فى الآخَر، وذلك لأن موضوعها جميعا هو الإنسان، والإنسان (كيان) واحد، يصعُب الفصل بين أجزائه، فالإنسان الذى يُصاب بالاكتئاب أو الضيق مثلا، لايُقبِل على الطعام بنفس الشهيَّة التى يُقبِل بها عليه عندما يكون فرحا سعيدا، كما أن جهازه الهضمى يتأثر بهذا الاكتئاب، فيُصاب الإنسان بسوء الهضم. كما أن الإنسان عندما يكون مُصابا بأىّ مَرَض عُضوِىّ، ينعكس ذلك على نفسه فيُصاب بالحُزن والاكتئاب.

ويلفت نظرَ العلماء والباحثين فى هذا العصر ـ مع تقدُّم الطبّ النفسىّ ـ زيادةُ الأمراض النفسية فيه بشكل لافت للنظر، وأنَّ هذه الأمراض تزيد حدَّتُها كلما سارت المجتمعات فى طريق الحضارة والمدَنيَّة، وأنَّ نسبة هذه الأمراض فى مجتمعات اليوم تزيد فى المجتمعات الأكثرحضارة، وتقل فى المجتمعات الأقلّ حضارة، مِمَّا جعلهم يربطون بين المرَض النفسّى والحضارة، ويسمُّون المرَض النفسىّ (مرض الحضارة والمدنيَّة).

بيدَ أنَّ المتتبِّعَ لتاريخ المرَض، لايسَعُه إلا أن يجزم بزيْف هذا الادّعاء، وبانعدام الصلة بين المرَض النفسىّ والمدَنيّة أو الحضارة، رغم زيادة نسبة المرَض النفسى فى المجتمعات الأكثر حضارة اليوم، فقد عَرف الإنسانَ الأوّل المرَض النفسىّ قبل أن يعرف المرَض العُضوِىّ، فقد كان أبو الخلق آدم يعيش مع زوجته فى الجنَّة، والحياةُ فى الجنة لامرض فيها ولا اختلال فى وظائف الأعضاء كما نعرف. وما أن طُرِد مِن الجنة حتى أصابه القلق، والقلق هو مصدر الأمراض النفسية على الإطلاق :

- ﴿ويا آدمُ اسكُنْ أنْتَ وزَوْجُكَ الجنَّة، فَكُلاَ مِن حَيْثُ شِئْتُما، ولا تقْرَبا هذِهِ الشَّجرةَ فتكُونا من الظَّالِمين* فوسْوسَ لهُما الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لهُما ما وُورِيَ عنهُما مِن سَوْءاتِهِما، وقالَ : ما نَهاكُما ربُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجرةِ إلاَّ أنْ تكُونا ملَكَيْنِ أوْ تكُونا مِن الخالِدِين* وقاسَمَهُما : إنّي لكُما لِمَنَ النّاصِحِين* فدلاّهُما بِغُرُورٍ، فلمَّا ذاقا الشَّجرةَ بدتْ لهُما سَوْءاتُهُما، وطفِقا يخْصِفانِ عليْهِما مِنْ ورقِ الجنَّة، ونَاداهُما ربُّهُما: ألَمْ أنْهَكُما عَنْ تِلْكُما الشَّجرَةِ، وأقُلْ لكُما: إنَّ الشَّيطانَ لكُما عدُوٌّ مُبِين؟* قالا: ربَّنا ظلَمْنا أنْفُسَنا، وإنْ لَمْ تَغْفِر لنا وتَرْحَمْنا لنَكُونَنَّ مِن الخَاسِرِين﴾ (الأعْرَاف : ٧ : ١٩ ـ ٢٣).

لقد أُصيب آدَمُ بالقلَق بعد أن طُرِدَ مِن الجنة، على نفسه ومستقبله على هذه الأرض، التى لم يتعوَّد الحياة عليها، وعلى بَنِيه مِن بعدِه، وَمِنْ ثَمَّ عرف المرض النفسىّ قبل أن يعرِف المرَض العُضوىّ على هذه الأرض، لأنه نزل إلى الأرض مُصَابا به، كما نرَى من الآية الأخيرة.

ومِثلما كان للأمراض العُضوية أطِبَّاؤها منذُ أقدم العصور، مع اختلاف مقدِرة هؤلاء الأطباء مِن عصر إلى عصر، كان للأمراض النفسية أطِبَّاؤها أيضا، وإلا فما الذى يمكن أن نصف به الحُكَماء فى كلّ زمان ومكان، مِمَّن خَبِروا الحياة، وأوْجَزُوا لنا فى عبارات مقتَضَبة ما يجب أن يكون عليه الإنسان فى حياته ـ الخاصّة والعامّة ـ ليعيش حياته سعيدا، متمتّعا بالأمن والاستقرار، بعيدا عن القلَق وأسبابه؟

ولقد كان المنهَج السماوِىّ ـ ولا يزال ـ هو المنهَج الأمثل لعلاج أمراض النفس، وتوفير الصحّة النفسية للإنسان فى حياته، وذلك لأنه منهَج مُنَزّل مِن عندِ الله، خالق النفس، والعارف ـ وحدَه ـ بمَكْنُونِ سرّها، وهذا المنهَج السماوىّ فى علاج أمراض النفس نراه فى كلّ كتاب سماوىّ نزَل، ونجد أطباءَه هم أنبياء الله ورسُله، ونرَى هذا المنهج السماوِىّ يبلُغ ذِروته فى (القرآن الكريم)، آخِر الكُتُب السماوية.

وإذا كان القلق هو مصدر الأمراض النفسية على الإطلاق، كما يقول علماء النفس المعاصرون، فإن مصدر هذا القلق هو الدنيا، بما فيها من مال وبنين، ومنصب وجاه، وتهديد للنفس والمال، وما إلى ذلك.

ومن ثم كان المنهج السماوىّ فى علاج أمراض النفس وتوفير الصحّة النفسية، هو إزالة أسباب هذا القلق من جذورها، وذلك بتنمية النظرة الحقيقية إلى الحياة، ووضع الحياة الدنيا، بكلّ ما فيها من مال وولد وجاه ومَتاع، حيث يجب أن تكون :

- ﴿المالُ والبَنُون زِينَة الحَيَاةِ الدُّنْيَا، والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّك ثَوَابًا وخَيرٌ أمَلًا﴾ (الكَهْف ـ ١٨ : ٤٦).

- ﴿اللَّهُ يبسُطُ الرِّزقَ لِمَنْ يَشَاءُ ويَقْدِر، وفَرِحُوا بالحَيَاة الدُّنْيَا، وما الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إلَّا مَتَاع﴾ (الرَّعْد ـ ١٣ : ٢٦).

فهناك حياة دُنيا هى التى يحياها بنو آدمَ على الأرض، وخيرُ ما تُوصَفُ به هذه الحياة، هو أنها حياة دُنيَا، أىْ سُفْلَى وأحْقَر وأقلّ شأنا، وهناك حياة آخِرة، هى الحياة الحقيقية الدائمة التى لاتنتهى بموت، كما هو الشأن فى الحياة الدنيا، ومِن أجل هذه الحياة الآخِرة فليعمَل العاملون فى حياتهم الدنيا :

- ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأخْسَرِينَ أعْمَالا؟* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وهُمْ يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾
(الكَهْف ـ ١٨ : ١٠٣، ١٠٤).

فالإنسان فى دُنيَاه يشقَى ويتعَب، ويعمَل ويكِدّ، ويأكل ويتمتَّع، وينعَم بالمال والولَد، إن رُزِقَ المالَ والولَد، ويُلاقِى المصائب والأهوال، ويذوق الجوع والفقر والحرمان، ولكنه فى كل الحالات راض وسعيد، لا المال يُطغِيه، ولا الولد يُعمِيه، ولا السلطان والقوّة تُلهِيه، ولا الفقر والحرمان والجوع يُشقِيه، إن كان مؤمنا بالله حق الإيمان، لأن تلك كلّها أعراضٌ زائلة، يبتلِى بها اللهُ عباده المؤمنين، أيشكرون على النعماء، ويصبرون على البأساء، أم يُعمِيهم العَرَضُ الزائل عن الحياة الحقيقية؟ :

- ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً، واشكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إنْ كُنْتُمْ إيّاه تعبُدون﴾ (النَّحل ـ ١٦ : ١١٤).

- ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَات ما رَزَقْنَاكُمْ، ولا تطْغَوْا فِيهِ فَيحِلَّ عليكُمْ غَضَبِى ، ومَنْ يَحْلِلْ عليهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى* وإنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه ـ ٢٠ : ٨١ ، ٨٢).

فالإيمان بالله وحدَه، وبأنَّ الحياة الدنيا فانية زائلة، عَرَضها ـ مهما بَدَا لِقصَارِ النظَر كثيرا ـ ضئيلٌ حقير، وبأن الحياة الحقيقية هى الحياة الآخِرة التى لاتنتهى ولا تزول، هو المنهَج السماوىّ لعلاج أمراض النفس، وتوفير الصحّة النفسية للإنسان على هذه الأرض، وإذا ما ملك الإنسان هذا المنهَج، فإن القلَق لن يعرف الطريق إليه، لأنه سيسلّم أمورَه كلّها لِلّه، سواء فى ذلك أمور حاضره وأمور مستقبله، وسيَرْضَى بجوار الله على كل جوار، وبرضا الله عن كل عَرَض دنيوىّ زائل، مِن مال وبنين وجاه وسلطان، بل سيجد لذة ومُتعة فيما يُشْقِى طُلّاب الدنيا، مِن فقر يَنْزِل، أو مُصيبة تقع، أو مرض يُلِمّ، أو حبيب يُفْقَد، لأنه يحتَسِب ذلك كلّه عند الله، الذى يسعَد بجواره ورضاه، ويستسلم لأمره، ويعيش دنياه على أمل أن ينتقل إلى أُخراه مرضيّا عنه من خالقه :

- ﴿يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا استَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاة، إنَّ اللَّهَ مع الصَّابِرين* ولاتقُولوا لِمَنْ يُقْتَل فِى سبيلِ اللَّهِ أمواتٌ، بَلْ أحْيَاءٌ ولكِنْ لاتشْعُرُون* ولَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِنَ الخَوْف والجُوعِ، ونَقْصٍ مِن الأموالِ والأنفُسِ والثَّمَراتِ، وبَشِّر الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إذا أصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا : إنَّا لِلّه وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُون* أُولئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَة، وَأُولَئِكَ هُمُ المهتَدُون﴾ (البقرة ـ ٢ : ١٥٣ ـ ١٥٧).

وفرق كبير بين هذا المنهَج الربّانىّ الكريم فى علاج أمراض النفس وتوفير الصحّة النفسية للإنسان، وبينَ المنهَج الإنسانىّ الأبتَر، فالمنهَج الربّانىّ يقتَلِعُ مشكلة القلق مِن جذورها، بربطه الإنسان بربّه وخالقه، وبتعميق فهمه للحياة، أما المنهَج الإنسانى فما زال ـ منذُ أقدم العصور حتى اليوم ـ يعالج المشكلة مِن

الظاهر فقط، وكأنه يضع عليها مهدِّئات أو مسكِّنات فقط، ومِنْ ثَمَّ تستفحِل ولا تزول.

وإذا كانت نسبة المُصَابين بالأمراض النفسيّة فى المجتمعات الأكثر حضارة ومدَنِيَّة اليوم، أعلىَ منها فى المجتمعات الأقلّ حضارة ومَدَنِيَّة، فإن هذه الحقيقة تؤكّد ما نذهَب إليه، لأن طُغيان الحياة المادّية فى هذه المجتمعات الأكثر تَقدُّما، يقابله - فى الواقع - إهمال لحياة الروح، وإنكار تامّ أو شِبه تامّ لما وراءها مِن حياة، ومِنْ ثَمَّ يكون النجاح فى الدنيا وحدَه مقياس كل نجاح، وتكون الحياة فى مِثل هذه المجتمعات مُوَلّدة للقلَق فى كل لحظة، لأن طالب الدنيا لايشبَع أبدا، ومِنْ ثَمَّ يظلّ القلَق يطارده ليلَ نهار، بسبَب وبغير سبَب.

وبعيدٌ عن الصواب - لذلك - أنْ نسمّى المرَض النفسّى مرَض الحضارة أو المدَنيَّة، بل نسمّيه (مرض المادّيّة)، فحينما تطغَى المادّيّة على مجتمع، تزيد نسبة الأمراض النفسية فيه، وحينما تطغَى الروحانية وتقوَى العقيدة، ويزيد اتصال الإنسان بربّه، تقلّ أمراضُ النفس، لأن الطمانينة والرضا، سيَحِلاّن محَلّ القلَق، فيكون للحياة معنىً جديد، يسعَد فيه الإنسان فى دنياه، وينتظر فيه أن يسعَد فى أخراه أيضا.

وقد كانت تلك النزعة المادّيّة، التى وَلَّدت الأمراض النفسية، بِما سبَّبته مِن قلق، وراء انهيار حضارات كثيرة، فى عصور تاريخية مختلفة، وهى نذير شرّ لحضارتنا الراهنة، ما لَم تَعُد الإنسانية مرّة ثانية إلى حياتها الروحية، وإلى المنهَج الربّانىّ الذى رسمه الحقّ سبحانه، والذى لايضلّ مَن اتّبعه، ولايشقَى من سار على هُداه:

- ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُم يَوْمَ القِيَامَة، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب﴾ (البقرة - ٢ : ٢١٢).

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَار، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأكُلُونَ كَمَا تَأكُلُ الأنْعَام، وَالنَّارُ مَثْوَى لَهُمْ﴾ (مُحَمّد - ٤٧ : ١٢).

(٧) رمضان المدرسة(١):

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ، وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة ـ ٢ : ١٨٥).

○ ○ ○

الصومُ ـ لغةً ـ هو الإمساك عن أىّ فِعل أو قوْل. وهو بهذا المعنى عبادة فُرِضت على كلّ الأمَم السابقة، تماما كما فُرِضت على الأمّة الإسلامية :

ـ ﴿يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة ـ ٢ : ١٨٣).

وموضوع الإمساك فى الصوم فى الإسلام هو (الطعام والشراب، مِن طُلوع الفجر إلى غروب الشمس، مع النّيّة). ومِن أجل هذا الإمساك عن الطعام والشراب طيلة النهار، وما يتحمّله الجسد بسببه مِن متاعب ومشقّات، كان تعظيم أجر الصائم، وتكريم شهر الصوم، واعتباره أفضلَ الشهور عند الله.

غيرَ أن مجرّد (الإمساك عن الطعام والشراب) على هذا النحو لايمكن أن يكون مبرّرا كافيا لتفضيل شهر على شهر، بدليل الآيات الأربعة التى يَرِدُ فيها (الأمر) بالصوم فى القرآن، وهى الآيات من ١٨٣ ـ ١٨٦ من سورة البقرة، التى يَرِدُ فيها الأمر بالصوم مرّتين، وفى كلّ مرّة يتبَع ذلك الأمرَ إباحةُ التحلّل منه عند المرض أو السفَر، كما نرَى فى آية من هاتين الآيتين، وهى الآية التى استهللنا بها هذا المقال.

(فالإمساك) عن الطعام والشراب ليس هدَف الأهداف فى الصوم، وليس السبَب الذى من أجله كان الركنَ الثالثَ مِن أركان الإسلام، أو كرّم شهرُ الصوم فكان أفضلَ الشهور عند الله، وإنّما (الإمساك) عن الطعام والشراب مجرّد

(١) نُشِرَت فى مجلّة (منبَر الإسلام) ـ السنة ٣٣ ـ العدَد ٩ ـ رمضَان ١٣٩٥هـ ـ سبتمبر ١٩٧٥م، ص ٣٠ ـ ٣٣ مِن مُلْحق العدَد (الهديّة).

(مدخَل) للصوم الحقيقىّ، وهو (الإمساك) عن المعاصى والشرور، إمساكا يقطَع ما بينَ الإنسان والشيطان، ويصل ما بينَ الإنسان وربّه.

وما لم يُفهَم الصوم على هذا النحو، فإنه لايؤدّى بالصائم إلى ما يرجوه بصومه مِن أجر وثواب. بدليل قول رسول الله (ﷺ)، فيما يرويه عنه البُخارىُّ فى صحيحه عن آدَمَ بن إياس، عن ابن أبى ذئب، عن سعيد المقبرىّ، عن أبيه، عن أبى هُرَيْرَة رضِىَ اللهُ عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) :

- «مَنْ لم يدعْ قولَ الزُّورِ والعملَ به، فليس لِلّه حاجَةٌ فى أن يَدعَ طعامَه وشرابَه».

وإذا فُهِمَ الصومُ على هذا النحو، فكان مدخَلا إلى طريق الله، استحقّ الصائمُ رِضَا الله وثوابَه، الذى يحدّثنا عنه رسول الله (ﷺ) بقوله، فيما يرويه عنه البُخارىّ فى صحيحه، عن عبد الله بن مسلمة، عن مالك بن أبى الزناد، عن الأعرَج، عن أبى هريرةَ رضِىَ اللهُ عنه قال :

- «الصيام جُنّة، فلا يَرْفُثْ ولايَجْهَل، وإن امرُؤٌ قاتله أو شاتَمَه، فلْيقُلْ : إنّى صائم : مرّتين، والذى نَفْسُ محمد بيده، لَخَلُوفُ فَمِ الصائم أطْيَبُ عندَ الله تعالَى مِن ريح المِسْك، يترُك طعامَه وشرابَه وشهوته مِن أجلِى. الصيام لى، وأنا أجْزِى به، والحسَنَةُ بعَشْر أمثالها».

وهكذا يكون تكريم شهر رمضان - شهر الصوم - لأنه مدرسة إسلامية كُبرَى، يغسِل بها الله سبحانه الأدران التى عَلِقَتْ بالنفس طِيلة أَحَد عشرَ شهرا، لتُستَصْفَى النفس مِن جديد، وتعود إلى قافلة المؤمنين بالله، الجديرين بذلك الاستخلاف العظيم، الذى كَرَّم الله سبحانه به الإنسان يوم خَلَقه :

- ﴿وإذْ قالَ رَبُّك لِلملائكة: إنّى جاعِلٌ فى الأرضِ خَليفة، قالوا: أتَجعَلُ فيها مَنْ يُفسِدُ فيها ويسْفِكُ الدماء، ونحنُ نسبّح بحمدِك، ونقدّس لك؟ قال: إنّى أعلَم مالا تعلَمون﴾ (البقرة - ٢ : ٣٠).

والوقـوف عند مـجرّد (الحرمـان) مِن الطعـام والشـراب لايحـقّق الهـدَف مِن تلك (المدرسة) الإسـلامية الكبـرَى، وإنما هـو بمثابة وقوف عندَ بابها، لايستطيع به الإنسـان أن يُفـيـد من دروسـهـا، ومِن أجل ذلـك كـان خـتـام الآيات التى تتـحـدّث عن الصـوم، فى سـورة البقرة، هـو قوله تعالى :

- «وإذا سَـألَكَ عِـبـادِى عنّى فَـإنّـى قـريبٌ، أُجـيـبُ دعـوةَ الدّاعِ إذا دَعَان، فلْيَسْتَجِيبُوا لِى، ولْيُؤمِنُوا بِى، لعلّهُم يرشُدون»

(البقرة - ٢ : ١٨٦).

فهو منهج رَبّانِىّ كـريم، يبدؤه الإنسان(بالإمساك) عن المعـاصِى، والبُعد عن طريق الشيطان، وينتهِى منه ربّانيا خالصا، قريبا مِن ربّه، مؤمنا بـه، مرضِيًا عنه، يأتمر بأوامره، وينتهِى عن نواهيه. وفى هـذا الضـوء يمكن أن نفهَم حديث السيدة عـائشة رضِىَ اللهُ عنهـا، فيـمـا يرويه عنها البُـخارىّ فـى صـحـيـحـه، عن عبـد الله بن يوسف، عن مـالك بن أبـى النضـر، عن أبى سلمـة، عن عـائشـة رضـى الله عنهـا، قالت:

- «كـان رسـول الله (ﷺ) يصـوم حـتى نقـول : لايُفـطِر، ويُفـطِر حـتى نقـول : لايصـوم، فـمـا رأيت رسـول الله (ﷺ) اسـتكمَل صـيام شـهرٍ إلا رمضان».

وقريبٌ من رواية السـيـدة عائشة رضِـىَ اللّهُ عنها روايتان أُخـرَيان لابن عباس وأنَس، رضـى الله عنهما.

ويُفـهَم من هـذه الروايات جـمـيـعـا أن الرسـول الكريم كـان دائـم التـردّد على (مـدرسة) الصـوم الربّانية، يُفيد مِن دروسـهـا، ويفـهَم عظاتِهـا وعِـبرَهـا، ويتـرجم ذلك كله إلى سلـوك عَمَلىّ، يبدو فـيـه قـرآنيا فِـى تصـرفاتـه، قرآنيا فى معامـلاته، قرآنيـا فى تفكيـره، قـرآنيـا فى أخـلاقه، وقـد أحـسـن أحـدُ أصـحـابـه رضِـىَ الله عنهم وصـفه (ﷺ) فى عبارة مُوجَزة، ولكنها كافية، محـقّقة للهدف، حيث قال :

- «كان خُلُقُه القرآن».

وليس مِن قـبيل الصـدفة أن يجـعل الله سـبـحـانه شـهـر رمـضـان هـو شـهـر القرآن، وشـهر مـعارك الإسـلام الكُبرَى ضـدّ أعداء الله، وفى مقـدّمتها مـعـركة بدر،

وشهر الانتصارات، التي تبدأ بانتصار الإنسان على نفسه، وكبحه جماحَها، وإقامته حاجزا بينها وبين الشيطان أن يتسرَّب إليها، وتنتهي بانتصاره على عَدُوِّ الله وعدوِّه، الذين أضلّهم الشيطان فجرفهم في تيّاره، فلم يعودوا يرون أو يسمعون أو يعقلون :

- ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المهتدِي، وَمَنْ يُضْلِلْ فَأولئك هم الخاسِرون* ولقد ذرأنا لِجَهَنَّمَ كثيرًا مِن الجِنّ والإنْس، لهم قُلوبٌ لايفقَهُون بها، ولهم أعينٌ لايُبصِرون بها، ولهم آذانٌ لايسمَعُون بها، أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أضَلّ، أولئك هُمُ الغافلون﴾ (الأعراف ـ ٧ : ١٧٨، ١٧٩).

٥ ٥ ٥

(٨) حَلَقاتٌ في منهَج إسلاميّ متكامِل(١)

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي، أَدْعُو إِلىَ اللَّهِ عَلىَ بَصِيرَةٍ، أَنَا وَمَن اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَا أَنَا مِن المُشْرِكِين﴾ (يُوسُف ـ ١٢ : ١٠٨).

٥ ٥ ٥

.... وإذا كان (الإمساك) عن الطعام والشراب في رمضان إنما هو «مجرّد مدخَل» للصوم الحقيقيّ، وهو (الإمساك) عن المعاصي والشرور، إمساكا يقطَع ما بينَ الإنسان والشيطان، ويَصِل ما بينَ الإنسان وربّه، على حدّ ما ذهبنا إليه في مقالنا المُعنْوَن (رمضان .. المدرسة)، والمنشور بالعدَد الماضي (عدَد رمضان) مِن (منبَر الإسلام) ـ فإن ذلك لايعني أنّ شهر الصوم المبارَك هو نهاية مطاف بالنسبة للمسلم، ولكنه بداية ذلك المطَاف.

وما لم يُفْهَم (الصومُ) هذا الفهم ـ كما أراده الإسلام ـ فإن المسلم لايخرُج منه بغير (رياضة) الجَسَد على تحمُّل متاعب الجوع والعطش، أما رياضة (الروح)، وهي هدَف الأهداف في الصوم الإسلاميّ، فإن الصائم يخرُج منها صِفْرَ اليدين.

والحقُّ أن الصومَ لاينفرد عن العبادات الإسلامية الأُخرَى بهذه الميزة، فالعبادات الإسلامية تمتاز عن عبادات الأديان السابقة الأُخرَى بأنّها (رياضات)

(١) نُشِرَت في مجلّة (منبَرَ الإسلام) ـ السنة ٣٤ ـ العدَد ٩ ـ رمضان ١٣٩٦هـ ـ سبتمبر ١٩٧٦م . ص ١٦٤ ، ١٦٥.

رُوحية مقصودة، يستصفى بها المسلم نفسَه وروحه، ويخلّصها مِن الأدران التى يمكن أن تعلَق بها بفعل الشيطان فى النفس الإنسانية، حتى يكون الإنسان جديرا بذلك التكريم الذى كرّمه به رَبُّه يوم استخلفَه دون غيره مِن خلق الله الكثير، بما فى ذلك الملائكة المقرّبون أنفسهم:

- ﴿وإذْ قالَ رَبُّكَ للمَلائِكةِ: إنّى جاعِلٌ فِى الأرْضِ خَلِيفَة، قَالُوا: أتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدّمَاء، ونَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ؟ قالَ: إنّى أعْلَمُ مَالا تعلَمُونَ﴾ (البقرة - ٢ : ٣٠).

فالصوم - كما سبق - ليس امتناعا عن الطعام والشراب، وإنما هو امتناع عن الشرور كُلّها، وبالتالى امتناعٌ عن سبيل الشيطان، وسيرٌ فى طريق الله - وإلا فما أكثرَ الممتَنِعين عن الطعام والشراب مِن غير المسلمين، لأسباب كثيرة، ولايمكن اعتبارُهم صائمين.

والصلاة ليست حرَكات جوفاء تؤدَّى، تتردَّد فيها آيات قرآنية، وبعض أدعية وتسبيحات، وإنما هى (اتّصال) وثيق بالله، (ينقطِع) به المسلم عن الدنيا، بما فيها ومَنْ فيها، خمسَ مرّات مفروضة كُلَّ يوم، يناجِى فيها ربَّه عن قُرب، ويذوق (حلاوة) تلك المناجاة، فيتجنَّب طريق الشيطان ويسلُك طريق الله الذى أحسَّ - ويُحِسُّ - حلاوة مناجاته، وبالتالى السير فى طريقه.

فهى رياضة (روحية) أُخرَى كالصوم، إن أُدِّيت - مثله - على وجهها الصحيح.

والزكاة ليست مُجَرَّد إخراجِ قدرٍ معيَّن من المال فى رمضان، أو فى غيره مِن المناسبات، وإلا فما أكثر المخرجينَ المالَ مِن القادرين غيرِ المسلمين، ربَّما بقدر أكبرَ مِمّا يُخرِج به المسلمون هذه الزكاة، ومع ذلك، فليس هذا الإخراج للمال مِن الزكاة فى شئ.

وإنما الزكاة هى الأخرَى - كالصلاة والصوم - رياضة (رُوحية) على (البذل) والعطاء، ورياضة (رُوحية) على أخذ القَوِىّ بِيَدِ الضعيف.

وإذا كان (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)، فإن الزكاة تغدو (رياضة) رُوحية

على (بذل) هذه الحياة الدنيا كلّها رخيصة فى سبيل الله، إن طُلب بذلَ النفس والمال فى سبيل الله.

والحجّ ليس مجرَّد (رِحلة) إلى بيت الله الحرام فى مكّة، تؤدّى فيها طقوس مُعيّنة، وإلا فما أقدَرَ غير المسلمين على الارتحال إلى كل مكان اليوم.

وإنما هو الآخَرَ - كالصلاة والصوم والزكاة - رياضة (رُوحية) على (الارتحال) فى سبيل الله، وعلى (الاهتمام) بشئون المسلمين - كلّ المسلمين.

فهى (رياضة) تتجاوَز آفاقَ (النفس) إلى آفاق (الجماعة)، وتتجاوَز الأُفُق (المحَلّىّ) الضيِّق، إلى الأُفُق (الإنسانِىّ) الرحب، وبها تترجَم عمَليا (مسئولية) المسلم عن الإنسانية جمعاء، وتتحوَّل مِن مجرد (شعار) يُرفَع، إلى (حقيقة) واقعة.

○ ○ ○

فالعبادات فى الإسلام كلّها ليست مجرّد (حركات) تؤدَّى، أو (أدعية) يتحرَّك بها اللسان، وإنما هى (رياضات) رُوحية، يرُوض بها المسلم نفسه على السير فى طريق الله، وتحمُّل مسئولية (الاستخلاف) التى شرَّف بها (الإنسان)، يوم خَلَقَه.

وهى (رياضات) رُوحية، يروض بها المسلم نفسه على التصدّى للشيطان، الذى أقْسَمَ بعِزّة الله - يوم طُرِدَ من رحمة الله - ليُغْوِيَنَّ ذلك (الإنسان) بكل سبيل، حِقدا منه على ذلك (الإنسان)، الذى فَضّله ربُّه عليه، والذى تسبَّب فيما آل إليه من شقاء :

- ﴿قالَ : فاخرُجْ مِنها، فإنَّكَ رَجِيم* وإنَّ عليكَ لَعنَتِى إلىَ يَوْمِ الدين* قالَ : رَبِّ فأنْظرْنِى إلى يَوْمِ يُبعَثُون* قالَ : فإنَّكَ مِن المُنظَرِين* إلىَ يَومِ الوَقْتِ المعلُوم* قالَ : فبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجمَعِين* إلاَّ عِبادَكَ مِنهُم المُخْلَصِين﴾ (ص - ٣٨ : ٧٧ - ٨٣).

وهذه (الرياضات) الروحية تنتظِم ذلك (المنهَج) الربّانِىّ الكريم، الذى خطّطه لتربية النفس الإنسانية، التى خلَقها وسوّاها، وهو سبحانه بها أعلَم

والوقـوف عند (شكليـات) هذا (المنهج) الربّانِيّ الكريم أمْرٌ لايسِيءُ إلى هذا المنهَج، وإنما يُسِيءُ إلى مَنْ يُسِيئون تطبيقه.

والاكتفاء (بشكليّات) هذا المنهَج الربّانِيّ لايحقّق الهدف المرجُوّ منه.

والأخذُ (ببـعض) هذا المنهَج الربّانِيّ وتركُ بعضِه الآخَر لايقلّ خَطَرا عن الاكتفاء بالشكل فيه دون الجوهَر.

فلابُدّ ـ لنجاح هذا (المنهَج الربّانِيّ) ـ مِن الأخذ به متكاملا.

ولابدّ ـ أيضا ـ مِن الأخذ بروحه وشكله معا.

وليس ذلك بالأمـر السـهل اليسـير، إذ لايَقْدِرُ عليه إلّا مَن هَدَى اللهُ قلبَه إلى الإيمان الصحيح به.

ودونَ ذلك الهدف العـزيز جهاد عنيف للنفس وشيطانها، دونَه جهادُ العدو، بالسلاح التقليديّ.

ولعل ذلك هو ما قصده رسول الله (ﷺ)، عند عودته من إحدَى الغزوات : «رجَعْنا مِن الجهاد الأصغَر إلى الجِهاد الأكبر». ولمّا سُئِلَ (ﷺ) عن هذا الجهاد الأكبر، أجاب : «إنه جهاد النفس».

إن المسلم إذا «انتصر» على نفسه، سَهُلَ عليه أن يَنْتَصِرَ على عدوّه.

ولن يستطيع المسلم أن ينتصر على نفسه ـ فينتصرَ على عَدُوِّه ـ إلا إذا أخذ بهذا (المنهَج الربانيّ) المتكامل ـ شكلا وجوهرا، فَبِهِ يملِك الدنيا ـ كما ملكها المسلمون الأوائل ـ بعدَ أن ملكته، وبه يكون المسلمونَ (خيرَ أمّة أُخْرِجَتْ للناس)، بعد أن هانوا على أنفسهم ـ بتركهم هذا المنهَج ـ فهانوا على الناس.

وبهذا (المنهَج الربانيّ) المتكامل، يستطيع المسلمون أن يقدّموا إلى الإنسانية المعذّبة الحلّ، فيقودوها إلى طريق الله .. تتخلّص ـ به وبالسير فيه ـ مِن (كابوس) المادّيّة الثقيل، وتعود إلى ما افتقدته طويلا مِن أمْنٍ وسلام.

ـ ﴿رَبَّنا لاتُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا، وَهَبْ لَنا مِن لَدُنْكَ رَحْمَة، إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّاب* رَبَّنا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ، إِنَّ اللَّهَ لايُخْلِفُ المِيعاد﴾ (آل عمران ـ ٣ : ٨ ، ٩).

(٩) إلى الرسول الإنسان، فى ذكرى مولده(١):

اسمحْ لى يا رسولَ الله وحبيبه أن أتوجّه إليك بهذا الخطاب المفتوح فى ذِكرَى مولِدك الكريم عند الله خالقك وخالق كلّ شئ، الحبيب إلى كلّ نفس مؤمنة بالله، تعرِف رسالة (الإنسان) فى هذه الحياة.

واعلَمْ أنكَ لن تضيقَ به، فلقد كنتَ ـ كما عرفتُك عن قرب، مِن خلال سيرتك المطهّرة ـ تحبّ الناس ـ كلّ الناس، وتفتَح لهم صدرك، قريبِهم وبعيدِهم، كبيرِهم وصغيرِهم، كافرِهم ومؤمِنهم، لم يضِقْ صدرُك يوما بِجهْلِ جاهل منهم أن جَهِل. وصدق الله العظيم إذ يصف حِلمك ورحمتَك بالناس ـ كلّ الناس ـ فى هذا الخطاب الإلهىّ العظيم الذى يوجّهه إليك، يحيل إلى جانب التأييد لك فيما تسلُك، التوجيهَ الإلهىَّ بأن تستمرّ فيه وزيادة:

ـ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ؟ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

(آل عمران ـ ٣ : ١٥٩).

لقد كان تحقيقُ (المجتمع المثالىّ) أو (اليُوتُوبْيا)، حلمَ الفلاسفة والمفكّرين ـ يا رسولَ الله ـ مِن قديم، فقد حَلِمَ به أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٨ ق.م) مثلا قبل مولِدك بقُرابة ألف عام، ثم حَلِمَ به السير تُومَاس مُور وغيرُه مِن الكُتّاب الاشتراكيين الذين ظهروا فى القرن السادسَ عشرَ الميلادىّ، بعدَك بحوَالى ألف عام، ولكن أحدا منهم أو مِن غيرهم، مِمَّن حَلِمُوا بتحقيق هذا المجتمع، لم ينجح فى تحقيق هذا المجتمع، حتى ولو بالخيال وحدَه، وذلك لأنهم لم ينظُروا إلى الإنسان (كإنسان)، وإنما نظروا إليه على أنه (حيوان اجتماعىّ)، تسيّره وتوجّهه مجموعةٌ مِن (الغرائز)، وتتلخّص حاجاته ـ لذلك ـ فى مجموعةٍ مِن الحاجات الاقتصادية، التى تكفُل له الطعام والشراب والملبَس والمسكَن وبعض الأمن.

(١) نُشِرَت فى مجلّة (منبَر الإسلام) ـ السنة ٣٥ ـ العدد ٣ ـ ربيع أول ١٣٩٧هـ ـ مارس ١٩٧٧م، ص ١١ ـ ١٧ مِن مُلحَق العدد.

ولقد كان تحقيقُ هذا المجتمع - يا رسولَ الله - شغلَك الشاغل مُنْذُ نعُومة أظفارك، فلقد نظرتَ إلى مجتمع مكّة الصغير مِن حولِك، فرأيتَه بفطرة الإنسان فيك مجتمعا جاهليًا ظالما غَشُوما، فعِشْتَ فيه بجَسَدك وحدَه، لم تدنّس نفسك بشروره، وكنتَ بين اللحظة والأُخرَى تشقّ طريقك إلى الجَبل، تعيش فى (مجتمعك المثالىّ) وحيدا، وهناك فى هذا (المجتمع المثالىّ) الصغير، الذى صنعتَه بنفسك لنفسك، وقفتَ على سِرّ الحياة الإنسانية، وفلسفة هذه الحياة، وأنتَ أُمّىّ، لم يصل إلى سمعك وعقلك وقلبك ما وصل مِن قبل إلى أفلاطون، وما وصل بعد ذلك إلى السير تُومَاس مُور، ولكن الذى وصل إليك كان هاتف (الإنسان)، يتردّد فى حنايا صدرِك الكريم، وقد كان هذا الهاتف أصدَق وأدقّ، وأكثر احتراما (للإنسان)، الذى يُخْلَقُ له هذا (المجتمع المثالىّ).

وكان هذا الهاتف يقول لك : إنّ هذا (الإنسان) ليس مجرّد (حيوان اجتماعىّ)، ولكنه كبير كبير، أكبرُ مما تصوّر الإنسان ويتصوّر، وأكبرُ مِمّا تصوّر الملائكة أنفسهم ويتصوّرون، فهو (خليفة الله) فى الأرض :

- ﴿وإذْ قالَ رَبُّكَ للمَلائِكةِ : إنّى جَاعِلٌ فِى الأرْضِ خَلِيفَة، قَالُوا : أتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ويَسْفِكُ الدِّمَاء، ونحنُ نُسَبّح بِحَمْدِك ونُقَدّسُ لَك؟ قالَ : إنّى أعْلَمُ مَالا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة - ٢ : ٣٠).

وهذا الإنسان الخليفة - كما قال لكَ هذا الهاتف - يا رسول الله - لم يُخْلَقْ على هذه الأرض ليأكُل ويشرب ويلبس فقط، كما تصوّر بعض العالمين مِن الفلاسفة، وإنما خُلِقَ ليحمل أمانةً أشفقَتْ مِنْ حَمْلِهَا السمواتُ والأرض والجبال، فأبَيْنَ أن يحمِلْنَها :

- ﴿إنّا عَرَضْنا الأمَانَةَ علىَ السّمٰوَاتِ والأرْضِ والجِبَالِ، فَأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا، وأشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإنْسَان، إنّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾ (الأحزاب - ٣٣ : ٧٢).

والإنسان الخليفة - يا رسولَ الله - لابدّ أن يأكُل ويشرَب ويسكن، ولكنه - كخليفة وصاحب رسالة وحامل أمانة - لايعيش ليأكل، كما يفعل الإنسان

(الحيوان الاجتماعيّ) الذى تصوّر له بعض الحالمين من الفلاسفة مجتمعاتِهم المثالية، ولكنه يأكل ليعيش، وبين الحياتين - يا رسول الله - بوْنٌ شاسع.

وكان (المجتمع المثاليّ)، الذى أوحَى به هاتف (الإنسان) فى نفسك - يا رسولَ الله - هو المجتمع الذى يُوجَد فيه هذا (الإنسان)، الذى كرَّمه ربُّه واستخلفه وحمَّله الأمانة الكُبْرَى، وكنتَ أنت هذا (الإنسان) الأول فى هذا (المجتمع المثاليّ)، الذى عِشتَ به وفيه، رغمَ كل ظُلُمات مكّة وجَهَالاتها، الصادقَ الأمينَ، العفيفَ النظيفَ، وأنتَ بَعْدُ غَضُّ الجسم، يتيم فقير.

واشتدَّ عودُك - يا رسولَ الله - وصرتَ فى نظر خالِقك العظيم أهلا لحمل الرسالة - رسالة الإنسان - فكُلِّفْتَ بأن تبلِّغ الرسالة، وتخلُق - بتأييد الله - مجتمعك المثاليّ الذى كنتَ أنت نُواتَه، فما تردّدت فى التبليغ، لأن هذا التبليغ هو رسالة (الإنسان) فى كل زمان ومكان، واستجاب لك (إنسانُ) مكّة، وكان قليلا (إنسان) مكة - يا رسول الله - أوّل الأمر، وكان كثيرا جبّارا بطشُها وغَضَبُها، ولكنك لم تضعُف ولم تَهِنْ، بل زاد (الإنسان) فى نفسك قُوَّة، وزادت الرسالة فى نفسك خطورة، وزادت العزيمة فى نفسك صلابة.

وظنَّ القومُ أنك مِثلُهم - يا رسول الله - طالبُ دنيا، والدنيا فى نَظَرِهم مال وسلطان، وهى كذلك فى نَظَر طلاب الدنيا فى كل زمان ومكان.

وعَرَضَ عليكَ القومُ - يا رسولَ الله - ما ظَنُّوك تطلُبه، وكانوا كِراماً - حقّا - فيما عرضوه، وحمَل العرضَ (الكريمَ) إليك عَمُّك أبو طالب، وكله إشفاق عليك، وحبٌّ لك، وأمل فى أن تقبَل هذا العرض، ولكنك تَرُدُّ - بمنطق (الإنسان) كما استيقنَتْهُ نفسُك - على عمك أبى طالب، فى قوّة وفى أدب أيضا :

- «واللّهِ يا عَمِّى، لو وضعوا الشمسَ فى يمينى، والقمرَ فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر، ما تركتُه».

وزاد (إنسَانُ) مكّة - رغم التضييق عليه يا رسول الله - حجما، بحيث صار البلَد الطيِّبُ يجمع بين حناياه بين (الإنسان) وأعداء (الإنسان)، وتحمَّل (إنسانُ) مكة - يا رسول الله - مِن أعداء (الإنسان) فوق ما تُطِيقُه أجسامُ البشر ونفوسُهم،

فلم يضعُف (الإنسان) ولم يتحطَّم، بل تحطَّم (السيف) فى يد أعداء (الإنسان)، ليخرُج (الإنسان) مِن الابتلاء العظيم أقوَى عودا، وأصلَب إرادة، فهكذا خُلِقَ (الإنسان) الخليفة، الذى كَرَّمه رَبُّه منذُ كان هذا (الإنسان).

وكانت الهجرة الأُولَى - يا رسولَ الله - إلى يَثْرِب، فكانت الهجرة إليها أسهَل وأحبَّ، لا لأن يَثْرِب - كموطِن - أحبُّ إلى أبناء مكّة المهاجرين معك من الوطن الأُمّ - مكّة، بل لأنها كانت هجرة (للمجتمع المثالىّ) كله، ومع ذلك فقد عبَّرْتَ - فى صدق - عن (وطنيّة) (الإنسان) ووفائه لأهله مهما قَسَوْا، وبِرِّه بهم مهما جَهِلُوا، بقولك لمكّة - الوطن الأُمّ - وأنت تتطلّع إلى شِعَابها :

- «واللَّهِ إنَّكِ لأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إلَىَّ، وأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إلى اللَّه، ولولا أنَّ قَوْمَكِ أخرَجُونِى مِنْكِ، ما خَرَجْتُ».

ومِن المهاجرين والأنصار فى يَثْرِب - يا رسولَ الله - صنعتَ أسرة قبل أن تُقِيمَ دولة، فغيَّرت - بيديك الكريمتين - مفهوم الدولة، وبهما أيضا وسَّعْتَ - لأول مرّة فى التاريخ - مفهوم الأسرة، وجعلت (الإنسان) - لأول مرّة - هَدَفَ الدولة، وقوام الأسرة.

ولأول مرَّة - يا رسولَ الله - يتغيّر مفهومُ رئيس الدولة، ليصبح رَبَّ أُسرة، وليصير أكثرَ أفرادها تحمُّلا للمسئولية، لاأكثرهم تسلُّطا عليها، وصدق الله العظيم إذْ يقول :

- ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِن أَنفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالمؤمِنِينَ رَءُوفٌ رحيم﴾ (التوبة - ٩ : ١٢٨).

وأقمتَ دعائمَ (مجتمعك المثالىّ) فى المدينة - يا رسول الله - على الحُبّ والتعاطُف، والتآلُف والتكاتُف، وعلى أن يعمل الجميع لخير الجميع، وجعلت (العمَل الصالح) مقياسا لفضل صاحب الفضل، وها أنت تقول لأحبّ الناس إلى قلبك بالغريزة :

- « يا فاطمة بنت محمد، اعمَلِى، لاأُغنِى عنكِ مِن الله شيئا».

وعلى (الإنســان) - يا رسـولَ الله - اتمتْ مجتمعك الجديد، فهـزمتَ بهـذا (الإنسان)، الشيطانَ فى نفس (الإنسـان)، ثم قوّضْتَ به دعائم الشيطان التى اقامها فى مكّة، التى اخرجَتْكَ منها (الإنسانَ)، فاخرجَتْ معه كلّ خـير يمكن ان تنتظره، ثم ازلتَ به اكبَـر مـعقلين مِن مـعاقل الشـيطان فى عـصـرك، وهمـا امـبـراطوريّتا الفرس والروم .... كُلُّ ذلك فى اقلّ بكثيـر مِن رُبْع قرن مِن الزمان .... كانت دولة الإسلام فيه قد تحوَّلت إلى القوّة الكُبرَى الوحيدة فى العالَم فى ذلك العصر.

ولم تكن (دولة) الإسـلام التى اُرسِـيَتْ دعـائمُـهـا على هذا (الإنســان) - يا رسولَ الله - دولةَ بطش وجَبَـروت، بل دولةَ عدل وحقّ وخير، لم يقـتصـر عدلُـها وحقُّها وخيرُها على بنِى آدَمَ وحدَهم، بل تعـدَّتْهُ إلى البغال - على حَدّ تعبير عـمر ابنِ الخطاب، تلمِيذك (الإنسان)، وخليفة خليفتك، رَضِىَ اللهُ عنهما :

- «واللّهِ لو عـثُـرَتْ بَغْلَةٌ فِى العِـرَاق، لسَـألَنِى اللّهُ عنهـا يَوْمَ القِيَامة : لِمَ لَمْ تُمَهّدْ لها الطريق؟».

ولن اجدَ - يا رسولَ اللـه وحبيبَه - فى وصف (الإنسـان) فيك، والخيـر فى مـجـتـمـعك، اللذين مهَّدَا لكلّ هـذه القُوّة فى (مـجـتـمعك المثالىّ)، ولما يحكيه التاريخ عن الحضارة الـتى حقّقها طيلةَ ستة قرون كاملة، قبلَ أن يقيم عليها الغرب دعائم حضارته الراهنة .... خيراً مِن قول الحقّ سبحانه فيك وفيه :

- ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ، أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُم، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا، يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانا، سِيماهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود. ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاة، وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى على سُوقِه، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّار، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح - ٤٨ : ٢٩).

لقـد اثبتّ - مِن خـلال ذلك (المجـتمع المثـالىّ) الذى خـلقتَـه، واقـمـتَـه على (الإنسـان) - أن القـوّة ليست كـثرة عَدَدِيّة، أو قُـدرة مـالـية أو حربـية، أو سَـعة فى الأرض، وإنما هى قُـدرة على (اسـتيعابِ) أسـبـاب القوة، واسـتـيعـابُ أسـبابِ القـوّة

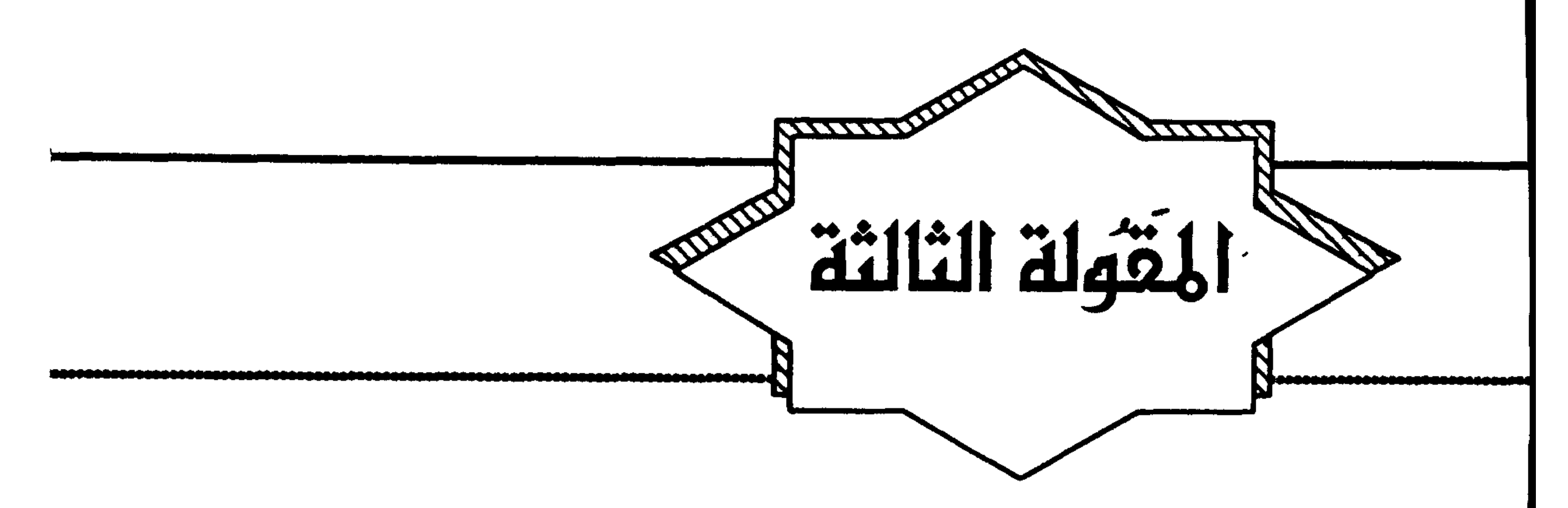
رهن (بالإنسان) الذى يستوعبها، وبالمجتمع الذى يوفّرها، وبين النقيضين - الفرد والمجتمع - يا رسولَ الله - اقمْت توازُنا كفَلَ (إنسانية) الإنسان وحماها، وكفل قُوَّة المجتمع ووفّرها.

واثبتَّ - يا رسول الله - مِن خلال ذلك (المجتمع المثالىّ) - أن الحضارة ليست مسألة عِلم فقط، يسيطر به الإنسان على الطبيعة، وإنما هى مسألة (نفسية) خالصة، تدفَع (الإنسان) دفعا إلى أن يتفكّر ويتدبّر، ويكدّ ويعمَل، ويتعاوَن مع الناس - كلّ الناس - حتى يكون الإنسان بحقّ - كما أراده الله - (إنسانا)، خليفة لِلّه فى الأرض، ولن تتحقّق له هذه الخلافة إلا إذا (انفتح) عليها، يُحيط بسرّها وسرّ الحياة عليها، ويغيّر ويبدّل، وبذلك يجعَل مِن حياته - بحقّ - معبَرا إلى آخِرَتِه، وصدق الله العظيم إذ يقول فى أُولَى آيات كتابه الكريم التى تنزَّلت على قلبك،مُؤْذِنَةً ببدء الوَحْىِ وبدء الرسالة :

- ﴿اقْـرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ* خَلَقَ الإنْسَانَ مِن عَلَقٍ* اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الأكرَمِ* الَّذِى عَلَّمَ بالقَلَمِ* عَلَّمَ الإِنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾
(العَلَق - ٩٦ : ١ - ٥).

صلّى الله عليكَ - يا رسولَ الله - فى ذِكرَى مولدك، وصلى الله عليك كلَّ لحظة مِن لحظات الليل والنهار، ووفّق اللّهُ أمّتك إلى أن تَنْهجَ نهجَك، وتسيرَ على خُطَاك :

- ﴿لقد كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حسنة، لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ واليَوْمَ الآخِرَ، وذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرا﴾ (الأحزاب - ٣٣ : ٢١).



المَقُولة الثالثة

الأَيْديُولُوچِيَا والتربية في الإسلام

نُشِرَت هذه المَقُولة الثالثة، التى تُعتَبر صُلْبَ المَقُولات كلِّها، فى (الكتاب السنوىّ، فى التربية وعلم النفس) - المجلّد الثالث، الصادر فى يناير ١٩٧٦، والذى نشرته دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة . وهى تحتل الصفحات ٢١ - ٨١ مِن الكتاب.

والمَقُولة عبارة عن ملخّص لكتاب يحمل نفس العنوان (الأيديولُوجْيَا والتربية فى الإسلام)، توقّفت عن الدفع به إلى المطبعة فى اللحظة الأخيرة، على أساس أنّ هذا الموضوع كان - فى نظرى - أكبرَ وأخطرَ مِن أن يكون على النحو الذى تَمَّ عَليه، ومِن أجل مزيد مِن الدراسة للموضوع، أصدرتُ سلسلة (الإسلام وتَحدِّيات العصر)، ومِن خلالها حاولتُ دراسة الإسلام، والأيديولوجيا الإسلامية، على أن أُعِيدَ بلْوَرة ما كتبتُه عن (الأيديولوجيا والتربية فى الإسلام)، وأزيده عُمقًا وتأصيلا - وذلك بعد إخراج أربعة أو خمسة كُتُب مِن السلسلة، خاصّة تلك التى تتّصل بالعقيدة، والله، والإنسان، والمجتمع - ومِن خلالها تكون قد تبلورَتْ عِندى على الأقلّ - الأيديولوجيا الإسلامية، ومِن خلال جهد آخَر - مع ذلك - أكون قد جمعت مزيدا مِن المادّة العِلمية، وبذلتُ مزيدا مِن الجهد، فى التربية الإسلامية، بجوانبها المختلفة : فلسفة التعليم - إدارته وتمويله - مناهجه - مراحله ... إلخ.

ولما كان الجهد الذى بُذِل - رغمَ ذلك - كبيرا، فقد رأيتُ تلخيص الكتاب، ونشره فى (الكِتاب السنوىّ)، ورحّب الأخ الدكتور سعيد إسماعيل، محرّر (الكتاب السنوىّ)، بالفكرة، رغمَ ضخامة حجم الملخّص، ونشَرَ المقال، على نحو ما سبق.

ولكن الدكتور سعيد إسماعيل قد قام بحذف أجزاء مِن الدراسة، وأخذ رأيى فيها، ووافقتُه لظروف الكتاب السنوىّ، كما أن المقال صدر وبه أخطاء مطبعية كثيرة، حتى أن الورقة الأُولَى منه قُطِعَت، وأُعِيدَ طبعُها، لأن الخطأ المطبعىّ أصاب العنوان، فصار (الأيديولوجيا فى الإسلام)، وهو عنوان بعيد كل البُعد عن موضوع المقال.

ورغم امتنانى للدكتور سعيد إسماعيل، ولدار الثقافة للطباعة والنشر، فإنى رأيتُ - لما سبق - أن يُعادَ نشر المقال، ضِمن هذه المَقُولات، وكنت قد استأذنتُ الدكتور سعيد فى ذلك، فرحّب به.

وأنا أعتبر نشره هنا، ونشر هذه المقولات كلّها، مجرّد خطوة على الطريق إلى العمل الكبير الذى أقوم به الآن، فى دراستى (للتربية الإسلامية)، والذى أسأل الله أن يوفّقنى فيه.



﴿قَالَ : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي* وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي* كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا* وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا* إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾

(قرآن كريم : طه ـ ٢٠ : ٢٥ ـ ٣٥).

تقديم :

أدّى سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب فى القرن الخامس الميلادىّ، إلى تدهوُر الأحوال فيه تدهورًا كبيرا، تمثّل فى تحكُّم القبائل الجِرْمَانية البربَرية فى شئونه، ثم تحالُف الملَكِيَّة والإقطاع والكنيسة، تحالُفا هدَفه فرض الظلم والتخلّف على أبناء الغرب. وقد بلغ هذا التحالُف وما أدّى إليه مِن ظلم وتخلُّف، قِمَّتَه، فى القرن الحادِى عشرَ الميلادىّ، حتى لقد أطلَق المؤرّخون على القرون الستّة، مِن القرن الخامس إلى القرن الحادى عشَرَ الميلاديين فى الغرب، اسم «العصور الوُسْطَى المُظلِمة»، حيث «سادت أوروبا فى تلك الفترة المظلمة سحابةٌ كثيفةٌ مِن التأخُّر الحضارِىّ»[1]، بدَت فى «وضع حاجز كثيف بين عقل الإنسان، والعالَم الخارِجىّ المحيط به»[2]، وفى النَظَر إلى «العلوم المدَنِيَّة على أنها تُعلِى العقل الإنسانىّ بطريقة غير صحيحة على الإيمان المسيحىّ»[3].

وفى الوقت الذى كانت أحوال الغرب تتردّى فيه على هذا النحو، كانت الأحوال فى الشرق تسير فى اتجاه مختلف تماما، وذلك منذُ ظهور الإسلام فى القرن السادس الميلادىّ، ففى ظلّ الإسلام، استعاد (الإنسان) كرامته، وتحرَّر من

(١) دكتور سعيد عبد الفتّاح عاشور : المَدَنِيَّة الإسلامية، وأثرُها فى الحضارة الأوربية ـ دار النهضة العَربية ـ القاهرة ـ ١٩٦٣م ، ص ٣٧.

(2) WILLIAM HENRY HUDSON : The Story of the Renaissance; Goerge G. Harrap & Company, Ltd., London, 1928, p.6.

(٣) الدكتور وهيب إبراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ـ دراسة تاريخية مقارنة ـ مِن سلسلة (دراسات فى التربية) ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٦١ ، ص ٣٥١.

(جاهليّته)، وانطلَق إلى المستقبل فى ثقة، وشاد للإنسانية حضارة مزدهِرة، حتى لقد «ظلّ الإسلام خمسةَ قرون، مِن عام ٧٠٠ إلى ١١٠٠، يتزعّم العالم كله، فى القُوّة والنظام وبسطة المُلْك، وفى ارتفاع مستوَى الحياة والأدب والبحث العلمىّ والعلوم والطبّ والفلسفة»[١].

ويرَى الدوميلى أن هذه الحضارة المزدهرة، قد بلغت ذروتها فى القرنين «العاشر والحادِى عَشَر»، اللَّذين يُعتَبران «العصرَ الذهَبىّ للعلم العَرَبىّ فى الشرق»[٢].

وقد بدأ الغرب المسيحىّ المتخلّف، يتّصل بالشرق الإسلامىّ المتحضّر، مع بداية القرن الثانى عشر الميلادىّ، عن طريق ما يصطلِح المؤرّخون على تسميته «بمعابر الحضارة) الإسلامية إلى الغرب، التى تتلخّص فى الأندلُس وصَقَلّيَة، لخطرِ هذه المعابر وأكثرِها تأثيرا وفاعلية، والرحلات التجارية بين الشرق والغرب، والحروب الصليبية، وآلاف الكُتُب العلمية التى تُرجِمت من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية[٣]، فعن طريق هذه (المعابر)، تمكّن الغربيون مِن (الاحتكاك) بالمسلمين احتكاكا نتج عنه ذلك التغيُّر الأيديولوجىّ الذى بدأ يقتحم الحياة فى الغرب، ويقلبها رأسا على عَقِب، ابتداء مِن القرن الثالثَ عشرَ الميلادىّ، والذى بلغ ذِروته فى القرن السادسَ عشرَ الميلادىّ، حيث تفجّرت ثورة الإصلاح الدينىّ البروتستانتِىّ، سنة ١٥١٥.

وعن طريق هذه المعابر الحضارية، تسلّلت العلوم الإسلامية إلى الغرب، وبدأت تفرِض نفسَها على جامعات الغرب ومدارسه، وتُزيح مِن طريقها علومَ العصور الوسطى، المبنِيّة على الخُرافات، وعن طريقها أيضا تغيّرت معالم حياة

---

(١) الدكتور وهيب إبراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى، دراسة تاريخية مقارنة - من سلسلة (دراسات فى التربية) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٢، ص ١٤ ، ١٥.

(٢) الدوميلى : العلم عند العرب، وأثَرُه فى تطوُّر العلم العالَمى - نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، والدكتور محمد يوسف موسى - قام بمراجعته على الأصل الفرنسىّ الدكتور حسين فوزى - جامعة الدول العربية - الإدارة الثقافية - الطبعة الأولى - دار القلم - القاهرة - ١٩٦٢، ص ١٧٩.

(٣) للمزيد من المعلومات عن هذه المعابر، ارجع - على سبيل المثال - لا الحصر - إلى :

- عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوروبية - الطبعة الرابعة - دار المعارف - بمصر - القاهرة - ١٩٦٥، ص ٦٦.
- دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (مرجع سابق)، ص ٤٩.
- الدوميلى (مرجع سابق)، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥.

الغربيين، وتغيُّر الإطار الأيديولوجيّ لهذه الحياة، بحيث صارت (التُّرْبَةُ) الغربية مناسبة لتلك الاندفاعات الكبرى في طريق الحضارة والمدَنيّة، التي بلغت ذِروتها في العصر الحديث، حيث صارت المَدَنيّةُ الغربية نَمَطا مِن انماط الحياة، احتذته وتحتذيه بَقِيّةُ بلاد العالَم غير الغربية، خاصّة بلاد العالَمِ الثالث، التي فُرِض عليها التخلّف تحت حكم الاستعمار- قرونا طويلة.

وعن طريق هذه المعابر أيضا، تَتَلْمَذَ الغرب المسيحيّ على يد الشرق الإسلاميّ، في مجالات الجبر والهندسة والرياضيات والطبّ والصيدلة، «والأحياء والكيمياء والفَلَك والميتافيزيقا والأخلاق والسياسة»[1] وغيرها مِن العلوم والفنون، التي ازدهرت في الغرب فيما بعد، فكانت أساسَ نهضته الحاضرة.

ومع هذه العلوم، أخذ الغربيون مِن المسلمين - عن طريق هذه المعابر - اصولَ المنهَج العلميّ الحديث، في شتّى فروع العِلم، وبه اقتحموا مجاهل المستقبَل، وعليه اقاموا الحضارة الغربية الحديثة[2].

ومازالت الدوائر العلمية الغربيّة الحديثة تعترف بفضل العلماء العربِ والمسلمين على الحضارة الغربية، ومازالت تعترف بفضل علماء مِن أمثال : جابر ابن حَيّان، والخُوارزميّ (المتوفّى سنة ٨٥٠م)، والكِنْدِيّ (المتوفّى سنة ٨٧٣م)، والرّازِيّ (المتوفّى سنة ٩٢٥م)، وابن الهَيْثَم (المتوفّى سنة ١٠٣٩م)، والبَيْرُونِيّ (المتوفّى سنة ١٠٤٨م)، وابن سِينَا (المتوفّى سنة ١٠٢٧م)، وابن رُشْد (المتوفّى سنة ١١٩٨م)، وابن النَّفِيس (المتوفّى سنة ١٢٨٨م)، وعُمَر الخَيّام (العالِم الرياضيّ) (المتوفّى سنة ١١٢٣م)، وابن عَرَبِيّ (المتوفّى سنة ١٢٤٠م)، وغيرهم وغيرهم، مِمَّن تزخَر بهم كُتُب العلم والتاريخ والحضارة[3].

---

(١) الدكتور وهيب إبراهيم سمعان : الثقافة والتربية في العصور الوسطى (مرجع سابق)، ص ١٠٥.

(٢) ارجع إلى تأثر روجر بيكون Roger Bacon (١٢١٤ - ١٢٩٤م) مثلا بالحَسَن بن الهَيْثَم، ثم تأثيره بعد ذلك في الغرب كله، ودوره في انتقالة الغرب مِن العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، في :

-ROBERT ULICH : The Education of Nations, A Comparison in Historical Perspective; Harvard University Press, Cambridge, Massachussetts, 1961, pp. 37, 38.

- الدكتور عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعي - الطبعة الثانية - مطبعة لجنة البيان العربيّ - القاهرة - ١٩٦٦، ص ٦٦.

- د. م. تيرنر : الكشف العِلميّ - ترجمة أحمد محمود سليمان - مراجعة د. محمد جمال الدين الفندي - العدد(٥) من (العلم للجميع) - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ، ص ١٥.

(٣) للمزيد مِن المعلومات عن هؤلاء العلماء المسلمين وغيرهم، وما توصلوا إليه وآثارهم - ارجع إلى :

-قدري حافظ طوقان : العلوم عند العرب - مكتبة مصر - القاهرة - ١٩٦٠.

أمـا ابنُ خَلْدُون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ = ١٣٣١ ـ ١٤٠٥م)، فـقـد كـان له شـأن عظيم فى إرسـاء دعائم علم التـاريخ والعلوم الاجـتمـاعـية، وشـأن أعظم فى التربـية، سـوف نتعرَّض له فيما بعدُ، عِندَ الحديث عن التربية الإسـلامية.

مصادر العِلم الإسلامىّ:

ولسـنـا نغالِـى إذا قلنا إنّ القـرآن الكريم، والسُّنَّة النبـوية المطهَّـرة، كـانا هـمـا الإلهـام الأعظم للحضـارة الإسـلامـية الرائعـة، ولسنا نغـالِـى أيضاً إذا قلنا إنَّهـما كـانا المصـدَرَ الأسـاسىّ للعِلـم الإسـلامىّ، فلـقـد ظلا عـشـرات مِن السنين، خـاصّـة فى عـصـر النبىّ وعـصـور الخلفـاء الراشـدين، والأيام الأولَى للدولة الأمـوية، العِلم الوحيد الذى يُدْرَس، وظلّت مسائلهما هى المسائل الوحيدة التى تُبْحَث.

وعندما احتكّ المسلمون بالحضارات القديمة، فى البلاد ذات الحضارة، التى فتحوها، كمصـر والشام والعراق وفارس والهند وغيرها، لم يجدوا فيها ما يَحُول دون الاسـتـفـادة مِن هذه الحـضـارات، بل على العكس من ذلك، وجـدوا فـيـهـا مـا يدفَعهم دفعا إلى الأخذ بهذه الحضارات، واحتضان العلوم التى تقوم عليها.

ولقـد كـانت أُولَى آيات القـرآن الكريم التى تَنَزَّل بهـا جـبـريـل على قلب محمد(ﷺ) قولُه تعالَى:

- ﴿اقـرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَق* خَلَق الإنسـان مِن علَق* اقـرَأْ وربُّكَ الأكْرَمُ* الَّذِى علَّمَ بالقلَم* علَّمَ الإنْسَانَ ما لم يَعْلَم﴾[1].

وهـى آيات استُهِلَّت بها رسالة الإسلام، تُشير إلى جَوْهَر هذه الرسالة وإطارها الأيديُولُوجىّ، وتبيّن بوضوح أنها رسـالة (إنسانية)، بمعنَى أن مدارها هو (الإنسـان)، مِن حيث هو مـخلوق عـاقل، فضَّـله الله على سـائر خلقـه، ولن يكون مستحقّا لهذا التفضيل الذى فَضَّلَهُ إلا إذا كان أهلا له، ولن يكون أهلا له إلا إذا كان إيجابيا فى حياته، قادرا على السيطرة على بيئته، وتسخيرها لِخدمته، فى إطار من الحقّ والعدل والخير والجَمال.

(١) قرآن كريم: سورة العَلَق ـ ٩٦: ١ ـ ٥.

ولن يتسنّى للإنسان فى الإسلام ذلك كلّه إلاّ إذا تعلّم، وتفكّر وتدبّر، وتعاوَن مع غيره مِن الناس، ومِن ثَمّ كانت تلك الآيات القرآنية الأُولَى أمرا بذلك كُلّه، كما يبدو مِن ظاهر لفظها، وحقيقة معناها، فى نفس الوقت.

لقد «أوضح القرآنُ الكريم بما لايدَعُ مجالا للشكّ أن العقيدة - كما جاء بها الإسلام - لاتتنافىَ مع العقل، ولاينبغِى لها أن تتنافىَ معه، وأنها تكون - على خير تقدير - ناقصة إذا لم تنسجم معه. فالدين الإسلامى دين عقلىّ»، «والقرآن لايفتَح المجال للبحث فحسب، بل يُشْبِع كذلك الفريزة العقلية فى الإنسان، ويستمِيلها، بل يدفعُها ويُلزِمُها أن تقوم بوظيفتها، بما يَضْرِبُه لها مِن أمثال، وما يذكره مِن آيات»[1].

ومِن هنا كان اهتمام الإسلام بالعقل، وتنويهه به والتعويل عليه فى أمر العقيدة، وأمر التَّبِعَة والتكليف، ففى كُتُب الأديان الكبرَى إشارات صريحة أو مُضَمَّنة إلى العقل، أو إلى التمييز، ولكنها تأتِى عرَضًا غير مقصودة، وقد يلمَحُ فيها القارئ بعضَ الأحايينِ شيئا مِن الزراية بالعقل، أو التحذير منه، لأنه مزَلّة العقائد، وبابٌ مِن أبواب الدعوَى والإنكار.

ولكن القرآن الكريم لايذكُر العقل إلاّ فى مقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العمَل به، والرجوع إليه، ولاتأتِى الإشارة إليه عارضة، ولامُقتَضَبة فى سياق الآية، بل هى تأتِى فى كلّ موضِع مِن مواضعها مؤكّدة جازمة، باللفظ والدلالة، وتتكرّر فى كل معرِض مِن معارض الأمر والنهى، التى يُحَثّ فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يُلامُ فيها المُنكِر على إهمال عقله، وقبول الحَجْر عليه»[2].

وإذا كان الإنسان يتميَّز على غيره مِن المخلوقات بالعقل، ومِن أجله فضَّله الله سبحانه على كل خَلْقه، فإن العقل غِذاؤه العِلم والمعرفة، ومِن ثَمّ كان الإنسان الفاضل فى الإسلام هو الإنسان العالِم، وهذا الإنسان الفاضل يزداد فضلا، بقدر ما يزداد عِلما :

---

(١) الدكتور محمود حُبّ الله : «موقف الإسلام مِن المعرفة والتقدُّم الفكرى» - الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة - مجموعة البحوث التى قدّمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية - جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ص ٣٠ ، ٣١.

(٢) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية - الطبعة الأولى (المؤتمر الإسلامى) - دار القلم - القاهرة، ص ٥ ، ٦.

- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والملائِكَةُ وأُولُو العِلْمِ قائِماً بالقِسْطِ، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(1).

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، ومِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا، وغَرَابِيبُ سُودٌ. ومِنَ النَّاسِ والدَّوَابِّ والأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(2).

- ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ : تَفَسَّحُوا فِى المَجَالِسِ، فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ، وإِذَا قِيلَ لَكُم : انْشُزُوا فَانْشُزُوا، يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ، واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(3).

فالعلم - فى الإسلام - هو طريق الله، لأنه طريق الارتقاء بالإنسان من حيث هو إنسان، بحيث يستحقّ ذلك التكريم الذى كَرّمه به ربُّه، يومَ استخلفه على هذه الأرض :

- ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ : إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ، ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ، قَالَ : إِنِّى أَعْلَمُ مَالا تَعْلَمُونَ * وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا، ثُمَّ عَرَضَهُمْ على المَلائِكَةِ فَقَالَ : أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا : سُبْحَانَكَ، لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ * قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَلَمَّا أَنبأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمواتِ والأَرْضِ، وأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ ومَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ؟﴾(4).

وقد جاءت السنّة النبويّة الشريفة تؤكّد هذا الاتجاه القُرآنى العامّ، فالرسول الكريم يرى أن «العلماء هم ورثة الأنبياء»، وأنّ «مَنْ سلك طريقا يطلب به علما،

---

(1) قرآن كريم : سورة آل عمران - 3 : 18.
(2) قرآن كريم : سورة فاطر - 35 : 27، 28.
(3) قرآن كريم : سورة المجادلة - 58 : 11.
(4) قرآن كريم : سورة البقرة - 2 : 30 - 33.

سهّل اللهُ له طريقا إلى الجَنَّة»، وأن العالِمَ - فى الإسلام - أقربَ إلى الله مِن العابد، وأنّ «فضلَ العالِم على العابِد، كفضلِى - أىْ رسول الله - على أدناكم رجُلا»[1]، أى أقلّ المسلمين شأنا.

ويُخطِئ مَنْ يظنّ أن المقصود بالعِلم والعُلماء هنا هو علم الدين وعُلماؤه، وإنما المقصود به وبهم هو العِلم بمفهومه الشامل، الذى ينتظم كلّ ما يتّصل بالحياة، و«لايقتصر على عِلم الشريعة، أو العِلم الدينىّ، كما يتبادَر إلى بعض الأذهان، أو ما ذاع فى عهود التخلّف عن القرآن، فقد دعا إلى النظَر فى ظواهر الوجود، ومظاهر الحياة»، و«جعل مِن الكون كتابا للمعرِفة، ووجّه القلوب والعقول والأبصار إلى بدائع صُنع الله فيه، ودعا إلى التفكّر فى آياته، واستِكْنَاه أسراره، وفَهْم نُظُمه ونواميسه، ففتَح بهذا العَرْضِ والتوجيه بابَ العِلم، وحرّر العقول والتفكير مِن أسر الجمود والجهل، وأغرَى بالبحث والدراسة والعِلم»[2].

ورغمَ ذلك، ينقسم العِلم فى الإسلام - مِن حيث وجوبُه وفرضه - إلى نوعين :

«١ - ما هو فَرْضُ عَيْن : أىْ ما يُطلَب تعلُّمه وُجوبا مِن كل فرد مكلَّف، ولايُعذَر أحَد فى الجهل به، وهو ما يَحتَاج إليه الإنسان فى إقامة دينه، وقبول عَمَله عِند الله تعالىَ، واستقامة معاملته ومعاشرته للناس».

«٢ - ما هو فَرْضُ كِفاية : وهو كل ما يَحتاج المجتمع إليه، مِن غير نَظَر إلى شخص بذاته، كتعلُّم الصناعات التى يَحتاج إليها الناس، وتعلُّم المِهَن التى لابُدّ للناس عنها»، أىْ «كل ما يُحْتَاج إليها فى شئون المجتمع، مِن تجارة وطبّ واقتصاد وهندَسة وكيمياء وفيزياء وكهرباء، وكذا صناعة الأسلحة والذخائر، وجميع أنواع الصناعات»، «وكذا كل ما يَجِدُّ فى المستقبَل مِن الحاجة إلى علوم أخرَى، فإنها تُعتَبر مِن فروض الكِفاية، بحيث يجب على الأمَّة أن يكون فيها مِن العُلَماء بتلك العلوم، ما يكفِى لحصول الأمة على ثِمار تلك العلوم. فلو كانت تحتاج فى عِلم من العلوم إلى مائة عالِم مثلا، ولم يكن فيها إلا خمسون عالِما، تكون الأُمة آثمة، حتى يُوجَد فيها العَددُ الباقِى اللازم مِن العلماء»[3].

---

(١) صحيح البخارى - لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البُخارىّ الجُعفىّ - الجزء الأول - دار ومطابع الشعب - القاهرة، ص ٢٦، ٢٧.

(٢) محمد شديد : منهج القرآن فى التربية - مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز - القاهرة، ص ١٣٧.

(٣) الدكتور مصطفى السباعى : اشتراكية الإسلام - دار ومطابع الشعب - القاهرة - ١٩٦٢، ص ١٠٣، ١٠٤.

فعِلمُ الدين لازم للمسلم مِن حيثُ هو مُسلِم، وعِلم الدنيا لازم له من حيث هو إنسان، يعيش فى مجتمع، له متطلَّباته، وعليه ضغوطه.

وعِلم الدين لاخلاف على مصدَره، وهو الكِتاب والسنَّة وأقوال الصحابة والمصالح الاجتماعية والقِيَم والعادات الاجتماعية والمفكّرون الإسلاميون[1]، مرتَّبة حسب أهميتها.

وأما عِلمُ الدنيا فمصدَره معروف أيضا، وهو (الدنيا)، بكل ما تحتوى عليه مِن أرض وسماء، وما يعمُر الأرض والسماء مِن مخلوقات كثيرة، ومِن خيرات لايعدّها حَصْر، بحيث يستطيع المسلم أن يملِك تلك الدنيا، ويكون فيها قويّا، قادرا على إعلاء كلمة الله ودحر أعدائه، قادرا على حماية حقّه، وصيانة عِرضه واستقلال وطَنه، وتوفير أسباب الخير والرفاهية لأبناء أُمَّته وللإنسانية جمعاء.

وكل ما يُطْلَب إلى المسلم، وهو يسير فى طريق علم الدنيا غير المحدود، هو أن يعرِف غاية حياته، لاتغيب عنه تلك الغاية لحظة، حتى لايضلّ الطريق، ويجرِفه تيَّار الشيطان إلى متاهة، جنَّبه الله إياها يوم هدَى قلبه إلى الإسلام، وغايةُ حياة الإنسان ـ كما علَّمه الإسلام ـ هى «أن تكون الآخِرة مُراد المؤمن، وغاية سَعْيه»، فهو «مأمور أن يعمُر الدنيا، وأن ينمّيها ويرقّيها، مأمور أن يمشِىَ فى مَناكب الأرض، يأكُل من رزق الله فيها، وينعَم بطيّباتها»، على «أن يكون فيها سيّدا لا عبدا». «إنه قد يملِكُ الدنيا، ولكنها لا تملِكه، وقد تمتَلِئُ بها يداه، ولكن لايمتَلِئُ بها قلبُه، ذلك أنه يعيش فى الدنيا بروح المرتَحِل، كأنه غريب أو عابر سبيل»[2]. وبهذا وحدَهُ ينأَى المؤمن بنفسه ـ فى الإسلام ـ «عن مشابَهة الأنعام والسباع والشياطين»[3]، ويعيش ـ كما أراد الله سبحانه له ـ خليفة لِلَّه فى الأرض.

وقد استطاع المسلمون فى عصور ازدهارهم أن يُقِيموا التوازُن بينَ حاجات الروح وحاجات الجَسَد، وبين حاجات الدنيا وحاجات الآخِرة، وبين عِلم الدنيا وعِلم الدين، وكان لهم فى كتاب الله الكريم، وفى سُنَّة نَبيّه الكريم، دائما، نور يبدّد

(١) دكتور سعيد إسماعيل على : «مصادر التربية الإسلامية» ـ الكتاب السنوىّ، فى التربية وعِلم النفس ـ بأقلام نُخبة من أساتذة التربية وعلم النفس ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٧٣، ص ١٦٧ ـ ٢٢١.

(٢) الدكتور يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة وهبه ـ القاهرة ـ ١٩٧٣، ص ٢١٨ ، ٢١٩.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٥.

ظُلُمات حياتهم، ويوضّح لهم الطريق الذى يجب أن يَسْلُكُوه، كُلّما ظهرت فى هذا الطريق عقَبات تحتاج إلى أن تذَلّل، أو ظُلُمات تحتاج إلى أن تُكْشَف.

وبهذا (الانفتاح) على الدنيا، عرف المسلمون (قِيمَة) ما وقع تحت أيديهم مِن تراث حضارىّ وعِلْمِىّ رائع، وجدوه فى مصر والعراق والشام وفارس والهند وغيرها، لم يجدوا فيه - كما وجد غيرهم، قبلَهم وبعدَهم - كُفرا وزَنْدَقَةً وإلحادا، بل وجدوا فيه وسيلة طيّبة تمكّنهم مِن السيطرة على (الدنيا) بفهم أسرارها، ومحاولة استغلالها لصالح (الإنسان)، الذى كرّمه ربُّه واستخلفه، وأمره - ليكون جديرا بهذا التكريم، وذلك الاستخلاف - أن يفكّر ويتدبّر، ويقرأ ويطّلع.

وفى حضانة الإسلام ورعايته، وَجدت هذه (العلوم) القديمة ملاذَها، وأكثرُ مِن ذلك أنَّها وجدت فى حضانته ورعايته التربَة الملائمة لها لتَنْمُو وتزدَهِر.

ولقد كان الفاتحون المسلمون، وهم ينطلقون مِن جزيرتهم العَرَبية، ينقُصُهم ذلك (التراث) الحَضارِىّ الذى وجدوه فى البلاد المفتوحة، ولكنهم كانوا مزوَّدين بما هو أهمّ مِن هذا التراث، وهو (القابلية) الحضارية، التى تشرَّبوها مِن رُوح الإسلام، وبهذه القابلية الحضارية،عَرَفوا قيمة هذا التراث وحافظوا عليه ونَمَّوه، منذُ الأيام الأولَى للفتوح، فما أن فَرِغَ الخلفاء الأمويون، «مِن بَسْطِ جَنَاح الإسلام، حتى أخذ الخلفاء يَلِجُونَ بابَ العِلم، كما وَلجُوا باب الفتوحات»[1]، ولذلك لم تَمْضِ سنوات قليلة حتى كانوا «هم وَرَثَةَ عِلم العصور القديمة»[2]، وكانوا - كما قال عنهم مؤرّخو الحضارات - هَمْزَة الوَصْل التى لايمكن تغافُلها بين الحضارة القديمة والحضارة الحديثة، فإنَّ دَوْرَهم فى الحضارة الإنسانية «لم يقتصر على مجرّد النقل والحفظ، بل تعدَّى ذلك إلى الابتكار والتجديد والاكتشاف، والانتقال بالحضارة البشَرية مِن درجة إلى درجة أخرَى، أسمَى بكثير مِمّا كان عليه الحال مِن قبل»[3]، ولذلك فإننا «إذا لم نواجه ذلك العِلم العَربِىّ ولم نتفهَّمه، فسنجد فراغا يتعذَّر تفسيرُه بين الحضارات القديمة، وبين حضارتنا الحديثة»[4].

---

(١) بطرس البستانى : كتاب دائرة المعارف - المجلد الحادى عَشَر - مطبعة الهلال بمصر - القاهرة - ١٩٠٠، ص ٢١١.

(2) Our World in Space and Time, Colourama, A Pictorial Treasury of Knowledge; Odhams Press Ltd., London, 1959, p.38.

(٣) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (مرجع سابق) ص ١ - من المقدمة.

(٤) الدوميلى (مرجع سابق)، ص ١١.

طبيعة العِلم الإسلامى :

مثلما كان القرآنُ الكريم والسنَّة النبويّة المطهَّرة، هما الإلهام الأعظم للحضارة الإسلامية الرائعة، والمصدَر الأساسىّ للعِلم الإسلامىّ، كانا هما المحدّدين لطبيعة العِلم الإسلامىّ.

والعِلم فى الإسلام - كما نراه فى الكِتاب والسُّنَّة - هدَف له قيمته فى ذاته، كما رأينا عند الحديث عن (مصادر العِلم الإسلامىّ)، وذلك لأن (العِلم) هو وحدَه القادر على تحقيق (إنسانية) الإنسان، ورفعه إلى الدرجة التى يكون بها مستحقًا ذلك التكريم الذى كرَّمه به ربُّه حين استخلفه.

(فالعِلم للعِلم) شعارٌ رفعه الإسلام، واتّخذه سبيلا لتقدُّم الإنسانِ من حيثُ هو إنسان، وسبيلا لرفاهية المجتمع الإسلامىّ وسُمُوّه.

و(العِلم) فى الإسلام يعنِى التأكُّد والثقة واليقين :

- ﴿قَالَ : يا قَوْمِ ليسَ بِى ضَلَالَةٌ، ولَكِنّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِين* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّى وأنْصَحُ لَكُمْ، وأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمونَ﴾(1).

- ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ، لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ، حتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وتَعْلَمَ الكَاذِبِين؟﴾(2).

- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ، ومَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ فِى الأَرْضِ ولاَ فِى السَّمَاءِ﴾(3).

- ﴿وجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيَتَيْنِ، فَمَحَوْنَا آيةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنا آيةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً، لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ، ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَاب، وكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا﴾(4).

والتأكُّد والثقة واليقين أمور لايحصُل عليها الفرد إلا إذا مَرّ بمرحلة الشكّ، ودفَعَهُ ذلك الشكّ إلى إعمال الفِكر، والنظَر والتأمُّل، والبحث الجادّ، قطعا للشكّ، ووصولا إلى اليَقِين.

---

(1) قرآن كريم : سورة الأعراف - 7 : 61، 62.
(2) قرآن كريم : سورة التوبة - 9 : 43.
(3) قرآن كريم : سورة إبراهيم - 14 : 38.
(4) قرآن كريم : سورة الإسراء - 17 : 12.

ويكاد اليقين بعد الشكّ أن يكون فى الإسلام أمارة من أمارات النبوّة، وعلامة من علامات الإيمان الصادق، وفى قصّة الخليل إبراهيم عليه السلام ما يؤكّد هذه الحقيقة :

- ﴿وإذْ قَالَ إبرَاهِيمُ لأبِيهِ آزَرَ: أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً؟ إِنِّى أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ* وكَذَلِكَ نُرِى إبرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، ولِيَكُونَ مِن المُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا، قَالَ: هَذَا رَبِّى، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ: لا أُحِبُّ الآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغًا قَالَ: هَذَا رَبِّى، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ: لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ: هَذَا رَبِّى، هَذَا أَكْبَر، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفًا، ومَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

وفى قصص القرآن الكريم الأُخرَى غير قصص الأنبياء صلوات الله عليهم جميعا ما يؤكّد هذه الحقيقة أيضاً، ويدلّ على أنّ (الشكّ) هو بداية اليقين، وأنه المدخل الحقيقىّ للإيمان الصحيح :

- ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَه، قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ؟ قَالَ : لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالَ : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وشَرَابِك لَمْ يَتَسَنَّهْ، وانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ، ولِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ، وانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِير﴾(٢).

ورغمَ أنَّ (العِلم للعِلم) هو شعار الإسلام الأوّل - كما سبق، فإن لهذا العِلم فوائد كُبْرَى، تعود على الفرد المسلم والمجتمع المسلم على السواء، ومِن ثَمّ كان (العِلم للمجتمع) شعارا آخَر رفَعَهُ الإسلام إلى جانب الشعار الأوّل، لايقلّ عنه أهمّيّة، بل إنه يزيد عنه أهمّيّة، لأن العِلم إذا لم يُتَرْجَم - فى الإسلام - إلى عَمَل

(١) قرآن كريم : سورة الأنعام - ٦ : ٧٤ - ٧٩

(٢) قرآن كريم : سورة البقرة - ٢ : ٢٥٩

نافع، أو سلوك حميد، أو نُظُم وقوانين صالحة، فإنه يكون لَغْوًا فارغا، وتلك سِمَةُ الكُفَّار والمنافقين فى كل زمان ومكان :

- ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ* كَانُوا لايَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوه، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(١).

- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ* يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ* فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(٢).

ومِمَّا يلفِت النظَر أنَّ الإيمان لايَرِدُ فى كتاب الله إلا مقتَرِنا بالعَمَل، والإيمانُ هو ذروةُ (اليَقِين)، ومِنْ ثَمَّ يكون المقصود باليَقِين الذى يتوصَّل إليه المسلم بعِلمه، هو أن يترجَم هذا العلم وذلك اليقين إلى عَمل، يغيِّر وجهَ الحياة على الأرض :

- ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ، لايَمُوتُ فِيهَا وَلايَحْيَى* وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ، فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾(٣).

- ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، ثُمَّ اهْتَدَى﴾(٤).

- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لايُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٥).

فذلك الفصل التعسُّفىُّ الذى نراه اليوم فى عالَمنا المعاصِر بين (العِلم للعِلم) و(العِلم للمجتمع)، لاوجودَ له فى الإسلام، ولامكان فيه للفصل بين العِلم

---

(١) قرآن كريم : سورة المائدة ـ ٥ : ٧٨ ، ٧٩.
(٢) قرآن كريم : سورة البقرة ـ ٢ : ٨ ـ ١٠.
(٣) قرآن كريم : سورة طه ـ ٢٠ : ٧٤ ، ٧٥.
(٤) قرآن كريم : سورة طه ـ ٢٠ : ٨٢.
(٥) قرآن كريم : سورة النور ـ ٢٤ : ٥٥.

والعَمَل، أو بين النظرية والتطبيق[1]، وإنما العِلم فيه هو الطريق إلى التطبيق، والعِلم فيه هو السبيل إلى النهوض بالفرد والمجتمع على السواء :

- ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون﴾[2].

- ﴿ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون؟* أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء، بل أنتم قوم تجهلون﴾[3].

- ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل : إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم، ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾[4].

وهو عِلم هدفه النهائيّ تمكينُ (الإنسان) مِن تحقيق (إنسانيته) كما أرادها الله له يومَ كرَّمه واستخلفه، ولن تتحقق إنسانية الإنسان - في الإسلام - إلا إذا كان إنسانا فاضلا حُرّ الإرادة كريما، يعرف الخير، ويقدر على تحقيقه في مجتمعه، وعلى النضال مِن أجله، قُدرته على السيطرة على الطبيعة التي جعلها الله في خِدمته :

- ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه، وإليه النشور﴾[5].

---

(١) معروف أن نظرية (العِلم للعِلم) قد شاعت ووجدت رواجا في المجتمعات الغربية (الرأسمالية)، وأن نظرية (العلم للمجتمع) قد شاعت ووجدت رواجا في روسيا بعد ثورتها البلشفية، ومنها انتقلت إلى المجتمعات الشيوعية الأخرى، لأنها جزء مِن النظرية الماركسية - اللينينية، التي تؤمن بها وتسير عليها هذه المجتمعات الشيوعية. ومن الثابت عِلميا أن الفصل بين (العلم) و (المجتمع) على هذا النحو أمرٌ غيرُ منطقيّ، فالعلم حتى ولو كان للمجتمع، له مُتعة في حَدّ ذاته، والعِلم، حتى ولو كان للعلم، له فوائده الاجتماعية، وكل من المجتمعات الرأسمالية والشيوعية اليوم تؤمن بهذه الحقيقة. ارجع إلى :

- عبد الغني سيد أحمد عبّود: دراسة مقارنة لنظام البحث العلميّ، في جمهورية مصر العربية، والولايات المتّحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتّي - رسالة مقدمة إلى كلية التربية جامعة عين شمس، للحصول على درجة دكتور فلسفة في التربية - قسم التربية المقارنة والإدارة التعليمية (كلية التربية جامعة عين شمس) - القاهرة - ١٩٧٢، ص ٧٠ - ٧٦.

(٢) قرآن كريم : سورة الأعراف - ٧ : ١٣٨.

(٣) قرآن كريم : سورة النمل - ٢٧ : ٥٤ ، ٥٥.

(٤) قرآن كريم : سورة البقرة - ٢ : ١٢٠.

(٥) قرآن كريم : سورة الملك - ٦٧ : ١٥.

- ﴿وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا، وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

ولذلك يُوصَفُ الأنبياء فى القرآن الكريم، فى مواضع مختلفة منه، بأنهم (أُولُو عَزْم وقُوَّة)، وبأنهم (أُولُو عِلْم وحِكْمَة) :

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ (أى سيدنا يوسف) أَشُدَّهُ، آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

- ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾[3].

ومِنْ ثَمَّ لم يجد المسلمون غضاضة ـ كما سبق ـ فى أن يحافظوا على ما وجدوه فى البلادِ المفتوحة مِن عِلم، ولم يجدوا حرَجا فى أن يستفيدوا بهذا العِلم : يدرُسونه ويتعلَّمونه وينمُّونه، حتى تطوَّرَ هذا العِلم على أيديهم، فاستقلَّ عن شخصيته الموروثة التى أخذها المسلمون، وصار ذا طابع جديد ـ إسلاميّ خالص، بحيث كان «الإسلام هو الذى وجَّه تلك الحرَكة الفِكرية والحضارية الكُبرَى، وأظلَّها بظِلّه، وطبعَهَا بطَابَعِه»[4].

والملاحَظ أن الحرَكة العِلمية والحضارية الإسلامية قد نمَت وتطوَّرت وتعقَّدت، بنموّ وتطوُّر وتعقّد المجتمع الإسلاميّ، وتطوُّر حاجاته، ففى حياة الرسول (ﷺ) كانت (الحاجة) ماسّة إلى العِلم الدينيّ، الذى يتعلّق بمبادئ الدين الجديد، كما يتنزّل بها الوحى على قلب الرسول الكريم، وكان الرسول هو (الأستاذ)، وكان صحابته هم تلاميذه وحوارِيُّوه.

وبوفاة الرسول (ﷺ)، واتّساع حَرَكة الفتوح، واحتكاك المسلمين بغيرهم مِن أبناء البلاد المفتوحة، ذات الحضارات القديمة، «جَرَى الناسُ وراءَ عقولهم،

---

(١) قرآن كريم : سورة النحل ـ ١٦ : ١٤.
(٢) قرآن كريم : سورة يوسف ـ ١٢ : ٢٢.
(٣) قرآن كريم : سورة الأنبياء ـ ٢١ : ٧٤.
(٤) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (مرجع سابق)، ص ٧.

واستـرسَلوا فى التسـاؤل؛ بعد أن كانوا فى حـياة الرسـول يسلّمـون بما يَجِئُ به الوَحْى مِن نصوص، ويؤمنون به إيمانا قاطعا»[1]. ومِنْ ثَمَّ باتت (الحـاجة) مـاسّة إلى (الفلسَفة) و (المنطِق)، وغيرهما؛ ففى عهد عُمَر، ثانِى الخُلَفاء الراشدين، «كان علىُّ بنُ أبى طالب يصـرِف جهـودَه فى المدينة، لتـوجيـه نشاط العنصُـر الناشئ إلى الناحيـة العِلمـية، فشـرَع مع ابنِ عَمِّـه عـبدِ الله بنِ العـباس، فى إلقـاء محـاضـرات أسبوعية فى المسجد الجامع، فى الفلسَفة والمنطق والحديث والبلاغة والفِقْه، بينما تفـرَّغ غيـرُهما إلى إلقـاء محـاضـرات فى شـئون أخـرَى. وهكذا تألَّفت نُواة الحـرَكة العِلمية، التى ترعرَعَت وزَهَت بعدَ حين فى (بغداد)، عاصمة العباسيّين»[2].

وفى العصـر الأموِىّ، حـيث كانت حركة الفتوح قد اسـتقرّت، وزاد الاحتكاك بين العرب وغيرهم مِن أبناء البلاد المفتوحة، بحيث أدَّى إلى (تفاعُل) بين العقليات العرَبيـة وغيـر العرَبية، «وتَمَّ للدولة العرَبية كِيانها، ووجد المـتطلّعون إلى المعـرِفة مِن فـراغ الوقت، ووفـرة الثراء، مـا يُعينهُم على البـحث وراء الفِكر اليـونانىّ، الذى كان متسلّطا على الناس وعلى عـقولهم فى العالَم القديم»[3] ـ بدأ الاتصـال بالعلوم الأجنبية يـزداد ويتشعَّب ، وبدأت تظهَر حـاجة جديدة أكثرُ إلحـاحا مِن هذه العلوم الأجنبيـة، وهـى علوم اللغـة والدين، تعليـمـا لهـذه العلوم، وصـيـانـة لهـا مِن الدسّ والتحـريف.

ومِنْ ثَمَّ ظهـرت ـ فى هذا العـصـر ـ «حـرَكة فى التـاريخ والقصَـص والسِّيَـر ونحوِها، وحرَكة فلسفية، مِن منطق وكيمياء وطبّ وما إليها»[4]. وكانت الحرَكة الأُولَى تَشْبِع (الحـاجة) الدينيـة التى ظهـرت فى هـذا العـصـر، وكانت الحـرَكة الثـانية تُشْبِع (الحـاجـة) العـقلية التى نتـجت عن الاحـتكاك بـالشـعـوب غيـر العـرَبيـة ذات الحـضـارات القـديمة، وكـان هـنـاك تداخُل وتفـاعُل بين الحـرَكتين، بـحـيث اتّسـمت الحرَكة العِلمية، أو بدأت تتَّسِمُ، بشئٍ مِن (الشمول).

(١) الدكتور محمد بيصار : العقيدة والأخلاق، وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٠، ص ١٣.
(٢) عمر أبو النصر : على وعائشة ـ دار إحياء الكُتُب العرَبية ـ القاهرة ـ ١٩٤٧، ص ٦١.
(٣) الدكتور إبراهيم سلامة : «مرونة الفكر العرَبى تتضمَّن التوازُن والتلازم بين القديم والحديث» ـ الرائد ـ عدد ممتاز عن مؤتمر المعلمين العرب ـ الإسكندرية ـ ١٩٦٥، ص ٩٦.
(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ـ الجزء الأول (فى الحياة العقلية) ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٣٥، ص ١٧٨.

وفي العصر العبّاسيّ، كان المجتمع الإسلاميّ قد زاد استقرارا عمّا كان عليه في العصر الأمويّ، وكان التفاعل قد زاد بين العرب والموالي (كما كان غيرُ العرب يسمَّوْنَ في العصر الأمويّ)، وكان المجتمع الإسلاميّ قد تعقّدت حضارته - نتيجة لذلك - بحيث صار «يستدعي علما واسعا بكثير من شئون الحياة، من هندسة وطبّ ونجوم، ونظام حُكم وفقه ولغة وأدب، وكان من أثر ذلك كله أن انتشرت في المملكة الإسلامية ثقافاتٌ مختلفة، لأمم مختلفة»، فقد «انتشرت في هذا العصر أربع ثقافات، كان لها الأثر الأكبر في عقول الناس، وأعني بها: الثقافة الفارسية، والثقافة اليونانية، والثقافة الهندية، والثقافة العربية. كما كانت هناك ثقافات دينية، أهمّها: اليهودية والنصرانية والإسلام»(1).

ويرى المرحوم أحمد أمين أنّ الطبّ كان هو المدخل الذي دخل منه المسلمون ساحة العلوم الفلسفية الرحبة، «فقد أسّس النساطرة، بمعاونة اليهود، مدرسة للطبّ بجنديسابور، وأيّدهم الخلفاء العبّاسيّون.

وقد كانت هذه المدرسة الطبّيّة وَارِثَةَ الطبّ اليونانيّ والفلسفة اليونانية في الشرق، وحولَ هذه الدراسة الطبية تكوّنت دراسة الطبيعة والكيمياء والهيْئة، بل والمنطق والإلهيات، وكانت الثقافة الطبّيّة تتطلّب كل هذه الفروع، وبرنامجها يَسَعُ كلّ هذه الأشياء، كما نلاحظ حتى في فلاسفة المسلمين، أمثال الفارابي وابن سينا، فكلاهما طبيب فيلسوف»(2).

وكان هذا (الانفتاح) على الحضارات والعلوم الأجنبيّة، الذي باتت (حاجة) المسلمين تستدعيه بشكل واسع في العصر العبّاسيّ - كان يستدعي اهتماما خاصّا بالترجمة، لنقل هذه العلوم إلى اللغة العربية نقلا أمينا، ومن ثَمَّ «بدأت الدولة تعدّ الترجمة عملا أساسيا، فأنشأ المأمون دار الحكمة، وجعلها شِبْهَ جامعة، أو معهد للترجمة، على رأسه حنين بن إسحق (١٩٤ - ٢٦٠هـ)، كما أنفق الخُلَفاء على رحلات للبحث عن مخطوطات قيّمة، وكان حنين هذا شديد العناية بعَمَله، حتى قيل إنه كان لايعتمد على أقلّ من ثلاث نُسَخ، ليستطيع مقارنتها، والاطمئنان إلى مصدّر صحيح ينقُل عنه»(3).

---

(1) أحمد أمين: ضُحَى الإسلام - الجُزء الأول - الطبعة الأُولَى - مطبعة الاعتماد - القاهرة - ١٩٣٣، ص ١٦٢، ١٦٣.

(2) أحمد أمين: ضُحَى الإسلام - الجُزء الثاني - الطبعة الأُولَى - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٣٥، ص ١٢.

(3) دكتور بهيّ الدين زيّان: الغَزَالي، ولمحات من الحياة الفكرية الإسلامية - الكتاب العاشر من سلسلة (قادة الفكر في الشرق والغرب) - مكتبة نهضة مصر بالفجالة - القاهرة - ١٩٥٨، ص ١٤.

ويقارن المرحوم أحمد أمين بين الترجمة فى العصرين الأمويّ والعبّاسىّ، فيرى أنها كانت فى العصر الأموىّ «محاولات فردية، تموت بموت الأفراد القائمين بها». أما فى العصر العبّاسىّ، فقد صارت عملَ دولة، «وإن شئت فقلْ: كان فى الدولة العباسية مدرسة كبيرة للترجمة، لايضيرها موْتُ فرد أو أفراد منها»(١).

وأدّت ترجمة العلوم الأجنبية إلى دراستها واستيعابها وهضمها، مِمّا نقل المسلمين بعد ذلك إلى مرحلة التأليف العِلمىّ، الذى وصلوا بالعلم فيه إلى القِمّة، التى شاد عليها الغرب نهضته العِلمية الحديثة، والتى لولاها «لبدأت النهضة الأوروبية فى القرن الرابع عشر، مِن النقطة التى بدأ منها العرَب نهضَتهم العِلمية فى القرن الثامن الميلادىّ»(٢).

التربية الإسلامية

تقع معظم الدراسات التى تعرّضت للتربية الإسلامية فى خطأ جسيم، حينَ تنظُر إليها مِن خلال مؤسّسات التعليم التى ظهرت فى الإسلام، ومناهج الدراسة، وطُرُق التدريس، وغيرها، بمعزِل عن الإطار النظرىّ للتربية الإسلامية، كما نراه مِن خلال كتاب الله الكريم، والسُّنَّة النبَوِيّة المطهّرة، فالواقع الذى تتغافَله هذه الدراسات هو أن «التربية الإسلامية هى أيضا جِهاز اجتماعىّ، يعبّر عن روح الفلسفة الإسلامية مِن جهة، وهذا الجهاز هو الذى يحقّق تلك الفلسفة مِن جهة أُخرَى. فَطِنَ النبى عليه السلام مُنذُ أوّل ظهور الإسلام إلى أهمّيّة التربية، فوجّه النظر إليها، وأمر بتعليم القراءة والكتابة، ولم يكد القرن الثانِى الهجرِىّ يطلُع، حتى كان ثَمَّةَ جهاز تربوىّ متغلغِل فِى كل ناحية مِن نواحِى المجتمع الإسلامىّ، ابتداءً مِن الكتاتيب التى تعلّم الأطفال والصبيان، إلى المدارس العُليا التى تعلّم الكبار. وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية بسبَب دقّة هذا النظام وانتشاره، فكانت تلك التربية محقّقة لروح الإسلام»(٣).

(١) أحمد أمين: ضُحَى الإسلام - الجزء الأول (مرجع سابق)، ص ٢٧١.
(٢) قدرى حافظ طوقان (مرجع سابق)، ص ٧ - من المقدمة.
(٣) الدكتور أحمد الأهوانى: التربية فى الإسلام - مِن سِلسلة (دراسات فى التربية) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٨، ص ٧، ٨ - مِن مقدمة المؤلف.

لقد أتىَ الإسلام بأيديولُوجيا معيَّنة، وتصوُّرات للفرد والمجتمع، تختلف - قليلا أو كثيرا - عن الأيديولوجيا التى كانت سائدة قبله، وانعكست هذه الأيديولُوجْيَا الجديدة على التربية الإسلامية، وبدون فهم الأيديولوجْيا الإسلامية، لايمكن فهم التربية الإسلامية.

ولايمكن فهم الأيديُولُوجْيَا الإسلامية - والتربية الإسلامية بالتالِى - دونَ الرجوع إلى إطارهما النظَرِىّ، كما نراه فى الكِتاب والسنّة.

وقد رأينا - عندَ الحديث عن (مصادر العِلم الإسلامىّ) - أن المِحْوَر الذى تدور حوله الأيديُولُوجْيَا الإسلامية هو (الإنسان)، الذى كرَّمه ربّه على سائر خَلْقه، وشَرَّفه باستخلافه - الإنسان كفرد، له حاجات جَسَدِيّة ودوافع غريزية، وله - إلى جانبها - حاجات عقلية وروحية ونفسيّة، والإنسان كفرد يعيش فى جماعة، يُعتَبر - بحُكم انتمائه إليها، وحياته بينَها - مسئولا عن توفير الحقّ والرفاهية لها، مسئوليَّتها عن توفير الحقّ والخير والأمن له.

وفى ضوء هذا المِحْوَر العامّ، يمكن فهم التربية الإسلامية، وبدونه يستحيل فهمُها.

الإطار العام للتربية الإسلامية:

فى ضوء ما سبق، يمكن تحديد الإطار العامّ للتربية الإسلامية فيما يلِى :

(١) أنَّها مسئولية فردِية، بمعنَى أنّ كل فرد مسلمٍ مسئولٌ عن أن ينمّى نفسَه (أىْ يربّيها) بنفسِه.«ولاشكّ أن ما تضمَّنه القرآنُ الكريم، والأحاديث النبويّة الشريفة، مِن حَثّ المؤمنين على طلَب العِلم، وارتشاف مناهله، (مِن المهد إلى اللحد)، كان دافعا لتعلّق المسلمين بالعِلم، بحيث عدَّ طلبُه، والسعْىُ إليه، تقليدا مِن تقاليد الإسلام، يتناقَله الخَلَفُ عن السلَف، وأصبح العلماء عُنْصُرا ممتازا، يتطلّع إليه المسلمون بعين الاعتبار والتكريم والاحترام»[١].

(١) «المعاهد العلمية والاجتماعية فى الإسلام - مُترجَمة عن (إسلاميك ريفيو)» - الرائد - مجلة المعلمين - السنة السادسة - العدد السابع - القاهرة - مارس ١٩٦١، ص ٢٧.

وقد رأينا عند الحديث عن (مصادر العلم الإسلامى)، أن طلب العلم يعتبر فرضا على كل مسلم ومسلمة، وأنه فرض عين بالنسبة للعلوم الدينية، وفرض كفاية بالنسبة للعلوم غير الدينية، ومعنى ذلك أن الإنسان المسلم الراشد مسئول فى الإسلام عن تربية نفسه، وأن ولىّ الأمر مسئول عن الطفل وعن تربيته، حتى يبلغ رشده، وأن الدولة الإسلامية مسئولة عن توفير سبل التربية لأبنائها، إذا هم عجزوا عن ذلك، أو تقاعسوا عنه.

(٢) أنها تربية شاملة، تتفق مع شمول نظرة الإسلام إلى (الإنسان)، فقد «جمعت التربية الإسلامية منذ أول ظهور الإسلام بين تأديب النفس، وتصفية الروح، وتثقيف العقل، وتقوية الجسم فهى تعنى بالتربية الدينية الخلقية والعلمية والجسمية، دون تضحية بأى نوع منها على حساب الآخر»[1]، وإن كان تركيزها ينصب على استخلاص الروح واستصفائها، بهدف «خلق الوازع الداخلى، الذى يجعل محاسبة الإنسان نابعة من ذات نفسه، فهو يشعر أبدا بالرقابة على تصرفاته، رآه الناس، أو كان بعيدا عن أعين الناظرين»[2].

لقد «خلق الله هذا الإنسان جسما كثيفا، وروحا شفافا، جسما يشده إلى الأرض، وروحا يتطلع إلى السماء، جسما له دوافعه وشهواته، وروحا له آفاقه وتطلعاته، جسما له مطالب أشبه بمطالب الحيوان، وروحا له أشواق كأشواق الملائكة».

«وجاءت عقيدة الإسلام، فلم تغفل الروح من أجل الطين، ولم تغفل الطين من أجل الروح، بل زاوجت بينهما فى وحدة متناسقة ملتئمة، وأعطت الروح حقه، والجسد حقه، فى غير إفراط ولا تفريط»[3].

لقد كان رسول الله (ﷺ) - وهو المعلم الأول فى الإسلام - يأمر بالاعتدال فى العبادة، وينهى عن صوم الدهر، وكان يقول: (إن لبدنك عليك حقا)، كما كان عمر رضى الله عنه ينصح المسلمين بأن يعلموا أولادهم الرماية وركوب الخيل.

---

(١) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (مرجع سابق)، ص ٩ - من مقدمة المؤلف.
(٢) الدكتور سعد الدين الجيزاوى: فصول فى تربية الشخصية الإسلامية - رقم (١٨) من (دراسات فى الإسلام) - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة - السنة السابعة - ١٤ مارس ١٩٦٨، ص ١٣.
(٣) الدكتور يوسف القرضاوى (مرجع سابق)، ص ٧٦، ٧٧.

(٣) أنها تربية مُتكامِلة، بمعنى أنها لاتقتصر على مكان دون مكان، فهى تتمّ فى المدرسة والمسجد والشارع والحقل وميدان القتال وساحة القضاء، وكل إنسان فى هذه التربية المتكامِلة معلّم، طالما كان لديه ما يُعطيه، والرسول (ﷺ) يقول : (الحِكمة ضالّة المؤمن، أنّى وجدَها، فهو أوْلَى الناسِ بها). فلا كبير على العِلم فى الإسلام، (ولايزال الإنسان) - على حدّ تعبير الرسول الكريم والمعلّم الأعظم - (عالِما، حتى إذا ظنّ أنه قد عَلِم، فقد جَهِل).

وقد كان المعلّم الأول (ﷺ) يتعلّم مِن أصحابه مالا يعلمه، وكان فى الوقت ذاته يعلّمهم، فى المسجد والشارع والمنزِل، وفى كل مكان يكون (التعليم) فيه ضرورة، وكان الخلفاء الراشدون مِن بعده أساتذة معلّمين، قبلَ أن يكونوا حُكّاما، فقد كان عُمَر مثلاً «يعلّم الناس حقوقهم، ويدرّبهم على استعمالها، يفعل ذلك فى خطبة الجمعة، وفى مَوْسِم الحجّ، أو مِن فوقِ المنبر فى المسجد»[١].

وكان - رغمَ شدّته وتشدّده - يتعلّم مِن الناس، وكم كان سعيدا عندما ردّته امرأة مسلمة فى المسجد، وقال قولته المشهورة : (أصابت امرأة، وأخْطأ عُمَر).

فالكلّ فى الإسلام مسئول عن الكلّ، والتربية فى الإسلام عَطاء، ومِن ثَمّ فكلّ قادر على العطاء معلّم.

أما المعلّم كمحترِف، فلم يظهَر فى الإسلام إلا بتعقّد المجتمع الإسلامىّ، وتعقّد حضارته، حيث صار التعليم - شأنُه فى ذلك شأن الطبّ والهندسة والصيدلة وغيرها - مِهنة واحترافا. ورغمَ ذلك، ظلّ الجميع مسئولين عن التربية، فى صورة كلمة تُقَال، أو فِعل يُفعَل، ولم يعد المعلّم وحدَه هو المسئول عن ذلك كلّه، وإن كانت مسئوليته - بطبيعة الحال - فى هذا المجال - أخطَر المسئوليات.

(٤) أنها تربية عَمَلِيّة، يمارس فيها المتعلّم ما يتعلّمه، وقد كان صحابة الرسول الكريم - المعلّم الأول - يحفَظون آيات القرآن عشرَ آيات، عشرَ آيات، لاينتقلون مِن عشر آيات منها إلى عشر الآيات التى تَلِيها، إلا إذا ترجموها إلى واقع حى، وسلوك عمَلىّ، ينتقلون بعدها إلى الآيات العشر التالية.

---

(١) محمد شديد (مرجع سابق)، ص ٤٨

وكان الرسول الكريم نفسُه يلتزم بالخُلُق قبل أن يدعُو أصحابه إليه، فكان الوحي يتنزّل عليه، ومع ذلك يرجع إلى أصحابه ويستشيرهم، في كل صغيرة وكبيرة، ليعلّم كلّ أمير كيف تُساس الأمور، وليعلّم أبناء الشعب كيف يتمسّكون بحقوقهم مع حُكّامهم، فقد «كان له مِنْ سُلطان الدنيا ما للأمير المطلق اليدين في رعاياه، وكان له مِن سُلطان الآخِرة كُلّ ما للنبي الذي يعلَم مِن الغيب ما ليس يعلَم المحكومون، وكان له مِنْ سُلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به أتباعه أكفأ كُفء، وأوقر مَهيب.

ولكنه لم يشأ إلا أن يكون الرئيسَ الأكبرَ بسلطان الصديق الأكبر: بسُلْطان الحبّ والرضا والاختيار. فكان أكثرَ رجل مشاورة للرجال، وكان حبُّ التابعين شرطا عِندَه مِن شروط الإمامة في الحُكْم، بل في العبادة ـ فالإمامُ المكروهُ لاتُرْضَى له صلاة. وكان يَدِين نفسه بما يَدِين به أصغرَ أتباعه»[(1)].

(٥) أنها تقوم على الحُرّيّة، وسبيلها الاقتناع والقُدْوة الحَسَنة، حتى فيما يتّصل بمسائل العقيدة :

ـ ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[(2)].

ـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ* وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[(3)].

وقد كان من نتائج هذه الحُرّية أن «تفرّق الناس إلى شِيَع وأحزاب ومذاهب، وهذا عدَا ما كان في المملَكة الإسلامية مِن الديانات الأخرَى، مِن اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة، وانقسام كلٍّ مِن هؤلاء إلى مذاهب ونِحَل. وكان بجانب هؤلاء جميعا جماعة مِن الشّكّاك»[(4)].

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ـ دار الكُتُب الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٦، ص ١٠٠، ١٠١.
(٢) قرآن كريم : سورة النحل ـ ١٦ : ١٢٥.
(٣) قرآن كريم : سورة الكافرون ـ ١٠٩ : ١ ـ ٦.
(٤) أحمد أمين : ضُحَى الإسلام ـ الجزء الثالث ـ الطبعة الأُولَى ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٣٦، ص ٣٤٨.

وممّا يلفِت النظرَ حقّاً، أنّ هذه الآراء والمدارس الفكرية المتعدّدة، التى انتشرت فى أنحاء العالَم الإسلامىّ كلّه، كان منها ما يمسّ العقيدة الإسلامية، ومنها ما كان يخالف الحقائق الإسلامية، ومع ذلك فلم تكن هناك سُلطة دينية أو سياسية، تَحْظُر هذه الآراء، أو تحكُم على أصحابها بالإعدام، أو الإحراق، بل كان «عُلمَاء الشريعة يتصدَّوْنَ للردّ عليها، وبيان زَيْفها وبُطلانها، بالحُجّة والبُرهان»(١).

ولعل أشهر القصَص الدالّة على ذلك قصّة ابن الراوندى المجُوسىّ، الذى «كان يؤلّف للمَجُوس كُتُباً فى الطعن على القرآن الكريم، فما تعرَّض له أحد بمحاكمة أو مصادرة، وإنّما تصدَّى له العلماء وأهل الرأى بالحجّة والمناقشة، فبدّدوا آراءه، وأزالُوا كل ما يمكن أن يكون لها مِن آثار»(٢).

(٦) أنها تقوم على الانفتاح، والانفتاح مرادِف للحرّيّة، أو هو نتيجة مِن نتائجها، وبهذا الانفتاح احتضن الإسلام كلّ العلّوم التى وَرِثَها عن الحضارات القديمة، وعلَّمها لأبنائه فى الكتاتيب والمساجد ودُور الحكمة، وغيرِها مِن معاهد العِلم التى أُنْشِئَتْ فى ظلّه، كما احتَضَنَ كلّ قادر على العطاء، ووفَّر له الفرصة لأن يُعْطِيَ ما عِندَه مِن عِلم، فقد كان المسلمون معروفين «بالتسامُح على وجه العموم مع رعاياهم مِن غير المسلمين، لاسِيَّما إذا كانوا من الكِتَابيّين (اليهود أو النصارَى)»(٣).

ويلفِتُ نظرَ المرحوم عبّاس العقاد كثرةُ عَدَدِ غير العرَب وغير المسلمين مِمَّن ساهموا فى حرَكة الحضارة الإسلامية، وهو يعزُو ذلك إلى أسباب متعدّدة، لعلّ أهمّها (إنسانية) الإسلام، حيث يرَى أن «الدفعة التى أحيَتْ الحضارة فى رُقعة الدولة الإسلامية قد جاءت مِن السلالة العربية، وأن حَضَانة الدولة الإسلامية هى التى سمحت ببقاء ما بَقِيَ مِن حضارة الفراعنة والإغريق والفُرس والهنود، ولولا قُوَّة (مُوجَبَة) فى العبقَرِيَّة العربية، لما جاءت تلك الدفعة، ولاتيَسَّرت تلك

---

(١) الدكتور مصطفى السباعى (مرجع سابق)، ص٨٢.

(٢) محمد فهمى عبد اللطيف : «تطهير التراث الإسلامىّ مِن أباطيل الإسرائيليات» ـ منبَر الإسلام ـ المجلِس الأعلَى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ـ السنة ٣٢ ـ العدَد ١٢ ـ ذو الحجّة ١٣٩٤ ـ ديسمبر ١٩٧٤، ص ١٨٦.

(٣) الدوميلى (مرجع سابق)، ص ٣٣٩.

الحضارة»[1]. فالإسـلام «هو الذى وَجّه تلك الحـركة الفكـرية والحضـارية الكُبرى، وأظلّها بظلّه، وطبعَها بطابَعِه»[2].

(فـإنسـانية) الإسـلام هى الـتى جـعلت حـضـارته تتَّسم بذلك الانفـتاح على الحضـارات القديمة والمعاصـرة، وعلى غير المسلمين، ليسـاهمـوا بدور بارز فى حرَكته الحضارية، وكانت تلك (الإنسـانية) تنعكِس على التربية الإسلامية، فكانت هى الأخرى تتَّسم بالانفتاح على نُظُم التربية والعلوم المختلفة، تأخُذ منها ـ دون حـرَج ـ مـا تراه مناسـبـا، كـمـا سنرى عندَ الحـديث عن تطوُّر نظام التـربيـة الإسلامية، فيما بعد.

(٧) أنّهـا تقوم على الأصـالة، وأصـالة الإسـلام إنما تظهـر فى «قـدرته على تكييف الإلهام الدخيل وَفْقَ حاجاته، وفـى خَلْقِه إياه خَلْقـا جديدا، يُسبِغ عليه طابَعَه الخاصّ، وفى نَبْذِه ما لا يقبَل التكيُّف»[3].

فـالمسلمـون لم يكونوا مـجـرّد (مـتلقِّين) للحـضـارات الأجنبية، التى وقـعـوا تحتَ تأثيرها، ولـم يكونوا مـجـرَّد (سلبـيِّين) فى مـوقِـفـهم منهـا، وإنما كـانوا (إيجابيين) فى تعامُلهم معها، ومِنْ ثَمَّ صبغوها بالصبغة الإسلامية، وأخضعوها لأيديُولُوجية الإسـلام، ومِـنْ ثَمَّ صـارت هذه العلوم فى النهـاية علومـا إسـلامـية، تشكّل جُزءا لايتـجزّأ مِن حضارة إسـلامـية متميِّزة، حيث إن «الإسـلام له فلسـفته ونظرته إلى الحياة، التى سـيطرت على هذه الحـضـارة، وأكسـبـتها طابَعا إسـلاميا واضـحا»[4].

وما يُقـال عن الحضـارة والعلوم، يمكن أن يقال عن التـربية، فالمسلمون لم يأخُذوا نظريات التربية التى وجدوها، ولم ينقلوا مؤسَّـساتها ونُظُمها، ولم يفعلوا مـا فـعله الرومـان مِن قبلِهم، حين أخذوا (كلّ شىء) فـى نظامـهم الـتعليـمىّ عن اليونانيين، ولا ما فعَلَه الغربيون مِن بعدِهم فى العصور الوسطَى، حين فعلوا ما فـعله الرومـان مع المسلمين وحضـارتهم، وإنما هـم تأثّروا بنظُم التـعليم الأجنبيـة، وطوّروا هذه النظُم وَفْقَ (حـاجـات) المجـتمـع الإسـلامىّ النامـيـة المتطـوِّرة، فكانت

(١) عباس محمود العقاد: أثَر العرَب فى الحضارة الأوروبية (مرجع سابق)، ص ٣٣.
(٢) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (مرجع سابق)، ص ٧.
(٣) المرجع السابق، ص ١٧.
(٤) المرجع السابق، ص ٩.

«المعاهد الإسلامية نِتاجا إقليميًا، مِن صميم حاجات المجتمع الإسلاميّ وتطوُّراته، تنبِض بروح الإسلام، وتهتدِى بتعاليمه وأغراضه، ولم تكن فى جُملتها دخيلة أو مأخوذة عن الحضارات القديمة، وإنما كانت مُتَّصلة فى نُمُوّها وتطوُّرها بالحياة الإسلامية العامّة، تنعكِس فيها أهَمُّ أغراض واتجاهات تلك الحياة»[1].

(٨) **مسئولية الجماعة عن التعليم :** وليست تلك المسئولية مناقِضة للمقوّم الأوّل مِن مقومات التربية الإسلامية (أنها مسئولية فردية)، بل لعلّها مكمّلة له، لأنه لاتناقُض فى الإسلام بين الفرد والجماعة، فالفرد فى الإسلام «مسئول عن الجماعة، يعمَل ويوجِّه وينقُد ويصحِّح، منفردا، وضمنَ فئة مِمَّن يُدرِكون ويستطيعون، وعليه أن يستنفِدَ فى ذلك كله أقصَى قُدرته». «والجماعة مسئولة عن أعضائها وعمَلِها، على أنّْ لاتطغَى على ذات الفرد وتَسلُبَهُ حرّيّته وحقوقه، بدعوَى حمايته أو الوصاية عليه. كما أن الفرد مسئول عن ذاته، على أنْ لاينسَى الجماعة، فى غَمْرَة حرصه، واستمساكه بحقوقه ومصالحه القريبة»[2].

وقد كانت الجماعة مسئولة عن التعليم منذُ البداية، ممثَّلة فى شخص الرسول الكريم، فكان يعلّم فى دار الأرقَم بن أبى الأرقَم، ثم راح يعلّم فى المسجد، وفى كلّ مكان كان يجد فيه فُرصة للتعليم، وعلى نهجه سار الخُلَفاء الراشدون مِن بعدِه، ففي عهد عُمَر مثلا، «كان اهتمامه بأمر التربية بالغا، فاختار أمراءَ الأمصار مِن فُقَهاء الصحابة، ليكونوا حُكَّاما مُرَبِّين، كما كان يبعَث معهم رجالا خصَّصهم للعِلم والتربية»، «وكان يحرِص على أن يكون أمراءُ الأمصار رجال تربية ومواساة، لارجال حُكْم وجَبَروت»[3].

ومسئولية الجماعة الإسلامية عن التعليم على هذا النحو، تعنِى التعاوُن بين السلطتين المركَزية واللامركزية فى إدارة التعليم وتمويله والإشراف عليه، بحيث يكون جُهدُ التعليم على أساسه جُهدًا شعبيا، ثم تتدخَّل الجماعة (الدولة) لتكملة ما تراه مِن نَقْصٍ فى بعض الجهات المحَلّيّة، أو لتقويم اعوجاجٍ تراه فى جهات أُخرَى.

(١) أسماء حسن فهمى : مبادئ التربية الإسلامية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٧، ص ٢٢.

(٢) الدكتور سيد أحمد عثمان : «المسئولية الاجتماعية فى الإسلام ـ دراسة نفسية» الكتاب السنوىّ فى التربية وعلم النفس ـ بأقلام نُخبة مِن أساتذة التربية وعِلم النفس ـ عالم الكُتُب ـ القاهرة ـ ١٩٧٣، ص ٧.

(٣) محمد شديد (مرجع سابق)، ص ٤٢، ٤٣.

مؤسسات التربية الإسلامية:

عرف الإسلام التربية بمعناها الشامل، بمعنى دورانها حول تحقيق النمو الجسمىّ والعقلىّ والانفعالىّ والروحىّ والخُلقىّ، كما عرفها بمعناها المتكامل، بمعنى أنها لا تقتصر على المدرسة وحدها، بل تتعداها إلى كل ما له تأثير فى المتعلمين، فى المنزل والشارع وفى غيرهما، كما عرف التربية المستمرة مدى الحياة - كما رأينا عند حديثنا عن الإطار العام للتربية الإسلامية - قبل أن تعرف التربية الحديثة ذلك كُلّه بحوالى ثلاثة عشر قرنا من الزمان.

وعرف الإسلام المؤسسة التربوية - رغم ذلك - منذ اللحظات الأولى لبدء نزول الوحى على قلب محمد (ﷺ)، فكانت دارُ الأرقم بن أبى الأرقم أوّلَ مؤسسة تربوية، فقد كان المعلّم الأعظم يجمع القِلّة القليلة، التى آمنت به سرّا، فى هذه الدار، يستخلص نفوسها، ويعلّمها آيات القرآن التى يتنزّل بها الروح الأمين على قلبه، ويشكّلها أيديولوجيًّا بما يتّفق وتعاليم الإسلام الحنيف.

ولم تكن المؤسسة التربوية الإسلامية مؤسسة جامدة، بل كانت دائما مؤسسة مَرِنة متطوّرة، مُستجيبة لحاجات الزمان والمكان، فعندما انتقل المسلمون من مكّة إلى المدينة بعدَ الهجرة، لم تَعُدْ دارُ الأرقم وغيرُها من الدور لتتّسعَ لأعداد المسلمين الكبيرة، بعد أن أسّسوا لهم دولة فى المدينة، وإنما صار (المسجد) هو المكان الذى يتّسع لتلك الجموع الكبيرة من المسلمين، وخاصّة أنّ (المسجد) أو (الجامع) كان هو محْوَر الحياة فى المجتمع الإسلامىّ منذُ إنشائه.

وظلّ المسجد - مؤسسة التربية الثانية فى الإسلام - مؤسسة التعليم الأساسية فى عهد النبىّ (ﷺ)، وفى عهود خلفائه الراشدين، وعندما فَرضت علوم أجنبية نفسَها على المسلمين - كما سبق - اقتحمت المسجد، لتفرض نفسها على الدراسة فيه، جَنبًا إلى جَنب مع العلوم الدينية. ولم تظهَر مؤسسة التعليم الثالثة فى الإسلام إلا بعد فترة طويلة من الحكم الأموىّ، وتعقّد الدراسة فى المساجد، بحيث صارت تستدعى دراسة تمهّد لها النشء، فكانت (الكتاتيب) - مؤسسة التربية الثالثة فى الإسلام - ضرورة من ضرورات الحياة فى مجتمع قَطَعَ شوطا فى طريق الحضارة والمَدَنيّة.

وترى أسماء حسن فهمى أن «المسجد والجامع» كان «بمثابة المدرسة الثانية والعالية فى وقت واحد، وفى أوّل الأمر كان مكانَ التعليم الأوّلىّ أيضا، ولكن المسلمين فضّلوا فصل تعليم الصغار فى مكان خاصّ فيما بعدُ، خوفا على الجامع مِن عبَث الأطفال، وعدم تقيُّدِهم بأصول النظافة»(١).

وعلى أيّة حال، فقد «رافقت الكتاتيبُ التعليمَ فى جميع أدواره».

«وكان هناك نوعان مِن الكتاتيب، نوعٌ لأولاد العامّة، يدفعون فيه أجرَ تعليمهم، وآخَرُ لتعليم أولاد الفُقَراء، اسمه (كُتَّاب السبيل)، والتعليمُ فيه بالمجّان».

«ولم تكن الدراسة فى هذه الكتاتيب ارتجالية، ولم يكن يُتْرَكُ للمعلّم أمرُ اختيار موضوعات الدراسة كيف يشاء، بل كانت دراسة أصيلة، لها برامج يتوخّاها المعلّمون فى مختلف الكتاتيب»، «وذلك لإعداد التلاميذ للدراسة فى حلقات الجوامع، أو فى المدارس المختلفة التى أُنشِئَت فى العصر العباسىّ»(٢).

ومع التقدُّم الحضارِىّ الذى حقّقه المجتمع الإسلامىّ فى العصر العباسىّ، بدأت مؤسَّسَات تربوية أخرَى تفرِض نفسَها على العالَمِ الإسلامِىّ، فظهرت (دار الحِكمة)، التى انتشرت فى أنحاء عديدة مِن العالَمِ الإسلامِىّ، فى المَوصِل، وفى القاهرة والفُسطاط وحلَب(٣)، وذلك بعد إنشاء (دار الحِكمة) الأمّ فى بغداد بطبيعة الحال، على يد المأمون، وكان الهدَف من إنشائها أوّلَ الأمر هو الاضطلاع بحَرَكة الترجمة الضخمة، التى اتّسعت كثيرا فى عصره، ثم اتّسعت رسالتُها بعدَ ذلك، فصارت تشمَل التعليم العالِى أيضا، بجانب المسجد، ولذلك يعتبِرها هانز «أوّل جامعة إسلامية»(٤).

وإلى جانِب المسجد ودار الحِكمة، كمؤسَّسَات للتعليم العالِى، ظهرت مؤسَّسَات تربوية أُخرَى، لاتقل أهمّيّة عن هاتين المؤسّستين، فرضتها ظروفُ

(١) أسماء حسن فهمى (مرجع سابق)، ص ٣٦.

(٢) عز الدين عبّاس: «التعليم فى الإسلام» ـ الرائد ـ مجلة المعلمين ـ السنة السابعة ـ العدد الخامس ـ مارس ١٩٦٣، ص ١٦.

(٣) بيوت الله، مساجد ومعابد ـ الجزء الثانى، كتاب الشعب ـ رقم (٧٨) ـ مطابع الشعب ـ القاهرة ـ ١٩٦٠، ص ١٩٨.

(4) NICHOLAS HANS **Comparative Education, A Study of Educational Factors and Traditions**; Routledge & Kegan Paul, London, 1958, p. 101.

الحياة فى العصر العبّاسىّ، والتقدُّم العِلمىّ، والازدهار الاقتصادىّ، الذى شهده هذا العصر، مثل قصور الخلفاء، و«مجالس المناظرات»، و«الدور والقصور»، و«المكتبات»(١)، وغيرها مِن مؤسّسات الإنتاج والخدمات، التى كانت تُعتبر كمدارس (التلمَذة الصناعية) فى العصر الحاضر(٢).

وربما يعترض البعض على بعض هذه المؤسّسات كمؤسّسات تربوية، مثل الدور والقصور مثلا، ولكن بعض قصور الخلفاء، كقصر الخليفة المأمون مثلا، كانت تُعقد به حلقات منتظِمة للعِلم، يحضُرها (المتخصِّصون) فى فرع من فروع العِلم، لاتقلّ بحال من الأحوال عن حلقات العِلم المتخصّصة، التى كانت - ولاتزال - تُعقد فى الكليات الجامعية، كما أن بعض الدور التى كانت تُعتبر بمثابة مؤسّسات عِلمية متخصّصة، (يحجّ) إليها طُلّاب العِلم المتخصّصون فى فرع مِن فروع المعرفة من كل مكان. وكان «مِن أهمّ المنازل التى اتُّخِذَت مكانا للدرس، بعدَ دار الأرقَم، ومنزل الرسول بمكّة، منزل الرئيس ابن سِينا»(٣).

«ومِن الدور الهامّة التى كان يلجأ إليها الطلّاب والمدرّسون، فيستفيدون منها استفادة بالغة، دار الإمام الغزَالىّ (٥٠٤هـ)، التى كان يستقبل فيها تلاميذه، بعدَ أن اعتزل العَمَلَ بنظاميّة نيسابور، على اثر رِحلته التى قام بها للحجّ والاعتكاف بالجامع الأموِىّ بدمشق، حيث كتب كتابه الشهير (إحياء علوم الدين)»(٤).

وفى العصر العبّاسىّ الثانى، حيث استقلّ الأمراء المحلّيّون بشئون الولايات العرَبية، بعدَ ضعف الخلافة العبّاسية فى بغداد، بسيطرة الأتراك عليها، وحيث صارت (الحكومة) فى كل إقليم مِن أقاليم الدولة الإسلامية فى حاجة إلى

---

(١) أحمد أمين : ضُحَى الإسلام - الجُزء الثانى (مرجع سابق)، ص ٥٤ - ٥٩.

(٢) كانت دراسة الطبّ مثلا تتمّ فى (البيمارستانات)، أى المستشفيات، حيث كان بالمستشفَى عادة إيوان (قاعة محاضرات)، يستمع فيه الطلاب إلى الدرس، ثم يرون تطبيقه العمَلىّ وطُرُق علاجه عَمليا على المرضَى. ويُعتبر تدريس الطبّ على هذا النحو مِن أحدث الاتجاهات العالمية اليوم فى تدريس الطبّ. أما التدريب فى مؤسّسات الإنتاج، فالمقصود به التدريبُ فى مصنَع أو ورشة على يد صاحب المصنع أو الورشة، أو على يد إنسان يُجيد العَمَل الذى يدرّب الطلاب عليه، وقد ازدهر هذا النظام بصفة خاصّة فى العصر المملوكىّ، ومازال ببعض صُوَرِه موجودا بيننا حتى اليوم، كتدريب الأطفال فى ورَش إصلاح السيارات مثلا.

(٣) الدكتور أحمد شَلَبىّ : تاريخ التربية الإسلامية - دار الكشّاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت - ١٩٥٤، ص ٤٧.

(٤) المرجِع السابق، ص ٤٩.

(موظّفين) رسميّين، يُديرون شئون الدولة ويحقّقون أهدافها - هنا فقط صار (نِظام المدرسة)، بمفهومه الحديث، ضرورة تفرض نفسَها على الواقع الإسلامىّ.

وقبلَ نشأة هذا النظام، «لم تكن هناك مراحل للتعليم معيّنة، فليس هناك مرحلة للتعليم الأوّلىّ أو الابتدائىّ، ومرحلة للثانوىّ، وهكذا، وإنما كانت هناك مرحلة واحدة، تبتدِئ بالكُتّاب، أو بالمعلّمين الخاصّين، وتنتهى بأن تكون له حلقة فى المسجد».

«كما لم يكن هناك منهج خاصّ تسير عليه الأمّة، فيكون الكُتّاب أحيانا مقتصِرا على القراءة والكتابة، وتعليم القرآن، ونرى المعلمين فى الكتاتيب أحيانا يعلّمون اللغة والنحو والعَرُوض، وكلُّ شيخ له طريقته ...». «وفى المسجد الكبير حلَقاتٌ مِن الدروس مختلِفة الألوان»، «والمتعلّم حُرٌّ أن يذهَب إلى أيّة حلقة، وإلى أىّ شيخ، فإذا أتمَّ عِلْمَ شيخ، انتقَلَ إلى عِلمٍ آخَر، أو شيخٍ آخر».

ولم تكن هناك - أيضا - درجات عِلمية، «يمْنَحُهَا مَنْ أتمَّ الدراسة بعدَ امتحان. إنما كان الامتحان امتحانَ الرأى المحيط به، مِن علماء ومتعلّمين: فمَنْ آنَسَ مِن نفسِه الكفاية على أن يجلِس مجلِس العِلم، جلَس، وتعَرَّض لجِدال العلماء ومناقشتهم»، «وكان فى هذا ما يكفى لحماية العُلَماء مِن المتطفّلين والجاهلين»[1].

ويعود إنشاء (نظام المدرسة) إلى أهل نيْسابُور، ولكنَّ سَعَة انتشارها تعود إلى الوزير السلجُوقىّ (نِظام المُلْك)، الذى أنشأ (المدرَسة النظامية)، التى تنتَسِبُ إليه، فى بغداد سنة ٤٥٨هـ (١٠٦٥م)، كما أنشأ مدارس مُمَاثِلة لها فى أَماكِنَ أُخرَى، «فبَنَى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببَلْخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهَراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمَرْو، ومدرسة بآمل طَبَرِسْتَان، ومدرسة بالمَوصل، ويُقَال: إن له فى كلّ مدينة بالعِراق وخُراسان مدرَسة»[2].

---

(١) عبد الله حسين: التعليم العَرَبى والجامعى - مطبعة التوفيق بمصر - القاهرة، ص ١٧١ - ١٧٥، ويبدو أنها منقولة بنصّها مِن:
- أحمد أمين: ضُحَى الإسلام - الجزء الثانى (مرجع سابق)، ص ٦٦ - ٦٩.
(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام - الجزء الثانى (المرجع السابق)، ص ٤٩.

ومِن العراق وخُراسـان، انتقلت فِكرة المدرَسة إلى الشام، حـيث «أُقيمت أوّل مـدرَسة فى دمـشق فى عـام ٤٩١هـ (١٠٩٧م)». «ومنهـا انـتقلت فِكرة بنائهـا إلى مـصـر علـى يد صـلاح الدين، وذلك مـنذ ٥٦٧هـ (١١٧١م). ثم ظهـرَت فى شـمـال أفريقيا بعدَ ذلك بما يَقرُب مِن قرن»[١].

ويرَى جِبْ وكرَامَرْ أن صـلاح الدين الأيوبىّ يُعتَبر «أكبـرَ مؤسّس للمدارس بعدَ نظام المُلك»، «وذلك لأن نشـاطه الأكـبَر، كـمـؤسّس للمـدارس، كان فى البلاد التى أصـبَـحت بالِغـة الأهمّـيّـة فى العـالَم الإسـلامىّ، وهى سـوريا وفلسطين ومصر»[٢]. ومِن هـذه البلاد انتشرت المدارس فى بقيّة أنحاء العالَم الإسلامىّ، بل إن الدوميلى يرَى أنه «إلى النظاميّة حقّـا يرجِعُ أصلُ المدارس الهامّة بالشرق، بل إن تأسيس جامعات الغرب كان مِن وَحْيها وتأثيرها»[٣].

وبإنشـاء (نظام المدرَسة)، بدأ نظام التـربية الإسـلامىّ يدخُل مرحَلة جـديدة مِن مـراحل نُمـوّه وتطوُّره، كـانت هـى المـرحلةَ الأخـيـرةَ مِن تلك المراحل، فـقـد «أصبـحت المدرَسة منظَّمة رسـمية مِن منظَّمـات الدولة، يتخرّجَ فيها عُمّال الدولة وموظّفوها»[٤]. «وأصبـحت الدراسة فيها دراسة رسـمية، تسير وَفْقَ لوائح وقوانين، شبيهةٍ بتلك التى نعرِفها اليوم، لَحَذَت بالتنظيمِ كُلّ شئ فيها : حضور التـلاميذ وانصرافهم، البرامج التعليمـية، هيئة التـدريس، المكتَبة والإجازات العِلمية، أىْ أنّ هـذه القوانين لـم تترُك شيئا مِن نُظُم الدراسة إلا تناولَته بالتنظيم والتنسيق»[٥].

وبإنشاء (نظام المدرَسة)، انفصلت المدرَسـة (الفرع)، عن المسـجِد (الأصل)، فقد كانت المدارس الأولَى «مُلحَقة بالمساجد، واعتُبِرَت جُزءا منها، ثم تطوّرت حتى فُصِلَت عن المسـاجِد، وأصـبـحت مـسـتـقِلّة، ثم أُنشِئَ فى كلّ مـدرَسـة مـسـجِـد للطـلبة».

وهكذا، «بعدَ أن كان الجـامعُ هو الأصل، الذى تتبَعُه المدرَسـة وتخـضَع له، أصبح الجـامعُ فرعا يتبَع الأصل، وهو المدرسـة، وبعد أن كان فى كل جامع مدرَسة

---

(١) بيوت الله مساجد ومعابد (مرجع سابق)، ص ١٩٨.

(2) H.A.R. GIBB and J.H.KRAMERS : Shorter Encyclopaedia Islam ; E.J. Brill, Leiden 1953, p. 303.

(٣) الدوميلى (مرجع سابق)، ص ٢٨٦.

(٤) بيوت الله ، مساجد ومعابد (مرجع سابق)، ص ١٩٩.

(٥) عز الدين عباس (مرجع سابق)، ص ١٦.

تخضع له، صار يُبْنى فى كلّ مدرَسة مسجد صغير، يناسبها ويخضع لها»(١).

ولا يختلف (نظام المدرسة) الإسلاميّة هذا ـ كما نرَى ـ رغم انه يعود إلى الوراء قُرابة تسعة قرون ـ عن (نظام المدرسة) الحالِىّ فى اى بلَد مِن بلاد العالَم المعاصر المتقدّمة.

إدارة التعليم وتمويله فى الإسلام:

رأينا عندَ حديثنا عن (الإطار العامّ للتربية الإسلامية) ـ أن التربية فى الإسلام، مسئولية فردية اجتماعية، ومعنَى ذلك ان إدارة التعليم وتمويله فى الإسلام تجمَع بين مميّزات كلّ مِن النظامين المتناقِضَين فى إدارة التعليم، وهما: النظام المركزِىّ، والنظام اللامركَزِىّ.

وهو يجمَع بين مميّزات النظامين الإداريين المتناقِضين، لأن الكُلَّ فيه مسئول مسئولية دينية عن التعليم، فكُلُّ مَنْ لديه شئ يُعطِيه، يجب عليه أن يُعطِيه، وإلا اعتُبِرَ مقصّرا فى حقّ الله عليه، وتتدخَّل الدولة فى الإسلام فى التعليم بوصفها ممثّلا للجماعة الإسلامية، عندما تحسّ قصورا فى بعض المجالات أو الجِهات، لإزالة أسباب ذلك القصور، حفاظا على سلامة الجماعة الإسلامية وقُوّتها، وهنا يكون تدخُّلها تدخُّل عَوْن ومساعدة، لاتدَخُّل فرض وسيطرة وتحكُّم.

وقد كانت (القاعدة) الإسلامية هى التى انشأت أوّل مؤسَّسة تربية فى الإسلام، وهى دار الأرقَم بن أبى الأرقَم، ثم كانت (القِمّة) الإسلامية هى التى انشأت ثانِىَ مؤسَّسة، وهى مسجِد الرسول بالمدينة، ثم شهد التاريخ الإسلامىّ بعدَ ذلك تنافُسا بين القاعدة والقِمّة فى إقامة مؤسَّسات التربية الإسلامية، بمختلف أنواعها ومراحلها.

لقد كان الخُلَفاء والحُكّام ـ كأفراد ـ «يتنافَسون فى إنشاء المدارس وبيوت الحِكمة ودور العلم والمدارس، وغيرها من المدارس، ويرصُدُون الأراضى

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦

والممتلكات، للإنفاق عليها وصيانتها، كما كانوا يأمرون بتوزيع الأرزاق على الطلاب والمعلمين، لسد مطالبهم في الحياة. وقد رُوعيت هذه الطريقة أيام العباسيين والفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، لضمان معاش الطلاب والمعلمين، وطمأنينتهم على حياتهم». كما «سار السلاطين والوزراء والأمراء والتجار والعلماء والقضاة، وكذلك كثيرات من فُضليات النساء، على نهج الخلفاء، فأنشأوا المعاهد، ورصدوا لها الأموال، واتبعوا في شأنها النظم التي وضعها من قبلُ الخلفاء، فأصبحت المدارس، فوقَ كَوْنِها دوراً للعلم والمعرفة، ومؤسسات اجتماعية، تُعينُ الفقراء، وتساعد المعوزين»[1].

«وكانت الحكومة أو الواقفون يُعْنَوْنَ بأمر تعليمهم وسُكْنَاهُمْ في غرفة خاصة، أُعِدّت لهم في المدرسة، وكانوا يُجْرُونَ عليهم مخصصات كافية، فضلا عن تحمّل نفقات أكلهم وشُرْبِهم وكِسْوَتِهم»[2].

ومن هنا نشأ نظام الأوقاف، التي يَحْبِسُها القادرون على المدارس، تمكينا لها من أداء رسالتها، في خدمة الإسلام والمسلمين.

ومن هنا أيضا لانرى في الإسلام ما يحول دونَ اللامركزية المُطلقة، إن استطاعت (القاعدة) أن تقوم بعبء التعليم كاملا، على أن يكون تعليما حديثا وعَصْرِيا، وقادرا على الوفاء بحاجات المجتمع المختلفة، كما لانرى فيه ما يَحُول دون المركزيّة المُطْلَقة، إن عجزت (القاعدة) عن القيام بذلك، حيث يكون تدخُّل (القمّة) ضرورة من ضرورات الحياة في مجتمع إسلاميّ يريد أن ينهض، ويلْحق بركب الحضارة العالمية، كما لانرى فيه ما يَحُول دونَ التعاوُن بين السلطتين، المركزيّة واللامركزيّة، في النهوض بأعباء التعليم ومسئولياته، فتلك هي القاعدة الأساسية - كما سبق - في نظام التربية الإسلاميّ.

---

(١) «المعاهد العلمية والاجتماعية في الإسلام» (مرجع سابق)، ص ٢٨.
(٢) عز الدين عباس (مرجع سابق)، ص ١٦، ١٧.

منهج التعليم فى الإسلام :

يستطيع الإنسان أن يجزم بأن (التربية الخُلقيّة) هى المحور الذى تدور حوله برامجُ التعليم ومناهجه فى الإسلام، «ومن المُمكن أن نلخّص الغرض الأساسىّ من التربية الإسلامية فى كلمة واحدة، هى (الفضيلة)»[1]. فقد «اجمعَ فلاسفة الإسلام على أن التربية الخُلُقيّة هى روح التربية الإسلامية» «فالغرَض الأوّل والأسمَى من التربية الإسلامية تهذيبُ الخُلق، وتربية الروح»[2].

والمقصود (بالخُلق) و(الفضيلة) هنا، هو أن يتصرّف الإنسان فى حياته تصرُّفا يَليق (بإنسانيّته)، أىْ بتلك المنزلة الكريمة التى وضعه الله فيها بينَ سائر خلقه، وبذلك الاستخلاف الذى شرّفه اللهُ سبحانه به، ومن ثَمَّ يكون (العِلم) هو السبيل إلى تلك التربية الخُلَقية، وإلى الوصول إلى الفضيلة، على ألاَّ يكون عِلما نظَريا، بل عِلما عمَليًا، بمعنى أن يُتَرْجَم إلى واقع حَىّ، يحقّقُ السمُوَّ الخُلُقىّ للفرد، والتكاتُف والتماسُك للجماعة، والتقدُّم الحضارىّ المستمرّ الذى يتحقّق به خير الفرد والجماعة على السواء.

ويدُلُّنا تاريخ التربية الإسلامية الطويل، على أنّ (التوازُن) بين علوم الدين وعلوم الدنيا، كان موجودا فى عصور القوّة والازدهار الإسلاميّين، وأنَّ هذا التوازُن لم يختلّ إلا فى عصور الضعف، التى لاتُحسَب على الإسلام، وإنما يمكن حسابها على التخَلّى عنه.

ومع هذا (التوازُن) بين علوم الدين وعلوم الدنيا فى منهَج التعليم فى الإسلام، كان هناك تركيز على بعض العلوم دونَ بعضها الآخر، حسبَ مرحَلة النموّ، وحسبَ مرحَلة التعليم، وحسب التخصّص الضيّق فى مراحل التعليم العُليا - فى المساجد ودور الحكمة (الجامعات فيما بعد).

وبصفة عامّة، رُوعِىَ أن تشتمل مناهج التعليم فى الإسلام على علوم اللغة والدين، وعلى العلوم الطبيعيّة،وعلى بعض العلوم المساعِدة لهذه العلوم أو تلك، كالتاريخ والجغرافيا والأدب والشعر، وكالنحو والبلاغة، وكالفلسفة والمنطِق.

---

(١) محمد عطيّة الأبراشىّ : التربية فى الإسلام - رقم (٢) من (دراسات فى الإسلام) - يُصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف - القاهرة - ١٥ رمضان ١٣٨٠ - ٢ مارس ١٩٦١، ص ١

(٢) المرجع السابق، ص ٩

«وكانت الموادّ الرئيسية للمنهَج فى المرحلة الأوّليّة : القرآن والدين والقراءة والكتابة والشعر، وفى عِدَّة حالات، كان يُضاف النحو والقصص والسباحة. وفى حالات أُخرَى، كان يقتصِر المنهَج على استظهار القرآن، وتعليم بعض مبادئ الدين الأساسيّة».

«وفى حالة تعليم أبناء الأُمَراء وحُكّام المستقبَل، يختلف المنهَج الأوّلِيُّ بعضَ الشيء، فينصّ على أهمّيّة تعليم الخَطابة وعِلم الأخبار والملاحم، وطُرُق مجالسة الناس، إلى جانب العلوم الأساسية، كالقرآن والشعر والفِقْه»(1).

أىْ أنّ منهَج التعليم فى الإسلام منهَج (وظيفىّ)، هدَفُه تخريجُ وتشكيل (إنسان) مُسلِم، عارف بدينه وربّه، يتحلّى بأخلاق القرآن، ويتصرّف وَفْقَ قواعده ومبادئه، وفى الوقت ذاته تخريج (إنسان) فاهم للحياة، قادر على أن يعيش حياة كريمة، فى مجتمع حُرّ كريم، يَقْدِر على أن يُعطِيَه ويساهم فى حَرَكة بنائه، ودَفْعه وتطوير الحياة فيه، مِن خلال عَمَل معيَّن، يُتْقِنُهُ ويُجيدُه.

أما فى مراحل التعليم بعدَ المرحلة الأوّليّة، فإن التخصُّص يكون هو السمة الغالبة، ورغمَ هذا التخصُّص، فإنّ هناك ـ فى كلّ التخصُّصات ـ اهتماما بعلوم اللغة والدين، ولكنه أقلّ بطبيعة الحال.

ذلك هو منهَج التعليم الرسمىّ فى الإسلام، وهو فى الوقت ذاته يمثل الخطوط العريضة لمنهَج التعليم غير الرسمىّ، فى مؤسّسات التربية غير النظامية، وهى ـ كما سبق ـ أكثرُ تأثيرا وفاعلية وأهمّيّة فى التربية الإسلامية مِن مؤسّسات التربية النظامية(2).

---

(1) أسماء حسن فهمى (مرجع سابق)، ص ٤٧، ٤٨.
(2) ارجع إلى ما سبق أن قلناه عن (الإطار العامّ للتربية الإسلامية) فيما قبل (ص ١١٢ ـ ١١٨ مِن الكتاب).

الفكر التربوىّ الإسلامىّ

تمهيد :

مِن العبارات التى ألِف المشتغلون بالتربية سماعَها وترديدَها ـ عن جهل حينا، وعن تقليد لرجال التربية فى الغرب حينا آخَر، وعن قصد وسوء نيّة للنيل مِن الإسلام أحيانا ـ هو أنه لاتوجَد هناك (نظرية تربوية إسلامية)، ولا (فِكر تربوىّ إسلامِىّ).

وليس مُمْكِنًا أن تكون هناك تربية إسلاميّة، ونظام تعليمىّ إسلامىّ، له ملامحه وفلسفته وأهدافه، يعكس أيديُولُوجيَّةَ الحياة فى المجتمع الإسلامِىّ ـ دونَ أن تكون هناك نَظَرِيَّة تربَوِيَّة إسلامِيَّة، أو فِكر تربَوِىّ إسلامِىّ.

والجهل بالتربية الإسلامية، والفِكر التربوىّ الإسلامِىّ، وفلاسفة التربية المسلمين، أَمْرٌ لايقلّل مِن شأن الإسلام والتربية الإسلامية، وإنّما هو يقلّل مِن شأن مَنْ يجهَلون ذلك كلّه، وكان أَوْلَى بهم أن يكونوا على عِلم تامّ به، بوصفِهم عرَبا مِن جانب، وبوصف التربية الإسلامية لاتقلّ أهمّيّة فى تاريخ التربية عن التربية الإغريقية والتربية الرومانية والتربية المسيحية فى العصور الوسطى والحديثة، مِن جانب آخَر، وكُلّها معروفة تماما لكل المشتغِلين بالتربية فى عالَمِنا العرَبِىّ.

وحتى نكون مُنْصِفِين، فإن التصدّى للتربية الإسلامية له مخَاطِر عديدة، تجعَل مِن (السلامة) البُعْد عنه، لتجَنّب تلك (المخاطر)، ورغم ذلك، فإنها ـ رغم هذه المخاطر ـ تُعَدُّ ضرورة دينية، وضرورة تربوية، وضرورة عِلمية أيضا.

ويعرّف الدكتور محمد لبيب النجيحى التفكيرَ الفلسَفِىّ، بأنه «ليس ترَفا فِكريا، وليس كما يدَّعِى بعضُ الفلاسفة، بحثا عن الحقيقة المُطلَقة، فى انعزال عن الثقافة التى يعيشون فيها، ولكنه دائما أبدا تعبيرٌ عن وِجهة نَظَر فليسوف أو أكثَر، تِجاهَ الأحداث الاجتماعية، والمؤسَّسات والقِيَم والنظُم التى تسود عصره، والتى تقوم عليها ثقافتُه، وسواء أكانت نتيجة هذا التفكير الفلسَفِىّ دفاعا عن الثقافة، أو هجوما عليها، أو توفيقا بين مصالح متعدّدة، فإنه فى النهاية تعبيرٌ

بشكلٍ ما عمَّا يَسُود هذه الثقافة، وصَدًى لما يعتَمِل فيها مِن أنواع الصراع المختلِفة»[1].

ولقد مرّت التربية الإسلامية فى تطوّرها كما سبَق بظروف عديدة، تعرّضت فيها مقوّمات الثقافة السائدة فى البلاد الإسلامية لتغيّرات كثيرة، استجابة لحاجات عديدة، فرَضَت نفسها على حياة المسلمين فى هذه المجتمعات، فكانت فلسفة التربية الإسلامية والفِكر التربوىّ الإسلامىّ سَرِيعَى الاستجابة لكل تلك التغيُّرات والتطوُّرات، وكانت تلك الفلسَفة، وذلك الفِكر، دوما، وَلِيدَىْ أمرين اثنين، هما : الأيديُولُوجْيَا الإسلامية، كما يصوّرها الكِتاب والسنّة، والظروف الجديدة الطارئة، فكانت تلك الظروف الجديدة الطارئة، تجد لها فى ظِلّ الإسلام (معنًى) جديدا، تتحوّل به لتكون عناصرُها الثقافية الجديدة فى النهاية، (إسلاميَّةً) خالصة.

وسوف نرَى ذلك مِن خلال تَتَبُّعنا التاريخِىّ للفِكر التربَوىّ الإسلامىّ، مِثلَما رأيناه مِن قبلُ مِن خلال حديثنا عن العِلم الإسلامىّ، وعن مؤسَّسات التربية الإسلامية، وعن إدارة التعليم وتمويله، وعن منهَج التعليم، فى الإسلام.

الفِكر التربوىّ الإسلامِىّ فى عصر الرسول :

وكان الفِكر التربَوىّ فى هذه المرحَلة المبكّرة مِن التاريخ الإسلامِىّ، موجودا فى آيات القرآن تتنزّل على قلب الرسول الكريم، وفى أحاديث الرسول الكريم، وهو يتحدّث إلى أصحابه، ويدعو الناس جميعا إلى الإيمان بالله وحدَه، وترك عبادة الأصنام.

والفِكر التربَوِىّ، الموجود فى هذين المصدَرين الرئيسيّين مِن مصادر التربية الإسلامية، ليس فِكرا تربويا خالصا، بالمفهوم الحديث للفِكر التربَوِىّ، وإنما هو فِكر تربَوِىّ، ممتزِج بفِكر سياسِىّ واقتصادِىّ واجتماعِىّ وتاريخىّ وحضارِىّ، يشكّل كُلُّه الإطارَ العامَّ للأيديُولُوجْيَا الإسلامية.

(١) الدكتور محمد لبيب النجيحى : مقدمة فى فلسفة التربية ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٧، ص١٣.

وبعبارة أُخرى، إنَّ الفِكْرَ التربوىّ الإسلامىّ - كما نراه من خلال الكتاب والسنّة - لايأتى فِكرا تربويا مَبْتُورا، منقطِعَ الصلة بالمجتمع كما يتصوّره الإسلام، وإنما هو فِكر حَىّ نابض، يأتِى ضِمْنَ تصَوُّر عامّ للمجتمع كما يُريده الإسلام، ومِن هنا يستَمِدّ هذا الفِكْرُ التربَوِىُّ الذى نراه فى الكِتاب والسنّة قيمَته العِلمية[1].

وكان الرسول الكريم فى كُل كلمة يقولها، وكل تصرُّف يتصرَّفه، وكل موقِف يقِفُه، وكل التفاتة يلتَفِتُها، صورة حَيّة لهذا الفِكر التربوى الإسلامىّ، وعندما سُئِلَت السيدة عائشة رَضِىَ اللهَ عنها عن أخلاقه، قالت : «كان خُلُقُه القرآن»[2]. ثم إنه كان المعلّم الأعظم فى هذه المدرَسة الإسلامية، وكان هو نفسُه خريج المدرَسة الإلهيّة الكُبْرَى، التى وضعت خُطوط هذا الفِكر التربوىّ فى القرآن الكريم.

الفِكر التربَوِىّ الإسلامِىّ فى عصر الخُلَفاء الراشدين :

وكان الجديد الذى طرأ على المجتمع الإسلامِىّ فى هذا العصر، هو غياب المعلّم الأعظَم، مِمّا كان فى حَدّ ذاته اختبارا حقيقيا للمدرسة المحمّدية : أَخلَقَتْ تلك المدرسة عَمَالِقَة أم أقزاما ؟ وكانت المِحَنُ التى تَعَرَّضَ لها ذلك المجتمع مِن داخل الجزيرة العَرَبية، ثم الضغوط التى تعرّض لها مِن داخل الجزيرة العربية ومِن خارِجها على السواء، هى الاختبار الحاسم لخرِّيجى هذه المدرسة.

ولقد كانت نتيجة كل اختبار تدلّ على شىء واحد، هو أنَّ المدرَسة المحمّدية قد خرَّجت - بحقّ - عَمَالِقة، استطاعوا أن يجتازوا كُلَّ صعب، وأن يسجّلوا أسماءَهم فى صفحات التاريخ معلّمين عظماء، تخرَّجوا على يد المعلّم الأعظم، عليه الصلاة والسلام.

ولقد استطاع تلاميذُ المعلّم الأعظَم، الذين تولَّوا أمورَ المسلمين مِن بعدِه،

---

(١) إذا كان التفكير الفلسَفىّ - والتفكيرُ الفلسَفىُّ فى التربية جزءٌ منه - لايمكن أن يكون ذا قيمة، إذا تَمّ بمعزِل عن الثقافة السائدة فى المجتمع، فإن معنَى ذلك أن الفكر التربوىّ الذى تَمّ ويتمّ بمعزِل عن الحياة فى أىّ مجتمع مِن المجتمعات إنما يكون لغوا فارغا، لأنه يكون تحليقا فى آفاق مِن الخيال، فمِن المجتمع - أىّ مجتمع - يستمدّ الفِكر التربوىّ حياته، لأنه يسهُل - حينئذ - ترجمته إلى واقع حىّ.

(٢) رأينا عند الحديث عن منهج التعليم فى الإسلام أن التربية الخُلقية هى محور التربية الإسلامية، وأن هدَف هذه التربية الخُلُقية هو (الفضيلة)، وتحقيق (إنسانية) الإنسان.

أن يجتازوا كل اختبار بنجاح بفضل تمسُّكهم بتعاليم القرآن الكريم، الإطار الأيديولوجيّ للمجتمع الإسلاميّ، وبالسّنة النبويّة المطهّرة، وبفضل اقتدائهم - يَوْمًا - بأستاذهم الأعظم وهو بينهم حَيّ.

وكانت سنوات حُكم الخُلَفاء الراشدين - كما كانت سنوات القائد بينهم - جهادًا مستمرًّا، بينَ الحقّ الذى يمثّلونه ويدْعُون إليه، وبين الباطل الذى يكشفونه ويحاربونه، والخِلافُ الذى كان بيْنَه وبينَهم هو أنَّ هذا الباطل قد ارتدَى أثوابا غيرَ تلك الأثواب التى كان يرتديها أيام الرسول، فقد كان يرتدى أثواب زُعَماء مكّة ومُتَعَجْرفيها، فصار يرتدِى ثيابَ الأعراب تارة، وثيابَ الطامحين والطامعين فى المُلك والسيادة تارة أُخرَى، وأثوابَ الفُرْس مرّة، وأثواب الروم مرّة أُخرَى، والجوهرُ فى كل الحالات واحد، هو الباطل والظلم والطغيان، وهو ما تصدَّى له الإسلام، وله أَعَدَّ الرجال، الذين أثبتُوا فى كل موقف - فى حياة الرسول، وبعدَ مماتِه - أنّهم - بحقّ - خيرُ رجال.

وفى عهد الخلفاء الراشدين إذَنْ، كانت حياة الرسول تتكرّر مِن جديد، على نحو مِن الأنحاء، ومِنْ ثَمَّ كان الفِكر التربويّ الإسلامِيّ لايزال يتمثّل فى الكِتَاب والسّنَّة، فى عاصمة الخلافة فى المدينة المنوّرة، وفى الأقطار الأُخرَى التى فتحها المسلمون، وانتشر فيها تلاميذ المعلّم الأعظم، يعلّمون مبادئ الدين الجديد، كما تَعلّموه.

ولم يأتِ فِكر جديد يُذْكَر فى عهد الخلفاء الراشدين، سِوَى بعض الفلسفة اليونانية، وقد كانت محدودة، أثرُها بسيط، ومعظمها يدور حوله (المنطِق)، لا الفلسفة بمعناها الواسع، كما سنرَى أثرَها فى الفِكر التربويّ الإسلاميّ بعدَ ذلك فى العصر العباسِيّ.

الفِكر التربويّ الإسلاميّ فى العصر الأمويّ:

وكان الجديد الذى جَدَّ فى هذا العصر، هو الاستقرار السياسِيّ الذى تمَتّعت به بلاد الإسلام، ونتيجة له بدأ المسلمون يتَّجهون إلى الثقافات والعلوم والحضارات التى احتكُّوا بها فى البلاد المفتوحة، وبدءُوا فى الوقت ذاته يتَّجهون إلى علوم اللغة والأدَب والدين، يعمَلون على صيانتها والمحافظة عليها مِن

الدخيل، وفى مقام المفاضلة بينَ الفِكر الدخيل مِن البلاد المفتوحة، والفِكر الإسلاميّ العربيّ الأصيل، يكون التفضيل للعِلم الأصيل، والثقافة الأصيلة، ومِنْ ثَمَّ اشتهَر الأُمَويُّون (بالتعَصُّب) للعروبة والإسلام، رغمَ أنهم كانوا رجالَ سياسة وحُكم، لارجال عِلم ودين، أو رجال تقوَى ووَرَع، ولكن التعصُّب للعروبة والإسلام هنا يُعتَبر تصرُّفا سياسيا، لا تصرُّفا دينيًا.

ومِنْ ثَمَّ كان العصر الأُمَوِىُّ - مِن حيثُ الفِكر التربَوِىّ - امتدادا للفِكر التربوِىّ فى عصر الرسول وعصر الخلفاء الراشدين، وكان سلطان الدخيل مِن الفِكر التربوىّ لايزال محدودا تماما.

ولانرَى لهذا الفِكر التربَوِىّ فى العصر الأموِىّ وجودا إلا فى (وصايا) الخلفاء لمؤدِّبى أولادهم، التى تفيض بها كُتُب الأدب، والتى تعكس تمسُّك هؤلاء الخلفاء الأمويِّين بالتقاليد والقِيَم العرَبية والإسلامية.

كذلك نجد هذا الفِكر التربوِىّ الإسلامىّ فى العصر الأموِىّ متناثِرا فى ثنايا كتابات عُلماء النحو والأدب والحديث والتفسير، الذين شرَعوا فى هذا العصر يسجِّلون علوم اللغة والأدب والدين، صيانةً لها مِن الدسّ والتحريف، الذى بدأت دلائل كثيرة تشير إليه فى هذا العصر، بعد أن فَشِل أعداء الإسلام فى النيل منه بالقُوَّة العسكرية، ففكَّروا فى تحطيمه مِن الداخل، بِدَسّ ما ليس منه عليه، لِبثّ الفُرقة بين أبنائه وأتباعه أيديُولوجِيًّا.

ومِن أشهر كُتَّاب وعُلَماء هذا العصر، الذين نجد فى ثنايا ما كتبوه فِكرا تربويا : عبد الحميد بن يحيىَ الكاتب، الذى بدأ حياتَه معلِّما، وترقَّى بأدبه حتى وصل إلى درجة (الوزارة)، حتى قُتِلَ على يد العبّاسيّين بعدَ نجاح ثورتهم سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م).

وقد ظلّ القرآن والحديث فى هذا العصر، هما الإطار الأيديُولُوجِىّ الذى ينتظم ذلك الفِكر التربَوِىّ المتناثِر فى وصايا الخلفاء لمؤدِّبى أبنائهم، وفى كتابات الكُتَّاب، دونَ أن يزاحمها فِكر أجنبىّ، رغمَ أن هناك محاولات لتَرْجَمَة هذا الفِكر، كانت قد بدأت بالفِعل فى منتصف هذا العصر، فقد جاء فى وَصِيَّة عبد الملك بن مروان لمؤدّب ابنه، «وأن يربّى المؤدِّبُ عقلَ الوَلَد وقلبَه وجسمه»(١).

---

(١) الدكتور أحمد شلبى (مرجع سابق)، ص ٣٧.

الفكر التربويّ في العصر العباسيّ:

والعصر العبّاسيّ - كما سبق - هو عصر (الانفتاح) على الثقافات والحضارات الأجنبيّة، بأوسع ما يكون هذا الانفتاح، وعندما يكون الانفتاح على هذا الفكر الأجنبيّ كبيرا على هذا النحو، فإنه لابدّ أن يؤدّي إلى انفتاح أوسعَ على النفس - أيْ على التراث العربيّ والإسلاميّ، حمايةً لهذا التراث من أن يتسرَّب الدخيلُ إليه، ومن أن تمتدَّ إليه يَدُ العبثِ والتحريف.

ولذلك لم يكن غريبا أن يهتمّ هذا العصرُ بظهور أئمّة الإسلام الأربعة : أبي حنيفة (٨٠ - ١٥٠هـ)، ومالك (٩٥ - ١٧٩هـ)، والشافعيّ (١٥٠ - ٢٠٤هـ)، وأحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ)، أئمّة الفقْه المشهورين، الذين لايزال العالَمُ الإسلاميُّ حتى اليوم يسير على مذاهبهم، وأن يظهَرَ بعدَهم أشهَرُ جامِعِي الأحاديث النبويّة الصحيحة، الإمام البُخاريّ (١٩٤ - ٢٥٦هـ)، ثم مُفسّر القرآن الكريم، الطبَريّ، المتوفّى سنة ٣١٠هـ (٩٢٣م).

وكان كلُّ همّ هؤلاء، أن يجمَعوا (الإسلام) من مصادره الصحيحة، ويُلقُوا الضوء عليه، تخليصـًا له ممّا علِقَ أو يمكن أن يعلَق به من دَسّ المتآمرين عليه، والكائدين له، في جوّ يزداد فيه هجوم (الدخيل) من الفكر.

وكان من بين ما جمعوه وشرحوه ووضّحوه وألقوا الضوء عليه - بالضرورة - فِكر تربويّ إسلاميّ خالص، في وضاءته وإشراقته الأولَى، وفي شموله وتكامُله الأوّلين، كما رأيناهما في الكِتاب والسنّة.

وثمّة مَن أضاف من عنده - من رجال الحديث - إلى جمع الحديث - رأيَهُ الشخصيّ في التربية، فكان بمثابة فِكر تربويّ إسلاميّ، كما فعل ابنُ حزم (الأندلُسيّ) (٣٨٤ - ٤٥٦هـ)، حيث كتَب (كتاب الفَصْل، في المِلَل والأهواء والنِّحَل).

ودخل الأدَب ميدانَ الصراع بين الفِكر الوافد، والفِكر الإسلاميّ الأصيل، ومثّلَ هذا الفكرَ الوافدَ الأديبُ الكبيرُ، الفارسيُّ الأصل، الذي اتّهم

بالشعوبية[1] عبدُ الله بنُ المقفّع (١٠٦ - ١٤٢هـ = ٧٢٤ - ٧٥٩م)، الذى ترجمَ عن الهندية والفارسية، وألّف كثيرا مِن المؤلّفات، لعلّ مِن أشهرها : رسالة الصحابة - كَليلة ودِمْنة - الأدب الصغير - الأدب الكبير، هذا عدا ما ترجمهُ مِن سِيَرِ مُلوك الفُرس وعاداتهم.

وفى الوقت الذى مثّل ابنُ المقفّع فيه الفِكرَ الوافد، كان الأديب الكبير، العَرَبِىّ الأصل، الجاحظ (١٦٠ - ٢٥٥هـ = ٧٧٥ - ٨٦٨م)، يمثّل تيّار الارتماء فى أحضان الفِكر العَرَبِىّ الإسلامِىّ الأصيل، وقد ألّف كُتُبا عديدة، لعل مِن أشهرها : البيان والتبيين - الحيَوَان - البُخَلاء - التاج فى أخلاق الملوك - رسالة المعلّمين.

ويرى الدكتور أحمد شلبى، أن «كُتُب الجاحظ» «دوائر معارف، حافلة بألوان مِن العِلم والمعرفة، فى نواح متعدّدة»[2]، ويمكن أن نضيف إلى هذه الحقيقة حقيقة أُخرَى، هى أن هذه الكُتب كُتُبُ تربية بالدرَجة الأولَى، فقد كان مِن أوائل مَنْ تنبّهوا فى الإسلام إلى قِيمة (الكتاب) التربوية، ولذلك استغلّه كمدرَسة، تربّى الذوق، وتخلُق الخُلُقَ الفاضل، وتخلُق - فى النهاية - المجتمع الفاضل - كل ذلك فى كتاباته التى عَرَضها بأسلوب ساخر حيناً، وأسلوب جادّ حيناً آخر.

ومنذُ بدأ اللقاءُ بين الفِكر الإسلامِىّ العَرَبِىّ الأصيل، والفِكر - اليُونانِىّ الفارِسِىّ الهندِىّ - الدخيل، بدأت مدارس فِكرية تعكس فى البلاد الإسلامية هذا اللقاء، منحازة إلى هذا الفِكر أو ذاك، أو عاكسة لونا مِن ألوان التزاوُج بينَ الفِكر الأصيل والفِكر الدخيل، وكانت أُولَى هذه المدارس الفِكرية هى (جماعة المعتزِلة)، التى ظهرت أوّل الأمر فى العصر الأموِىّ، ثم استمرّت فى هذا العصر وتشعّبت إلى عَدَد مِن المدارس، وآمنت - منذ البداية - بالعقل، «وأخذت (بالعِلم الموسوعِىّ الشامل)، خِدمةً للدين، وتدعيما لسُلْطَانِه فى النفوس»[3].

---

(١) الشعوبية مبدأ يصغّر مِن شأن العرب، ولايرَى لهم فضلا على غيرهم - ارجع إلى : الدكتور أحمد أحمد بدوى : البحترى - رقم (١٦) مِن (نوابغ الفِكر العرَبى) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٤، ص ١٣ - مِن الهامش.

وكان يُنظَر إليها على أنها سبيل مِن سُبُل النيل من الإسلام، والحطّ مِن العرب الذين دعوا إليه.

(٢) الدكتور أحمد شلبى (مرجع سابق)، ص ١٠ - مِن المقدمة.

(٣) عبد الغنى سيد أحمد عبود : دراسة مقارنة لنظام البحث العلمى (مرجع سابق)، ص ٤١.

ويرى كويلر يونج أنه «كان للجدلِ الذى أثاره المعتزِلة» «الفضلُ فى تطوُّر العصر المدرسىِّ المسيحىّ»(١)

وكانت ثانية هذه المدارس الفِكرية الشهيرة فى الإسلام هى جماعة (إخوان الصفاء) الشيعية السِّرِّيَّة، التى ظهرت فى العصر العباسِىّ، والتى ارتمت فى أحضان العلوم الأجنبية، وألَّفت كتابا كبيرا، يشتمل على ٥٢ رسالة(٢)، تبحَث فى الرياضيات والمنطِق وعِلم النفس، والعلوم الطبيعية والميتافيزيقا، والتصوُّف والسحر والتنجيم، وغيرها، أى أنها «تؤلِّف فى مجموعها دائرة معارف ضخمة، تناوَلت مختلف آفاق المعرِفة، فى العقيدة، والفلسَفة والطِّبّ والعلوم والفَلَك والرياضيَّات والموسيقَى وغيرها»(٣).

وبالإضافة إلى ذلك، وضعت الجماعة دستورا متكاملا للبحث العلمِىّ والفلسَفِىّ، وصَفَه بعضُ العُلَماء بأنه «مُحْكَم ورائع، ويرَى الباحثون أنه وليد المنطِق الذى اقتبسه العرَب عن اليونان»(٤).

وقد انعكست هذه النزعة العقلية الخالصة عند (إخوان الصفاء) ـ كما انعكست مِن قبلُ عندَ المعتَزِلة ـ على فِكرهم التربوِىّ، فقد «نظروا إلى التعليم والتربية نظرا عقليا، لاعمَلِيًا»، فرأوا «أن طريق اكتساب المعلومات يكون بثلاث طُرَق : الأوَّل الحواسُّ الخمس، التى بها يدرك الأمور الحاضرة فى الزمان والمكان. والثانِى استماعُ الأخبار، التى ينفرد بها الإنسان دونَ سائر الحيوان، يفهَم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعا. والثالثُ طريقُ الكتابة والقراءة، يَفهَم بها الإنسانُ معانِىَ الكلمات واللغات والأقاويل، بالنظَر فيها.

«والمعرِفة كلها مكتَسَبة، وليست فِطرية. وأصلُ المعرِفة هى الحواسّ»(٥).

---

(١) كويلر يونج : «أثَر الإسلام الثقافىّ على المسيحية» ـ الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ـ مجموعة البحوث التى قُدِّمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية ـ جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة، ص ٢٥٥.

(٢) جُمِعت هذه الرسالة تحت عنوان (رسائل إخوان الصفاء)، فى أربعة أجزاء، طُبِعَت بالمطبعة العربية سنة ١٩٢٨.

(٣) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (مرجع سابق)، ص ٣٤

(٤) قدرى حافظ طوقان (مرجع سابق)، ص ١٨٩

(٥) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (مرجع سابق)، ص ٢٢٧، ٢٢٨

ورغم ما نلمَسه فى الفِكر التربوِىّ عندَ (إخوان الصفاء) مِن نزعة عقلية، يبدو أنهم تأثّروا فيها باليونانيين، فإننا يجب ألاّ ننسَى أن لهذه النزعة جذورَها فى الأيديُولُوجْيا الإسلامية أيضا ـ كما رأينا من قبل.

وكان لابُدّ أن تنشأ مدرَسة فِكرية إسلامية، تتصَدّى لهذا الارتماء فى أحضان العقل وحدَه، على أساس أنه المصدَر الوحيد للمعرِفة، وفى أحضان التأثُّر بالثقافة الأجنبية وفِكرها الوارد، وبالفعل ظهرت فى العصر العباسِىّ الثانى (مدرسة المتصوّفين)، التى اتّخذت طريقاً آخَرَ للوصول إلى (الحقيقة)، غيرَ طريق (العقل)، الذى يعتمد عليه الفلاسفة، وطريق (العقل والنقل)، الذى يعتمد عليه رجال الدين، وهو «طريق القلب، بعد أن يُصَفَّى مِن شوائبه، وطريق النفس بعدَ أن تتجرَّد عن لَذّاتها»[1].

ورغمَ أن الغَزَالِىّ كان «ينزع إلى الحُرّيّة الفِكرية فى الفهم والتقدير»[2]، إلا أنه أغضَبَ ـ بطريقِه الجديد هذا ـ طريقِ القلب ـ كُلاًّ مِن الفلاسفة ورجال الدين على السواء.

ولقد شهِدَ التاريخ الإسلامِىّ ـ إلى جانب الأدباء والمدارس الفِكرية الإسلامية ـ جماعة مِن الفلاسفة، الذى تجرَّدوا للحقّ والحقيقة، متأثّرين فى ذلك بالأيديُولُوجْيا الإسلامية ذاتها، فانطلقوا فى كل مجال، يبحثون عنهما، وصولا إليهما، فى القديم والحديث، فى الفِكر العربِىّ الإسلامِىّ، وفى الفِكر الوارد على السواء، فكانوا ـ بحقّ ـ نبضَ الأمة الإسلامية فى حياتها المتجدّدة، وكان لهم فى التربية رأى يعكس هذا النبض، كان له أثره فيما ظهر مِن فِكر تربوِىّ مستقلّ فيما بعد ـ كما سنراه ـ وفى الغرب المسيحِىّ ـ كما سنرى.

ولقد امتاز الفِكر التربوِىّ الذى خَلّفه لنا هؤلاء الفلاسفة المسلمون بأمور ثلاثة، وهى :

١ ـ شمولُه واتساعُ نظرته، فقد نظر إلى الإنسانِ ـ موضوعِ التربية ـ ككُل، أى ككيان متكامِل، له جَسَد وعقل، وشعور وإحساس، وروح، ولكلٍّ مِن

(١) دكتور بهِىّ الدين زَيّان (مرجع سابق)، ص ٣٠، ٣١.
(٢) المرجع السابق، ص ٨٧.

ذلك كُلِّه حاجاتُه التى يجب أن تُشْبَع. وهذا الكيان المتكامل - فى نَظَر هؤلاء الفلاسفة - جُزء مِن كيان أكبَر، هو المجتمع. ومِن خلال هذا التكامُل، كان الفِكر التربوىّ الذى خلّفه هؤلاء الفلاسفة أقرَبَ إلى الفِكر التربوىّ الحديث، الذى (يتغنَّى) به فلاسفة التربية فى عالَمِنا المعاصِر، كما سنَرَى فى ختام هذه الدراسة.

٢ - عُمْقُه، فقد كان يعتمد على مصادر متعدّدة، يبنِى بها نفسه، فلم يحصُر نفسه فى إطار واحد مِن المعرِفة، وإنما انطلَق فى كلّ مجال، يبحَث فيه عن ذلك الحقّ وتلك الحقيقة، اللذين وهب لهما نفسه.

٣ - أصَالَتُه، فقد كان يبحَث عن الحقّ والحقيقة بدافع مِن الإسلام، وفى ظلّه وظلّ أيديولوجِيَّته، حَلًّا لمشكلاته ومشكلات أبناء المجتمع الإسلامِىّ.

ولذلك يرَى كويلر يونج أن «أرسطو مثلا، الذى وصل (تُوماس الأكوينىّ) إلى معرِفته عن طريق تعليقات (ابن رشد) - دخَلَهُ شىءٌ غيرُ قليل مِن التغيير على الأصل اليونانِىّ، وكذلك كان الشأنُ مع رجال العلم، الذين نقل الإسلام تُراثهم، فقد امتزجت بذلك التراث إضافات جديدة مِن مَدَنيَّة الإسلام»[1].

كما يرَى أنه «كان فى الشرق ثلاثة مِن المفكرين العظماء، تُرجِمت أعمالُهم إلى اللاتينية، وكان تأثيرُهم كبيرا : أحدُهم عربى هو الكِندِىّ (المتوفَّى سنة ٨٧٤م)، والآخران فارسيان : ابنُ سِينا (المتوفَّى سنة ١٠٣٧م)، والثانِى الغَزالِىّ (المتوفَّى سنة ١١١١م). وقد كان لكتابات ابن سينا تأثيرٌ عظيم على الغرب ؛ فإنه وضع مجموعَ الحِكمة الإغريقية - بعد أن قنَّنَهَا بعبقريته - تحتَ تصرُّف العالَم الإسلامِىّ المثقَّف.

ولكن أعظَمَ الثلاثة تأثيرا كان الغَزالِىّ، الذى كان لاهوتيا أكثَرَ منه فيلسوفا، وهو مفكِّر دينىّ ومتصوّف، يحتلّ فى الإسلام منزلة شبيهة بمنزلة توماس الأكوينِىّ فى المسيحية : ففى كتاب توماس Summa Theologica آراء موازية لآراء الغَزالِىّ» ، «وكان لكتابِه (تهافُت الفلاسفة)، الذى نقَدَ فيه الفلاسفة والمدَرسيّين فى الإسلام، تأثيرٌ كبير على (ريموند مارتن) فى كتابه Pugio Fidea، وهو معاصِر لتُوماس الأكوِينِىّ».

---

(١) كويلر يونج (مرجع سابق)، ص ٢٣٦.

وكان للجدل الذى أثاره المعتزلة الأَوَّلون الشرقيون فى الإسلام، «الفضل فى تطوّر العصر المدرسى المسيحىّ»[1]

وعلى ذلك فقد كانت هذه الفلسفة - أوّلا وقبْل كلّ شيء - فلسفة إسلامية خالصة، رغم أنها اعتمدت - بجانب القرآن والسنّة - على الفلسفة اليونانية، وذلك لأنها أخضعت الفلسفة اليونانية للكِتاب والسنّة، ولم تُخْضِع الكِتابَ والسنّة للفلسفة اليونانية، ومِن هنا كانت أصالتها، وكانت عالميّتها، وكان تأثيرها فى الحضارة الغربية - المسيحية - بعدَ عصر الإصلاح الدينىّ فى الغرب وقبله.

والفلاسفة المسلمون - الذين شادوا صرح هذه الفلسفة الإسلامية - والذين نجد الفِكر التربوىَّ الإسلامِىَّ فى ثنايا ما كَتَبُوه - كثيرون، لعلّ أشهرهم، الكِنْدِىّ، المتوفّى سنة ٨٧٣م أو ٨٧٤م (٢٥٩هـ)، ثم الفارابى، المتوفّى سنة ٣٣٩هـ (٩٥١م)[2]، وتلميذه ابن سينا، المتوفّى سنة ٤٢٣هـ (١٠٢٧م)[3]، ثم حُجّة الإسلام الغَزَالِىّ، المتوفّى سنة ٥٠٥هـ (١١١١م)[4]، ثم فيلسوف الأندلس ابن رُشْد، المتوفّى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٨م)، وأخيرا العلّامة ابن خلدون، المتوفّى سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٦م)[5].

وأخيرا ظهر الفِكر التربوىّ الإسلامِىّ مستقلا قائما بذاته، منفصِلا عن الأدب والمدارس الفِكرية والفلسفية، ولكنه - رغم هذا الاستقلال والانفصال - ظلّ مستَظِلاًّ بروح القرآن والسنّة.

وكان أوّل كِتاب ظهر مِن هذا النوع، هو كتاب محمد بن سحنون، المتوفّى

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥٤، ٢٥٥

(٢) هو صاحب كتاب (إحصاء العلوم)، الذى طُبِع فى مصر سنة ١٩٣١م.

(٣) مِن أهم مؤلفاته كتاب (السياسة)، وهو مطبوع فى بيروت سنة ١٩٩١١، ضمن مجموعة (مقالات فلسفية لبعض مشاهير الفلاسفة العرب)، ثم نُشِر مرّة ثانية فى سنة ١٩١١ أيضا فى مجلة (المشرق) فى بيروت. وله أيضا مخطوط بعنوان (رسالة فى القوَى الإنسانية وإدراكاتها).

(٤) يُعتَبر الغزالى مِن أكثر الفلاسفة المسلمين شهرة وتأثيرا فى العالَم الإسلامىّ، ومِن أغزرهم - فى الوقت نفسه - إنتاجا، ولعل أشهر مؤلفاته (إحياء علوم الدين)، فى أربعة أجزاء، و(تهافُت الفلاسفة)، و(فاتحة العلوم)، الذى طُبِع بالمطبعة الحسينية سنة ١٣٢٢هـ

(٥) هو صاحب (مقدمة ابن خلدون) المشهورة، وهو يَعدّ رائد علم التاريخ وعلم الاجتماع، وفى دراسة حديثة للكاتب، أثبت أنه - أساسا - رائد مِن رُوَّاد التربية عموما، والتربية المقارنة خصوصا. ارجع إلى

- دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية، مدخل لدراسة التربية المقارنة - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٧٦ ص ٩٢ . ٩٦

سنة ٢٥٦هـ (٨٧١م) : (آداب المعلّمين، ممّا دَوَّنَ محمد بن سحنون عن أبيه)[١].

والكتاب صغير الحجم، لايزيد على «ست وعشرين صفحة لاغير، مِن الحجم الصغير»[٢]، ومع ذلك فقد كان محاولة أُولَى ورائدة فى هذا المجال، لم يقم بمثلها غيرُه إلا بعدَ مرور حوالى قرن مِن الزمان، حيث ألَّف القابِسيّ فى القرن الرابع الهجريّ كتابَه : (المفصّلة لأحوال المتعلّمين، وأحكام المعلّمين والمتعلّمين)، فى ثلاثة أجزاء[٣]، وكان فى (مفصّلته) هذه متأثرا كل التأثُّر بما كتبه ابنُ سحنون، حتى أن «ما نَقَله القابِسيّ عنه، يكاد يكون بلفظه فى بعض المواضع، وباختلاف يسير فى مواضع أُخرَى»[٤].

وسوف نعود للكتابين مرّة أُخرَى فيما بعد.

وبعدَ قرنٍ مِن الزمان تقريبا مِن ظهور (مُفصّلة) القابِسيّ، كتب أحمد بن مسكويه (المتوفّى سنة ٤٢١هـ) كتابَه (تهذيب الأخلاق، وتطهير الأعراق)[٥]. وأصدر ابنُ عبد البرّ النَّمَرِى القُرْطُبِيّ (المتوفّى سنة ٤٦٣هـ) كتابَه(جامع بيان العِلم وفَضْله، وما ينبغِى فِى روايته وحمْله).

وبعدَ قرن آخَر مِن الزمان تقريبا، أصدر بُرهان الدين الزرنُوجِيّ (المتوفَّى سنة ٥٧١ أو ٥٩١هـ) كتابَه (تعليمُ المتعلّم، طريقَ التعلّم).

وظلّت المؤلَّفات الإسلامية الخاصّة بالتربية، صغيرةَ الحجم محدودة، حتى جاء العلّامة عبد الرحمن بن خَلْدُون فى القرن الثامن الهجرىّ، فألف مقدّمته الشهيرة، التى وضع فيها التربية حيث يجب أن تُوضَع، فى إطار عامّ مِن القُوَى الثقافية المؤثّرة فيها.

وبجانب هذه المؤلّفات الإسلامية فى التربية ومؤلّفيها المسلمين، كانت هناك مؤلَّفات أُخرَى، ومؤلّفون آخَرون، غير تلك المؤلّفات التى قذفت بها الحملات البربرية على العالَم الإسلامىّ فى العصور الوسطَى، مِن الشرق والغرب على

(١) نشر الأستاذ حَسَن حُسنى عبد الوهّاب هذا الكتاب فى ٦٤ صفحة سنة ١٣٤٨هـ، وطبعه فى تونس.
(٢) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (مرجع سابق)، ص ٥٨.
(٣) موجود منه نسخة خطّية بدار الكُتُب فى القاهرة.
(٤) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (المرجع السابق)، ص ٥٨.
(٥) طُبِع بمطبَعة الوطَن بمصر سنة ١٢٩٨هـ.

السواء، فى نهر دجلة، أو إلى حيث أُحْرِقَت ودُمِّرت، فضاعت وضاعت معها أسماء مؤلّفيها وفكرهم التربوى - ونذكر من هذه المؤلّفات، وهؤلاء المؤلفين، على سبيل المثال :

- القَطْمُونِىّ : ترغيب الناس إلى العِلم.

- العَامِلِىّ : أدب المُفِيد والمستَفِيد.

- أحمد بن حَجَر الهَيْتَمِىّ : تحرير المقال، فى آداب وأحكام ما يحتاج إليه مؤدّبو الأطفال[1].

- برهان الدين الأنصرانى : رسالة فى التربية والتسليك[2].

- أبو يحيَى زكريّا الأنصارِىّ : اللؤلؤ النظيم، فى رَوْم التعلُّم والتعليم[3].

- شمس الدين الانبابى : رسالة فى رياضة الصبيان.

- ابن رَجَب البَغْدَادِىّ : فضل عِلم السلَف على الخَلَف.

- الخُوارزمِىّ : مفاتيح العُلوم.

- أُسامة بن مُنْقِذ : لباب الآداب[4].

- عبد الرحمن بن الجوزى : الطبّ الروحانى[5].

- ابن النديم الحلبى : الدَّرَارِى، فى الذَّرَارِى[6].

- أبو حيّان التوحيدِىّ : الرسالة فى العلوم[7].

- محمد بن أبى زيد : أحكام المعلّمين والمتعلّمين.

- مُحيى الدين بن العَرَبى : رسالة فى تهذيب الأخلاق.

---

(١) ، (٢) ، (٣) كلّ منها مخطوط بدار الكُتُب المصرية.
(٤) طُبِع بمصر سنة ١٩١٥.
(٥) طُبِع بمطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٤٨هـ.
(٦) طُبِع بمطبعة بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ.
(٧) طُبِع بالأستانة سنة ١٣٠٢هـ.

قيمة الفكر التربوىّ الإسلامىّ:

مِن صحيح ما يُروَى عن النبىّ (ﷺ) قولُه: «تركتُ فيكم ما إن تمسَّكتم به، لن تَضِلّوا بعدى أبدا: كتابَ اللّهِ وسُنّتِى». ويتفق ذلك مع كثير مِن آيات القرآن التى تنزّلت على قلب الأمين محمّد فى مناسبات مختلفة، مثل:

- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].
- ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[2].

فالتمسُّك بالكِتاب والسنّة هو الذى عصم المجتمعَ الإسلامىّ فى عصور قُوّته، مِن أن تتسرَّب إليه عواملُ الضعف، وعندما تَخلّى المسلمون عنهما، لأسباب عديدة، ليس هذا مجال حصرها، ضَعُفوا، ووقعوا تحت سيطرة القُوَى التى طالما تربّصت بالإسلام والمسلمين، فلم تنل منه ولامنهم، بل تحطّمت على طريقِه وطريقهم.

ويرَى الدكتور سعيد إسماعيل أن «(الرأى) هو بداية التفكير الفلسفىّ الإسلامىّ». «والرأى الذى نتحدّث عنه، هو الاعتماد على الفِكر فى استنباط الأحكام الشرعية»[3]، ومعنَى ذلك اختيار «القرآن فالسنّة، فالإجماع والقياس، فالعُرْف ومَصالح الناس، كمصادر ينبغِى أن تُسْتَمَدّ منها الآراء والأحكام»[4].

وكانت هذه المصادر نفسُها هى مصادر التربية الإسلامية، والآراء المتعلّقة بها، والأحكام المتّصلة بمسائلها، والفِكر التربوِىّ الذى يدور حولها، ومِن أجل ذلك كان الفِكر التربوِىّ الإسلامِىّ فِكرا إسلاميا، وفِكرا إنسانيّا، فى وقت واحد.

كان فِكرا إسلاميّا، لأنه كان يدور فى إطار الأيديُولُوجيا الإسلامية، كما حدّدَها الكِتابُ والسنّة، وكما تحوّلت إلى واقع حَىّ فى عهد المعلّم الأعظم، وكان

---

(١) قرآن كريم: سورة الأحزاب - ٣٣: ٢١.
(٢) قرآن كريم: سورة النساء - ٤: ٨٠.
(٣) دكتور سعيد إسماعيل على: «مشكلة (المنهج) فى دراسة التربية الإسلامية» - الكتاب السنوىّ فى التربية وعِلم النفس - بأقلام نُخبة من أساتذة التربية وعلم النفس - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٧٥، ص ٥٩.
(٤) المرجع السابق، ص ٦٦.

فِكرا إنسانيا، لأنه قام على فِكر كُلّ ذى فِكر سبَق الإسلام، وإن لخضع هذا الفِكر (الدخيل)لمنطِق (الرأى)، الذى دعمه الإسلام، كعقيدة ودستور حياة، ولأنه كان ـ فى خطوطه العريضة ـ يتّفق مع منطِق الحياة (الإنسانية) فى كُلّ زمان ومكان.

وإذا كانت المقوّمات الأساسية للاتجاه الديمُقراطِىّ فى التربية، تتلخّص فى نشر المعرفة والعِلم بين الناس، وتكافؤ الفُرَص، والنظرة التكامُليّة، والحرّيّة، ورفض سيطرة الطبَقة الواحدة، والمشاركة فى اتّخاذ القرارات، ومراعاة الفروق الفردية، والطريقة العِلْمية فى التفكير[1] ـ فقد سبق الإسلام النظُم الحديثة فى تحقيق هذا الاتجاه الديمُوقراطىّ فى التربية، كما رأينا فى دراستنا السابقة، ومِن ثَمَّ لم يكن مِن قبيل المبالغة أن يرَى البعضُ أن «مبادئ التربية الحديثة، التى نادينا بها فى منتصف القرن العشرين ـ ولم تستطع الدول المتمَدّنة تنفيذَها كلّها حتى اليوم ـ قد رُوعِيَتْ ونُفّذَت فى التربية الإسلامية، فى عصورها الذهَبية، قبل أن تُخْلَق التربية الحديثة بمئات السنين.

ومِن تلك المبادئ المثالية فى التربية الإسلامية : التربية الاستقلالية، والاعتماد على النفس فى التعليم، والحرّيّة والديمُوقراطِيّة فى التعليم، ونظام التعليم الفردِىّ، ومراعاة الفروق الفردية بين الأطفال فى التعليم والتدريس، وملاحظة الميول والاستعدادات للمتعلّمين، واختبار ذكائهم، ومخاطبتهم على قدر عقولهم، وحُسْن معاملتهم، والرفق بهم، والعناية بالتربية الخُلُقية، وتشجيع الرحلات العِلمية، والاهتمام بالخطابة والمناظرات، والتربية اللسانية، والإكثار مِن دور الكتب، وتزويدها بكل ما يمكن مِن الكتب القَيِّمة، والمراجع النادرة، وتشجيع الطلاب على الانتفاع بما فيها مِن ذخائر نفيسة، والمثابَرة على الدراسة والبحث، والتعليم مِن المَهْد إلى اللّحْد»[2].

فكل ما قيل ويُقال فى التربية الحديثة أو المعاصرة، له أساسه فى الفِكر التربَوِىّ الإسلامِىّ، بل إن الفِكر التربَوِىّ الإسلامِىّ سبَقَ التربية الحديثة فى كثير

(1) دكتور سعيد إسماعيل على : ديمُوقراطية التربية الإسلامية ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ 1974، ص 22 ـ 34.
(2) محمد عطية الأبراشى (مرجع سابق)، ص 6 ـ مِن التمهيد.

مِن جوانبها، على الأقلّ فيما يتّصل بالنظرة إليها، سواء فى ذلك النظرة إلى الفرد وحدَه، ككيان مستقلّ قائم بذاته، له تركيبته الخاصّة، التى لابُدّ أن تُراعَى فى كل فِكر تربوىّ سليم، أو النظرة إليه كجزء مِن مجتمع، يؤثّر فيه ويتأثّر به، ويحقّق فى حياته ما يُريده مِن (حُرّيّة)، فى إطار معقول مِن (النظام).

ولذلك لم يكن غريبا، أن نرَى هذا الفِكر التربَوىّ الإسلامىّ يتكامَل فى كتابات الفُقَهاء والفلاسفة والمتكلّمين، أكثرَ مِمّا يتكامَل فى كتابات رجال التربية المُسلِمين، وذلك لأن الفِكْر التربَوىّ عند أولئك الفُقَهاء والفلاسفة والمتكلّمين فِكر متّصل بفِكر أكبَر، يدور حول الفرد المسلم والمجتمع المسلم، ثم يأتِى الفِكر التربَوىّ فى النهاية ليكون فى خدمة الفرد والمجتمع، ولايأتى مبتورا منقطِعا عنهما.

ولم يكن غريبا كذلك أن نرَى هذا الفِكر التربَوىّ (يتطوّر) بتطوُّر المجتمع الإسلامِىّ، ولايجمُد عند المجتمع الإسلامِىّ الأوّل، فى عهد للعلّم الأعظم، فالقَابِسىّ رأيناه ينقل فِكره التربوِىّ عن ابن سحنون، ومع ذلك فقد أدّى مرورُ قرن مِن الزمان بين الناقل والمنقول عنه إلى (تطوُّر) هذا الفِكر لمواجهة متغيّرات العصر(١).

ويكاد الفِكر التربَوِىّ الذى نراه عند رجال التربية المسلمين أن يدور حول (نظام) التعليم الإسلامِىّ، وتنظيم ذلك التعليم، أكثَرَ مِمّا يدور حولَ (لُبّ) العَمَلية التعليمية، وهو (الطفل) المتعلّم ذاته، ويبدو أن رجال التربية المسلمين اعتبروا هذا الأمر ألْصَقَ بالفلسفة والفلاسفة، فكان (المتعلّم) ـ لذلك ـ هو مِحْوَر نشاط وبحث الفلاسفة المسلمين. أما مناهج التعليم، فقد كانت مُتَدَاوَلة بين هؤلاء وهؤلاء.

ويبلُغ هذا الفِكر التربَوِىّ الذى خَلّفه لنا الفلاسفة ذِروته، عند اثنين هما : الرئيس ابن سِينا، والإمام الغزالىّ.

«لقد طالَب عُلَماء التربية الإسلامية ـ وخاصّة ابن سينا ـ بمراعاة مُيُول

(١) ارجع إلى :
ـ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (مرجع سابق)، ص ٥٨ ـ ١٠٦.

المتعلّم، واستعداداته الفطرية، وقُدراته الطبيعية، عند إرشاده إلى المهنة التى يختارها فى مستقبل حياته، لخدمة بلاده. وقد نادى ابنُ سينا بدراسة مُيول الصَّبِىّ، وجعلها أساسا لإرشاده وتربيته، حيث قال : (ليس كُلُّ صناعة يَرُومُها الصَّبِىّ، مُمْكِنَة له مُؤاتِيَة، ولكنْ ما شاكَلَ طبعَه وناسَبَه)». «(ولذلك ينبغى لمدبِّر الصبِىّ، إذا رامَ اختيارَ صناعة، أن يَزِنَ أوّلاً طَبْعَ الصَّبِىّ، ويَسْبِرَ قَرِيحَته، ويختَبِرَ ذكاءَه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك)»[1].

كما «عرّض ابن سينا فى كتابه السياسة، لواجب الرجل نحوَ وَلَدِه، فبسط أحوال تعليمه وتأديبه، بكلام يدلّ على نفاذ الفِكر، وصِدق النظَر، مِمّا هو جدير بمقام فيلسوف الإسلام، الشيخ الرئيس ابن سينا.

وآراؤه تدلّ على حرّيّة شديدة فى التفكير»، وهو «ينظُر إلى البيئة الإسلامية، ويتحرّى الأساليب الملائمة لها فى التعليم والتهذيب، بما يتّفق مع العقل السليم»[2].

أما الإمام الغَزالِىّ، فإنّه يبدو «فى الإحياء باحثا فى عِلم النفس، وفى السلوك خاصّة، بصورة تجعَله متقدّما على الكثيرين مِمَّن درَسوا السلوكَ مِن علماء النفس»، «وبالإضافة إلى عناية الغَزالِىّ بالسلوك، مِن حيث كونُه موجّها لغاية دينية إنسانية، فإنه يساير روح الإسلام، التى تنظُر إلى الإنسان كشخصية متكامِلة، يجمَع نشاطُها بينَ العِبادة الدينية الخالصة، والعمَل الدنيوِىّ، حيث يكون هذا العمَل قائما على أساسٍ معقول مِن المصلحة الفردية أو العامّة، والسمُوّ الإنسانِىّ. لذلك فإنه يتناول النشاط النفسِىّ كما رأينا كظاهرة عامّة، بغضّ النظَر عن كونه يهدِف إلى غاية دينية أو دُنْيَوِيّة، مع مراعاة ما يدخُل على السلوك مِن تعديلات، بحسب الأهداف العامّة أو الجُزئية، التى توجّه السلوك الإنسانِىّ»[3].

وهكذا، برز المسلمون ونبغوا فى التربية، نُبوغَهم فى الكيمياء والطبيعة والفَلَك والطبّ والصيدَلة، بل إن الإنسان لايكون مبالغا إذا قال : إن نُبوغهم فى

(١) محمد عطية الأبراشى (مرجع سابق)، ص ٦٩.
(٢) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (مرجع سابق)، ص ٢٣٩.
(٣) عبد الكريم العثمان : الدراسات النفسية عند المسلمين، والغزالى بوجْهٍ خاصٍّ - الطبعة الأولى - مكتبة وهبه - القاهرة - ١٩٦٣، ص ١٥٨.

التربية، واهتمامهم بها اهتماما يفوق الوصف - كما سبق - منذُ الأيام الأُولَى لإشراقة الدعوة الإسلامية، كان هو الذى يقف وراءَ ذلك التطوُّر الأيديُولُوجِىّ الجذرى، الذى حدَث فى النفس الإنسانية التى آمنت بالإسلام، ووراء ذلك التطوُّر الحضارِىّ الكبير الذى شهدناه فى دولة الإسلام، ووراءَ ذلك التقدُّم العِلمىّ الكبير، الذى تمَّ فى تلك الدولة، فى مختلف مجالات العِلم.

لقد كانت هناك (تربية) فى الإسلام، وجَهْلُنَا بهذه الحقيقة لايقلّل مِن شأن الإسلام، ولامِن شأن التربية الإسلامية، بقدر ما يقلّل مِن شأن الجاهلين بهذه الحقيقة، والمُتَجَاهِلين لها.

وكان هناك فِكر تربوِىّ إسلامِىّ، وجَهْلُنا بهذا الفِكر التربوِىّ الإسلامِىّ لايقلّل مِن قيمة هذا الفِكر ، ولا مِن المفكّرين الذين ابتدَعوه، بقدر ما يقلّل مِن قِيمة مَنْ يدّعُونَ انفسَهم (مفكّرين)، ومع ذلك يجهَلون فِكرا تربويًا، كان هو أساس الفِكر التربوىّ الحديث، أو يتجاهَلون ذلك الفِكر، لأسباب كثيرة، ليس هنا مجال ذكرها.

وجديرٌ بِعُلماء التربية فى العالَمَين العرَبِىّ والإسلامِىّ، أن يدرُسوا التربية الإسلامية، ويدرُسوا الفِكر التربوِىّ الإسلامِىّ، ويعرِفوا عن المفكّرين التربويّين المسلمين، وكيف فَكَّروا .. بدلا مِن الانسياق وراءَ تربية بعيدةٍ عن أنفسنا وأرواحنا وقلوبنا، ابتكَرَتها الأيامُ فشَلَها حين نُقِلَت إلينا، لا لشئ إلا لأنها بعيدة أيديُولُوجِيًّا عنا.

وسوف يجد هؤلاء العلماء - حتماً - كما سبَق - أن كلَّ جديد فى الفِكر التربوِىّ المعاصر، له أصوله فى الفِكر التربوِىّ الإسلامِىّ، ولكنْ فَرْقٌ كبير بين الجرى وراءَ الفِكر التربَوِىّ المعاصر، لمجرّد أنه جديد أو معاصِر، وبين السعى إليه، لأنه نابع مِن تراثنا، مناسِب لأيديُولُوجِيَّتنا، متّفق مع ظروفنا. إنه فى الحالة الأُولَى يكون مرفوضا، لأنه يُزْرَع فى (تُرْبة) مغايِرة لتُربته الأصلية، ومِنْ ثَمَّ يموت، وتتحوّل الأفكار إلى حِبر على وَرَق، والنظُم إلى مجرّد هياكل شكلية، تمثّل عبئا على نهضتنا، أما فى الحالة الثانية، فإنه يُقبَل، لأنه يُزْرَع فى (تُرْبَتِه)، ومِنْ ثَمَّ يتحوّل الفِكر إلى أداة فعّالة للنهوض بمجتمعنا .. العربِىّ والإسلامِىّ.

وإذا كان التاريخُ يسجّل لبعض (العُلَماء) المسلمين مَواقف تربوية غيرَ إسلامية، كذلك الموقف الذى وقفه «علماءُ الأزهر» فى مصر، حين عارَضوا «مشروع تعميم التعليم الأوّليّ فورَ ظُهوره»[1]، لأسباب تتعلّق بمصالحهم المكتَسَبة، وذلك فى الربع الأوّل مِن هذا القرن، فإن مثلَ هذا الموقف لايمكن أن يُحسب على الإسلام، لأنه موقِف حدَث فى ظروف تخلُّف وجهل، خَيَّمَا على العالَم الإسلامىّ قرونا طويلة، ولأنه يخالف المصدرين الأساسيّين اللّذَيْن يستمدّ منهما المسلمون ما يَجِبُ وما لا يَجِب، وهما - كما سبق - الكِتاب والسنّة.

وجَديرٌ بنا - لذلك - قبلَ دراسة التربية الإسلامية، والفِكر التربَوِىّ الإسلامِىّ، دراسةُ الأيديُولُوجْيَا الإسلامية دراسة عَصْرية، نَقِفُ بها على تَصَوُّر الإسلام للفرد والمجتمع، حتى نترجم هذا التصوُّر - فى مجال التربية - إلى أسلوب عَمَل، تلتزِم به التربية الإسلامية، فى عالَمِنا المعاصِر، الذى يفتقر إلى شمول الإسلام وتكامُله وإنسانيّته، فيفتقر - نتيجة لذلك - إلى كُلّ إحساس بالأمن والطمأنينة، مِمَّا يهدّد مَدَنِيَّتَهُ وحضارته الراهنة.

---

(١) الدكتور أحمد حسن عبيد : «فلسفة التعليم الإلزامى وتنظيمه» - تعليم الجماهير - مجلة متخصّصة، تصدُر عن : الجهاز العرَبىّ لمحو الأمّيّة وتعليم الكبار - القاهرة - المجلد الأول - السنة الأولى - العدد ١ - سبتمبر ١٩٧٤، ص ٩٢.



مَراجع المَقُولة الثالثة

أولا - المَراجع العربيّة :

(١) الدكتور إبراهيم سلامة : «مُرونة الفِكر العربيّ تتضمّن التوازُن والتلاؤم بين القديم والجديد» - الرائد - عدد ممتاز عن مؤتمر المعلمين العرب - الإسكندرية - ١٩٥٦م.

(٢) الدكتور أحمد أحمد بَدَوِيّ : البحترى - رقم (١٦) مِن (نوابغ الفِكر العربيّ) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٤.

(٣) أحمد أمين : ضُحَى الإسلام - الجُزء الأول - الطبعة الأُولَى - مطبعة الاعتماد - القاهرة - ١٩٣٣.

(٤) أحمد أمين : ضُحَى الإسلام - الجُزء الثانِى - الطبعة الأُولَى - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٣٥.

(٥) أحمد أمين : ضُحَى الإسلام - الجُزء الثالث - الطبعة الأُولَى - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٣٦.

(٦) أحمد أمين : ظُهْر الإسلام - الجُزء الأول (فى الحياة العقلية) - الطبعة الثالثة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٣٥.

(٧) الدكتور أحمد حَسَن عبيد : «فلسفة التعليم الإلزامِيّ وتنظيمه» - تعليم الجماهير - مجلّة متخصّصة، تصدُر عن الجهاز العربِيّ لمحو الأمّيّة وتعليم الكبار - المجلّد الأوّل - العدد ١ - القاهرة - سبتمبر ١٩٧٤.

(٨) الدكتور أحمد شَلَبِيّ : تاريخ التربية الإسلامية - دار الكَشّاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت - ١٩٥٤.

(٩) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام-من سلسلة (دراسات فى التربية) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٨.

(١٠) أسماء حَسَن فهمى : مبادئ التربية الإسلامية - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٧.

(١١) الدوميلى : العِلم عند العَرَب ، وأثره فى تطوُّر العِلم العالَمِيّ - نقله إلى العربية الدكتور

عبد الحليم النجّار، والدكتور محمد يوسف مُوسَى ـ قام بمراجعته على الأصل الفرنسيّ الدكتور حسين فوزى ـ جامعة الدوَل العرَبية ـ الإدارة الثقافية ـ الطبعة الأُولَى ـ دار القلَم ـ القاهرة ـ ١٩٦٢.

(١٢) «المعاهد العِلمية والاجتماعية فى الإسلام ـ مترجَمة عن (إسلاميك ريفيو)» ـ الرائد ـ مجلة المعلمين ـ السنة السادسة ـ العدَد السابع ـ القاهرة ـ مارس ١٩٦١.

(١٣) بطرس البستانى : كتاب دائرة المعارف ـ المجلّد الحادِى عشَر ـ مطبعة الهلال بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٠٠.

(١٤) دكتور بهىّ الدين زَيّان : الغَزالىّ ، ولمَحات عن الحياة الفِكرية الإسلامية ـ الكتاب العاشر مِن سِلسلة (قادة الفِكر فى الشرق والغرب) ـ مكتبة نهضة مصر بالفَجّالة ـ القاهرة ـ ١٩٥٨.

(١٥) بُيوت الله ، مساجد ومَعابد ـ الجزء الثانِى ـ كتاب الشعب ـ رقم (٧٨) ـ مطابع الشعب ـ القاهرة ـ ١٩٦٠.

(١٦) دبِ. تيرنر : الكَشْف العِلمِىّ ـ ترجمة أحمد محمود سليمان ـ مراجعة د. محمد جمال الدين الفَنْدِى ـ العدَد (٥) مِن (العِلم للجميع) ـ دار الكاتب العرَبى للطباعة والنشر ـ القاهرة (بدون تاريخ).

(١٧) الدكتور سعد الدين الجيزاوى : فصول فى تربية الشخصية الإسلامية ـ رقم (٨١) مِن سِلسلة (دراسات فى الإسلام) ـ يُصدِرها المجلس الأعلىَ للشئون الإسلامية بالقاهرة ـ السنة السابعة ـ ١٤ مارس ١٩٦٨.

(١٨) دكتور سعيد إسماعيل عَلىّ : ديمقراطية التربية الإسلامية ـ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ـ ١٩٧٤.

(١٩) دكتور سعيد إسماعيل عَلىّ : «مُشكلة (المنهج) فى دراسة التربية الإسلامية» ـ الكِتاب السنوِىّ، فى التربية وعِلم النفس ـ بأقلام نُخبة من أساتذة التربية وعِلم النفس ـ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ـ ١٩٧٥.

(٢٠) دكتور سعيد إسماعيل عَلىّ : «مصادر التربية الإسلامية» ـ الكِتاب السنَوِىّ، فى التربية وعِلم النفس ـ بأقلام نُخبة من أساتذة التربية وعِلم النفس ـ عالَم الكُتُب ـ القاهرة ـ ١٩٧٣.

(٢١) دكتور سعيد عبد الفتّاح عاشور : المدَنيّة الإسلامية، وأثرُها فى الحضارة الأوروبية ـ الطبعة الأُولَى ـ دار النهضة العرَبية ـ القاهرة ـ ١٩٦٣.

(٢٢) الدكتور سيّد أحمد عثمان : «المسئولية الاجتماعية فى الإسلام ـ دراسة نفسية» ـ الكِتاب

السدوي، في التربية وعلم النفس - بأقلام نُخبة من أساتذة التربية وعلم النفس - عالَم الكُتُب - القاهرة - ١٩٧٣.

(٢٣) صحيح البُخاريّ، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة بن بردزبَه البُخاريّ الجُعْفيّ - الجُزء الأول - دار ومطابع الشعب - القاهرة (بدون تاريخ).

(٢٤) عبّاس محمود العقّاد : أثَر العَرَب في الحضارة الأوروبية - الطبعة الرابعة - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٥.

(٢٥) عبّاس محمود العقّاد : التفكير في فريضة إسلامية - الطبعة الأُولَى (المؤتمر الإسلامِيّ) - دار القَلَم (بدون تاريخ).

(٢٦) عبّاس محمود العقّاد : عبقرية محمد - دار الكُتُب الحديثة - القاهرة - ١٩٦٦.

(٢٧) الدكتور عبد الباسط محمد حَسَن : أصول البحث الاجتماعِيّ - الطبعة الثانية - مطبعة لجنة البيان العرَبيّ - القاهرة - ١٩٦٦.

(٢٨) عبد الغني سيّد أحمد عبود : دراسة مقارنة لنظام البحث العِلْمِيّ، في الجمهورية العربية المتحدة، والولايات المتّحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي - رسالة مقدمة إلى كلية التربية جامعة عين شمس، للحصول على درجة دكتور فلسفة في التربية - قسم التربية المقارنة والإدارة التعليمية (كلية التربية - جامعة عين شمس) - القاهرة - ١٩٧٢ (استنسل).

(٢٩) دكتور عبد الغني عَبّود : الأيديولوجيا والتربية، مدخل لدراسة التربية المقارنة - الطبعة الأُولَى - دار الفِكر العَربيّ - القاهرة - ١٩٧٦.

(٣٠) عبد الكريم عثمان : الدراسات النفسية عند المسلمين، والغَزَالِيّ بوَجْه خاصّ - الطبعة الأُولَى - مكتبة وهبه - القاهرة - ١٩٦٣.

(٣١) عبد الله حسين : التعليم العرَبيّ والجامعِيّ - مطبعة التوفيق بمصر - القاهرة (بدون تاريخ).

(٣٢) عِزّ الدين عَبّاس : «التعليم في الإسلام» - الرائد - مجلة المعلّمين - السنة السابعة - العَدَد الخامس - مارس ١٩٦٢.

(٣٣) عُمَر أبو النصر : عَلِيّ وعائشة - دار إحياء الكُتُب العربية - القاهرة - ١٩٤٧.

(٣٤) قَدري حافظ طُوقَان : العلوم عند العرَب - مكتبة مصر - القاهرة - ١٩٦٠.

(٣٥) قرآن كريم.

(٣٦) كويلر يونْج : «أثر الإسلام الثقافي على المسيحية» - الثقافة الإسلامية، والحياة المعاصرة - مجموعة البحوث التي قُدّمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية - جمع ومراجعة وتقديم محمد خلَف الله - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة (بدون تاريخ).

(٣٧) الدكتور محمد بيصار : العقيدة والأخلاق، وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع - الطبعة الثانية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٧٠.

(٣٨) محمد شديد : منهج القرآن في التربية - مكتبة الأدب ومطبعتها بالجماميز - القاهرة (بدون تاريخ).

(٣٩) محمد عطية الأبراشى : التربية فى الإسلام - رقم (٢) من سلسلة (دراسات فى الإسلام) - يُصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف - القاهرة - ١٥ رمضان ١٣٨٠ - ٢ مارس ١٩٦١.

(٤٠) محمد فهمى عبد اللطيف : «تطهير التراث الإسلامىّ من أباطيل الإسرائيليات» - منبر الإسلام - يُصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - السنة ٣٢ - العدد ١٢ - القاهرة - ذو الحجة ١٣٩٤ - ديسمبر ١٩٧٤.

(٤١) الدكتور محمد لبيب النجيحى : مُقدّمة فى فلسفة التربية - الطبعة الثانية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٧.

(٤٢) الدكتور محمود حبُّ الله : «موقف الإسلام من المعرفة والتقدُّم الفكرىّ» - الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة - مجموعة البحوث التى قُدِّمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية - جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة (بدون تاريخ).

(٤٣) الدكتور مصطفى السباعىّ : اشتراكية الإسلام - دار ومطابع الشعب - القاهرة - ١٩٦٢.

(٤٤) الدكتور وهيب إبراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة، دراسة تاريخية مقارنة - من سلسلة (دراسات فى التربية) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦١.

(٤٥) الدكتور وهيب إبراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى، دراسة تاريخية مقارنة - من سلسلة (دراسات فى التربية) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٢.

(٤٦) الدكتور يوسف القرضاوىّ : الإيمان والحياة - الطبعة الثانية - مكتبة وهبه - القاهرة - ١٩٧٣.

ثانيا : المراجع الأجنبية :

(1) GIBB, H.A.R. and J.H Kramers : Shorter Encyclopaedia of Islam; E.J.Brill, Leiden,1953.

(2) HANS, NICHOLAS : Comparative Education, A Study of Educational Factors and Traditions; Routledge & Kegan Paul Limited, London, 1958.

(3) HUDSON WILLIAM HENRY : The Story of The Renaisance; George G. Harrap & Company Ltd. London, 1928.

(4) Our World in Space and Time, Colourama, A Pictorial Treasury of Knowledge; Odhams Press Ltd., London, 1959.

(5) ULICH, ROBERT : The Education of Nations, A Comparison in Historical Perspective; Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1961.

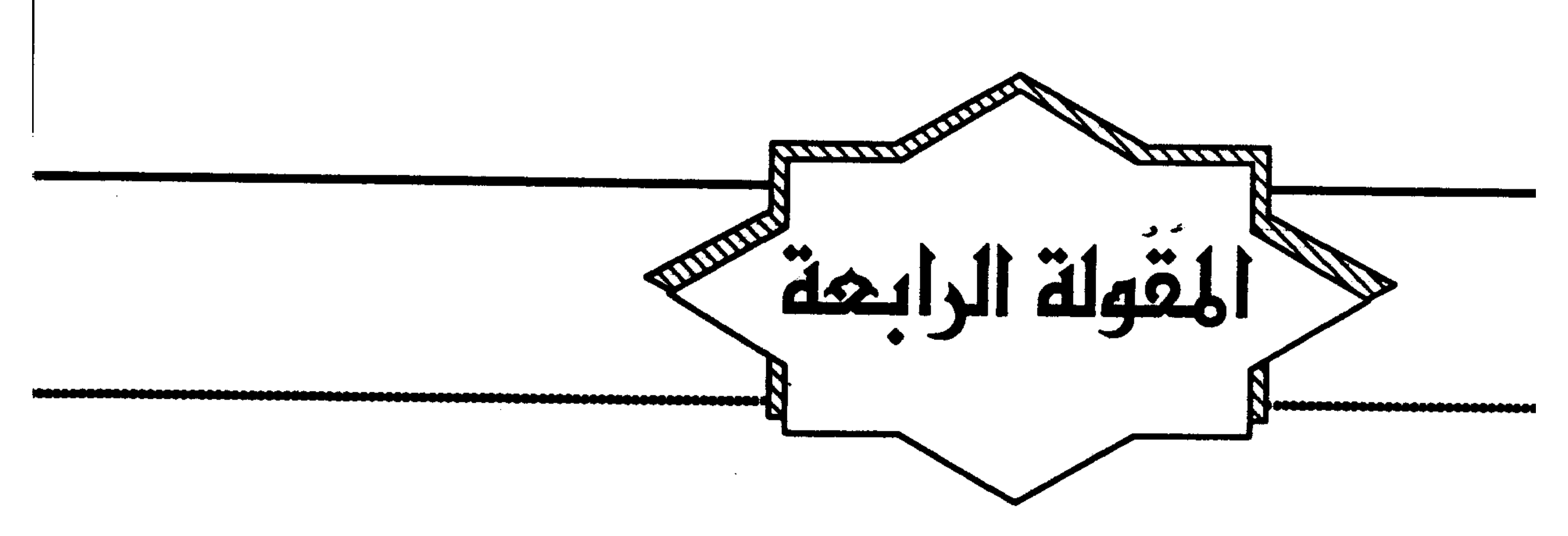
نُشِرَت هذه الدراسة في مجلّة (تعليم الجماهير)، التي يُصدِرُها (الجهاز العربيّ لمحو الأُمّيّة وتعليم الكِبار)، التابع (للمنظَّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)، التابعة (لجامعة الدول العربية)، في سنتها الثالثة ـ العَدَد الخامس ـ يناير (كانُون الثانِي) ١٩٧٦، ص ٧٠ ـ ٨٤.

إلا أنها نُشِرَت مليئة بالأخطاء المطبَعية، التي لم يَسْلَم منها العنوان ذاتُه، فقد عُنْوِنَتْ الدراسة بـ (الإسلام وتَحَدّي العَصْر) فقط، بينما سقط بقيّة العنوان، الذي يَدُلّ على موضوع الدراسة فعلا، وهو (التربية المستَمِرّة في الإسلام).

وبالإضافة إلى ذلك، نُشِرَت الدراسة بلا هوامش على الإطلاق، فقد أُسقِطت المراجع المذكورة في الهامش عندَ الطبع تماما.

ولما كانت الدراسة جديدة في موضوعها، وهامّة في الوقت ذاته، كان لابُدَّ مِن إعادة نشرها ـ وكان هذا هو وضعها بينَ المَقُولات، كما تَصَوَّرتُ، تاليةً (للأيديُولُوجْيا والتربية في الإسلام)، لتُظهِرَ أنّهُ مِن الإجحاف أن نقول إن هناك تربية إسلامية وكَفَى، بل إن هذه التربية الإسلامية أكثَرُ عَصْرِيَّة في بعض جوانبها، مِن نُظُم التربية ... المعاصِرة، ذاتِها.





الإسلام وتحدّى العَصْر :

التربية المستَمِرّة فى الإسلام

تقديم :

مِن المغالطات العلمية التي تنتشر بينَ العاملين فى حقل التربية، أفكارٌ كثيرة تتّصل بنظرة الإسلام إلى التربية، وأن هذه النظرة نظرة قديمة، لاتتّفق مع واقع الحياة فى القرن العِشرين، ولاتستطيع - بالتالِى - أن ترقَى بِمَنْ يأخُذُون بها، بحيث يستطيعون أن يواجهوا (تحدِّيات العصر).

وقد ألِفَ الإسلام - والمسلمون - مثلَ هذه المغالَطات، منذُ الأيام الأُولَى لظهور الإسلام، فقد كانت (سِلاحا) مِن أسلحة الحاقدين على الإسلام يحاولون به محاصَرة (مَدِّه)، ولكن الأيام أثبتت دائما أن (الحقيقة) الإسلامية كانت أقوَى مِن كل (مغالَطة)، ومِن ثَمّ أخذَ المدّ الإسلامِيُّ يزداد، لم تؤثّر فيه تلك المغالَطات، كما لم تؤثّر فيه - بعدَ ذلك - حمَلات الحِقد المسلَّحة ضِدّه وضِدَّ المؤمنين به.

وَثمَّةَ جديدٌ يفرِض نفسه على الإسلام والمسلمين اليوم، ويفرِض علينا - فى الوقت ذاتِه - أن نَتَنبَّهَ له، وهو أنَّ هذه المغالَطات التى قال - ويقول - بها أعداءُ الإسلام عن حِقد فى مجال التربية، يردّدها - عن جَهل - بعضُ رجال التربية المسلمين، وأنَّ الذين يتَصَدَّون للردّ عليها مُخلِصين يتصدّون لها - كأفراد، فيكون الجُهدمحدودا، بينما «مِثل هذا الجُهْد، وهو عَمَل صالح وواجب، يستَنْفِرُ جُهْدَ المؤسّسَات التعليمية، ومَراكز البحوث، فهو يفُوق طاقة الأفراد، تنظيما وتمويلا وتنفيذا»(١).

وقولُ أعداء الإسلام والحاقدين عليه بمغالطة، أَمْرٌ لايضرّ الإسلام والمسلمين، ولكن قولَ بعضِ المسلمين به، هو الذى يمثّل الخطورة الحقيقية، لا لمجرّد أنه مغالَطة، بل لأن المجتمعات والنظُم لاتُهزَم مِن الخارج، وإنما هى تُهزَم - أوّلا وقبلَ كلّ شىء - مِن داخلها، فتسليمُنا بأن الإسلامَ عاجز عن مواجهة تحدّيات العصر، فيه تسليم بما أراده أعداء الإسلام والمسلمين منذُ أقدم العصور، وخاصّة

---

(١) الدكتور محيى الدين صابر : «علامات على الطريق : تعليم الكبار فى الإسلام» - تعليم الجماهير - مجلّة متخصّصة، تصدُر عن : الجهاز العربىّ لمحو الأمية وتعليم الكبار - السنة الثانية - العدد ٢ - القاهرة - يناير ١٩٧٥، ص ١٩.

فى عصر المذهبيَّة الحديثة، بين الشرق والغرب، ومعناه أنْ نذُوبَ - كمسلمين - فى هذا المعسكر أو ذاك، فنعيش - كمسلمين - أذناباً لغيرنا، بينما مصلحتُنا القومية فَرَضت - وتفرِض دائماً - أن نملِك زمامَنا بأيدينا، وأن تكون لنا (شخصيَّتُنا) المستقلّة عن هذا المعسكر أو ذاك، التى نعرِف بها أنفسَنا، ويعرِفُنا بها غيرُنا، ومِن خلال هذه (الشخصية) المستقلّة، نستطيع أن نقدّم للإنسانية - كما قدّمنا لها مِن قبل - الكثير.

ومِن أجل ذلك - لا مِن أجلِ النعْرَة القومية، أو التعصُّب الدينىّ - كان هذا المقال، الذى أُثبِتُ به أنَّ الإسلام - تُراثَنا الروحِىّ والخُلُقِىّ والحَضَارِىّ - قادرٌ - فى مجال التربية - على مواجهة تحدِّيات العصر الذى نعيش فيه، وما أكثَرَها، ولكنَّ بُعدَنا عن الإسلام هو الذى يسهّل تسرُّب تلك (المغالَطات) إلى نفوسنا، فتُباعِد بيننا وبين شخصيّتنا القومية المستقلّة مِن جانب، وبين إمكانيات التقدُّم الحقيقىّ مِن جانب آخَر، مِمَّا يهدّد وُجودنا وكياننا.

التراث التربَوىّ الإسلامِىّ:

خَلَّفَ المسلمون لنا فى القرون الستّة الأُولَى التى تَلَت ظُهورَ الإسلام - قرونِ الازدهار فى الحضارة الإسلامية - تُراثاً تربويّا شامخا، لانعرِف عنه نحن اليومَ الكثير، «عن جَهْل حينا، وعن تقليدٍ لرجال التربية فى الغرب حيناً آخَر، وعن قصد وسوء نية للنيل مِن الإسلام أحياناً»[1] - جريا وراء التيَّارات الغريبة عنا، والحاقدة علينا، التى ترَى فى الإسلام خاصّة، وفى الأديان عامّة، مظاهر تخلُّف وجمود، بينما هى - فى حقيقة أمرها - كما سنرَى فيما بعد - رسالات حضارة ورُقِىّ - إذا فُهِمَت الحضارة - كما يجب أن تُفهَم - على أنها رُقِىّ بالإنسان عن درجة البهيمية، إلى آفاق رَحْبة مِن المعانِى الإنسانية الكريمة، التى يسمُو فيها

(١) دكتور عبد الغنى عَبُّود: «الأيديُولُوجْيَا والتربية فى الإسلام» - الكِتاب السنوِىّ، فى التربية وعِلم النفس - بأقلام نُخْبة مِن أساتذة التربية وعِلم النفس - المجلّد الثالث - دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة - ١٩٧٦، ص ٥٦.

الإنسان على حاجات الجَسَد، ويُحِسُّ فيها بأنه (ليس بالخُبز وحدَه يحيَاالإنسان) - على حدّ تعبير السّيد المسيح عليه السلام.

وجَهْلُنا بالتراث التربَوِيِّ الإسلامِيِّ «لا يقلّل مِن شأن الإسلام، ولا مِن شأن التربية الإسلامية ... بقدرِ ما يقلّل مِن شأن الجاهلين بهذه الحقيقة، أو المتجاهِلين لها»[1].

وأكثرُ مِن ذلك أنّ مَنْ يدرُس هذا التراث التربَوِيَّ الإسلامِيّ، يتأكد مِن أنّ «مبادئ التربية الحديثة، التى نادينا بها فى منتصف القرن العشرين، ولم تستطع الدوَل المتمدِّنة تنفيذها كلها حتى اليوم - قد رُوعيت ونُفِّذت فى التربية الإسلامية، فى عصورها الذهَبية، قبلَ أن تُخْلَق التربية الحديثة بمئات السنين.

ومِن تلك المبادئ المثالية فِى التربية الإسلامية : التربية الاستقلالية، والاعتماد على النفس فِي التعليم، والحُرّية والديمقراطية فى التعليم، ونظام التعليم الفَرْدِيّ، ومراعاة الفروق الفردية بين الأطفال فى التعليم والتدريس، وملاحظة الميول والاستعدادات للمتعلّمين، واختبار ذكائهم، ومخاطبتهم على قَدْر عقولهم، وحُسْن معاملتهم، والرفق بهم، والعناية بالتربية الخُلُقية، وتشجيع الرحلات العِلمية، والاهتمام بالخَطابة والمناظرات، والتربية اللسانية، والإكثار من دور الكتب، وتزويدها بكل ما يمكنُ مِن الكُتُب القَيّمة، والمراجع النادرة، وتشجيع الطلّاب على الانتفاع بما فيها مِن ذخائر نفيسة، والمثابرة على الدراسة والبحث، والتعليم مِن المهد إلى اللحد»[2].

وكانت آيات القرآن الكريم الأولى، التى تنزّلت على قلب رسول الله (ﷺ)، بمثابة (النواة) التى دار حولها هذا التراثُ التربَوِيُّ الإسلامِيُّ الشامخ، فقد كانت هذه الآيات بمثابة (الشرارة)، التى فجّرت الحضارة الإسلامية وأشعلتها، وأقامت

---

(١) المرجِع السابق، ص ٧٣.
(٢) محمد عطية الإبراشى : التربية فى الإسلام - رقم (٢) مِن سِلسِلة (دراسات فى الإسلام) - يُصدِرها المجلِس الأعلىَ للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف - القاهرة - ١٥ رمضان ١٣٨٠ - ٢ مارس ١٩٦١، ص ٦ - من التمهيد.

تلك الحضارة - لأول مرّة فى تاريخ حضارة إنسانية - على عكس ما يعرف الكثيرون - على التربية عموما، والتربية المستمرّة خصوصا. ويكفى أن نقرأ هذه الآيات الآن، قبل أن نعود إليها مرّة ثانية فيما بعد، لنتأكّد مِن صدق هذه النظرة :

- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ* خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

وحول هذه (النواة) التى دار حولها التراثُ التربوىُّ الإسلامىُّ، وُجِدَت «التربية الإسلامية»، بمثابة «جهاز اجتماعىّ، يُعَبِّر عن روح الفلسفة الإسلامية مِن جهة، وهذا الجهاز هو الذى يُحَقّق تلك الفلسفة مِن جهة أُخرَى». «وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية بسبَب دِقّة هذا النظام وانتشاره»[2].

وبدأ هذا الجهازُ الاجتماعىّ - نظامُ التربيةِ الإسلامِىّ - مع بداية الدعوة الإسلامية، وتطوّر معها، ونَمَا بنمُوّها، وواكَبَ مسيرتَها، فكان - بحقّ - صورة لها، وعاملا مِن عوامل نُمُوّها فى الوقت ذاته.

بدأ هذا الجهاز فى (دار الأرقَم بنِ أبى الأرقَم) فى مكة، بسيطاً : تلاميذه هم القِلّةُ القليلة التى آمنت بالدعوة أوّل الأمر، ومدرستُه حجرة متواضعة فى تلك الدار، ومدرّسوه وإدارته والإشراف الفَنّىّ فيه، كلّه فى يد صاحب الدعوة وحدَه (ﷺ)، ومناهجه آيات القرآن يتنزّل بها الوَحْىُ على قلبه، وطريقة التدريس فيه هى الكلمة تخرُجُ مِن القلب، لتَصِلَ إلى القلب، وسلوكُ المعلّم الأعظم الشخصىّ صورة لما يدعو إليه.

ثم تطوَّرَ هذا الجهاز، بعدَ حوالَىْ قرن ونصف قرن مِن الزمان، فصار التلاميذ هم تلك الملايين من الصغار والكبار الذين أظلّهم الإسلام بظِلّه، فى حدود الإمبراطورية الإسلامية الضخمة، وصارت المدرسة مدارس مُتَعَدِّدَة، تبدأ بالكُتَّاب

---

(١) قرآن كريم : سورة العَلَق - ٩٦: آيات ١ - ٥.

(٢) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانِىّ : التربية فى الإسلام - مِن سلسلة (دراسات فى التربية) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٨، ص ٧، ٨ - مِن مقدمة المؤلف.

لتعليم القراءة والكتابة، وتنتهي بالدراسات العليا في المساجد ودور الحكمة، بصورة (رسمية)، ولكنها تَمْتَدُّ مدَى الحياة حقيقة. وصار لهذه المدارس مُدَرِّسوها وإدارتها ومصادر تمويلها، واتَّسع المنهج هو الآخَر، فصار يضمّ - إلى جانب القرآن الكريم - تفسيرَه، والحديثَ الشريفَ، والفِقْهَ واللغة والنحو والأدب، والكيمياء والطبيعة والطبّ والصيدَلة والرياضيات وغيرها.

وليس هنا مجال لتفصيل أكثر[1]، حتى لانبتعد عن موضوعنا - التربية المستمرّة - وإنما أردنا فقط أن نبيّن (أصالة) التربية الإسلامية، ومِن هذه الأصالة، كانت قُوَّتها وفاعليّتها في تاريخ الإسلام. ومن هذه الأصالة أيضا كانت قِيمة التراث التربَوِيّ الإسلامِيّ.

ولذلك نجد التراث التربَوِيّ الإسلامِيّ كلّه موجودا في القرآن الكريم، متناثِرا بينَ أجزائه، موزَّعا بين سُوَرِه، في ثنايا بقيّة التراث الإسلاميّ كلّه : الاقتصاد والاجتماع والسياسة والحُكْم، والزواج والطلاق، والحرب والسلام، وغيرها وغيرها.

كما نجد هذا التراث التربَوِيّ الإسلامِيّ على هذا النحو، وعلى نحو أكثر تفصيلا في الحديث الشريف.

ومِن هذين المصدرين الرئيسيّين، كان هذا التراث بعدَ ذلك، كما رأيناه في فِقْه الفُقَهاء، وأدَب الأدَباء، وفِكر المفكّرين، وفلسَفة الفلاسفة، ثم في الفِكر التربَوِيّ المستقلّ لفلاسفة التربية المسلمين، ومِن أمثال محمد بن سَحْنُون في القرن الثالث الهجرِيّ، والقَابِسيّ في القرن الرابع، وابن مسْكَوَيه، وابن عبد البرّ في القرن الخامس، والزرْنُوجِيّ في القرن السادس، وغيرهم[2].

---

(١) للتفصيل، ارجع إلى :
- دكتور عبد الغني عبّود : الأيديولوجيا والتربية، مَدْخَل لدراسة التربية المقارنة - الطبعة الأولَى - دار الفِكر العرَبي - القاهرة - ١٩٧٦ - اللتّمة التاريخية للفصل التاسع (الأيديولوجيا والتربية في العالَم العرَبيّ)، ص٤١٠ - ٤٢٤.

(٢) دكتور عبد الغني النورِيّ ودكتور عبد الغني عبّود : نَحْوَ فلسَفة عربية للتربية - الطبعة الأُولَى - دار الفِكر العرَبي - القاهرة - ١٩٧٦، ص ٤٧.

ويُعتَبر هذا (التداخُل) بين الفِكر التربَوِىّ الإسلامىّ، وغيره مِن ألوان الفِكر الإسلامِىّ، هو مصدَر الصعوبة الأساسِىّ فى دراسة التربية الإسلامية، إذ على الدارس أن يدرُس الإسلام كُلَّه، ليستطيع أن يخرُج بهذا الفِكر، ومِن هنا كان قولنا - فى تقديمنا لهذا المقال - بأن البحث فى التربية الإسلامية إنما هو جهد كبير، لاتكفيه محاولات فرد أو أفراد ولاتَنْهَض به، وإنما تنهَض به جهودُ مؤسَّسات وجماعات.

وليس هذا (التداخُل) نقطة ضعف فى الفِكر التربَوِىّ الإسلامىّ، وإنما هو نقطة قوّة فيه، ذلك أن القرآنَ الكريمَ - كتابَ الإسلام - ليس كتابَ تربية فحسب، وليس كتابَ سياسة أو اقتصاد فحسب، وليس كتابَ زواج وطلاق فحسب، وليس كتاب سلام وحرب فحسب، وإنما هو كتاب ينتَظِم (الحياةَ) كُلَّها - الحياة الدنيا والحياة الآخِرة - وفق تَصَوُّر مُعَيَّن للفرد والمجتمع، وفى إطار هذا التصوُّر أو الأيديولُوجْيَا، تدور الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية .... الإسلامية، وفى إطاره أيضا، يدور الفِكر التربَوِىّ ... الإسلامِىّ.

وبدون فهم الأيديولُوجْيَا الإسلامية - أى تَصَوُّر الإسلام للفرد والمجتمع - يصعُب فهم التربية الإسلامية، أو يكون هذا الفهم مبتورا على الأقلّ.

وإذا فُهِمَت هذه الأيديولُوجْيَا الإسلامية على حقيقتها، فسنجد أن الإسلام كان أوّل نظام فى التاريخ الإنسانِىّ كُلِّه، قدَّم فِكرا تربويا متكامِلا، ونظرية تربوية متكامِلة، وجدت مجالها للتطبيق فى المجتمع الإسلامِىّ طوالَ ستّة قرون مِن الزمان، مِن القرن السادس إلى القرن الثانى عشر الميلاديّين، وسنجد كذلك - على نحو ما سنرى - أن (التربية المستَمِرّة) كما رسَمها الإسلام منذُ أكثرَ مِن ثلاثة عشر قرنا مِن الزمان، أكثرُ نُضجا، وأرسَخُ قَدَما، مِمَّا هى عليه اليوم فى عالَمنا المعاصِر، رغم التقَدُّم العلمِىّ والتكنولُوجِىّ، الذى يعيشه الناسُ فيه.

الأيديُولوجْيا الإسلاميّة:

ليس مِن المبالغة في شيء أنْ نقول، إنَّ (الإنسان) هو المِحْوَر الذي تدور حوله الأيديُولُوجْيَا الإسلامية، فالإنسان (الفَرْدُ) في الإسلام «هو أُمَّة، بل عالَمٌ بأسْرِه، بل الإنسانية كُلّها في قيمته»[1].

و(الإنسان) - في الإسلام - ليس مجرّد (مخلوق) كغيره مِن مخلوقات الله الكثيرة، وإنما هو (سَيِّد) هذه المخلوقات، بحُكم ذلك (الاستخلاف) الذي كرّمه به رَبُّه، يومَ خَلَقَه:

- ﴿وإذْ قَالَ رَبُّكَ للمَلائِكَةِ: إنّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَة، قَالُوا: أتجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ، ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لكَ؟ قَالَ: إنِّي أعْلَمُ مَالا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وكانت هذه (المنزِلة) التي احتَلّها الإنسان بين بَقِيَّةِ خلق الله، بما فيهم الملائكة المقرَّبون أنفسهم، هي التي أحقدت عليه أحدَ الملائكة المقرَّبين، وهو (إبليس)، ففَسَقَ عن أمر رَبّه، حينَ أمر الملائكة أن يسجُدوا لهذا (المخلوق) الذي كرّمه:

- ﴿وإذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ: اسْجُدُوا لآدَمَ، فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ، أبَى واستَكْبَرَ، وكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾[3].

ويعاقب الخالق سبحانه إبليس الفاسق، بطرده مِن رحمة ربّه، جزاء فُسوقِه، لتبدأ - بعدَ هذا الطرد - ملحَمة الصراع بين الإنسان والشيطان، أو بين الحقّ والباطل، إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها:

- ﴿قَالَ: فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإنَّكَ رَجِيمٌ* وَإنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إلَى يَوْمِ الدِّينِ* قَالَ: رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ: فَإنَّكَ مِنَ

(١) مصطفى محمود: الماركسية والإسلام - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٧٥، ص ١٨.
(٢) قرآن كريم: سورة البَقَرَة - ٢: ٣٠.
(٣) قرآن كريم: سورة البقرة - ٢: ٣٤.

المُنظَرِينَ* إِلَىٰ يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ* قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ﴾[1].

وتبدأ حياة الإنسان على الأرض ـ فى نَظَر الإسلام ـ عندما استطاع إبليس أن ينفّذ تهديده، فيُوَسْوِسَ لآدم، فيأكُلَ مِن الشجرة التى نهاه الله عن أن يأكل منها فِى الجَنَّة، ثم يستغفر آدم رَبَّه، فيغفِر له، ويهبط إلى الأرض:

ـ ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ، فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا، ولا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا، وقَالَ: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ، أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ* وقَاسَمَهُمَا: إِنِّي لَكُمَا مِن النَّاصِحِينَ* فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا، وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ، ونَادَاهُمَا رَبُّهُمَا: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ، وأَقُلْ لَكُمَا: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ؟ قَالاَ: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ* قَالَ: اهْبِطُوا، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، ولَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ* قَالَ: فِيهَا تَحْيَوْنَ، وَفِيهَا تَمُوتُونَ، ومِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[2].

ولم يَعُدْ كلُّ (إنسان) ـ مُنذُ هبَط (الإنسان) إلى الأرض ـ (خليفةً) لِلّه فى الأرض، إلا بقدر استحقاقه لذلك (الاستخلاف)، وهو استحقاقٌ لا يقدّره ولا يقرّره إلا (قُدرته) على أن يعرِف رسالته فى الحياة، وأنها رسالة عدل وحقّ وخير وفضيلة، يستمدّها (الإنسان) مِن اتصاله بربّه، وتصدّيه لشيطانه، الذى أخرج أبويه مِن الجنّة ـ وقُدرته كذلك على أن يفهَمَ أنه يعيش على هذه الأرض (مُهاجِرا) بطبعه، فهو يعيش عليها أيّاما معدودات، «يهاجِر الإنسانُ بعدَها مضطرًا إلى

(١) قرآن كريم: سورة ص ـ ٣٨: ٧٧ ـ ٨٣.
(٢) قرآن كريم: سورة الأعراف ـ ٧: آيات ١٩ ـ ٢٥.

الآخِرة، حيث تبدأ حياته التى لاتنتهى، فى الجَنَّة أو النار»[1] ـ حسبَ ما قدَّمَت يداه فى دُنياه.

وهذا الطريق أو ذاك ـ طريقُ الجَنَّة أو طريقُ النار ـ مُيَسَّرٌ للإنسان، بحُكم تكوينه، فقد خلق الله هذا الإنسان «جسما كثيفا، وروحا شفَّافا، جِسما يشدُّه إلى الأرض، وروحًا يتطلَّع إلى السماء، جِسما له دوافعه وشهَوَاته، وروحا له آفاقُه وتطلُّعاته، جِسما له مَطالب أَشْبَهُ بمَطَالِبِ الحيوان، ورُوحًا له أشواق كأشواق الملائكة». «وجاءت عقيدةُ الإسلام، فلم تغفل الروح مِن أجل الطين، ولم تغفل الطين مِن أجل الروح، بل زاوَجَت بينهما فى وحدة متناسِقة ملتَئِمة، وأعطت الروح حقَّه، والجَسَد حَقَّه، فى غير إفراط ولا تفريط»[2].

والعقل الإنسانىّ هو هِبَة الله لذلك الإنسان الذى استخلفه ربُّه وكرَّمه، فبه يستطيع أن (يختار) الخير، ويتجنَّب الشرّ، وبه يستطيع أن يقهَر شيطانه، فيدخُل جنة ربِّه.

والإنسان ـ فوقَ ذلك ـ لا يعيش فى هذه الدنيا وحيدا، وإنما هو يعيش وسطَ جماعة (إنسانية)، يُعتَبَرُ مسئولا عنها، مسئوليَّتها عنه، «فالفرد مسئول عن الجماعة، يعمَل ويوجِّه وينقُد ويصحِّح، منفَرِدا وضِمْنَ فئة مِمَّن يُدرِكون ويستطيعون، وعليه أن يستَنْفِدَ فى ذلك كُلِّه أقصَى قُدرته». «والجماعة مسئولة عن أعضائها وعَمَلها، على أن لا تطْغَى على ذات الفرد، وتَسْلُبَه حُرِّيَّتَه وحقوقه، بدعوَى حمايته، أو الوصاية عليه، كما أن الفرد مسئول عن ذاته، على أن لاينسَى الجماعة فى غمرة حِرْصِه واستمساكه بحقوقه ومصالحه القريبة.

وهكذا يتحقَّقُ التوازُن الدقيق بين مستويات المسئولية، وبهذا يُصَان الفردُ ذاتًا حُرَّة، قادرة نامية، وتُصَانُ الجماعة قَوِيَّة متماسِكة، متحرِّكة للوصول إلى أهدافها»[3].

---

(1) الدكتور عبد الغنى عبّود: «الهجرة المستمرّة إلى الله» ـ الهجرة النبَوية الشريفة ـ منبة منبَر الإسلام ـ يُصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ السنة ٣٢ ـ العدد ١ ـ القاهرة ـ المحرم ١٣٩٥ ـ يناير ١٩٧٥، ص ٢٦.

(2) الدكتور يوسف القَرَضَاوِىّ: الإيمان والحياة – الطبعة الثانية – مكتبة وهبه ـ القاهرة ـ ١٩٧٣. ص ٧٦، ٧٧.

(3) الدكتور سيد أحمد عثمان: «المسئولية الاجتماعية فى الإسلام – دراسة نفسيّة» ـ الكتاب السنوىّ فى التربية وعِلم النفس – بأقلام نُخبة مِن أساتذة التربية وعِلم النفس – عالَم الكُتُب ـ القاهرة – ١٩٧٣، ص ٦.

وبالعقلِ الإنسانِيّ - هبةِ الله لخليفته الذى كرَّمه - مرّة ثانية - يستطيع الإنسان أن يُقيمَ ذلك (التوازُن) الضروريّ بين ذاته وبين مجتمعه، أى بين (الحرّيّة) و(النظام)، وهوما لاتزال المجتمعات الحديثة، فى الشرق والغرب، رغم ما حقّقته مِن تقدُّم عِلميّ وتكنولوجِيّ وحضاريّ كبير، تفتقِر إليه، بشكل يهدّد ما انجزَته مِن تُراث حضارِيّ مادّيّ شامخ، ويهدّد الإنسانية كُلَّها معها بالتدمير والفَنَاء.

بَيْدَ أنَّ إلقاء المسئولية كُلّها على (العقل) على هذا النحو فى إقامة ذلك (التوازُن) بين حاجات الجسم وحاجات المجتمع، أمرٌ لايتَّفِقُ مع الأيديُولُوجْيَا الإسلامية، وإنما العقلُ فى تلك الأيديُولُوجْيَا مجرّد (مدخَل) إلى ذلك (الحارس) الحقيقِيّ، الذى حَرِصت التربية الإسلامية على تنمِيَتِه، وهو (الضمير)، لأنه إذا ما «تنبَّه الوَعْىُ الباطن على مِثْلِ تَنَبُّهِ الحواسّ الظاهرة إلى ماحولَها، انقشع الغَيْم، وتبدّدت الجَهالة، وصار سلوك الحقّ هو الضرورة»(١).

ومِنْ ثَمَّ «أجمع فلاسفة الإسلام على أن التربية الخُلُقية هى روح التربية الإسلامية»، «فالغَرَضُ الأوّلُ والأسمَى مِن التربية الإسلامية تهذيبُ الخُلُق، وتربية الروح»(٢)، بطُرُق متعدّدة، تتّفق كلّها وعلم النفس الحديث(٣).

وإذا كان العقل الإنسانِيّ هو مدخَل الإنسان - فى الإسلام - إلى الكَمال، ومدخَله - فى الوقت ذاته - إلى خَلْقِ المجتمع المثالِيّ الذى ينشُده، ومدخَله إلى تلك المنزلة الكريمة التى وضَعَهُ فيها ربّه يومَ خلَقَه، باستخلافه - فإن العقل غذاؤه العِلم، ومِنْ ثَمَّ كان العُلَماء - فى الإسلام - هم وَرَثَة الأنبياء - على حَدّ تعبير الرسول الكريم، وكان تأسيس الحضارة الإسلامية على العِلم - بأوسع مفهوماته وأشمَلِها - طِوال القرون الستّة التى تلت ظهورَ الإسلام، فقد كانت «حضارة الدولة الإسلامية هى التى سمَحَت ببقاء ما بَقِيَ مِن حضارة الفراعنة والإغريق والفُرس والهنود، ولولا قُوّة (مُوجَبَة) فى العبقَرية العَربيّة، لما جاءت تلك الدفعة،

---

(١) البَهِيّ الخُولى : الاشتراكية فى المجتمَع الإسلامىّ، بينَ النظرية والتطبيق - مكتَبة وهبه - القاهرة، ص ١٠٠.

(٢) محمد عطية الأبراشى (مرجع سابق)، ص ٩.

(٣) ارجع - للوقوف على هذه الطرق - إلى :

- أسماء حسَن فَهْمى : مبادئ التربية الإسلامية - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٧، ص ٥٠ - ٥٥.

ولا تيسَّرت تلك الحَضَانة»(١)، ولولاها ما انطلقت الحضارة الإسلامية وراءَ تلك الحضارات القديمة وبَعدَها، تُصَحِّح فيها، وتُضيف إليها، وتَتَّخذ لنفسها بعدَ ذلك (شخصيَّتها) المستقلّة، التى عُرِفَت بها فى التاريخ الإنسانىّ فى العصور الوُسطَى.

وكان الإسلام «هو الذى وَجَّه تلك الحَرَكة الفِكرية والحضارية الكُبرَى، وأظلَّها بِظلِّه، وطبَعَها بطابَعه»(٢).

الأيديُولوجْيا الإسلامية والتربية :

ولم يكن الإنسان – فى الإسلام – بقادر على أن يَرقَى إلى تلك المنزِلة الكريمة التى وضعه فيها رَبُّه يوم خَلَقه، وهى منزِلة (الاستخلاف)، ولم يكن بقادر – أيضا – على أن يُقِيمَ ذلك (التوازُنَ) بين حاجات الجسد وحاجات الروح، وبين مستَوَيات المسئولية المختِلفة، المُلقاة عليه كفرد، وكعُضو فى جماعة، ولم يكن بقادر – كذلك – على (خَلْق) الضمير، قِوام حياة المسلم، إلا بالتربية.

ولذلك لم يكن غريبا أن ترافق التربيةُ الدعوةَ الإسلامية منذُ لحظاتها الأُولَى، فَعَلَى يد الله الخالق، كانت تربيةُ الرسول الكريم، وإعدادُه لحمل الرسالة، وعلى يد الرسول الكريم، كانت تربية (الصفوة)، التى سارعت إلى الإيمان به – فى دار الأرقَم بنِ أبى الأرقَم فى مَكَّة، وعلى يد الرسول وهذه الصفوة، كانت تربية المسلمين، فى الجزيرة العَرَبية، وخارجَها بعدَ ذلك.

وكانت هذه التربية ـ كما سبق فى مطلَع هذه الدراسة ـ شاملة، تهتَمّ بالروح والعقل والجَسَد،كما كانت تتمّ فى المسجد والشارع والمنزِل وميدان القتال ومَجَال العمل، وفى كُلّ مكان يمكن أن تكون فيه تربية، ولم تكن قاصرة على المسجد أو الكُتَّاب أو المدرَسة ـ أخيرا ـ وحدَها، كما كان الكُلّ فى هذه التربية يساهم فى تربية الكُلّ، فَمَنْ عندَه ـ فى الإسلام ـ كان يُعطِى (أىْ يُرَبِّى) مَنْ ليس عنده، فالحِكمة ـ على حدّ تعبير الرسول الكريم ـ ضالَّةُ المؤمن، أنَّى وَجَدَها، فهو أَوْلَى الناس بها.

---

(١) عبّاس محمود العقاد : أثر العرَب فى الحضارة الأوربية – الطبعة الرابعة – دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٥، ص ٣٣.

(٢) دكتور سعيد عبد الفتّاح عاشور : المَدَنيَّة الإسلامية، وأثرها فى الحضارة الأوربية – الطبعة الأُولَى – دار النهضة العربية ـ القاهرة – ١٩٦٣، ص ٧.

وقد كانت حياةُ المعلّم الأعظَم صلّى اللهُ عليه وسلّم نفسِه صورةً لهذه التربية، فقد كان يُعطِى الكُلّ، ومع ذلك يستمع إلى الكُلّ، وكان فى المواقف الصعبة يستشير أصحابَه، ويرجِع إليهم، وكان خُلفاؤه مِن بعدِه يفعَلون ما كان يفعَله معلّمهم وأستاذهم، فقد كان عُمَر يستشير، ويسأل الشيوخ والنساء والأطفال، ويرجِع إليهم، وكم أخذ بآراء صغار الأطفال، كما أخذ بآراء أعدائه.

وكانت هذه التربية الإسلامية – فوقَ ذلك كلّه – تربية عَمَلية، تتحوّل بها الكَلِمة إلى عَمَل بَنّاء، أو إلى خُلُق فاضل، أو إلى تعديل فى السلوك على النحو الذى يحقّق وجودَ ذلك (الإنسان) كما تصوَّره الإسلام.

وكان المعلّم – فى هذه التربية – دائما صورة لما يدعو إليه، فقد كان هو (القُدْوة) لتلاميذِه، ولَطَالَمَا نعَى القرآنُ الكريمُ والرسولُ العظيم، على أولئك الذين يفصِلون بينَ العِلم والعَمَل:

– ﴿يأيّهَا الّذِينَ آمنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفعَلُون؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ أنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفعَلُون﴾[1].

– ﴿وإذَا قِيلَ لَهُمْ: لا تُفْسِدُوا فِى الأرْضِ، قَالُوا: إنّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون. ألا إنّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ، ولَكِنْ لايَشْعُرُون. وإذَا قِيلَ لَهُم: آمنُوا كَمَا آمَنَ النّاسُ، قَالُوا: أنُؤمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء؟ ألاَ إنّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ، ولَكِنْ لاَ يَعْلَمُون. وإذَا لَقُوا الّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنّا، وإذَا خَلَوْا إلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إنّا مَعَكُمْ، إنّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون. اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ويَمُدّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون﴾[2].

وفى تعريف الرسول الكريم – المعلّم الأعظَم والقُدوة – للإيمان أنه هو (ما وَقَرَ فى القلب، وصدّقَهُ العَمَل). وعلى سُنّة الرسول – المعلّم – سار الصحابةُ والتابِعون وتابِعُو التابعين، وسيظَلّون يَسِيرون، حتّى يَرِثَ اللّهُ الأرضَ وَمَنْ عليها[3].

(١) قرآن كريم: سورة الصف – ٦١: ٢، ٣.
(٢) قرآن كريم: سورة البقرة – ٢: الآيات ١١ – ١٥.
(٣) وهكذا سبقَ المسلمون المجتمعاتِ الشيوعية المعاصِرة فى رفع شأن العَمَل، وفى ربط العِلم بالعَمَل – بثلاثة عشر قرنا مِن الزمان.

كذلـك كانت هذه التربية الإسـلامية شـاملة Comprehensive ، تقـوم على المرُونة، وعلى حرّيّة الاختـيار مِن المتـعلّمين، ولم تكن تقـوم على (فَـرْض) بَرَامج ومَنَاهِج معيّنة عليهم[1].

وأخيـرا كانت هذه التـربية، مسـئولية فـردية جمَاعيّة اجتماعـية، شـأنها فى ذلك شـأنُ ألوان النشاط الأُخرَى فى الإسلام، حيث الكُلُّ فيه مسئول عن الكُلّ.

فَـوَلِيُّ الأمر مـسئـول عن تربيـة ابنه قبلَ بلـوغ الرشد، فإن قصَّـر فى ذلك، فالجماعة مـسئولة عن تلك التربية، فإن قَصرَت الجمـاعة، تدخّل المجتمع للنهوض بتلك المسـئوليـة. والإنسـان – بعدَ بلوغِه رُشْـدَه – مسـئولٌ عن نفـسه بنفـسه كـما سنرَى – ومسئولٌ عن تربيـة غيرِه أيضا.

وتاريخُ الـتـربـيــة الإسـلامــيــة خـيــرُ شــاهد علـى ذلك كُلّه، فلـم تبـدأ الدولة الإسلامية فى التـدخُّل فى شئون التربية – مع الأفراد والجمـاعات – إلا فى العـصـر العـبـاسِىّ، بإنشـاء المأمـون لدار الحِكْمَـة سنة ٨١٣ هـ، ثم بإنشـاء (نظام المدرسـة) بعدَ ذلك فـى القرن الخامس الهـجرىّ (الحادِى عَشَـرَ الميلادىّ)، عندمـا صار تدخّل الدولة ضـرورة، لتـوفيـر (القُوَى البشَرية) لـلمـجـتـمع الإسلامِىّ، بعد أن تـعقّـدت حضـارته، فأُنشِـئت المدرَسة «كمنظّمـة رسمـية مِن منظّمـات الدولة، يتـخـرَّج فيـها عمّال الدولة ومُوَظّفُوها»[2]، وكانت «الدراسـة فيهـا (تسـير) وَفْقَ لوائح وقوانين، شبيهة بتلك التى نعرِفها اليوم»[3].

ورغمَ ذلك، ظلَّ دور الدولة فى التربية مـحدودا، بجانب ذلك الدور الذى يقوم به الأفـراد، فـقـد ظلّ الخُـلَـفـاء والحُكّام – كـالأفـراد ، وكـذلك الأثرياء، والخَـيِّـرون، «يتنافَـسـون فى إنشاء المـدارس وبيوت الحِكمـة ودور العِلم والمدارس، وغـيـرهـا من المدارس، ويرصُـدون الأراضِىَ والمـمتلَكات للإنفـاق عليـهـا وصـيـانتـهـا، كـمـا كـانوا

(١) وهكذا سبق المسلمون المجتمعات الرأسمالية الغربية المعاصرة، فى توفير حرّية الاختيار أمامَ المتعلّمين، بأكثرَ مِن عشرة قرون مِن الزمان ، وللمزيد من المعلومات عن حرّية الاختيار فى التربية الإسلامية – ارجِع إلى :
– عبد الله حسين : التعليم العرَبىّ والجامعىّ – مطبعة التوفيق بمصر – القاهرة ، ص ١٧٢.
(٢) بيوت الله، مَسَاجِد ومَعَاهِد – الجُزء الثانِى – كتاب الشعب – رقم (٨٧) – مطابع الشعب – القاهرة – ١٩٦٠، ص ١٩٩.
(٣) عزّ الدين عبّاس : «التعليم فى الإسلام» – الرائد – مجلّة المعلمين – السنة السابعة العددَ الخامس – القاهرة – مارس ١٩٦٢، ص ١٦.

يأمُرون بتوزيع الأرزاق على الطلاّب والمعلّمين، لِسَدّ مَطالبهم فى الحياة»، «وقد رُوعِيَت هذه الطريقة أيام العَبّاسيّين والفاطِميّين والأيُوبيّين والمماليك والعُثمانِيّين، لضَمَان مَعَاش الطلاّب والمعَلّمين، وطمأنينتهم على حياتهم». كما «سار السلاطين والوُزَراء والأمَراء والتجّار والعُلَماء والقُضَاة، وكذلك كثيرات مِن فُضْلَيَات النساء، على نَهْج الخُلَفاء، فأنشأوا المَعاهد، ورصدوا لها الأموال، واتّبَعُوا فى شأنها النظُم التى وَضَعها مِنْ قَبْلُ الخُلَفاء، فأصبحت المدارس فوق كونِها نُوراً للعِلم والمعرفة، مُؤَسّسَات اجتماعية، تُعِينُ الفُقَراء، وتساعد المُعْوِزين»(١).

وضع التربية المستمرة فى التربية الإسلامية :

مِن كُلّ ما سبَق، نرَى انه إذا كان العِلْمُ جُزءاً اساسيّا مِن الأيديُولُوجّيا الإسلامية، لأسباب رأيناها فيما سبَق، وإذا كانت التربية ـ لما رأينا مِن اسباب أيضاً ـ جُزءا لايتجزّأ مِن تلك الأيديُولُوجّيا الإسلامية ـ فإن المقصود بالتربية ـ فى الإسلام ـ على ذلك ـ يُصبح هو تلك (التربية المستَمِرّة).

وذلك سَبْقٌ إسلامِىّ فى التربية، لم تصل إليه المجتمعات المتقدّمة ذاتها بعد.

«ولاشكّ أنّ ما تضَمّنَهُ القرآنُ الكريم والأحاديث النبويّة الشريفة، مِنْ حَثّ المؤمنين على طلَب العِلم، وارتشاف مَنَاهِله، (مِن المهد إلى اللحد)، كان دافعا لتعلّق المسلمين بالعِلم، بحيث عُدّ طلَبه، والسعْىُ إليه، تقليدا مِن تقاليد الإسلام، يتناقَلُه الخَلَف عن السلَف، وأصبَحَ العُلَمَاءُ عُنصُراً مُمتازًا، يتطلّع إليه المسلمون بِعَيْنِ الاعتبار والتكريم والاحترام»(٢).

---

(١) «المعاهد العِلمية والاجتماعية فى الإسلام» ـ مُتَرْجَمة عن (إسلاميك ريفيو)؟ الرائد ـ مجلّة المعلّمين ـ السنة السادسة ـ العدد السابع ـ القاهرة ـ مارس ١٩٦٩، ص ٢٨.

ـ وارجع كذلك إلى :

- H.A.R. GIBB and J. H. KRAMERS : Shorter Encyclopaedia of Islam; E.J. Brill, Leiden, 1953, p. 348.

ـ وكذلك ارجع إلى ما يُطلِق عليه (الدوميلّى) اسم (أُسَر حماة العلوم) فى :

ـ الدوميلى : العِلم عند العَرَب، وأثَره فى تطوُّر العِلم العالمِىّ ـ نقله إلى العَرَبية : الدكتور عبد الحليم النجّار، والدكتور محمد يوسف مُوسَى ـ قام بمراجعته على الأصل الفرنسىّ : الدكتور حسين فوزِىّ ـ جامعة الدول العَرَبية ـ الإدارة الثقافية ـ الطبعة الأولَى ـ دار القلَم ـ القاهرة ـ ١٩٦٢، ص ١٣٢ ـ ١٣٧.

(٢) «المعاهد العِلمية الاجتماعية فى الإسلام» (المرجع السابق)، ص ٢٧.

ولقد كان الأمر الإلهيُّ الكريم، الذى بدأ به نزولُ الوَحْيِ (اقْرَأْ)، هو المنطَلَق إلى فهم الإسلام، والمنطَلَق إلى ذلك التغيُّر الأيديولوجيّ، الذى أحدَثَهُ فى قلوب المسلمين وحياتهم، والمنطَلَق - فى الوقتِ ذاتِه - إلى تلك التربية المستمرّة، التى صارت - عبرَ التاريخ الإسلاميّ - كما سنرَى - جُزءا مِن حياة المسلم، ومنها - مِن تلك التربية المستمِرّة - كانت التربية الإسلامية بمفهومها الشامل، ثم كانت التربية المدرَسية.

و(القراءة) فى نَظَر الدارسين المُحْدَثِين هى مِفتاح باب المعرفة، وهى - بالتالى - مِفتاح التقدُّم، ولذلك فهم يلاحظون أن «هناك ترابُطا واضحا بين كَوْنِ الشعب متقدّما، وكونه قارئا. وقد يُقال إن الشعبَ تقدَّم أولا، ثم بدأ يقرأ. ولكن هذا القول يجئ مُخالِفا لمنطِق الأشياء، إذ المعقولُ أن الشعوبَ تتعلّم، ثم تسخّر العِلم فى تحقيق التقدُّم. إن القراءة تنمّى الفرد، والفرد ينمّى المجتمع، ولن تكون تنمية بغيرِ قِراءة»[1].

ولذلك يربط الدارسون بين هذه (القراءة)، وما حقّقته الشعوب مِن تقدُّم، كما فَعَل (فِشَر) حين رَبَطَ بينَ نهضةِ ألمانيا، وحِرْصِ الشعب الألمانىّ على القراءة، وهو يرَى أنه «لم يَفُقْ الألمانَ شعبٌ أوروبّىٌ آخَر، فى كثرة المطالَعة وجدّيّتها»[2].

فالقراءة صارت فى نَظَر الباحثين «أرْخَص ضُروب التعليم»، وصار يُنظَر إلى الكِتاب «كمفتاح للتنمية التربوية والاجتماعية والاقتصادية»[3].

ولم تكن (القراءةُ) كما أمر بها القرآنُ الكريم المسلمين، بعيدة عن هذا الفهم الحديث لها، بل إن الإنسان لايبالغ إذا قال: إنَّ (القراءة) التى أمر بها الإسلام، أعَمُّ وأشْمَلُ مِن (القراءة) كما تراها الدراسات الحديثة.

(١) الدكتور السيّد أبو النجا: «القراءة مِهَنا حسابِيّ» - لماذا نقرأ؟ - لطائفة مِن المفكّرين - دار المعارف بمصر - القاهرة، ص ٦٦.

(٢) هـ. ا. ل. فِشَر: تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩ - ١٩٥٠) - تعريب أحمد نجيب هاشم، ووديع الضبع - (جمعية التاريخ الحديث) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٥٨، ص ٣٩٤.

(٣) داتيس. س. سميث: صِناعة الكِتاب، من المؤلّف إلى الناشر، إلى القارئ - ترجمة عصمت أبو المكارم وآخرين - تقديم الدكتور السيد أبو النجا - المكتب المصرىّ الحديث - القاهرة - ١٩٧٠. ص ٦،٥.

إن (القراءة) في الدراسات الحديثة لها غَرَض دُنيَوِيّ مَصْلَحِيّ، زائل على أية حال، ولكنها في الإسلام أَمْرٌ يتّصل (بإنسانية) ذلك الإنسان، وبدونها لايكون ذلك الإنسان (إنسانا)، بمعنَى أنه لايكون مستحقّا ذلك التكريمَ الذى كرّمه به ربُّه يوم خلَقَه واستخلَفَه.

وبعبارة أُخرَى : إنّ (القراءة) في الدراسات الحديثة تخدم الجانب (الحيواني) مِن الإنسان، بينما هي في الإسلام وسيلتُه للمحافظة على الجانب (الروحي) منه - وإن خدمت جوانب أُخرَى غيرَ روحية في ذلك الإنسان، بطريق غير مباشر.

ومِن هنا كانت نظرةُ الإسلام إلى (العِلم والعُلماء)، وإلى (العقل) الإنسانِيّ عموما، بوصفه الوِعاء الذى تَصُبُّ فيه تلك القراءة كُلُّها.

لقد «أوضح القرآنُ الكريم، بما لايَدَعُ مَجالا للشكّ، أن العقيدة كما جاء بها الإسلام - لاتتنافَى مع العقل، ولاينبغِي لها أن تَتَنَافَى معه، وأنها تكون - على خير تقدير - ناقصةً، إذا لم تنسَجِم معه»[1]، ولذلك فإنّ «القرآن الكريم، لايذكُرُ العقلَ إلّا في مقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العَمَل به، والرجوع إليه، ولاتأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتَضَبَة في سياق الآية، بل هي تأتِي في كل موضِع مِن مواضعها مؤكّدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرّر في كُلّ معرِض مِن معارِضِ الأمرِ والنهْيِ، التي يُحَثُّ فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يُلامُ فيها المُنْكِرُ على إهمال عقله، وقبول الحَجْر عليه»[2].

ومِن ثَمَّ «فالإسلام لايحتَكِمُ إلّا للعقل والمنطِق والعِلم، لإثبات صِدق الرسالة، وتحقيق أهدافها، ومِنّ هنا كانت مكانة العِلم والعُلَماء في نَظَر القرآن»[3].

---

(١) الدكتور محمود حُبّ الله : «موقِف الإسلام مِن المعرِفة والتقدُّم الفِكْرِيّ» - الثقافة الإسلامية والحياة المعاصِرة - مجموعة البحوث التي قُدمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية - جمع ومراجعة وتقديم : محمد خلف الله - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ص ٣٠.

(٢) عبّاس محمود العقّاد : التفكير فريضة إسلامية - الطبعة الأُولَى (للمؤتمر الإسلاميّ) - دار القَلَم - القاهرة، ص ٥، ٦.

(٣) عبد الرحمن النجّار : «معالم الدولة العصرية، العِلم .. والإيمان - وزارة الإعلام (هيئة الاستعلامات) - القاهرة، ص ١٢.

ولذلك، فإنه كلما زاد الإنسان - في الإسلام - علماً، زاد فضلاً، وزاد قرباً من الله سبحانه :

- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ، لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[2].

- ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3].

وتأتي السنّة النبويّة الشريفة، فتؤكّد هذا الخطّ القرآنيّ العامّ :

- ﴿الْعُلَمَاءُ هُمْ وَرَثَةُ الأنبياء﴾ - ﴿مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ له طريقاً إلى الجَنَّة﴾ - ﴿فَضْلُ الْعَالِمِ على الْعَابِدِ كَفَضْلِي (أيْ رسول الله) على أدناكم رَجُلا﴾[4].

أبعاد التربية المستمرّة في الإسلام :

ومرّة أُخرى، يبدو شمولُ التربية المستمرّة في الإسلام، مِن تعدُّد أبعادها، ويبدو ضيق أُفُق التربية المستمرّة في غير الإسلام، حتى في العصور الحديثة، مِن انحسارها في بُعْدٍ واحد، وهو مداومة (القراءة).

ولقد كان مُفَجِّر التربية المستمرّة في العصور الحديثة هو ذلك الانفجار العِلميّ والتكنُولُوجيّ الذي جعل العصر الذي نعيش فيه عصرَ «انفجار المعرفة»[5]، حيثُ صار «التقدُّم العلميّ يفرض نفسَه على المجتمع البشريّ كُلّ يوم، بعد أن كان التطوُّر فيه قديما يأخذ مئات، بل آلافَ الأعوام»[6].

(1) قرآن كريم : سورة آل عمران - ٣ : ١٨.
(2) قرآن كريم : سورة فاطر - ٣٥ : ٢٨.
(3) قرآن كريم : سورة المجادلة - ٥٨ : ١١.
(4) صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، بن بردزبه البُخاريّ الجُعْفيّ - الجزء الأوّل - دار ومطابع الشعب - القاهرة، ص ٢٦، ٢٧.
(5) دكتور سعد مرسي أحمد : التربية والتقدّم - عالَم الكُتُب - ١٩٧٠، ص٤٥.
(6) لين بول : آفاق العِلم - ترجمة الدكتور سيّد رمضان هدّارة - مراجعة وتقديم الدكتور إبراهيم حِلمي عبد الرحمن - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٠، ص ٣ (مِن المقدمة، للدكتور إبراهيم حِلمي عبد الرحمن).

أمّا مفجّر التربية المستمرّة فى الإسلام، فهو تلك المنزلة الكريمة التى احتلّها الإنسان فيه، والتى لايستطيع أن يحتفظ بنفسه فيها إلا بأن يظلّ ـ كما أراده اللهُ دائما ـ يتأمّل ويفكّر، ويقرأ ويستزيد علما، ويطبّق هذا العلم ويطوّره، ويناقش الآخرين فيه ـ ويدعو إلى الله وإلى الحقّ، «اقتداءً بالرسول (ﷺ)»[1].

وهذا وأكثَرُ منه، نفهَمه فى الإسلام مِن فِعل الأمر (اقرا)، الذى استُهِلّ بِهِ الوحى، خطابا مباشرا مِن الله لرسوله، ومنه بالتالى (للإنسان) فى كل زمان ومكان، «بهدَف إقامة علاقة مباشرة بين الإنسان وربّه»[2]. ومِنْ ثَمَّ كانت هذه الآيات الأُولىَ «أوّلَ رحمة رَحِمَ اللهُ بها العِبَاد، وأوّل نعمة أنعم الله بها عليهم»، لأن «مِنْ كَرَمِهِ تعالىَ أن علّم الإنسان ما لم يَعْلَمْ، فشرّفَه وكرّمه بالعِلم»، «والعِلم تارة يكون فى الأذهان، وتارة يكون فى اللسان، وتارة يكون فى الكتابة بالبَنَان، ذِهْنِيّ ولَفْظِيّ ورَسْمِيّ»[3]. و«فى هذا تنبيه على فضل عِلم الكتابة، وما دُوِّنَتْ العلومُ ولا ضُبِطَت كُتُبُ الله تعالىَ المنَزَّلة إلاّ بالكتابة، ولولاها لما استقامت أمورُ الدين والدنيا»[4].

ومِنْ ثَمَّ تتنوّع أبعادُ (التربية المستَمِرّة) فى الإسلام وتتعدَّد، بحسب (حالة) كل إنسان، فَمَنْ كان أُمِّيًّا، لايعرِف القراءة والكتابة، كان عليه أن يتعلّمها، ومَنْ كان على بعضِ العِلم، كان عليه أن يستزيد مِن عِلمِه، ومَنْ كان على عِلم كثير، فعليه أن يستزيد أيضا مِن عِلمه، وأن ينشُرَ ذلك العِلم باللسان والكتابة، متذكرا دائما قوله تعالىَ :

ـ ﴿.... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[5].

---

(1) ABDULLAH YOSUF ALI : The Holy Qur-an, Text, Translation, and Commentry, Volume Two; The Murray Printing Company, Cambridge, Massachusetts, New-York, 1946, p. 1761.

(2) Ibid, p.1761.

(٣) تفسير القرآن العظيم ، للإمام الجليل، الحافظ عماد الدين أبى الفداء، إسماعيل بن كثير القُرَشِىّ الدمشقِىّ، المتوفّى سنة ٧٧٤هـ ـ الجُزء الرابع ـ ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م، ص ٥٢٩.

(٤) محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب : أوضَح التفاسير ـ الطبعة الخامسة ـ المكتَبة التجارية الكُبرَى ـ القاهرة ـ شعبان ١٣٧٥ ـ مارس ١٩٥٦، ص ٥١٦.

(٥) قرآن كريم : سورة الإسراء ـ ١٧ : ٨٥.

فالإسلام لايرَى «أن للعِلم حدّا ينتهى عنده العالِمُ، وأن لحقائق الوجود مدًى يمكن أن يُحيطَ بها العُلَماء»[١].

فـالعِلم ـ فـى الإسـلام ـ يؤدّى بالإنسـان إلى أن يَعرِف قَدْرَ نفسـه، فيـزداد تواضُعا، وهـو لايؤدّى به إلى أن ينسَى نفسَه فيُصيبَه الغُرور، ولذلك «كان من أهَمّ مظاهر الحَركة العِلمـية التى تدعُو إلى الإعـجاب» فى الإسـلام، «الرحَـلات، فـقد أصبح تقليـدا للعـالِم أن يرحَل، ويُلاقِىَ العُلمـاء، ويأخـذ منهم، ويَرْوِىَ عنهم» مع عناء السفَـر، وفَقْرِ العُلَماء غالبا»[٢]. «بل والعلمـاءُ أنفُسـهم، نرَى شطرا مِن عُمْرِهم قَضَوْهُ فى بلَد، وشطراً فى بلَد آخَر»[٣].

كذلك مِن مظاهـر هذه الحرَكة العِلمية، التى تدعو إلى الإعجاب فى الإسلام، تعدُّد المؤسَّسـات التربوية، بحيث صـارت تشمَل الكُتّاب والمدرَسة والمسجِد والدور والقُصور وحَوانيتَ الوَرّاقِين ومَنازل العُلَماء والصـالونات الأدَبية وغيرها ـ وكذلك انتشـار المكتَبات، فى الدور والقصـور والمساجد، وتعـدُّد هذه المكتَبات وتنوُّعها، بحيث صـارت هناك ـ على حَدّ تعبير الدكتور أحمد شَلَبى ـ مكتَبـات عـامّة، ومكتَبات خاصّة، ومكتَبات بينَ العامّة والخاصّة.

وقد «أُنشِـئت هذه المكتَبات (العامّة) بـالمساجد، لتكون فى متناوَل الدارسين فيه، والوافـدين إليه، كمـا أُنشِـئت أحيانا لتكون نُواة لمعهَد يستقبِل الطُّلاّب، فيجدون فيه العِلم والمعرفة، ثم أُنشِئت متّصلة بالمدارس، عندما بدأت هذه فى الظهـور والانتشـار، وقد كـانت المكتَبات مِن هذا النوع كثيرة جدا، بحيث كـان مِن الصعب أن تجـد مسجِداً أو مدرَسة دون أن تزوَّد بمجموعة مِن الكُتُب، يرجع إليها الطُّلاّب والباحثون»[٤].

ولم تكن مكتَبـات المساجـد هذه قـاصـرة على كُتُب الدين، بل كـانت بهـا

---

(١) الدكتور مصطفى السباعِىّ : اشتراكية الإسلام ـ دار ومطابع الشعب ـ القاهرة ـ ١٩٦٢، ص ١٠١.
(٢) أحمد أمين : ظُهر الإسلام ـ الجُزء الأول ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٦، ص ٢١٥.
(٣) المرجع السابق، ص ٢١٨.
(٣) الدكتور أحمد شَلَبِىّ : تاريخ التربية الإسلامية ـ دار الكَشّاف ـ بيروت ـ ١٩٥٤، ص ١٥٩.

مؤلّفات فلسفية وعلمية أيضا، فقد «كانت العلوم، فضلا عن الطبّ، تُدَرّس كثيرا في المساجد»[1].

التربية المستمرّة الإسلامية والتربية المستمرّة المعاصرة:

تقوم فلسفة التربية المستمرّة المعاصرة، وهي مجال جديد من مجالات الدراسة التربوية، فرضته ضغوطُ القرن العشرين، وعلى وجه التحديد، النصف الثاني منه، على أساس «أنّ حياة الفرد لاتنتهي بتخرّجه من مدرسة ابتدائية أو إعدادية أو ثانوية، أو تخرّجه من كلية أو معهد، وإنما هي مستمرّة طالما هو على قيد الحياة»، وهي «تهدف بذلك إلى بناء فرد، لديه القابلية والقُدرة والاستعداد الدائم للتعلّم»[2]، بعد أن تنبّهت البلاد المتقدّمة ذاتُها إلى عدَم كفاية نُظُم التعليم التقليدية بها، وعجزها عن مسايرة خُطَى التقدّم الحضاريّ في مجتمعاتها، نتيجة للتقدّم التكنُولُوجيّ، «ومِنْ ثَمَّ لجأت إلى استحداث بعض النظُم التعليمية التي تتحلّل من نظام الفصول التقليديّ، كنظام التعليم بالمراسَلة، والتعليم بالراديو والتليفزيون»[3].

أي أن فلسفة التربية المستمّرة المعاصرة، تقوم على أساس (المصلَحة) وحدَها ـ مصلَحة الفرد، ومصلَحة المجتمع بمختلف مؤسّساته.

بينما فلسفة التربية المستمّرة في الإسلام، تقوم على أساسٍ يتّصل بوجود (الإنسان) أو عدَم وجوده ـ والمقصود (بالإنسان) هنا هو ذلك الإنسان الذي كرّمه ربُّه واستخلَفه، لا ذلك الإنسان (البَيُولُوجيّ)، الذي لاتعترف المدَنيّةَ الغربية إلا به، ولا تفكّر إلا فيه.

---

(1) ABU AL-FUTOUH AHMAD RADWAN : **Old and New Forces in Egyptian Education, Proposals for the Reconstruction of the Program of Egyptian Education, in the Light of Recent Cultural Trends;** Bureau of Publications, Teachers Collge, Columbia University, New-York, 1951, p.42.

(٢) دكتور أحمد حسين اللّقانيّ: «المنهج ومفهوم التربية المستمرّة» ـ الكتاب السنَويّ، في التربية وعِلم النفس ـ بأقلام نُخبة من أساتذة التربية وعِلم النفس ـ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ـ ١٩٧٥، ص ١٧٨.

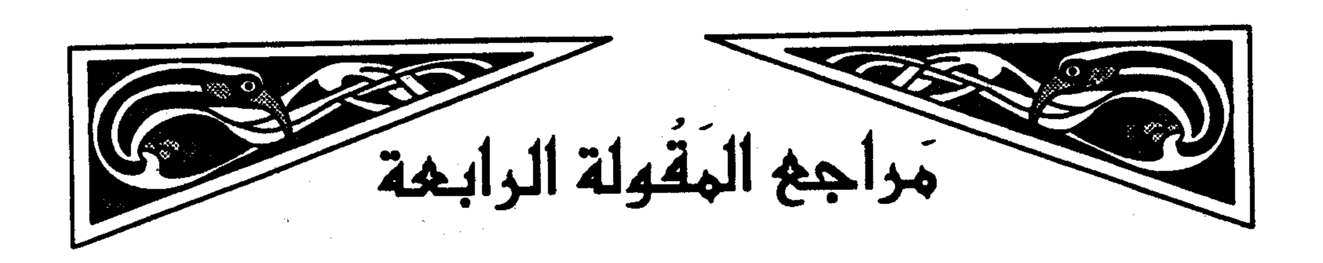
(٣) الدكتور محاسن رضا أحمد: «الجامعة المفتوحة، ونُظُم التعليم في البلاد العرَبية» ـ تعليم الجماهير ـ مجلة متخصّصة، تصدُر عن: الجهاز العرَبي لمحو الأمية وتعليم الكبار ـ المجلّد الأول ـ السنة الأولى ـ العدد ١ ـ القاهرة ـ سبتمبر ١٩٧٤، ص ٦٦.

ومِنْ ثَمَّ فالتربية المستمرّة المعاصِرة تستثيرُ الإنسانَ - إن هى استثارته - مِن الخارج فقط، أو مِن حاجاته البيولوجيَّة وحدَها، بينما التربية المستمرّة فى الإسلام، تستثيره مِن أعمق أعماق نفسه، فهى تستثير كِيانَهُ كُلَّه، ليحقّق (إنسانيته)، وينهَض برسالته.

ومِنْ ثَمَّ - أيضا - كانت التربية المستمرّة المعاصرة ثقيلة بطيئة الخُطَى، ضيِّقةَ الأُفُق، محدودة الوسائل، بينما كانت التربية المستمرّة الإسلامية، حبيبة إلى النفس، يسارع الإنسان إليها عن رِضا، تقرُّبا إلى الله، وكانت سريعة، شاملة، تتَّخذ لها كلّ وسيلة مُمْكِنة، يراها الإنسان المسلم، لينمّى بها نفسه بنفسِه.

ومع ذلك، فنحن - المسلمين - نتطلّع إلى الغرب المتقدّم، ننتظر منه مَالَمْ يصل إليه بعد، وعندنا نحن، وبين أيدينا، وبجُهد أقلّ، تُراثُنا الذى نستطيع أن نقدّمه إلى الغرب فى مجال التربية المستمرّة، فيستفيد به، ويوفر على نفسه سنوات طويلة وثقيلة مِن البحث والدراسة، قد يصل فيها - وقد لايصل - إلى ما وصل الإسلام إليه.

ولكنها سنوات الهوان الطويلة، التى فُرِضَتْ طوالَ قرون ستة على المسلمين، فخرجوا منها وهم مُحَطَّمُون، متطلّعون دائما إلى الغرب، وقد بهرتهم حضارتُه، فلم يروا إلا تلك الحضارة، ولكنهم رأوها مِن الظاهر، ولم يتعمَّقوا فيها - وبذلك ابتعَدُوا عنها ابتعادَهم عن الإسلام، الذى انصرفوا عنه، وكأنه صفحة مِن صفحات التاريخ طُوِيَتْ، ولا حياة لهم - إن أرادوا الحياة الحقّة - إلا بالعودة إليه، فى كلّ مَجال مِن مَجالات الحياة، لافى التربية، ولا التربية المستمرّة، وحدَها.



مَراجع المَقُولة الرابعة

(١) أحمد أمين : ظُهر الإسلام ـ الجُزء الأول ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٦.

(٢) دكتور أحمد حسين اللّقّانِيّ : «المنهج ومفهوم التربية المستمرّة» ـ الكِتاب السنوِيّ، فى التربية وعِلم النفس ـ بأقلام نُخْبَة مِن أساتذة التربية وعِلم النفس ـ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ـ ١٩٧٥.

(٣) الدكتور أحمد شَلَبِيّ : تاريخ التربية الإسلامية ـ دار الكَشّاف ـ بيروت ـ ١٩٥٤.

(٤) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام ـ مِن سلسلة (دراسات فى التربية) ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٨.

(٥) أسماء حَسَن فهمى : مبادئ التربية الإسلامية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٧.

(٦) البَهِيّ الخُولِي : الاشتراكية فى المجتمع الإسلامِيّ، بينَ النظرية والتطبيق ـ مكتبة وهبه ـ القاهرة (بدون تاريخ).

(٧) الدومييلّى : العِلم عند العَرَب، وأثره فى تطوُّر العِلم العالَمى ـ نقله إلى العَرَبية : الدكتور عبد الحليم النجّار، والدكتور محمد يوسف موسَى ـ قام بمراجعته على الأصل الفرنسِيّ : الدكتور حسين فوزى ـ جامعة الدول العربية ـ الإدارة الثقافية ـ الطبعة الأُولَى ـ دار القَلَم ـ القاهرة ـ ١٩٦٢.

(٨) الدكتور السّيّد أبو النجا : «القراءة مبدأ حِسَابِىّ» ـ لماذا نقرأ ؟ ـ لطائفة مِن المفكّرين ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة (بدون تاريخ).

(٩) «المعاهد العِلمية والاجتماعية فى الإسلام ـ مترجَمة عن (إسلاميك ريفيو)» ـ الرائد ـ مجلّة المعلّمين ـ السنة السادسة ـ العدد السابع ـ القاهرة ـ مارس ١٩٦١.

(١٠) بيوت الله، مَساجد ومَعابد ـ الجُزء الثانى ـ كتاب الشعب ـ رقم (٧٨) ـ مطابع الشعب ـ القاهرة ـ ١٩٦٠.

(١١) تفسير القرآن العظيم، للإمام الجليل، الحافظ عماد الدين أبى الفداء، إسماعيل بن كَثِير القُرَشِىّ الدمَشْقِىّ، المتوفَى سنة ٧٧٤هـ - الجُزء الرابع - ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨م (بدون ناشر).

(١٢) داتيس س.سميث : صناعة الكتاب، مِن المؤلِّف إلى الناشر إلى القارئ - ترجمة عصمت أبو المكارم وآخرين - تقديم الدكتور السّيد أبو النجا - المكتب المصرىّ الحديث - القاهرة - ١٩٧٠.

(١٣) دكتور سعد مُرْسِى أحمَد : التربية والتقدُّم - عالَم الكُتب - القاهرة - ١٩٧٠.

(١٤) دكتور سعيد عبد الفتّاح عاشور : المَدَنِيَّة الإسلامية، وأثرها فى الحضارة الأوروبية - الطبعة الأُولَى - دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٦٣.

(١٥) الدكتور سيّد أحمد عثمان : «المسئولية الاجتماعية فى الإسلام - دراسة نفسية» - الكِتاب السنَوِىّ، فى التربية وعِلم النفس - بأقلام نُخْبَة من أساتذة التربية وعِلم النفس - عالَم الكُتُب - القاهرة - ١٩٧٣.

(١٦) صحيح البُخَارِىّ - لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغِيرة بن بردِزبَه البُخَارِىّ الجُعْفِى - الجُزء الأول - دار ومطابع الشعب - القاهرة (بدون تاريخ).

(١٧) عبّاس محمود العقّاد : أثَر العرَب فى الحضارة الأوروبية - الطبعة الرابعة - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٥.

(١٨) عبّاس محمود العقّاد : التفكير فريضة إسلامية - الطبعة الأُولَى (المؤتمر الإسلامِىّ) - دار القَلَم - القاهرة (بدون تاريخ).

(١٩) عبد الرحمن النجّار : دعائم الدولة العصرية، العِلم .... والإيمان - وزارة الإعلام (هيئة الاستعلامات) - القاهرة (بدون تاريخ).

(٢٠) دكتور عبد الغَنى النورى، ودكتور عبد الغنى عَبُّود : نحوَ فلسفة عرَبية للتربية - الطبعة الأُولَى - دار الفِكر العرَبِىّ - القاهرة - ١٩٧٦.

(٢١) دكتور عبد الغنى عَبُّود : «الأيديولُوجْيا والتربية فى الإسلام» - الكِتاب السنوِىّ فى التربية وعِلم النفس - بأقلام نُخبة مِن أساتذة التربية وعِلم النفس - المجلد الثالث - دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة - ١٩٧٦.

(٢٢) الدكتور عبد الغنى عَبُّود : الأيديُولُوجْيا والتربية، مدخل لدراسة التربية المقارنة - الطبعة الأُولَى - دار الفِكر العرَبِىّ - القاهرة - ١٩٧٦.

(٢٣) الدكتور عبد الغنى عَبُّود : «الهِجرة المستمرّة إلى الله» - الهِجرة النبوية الشريفة -

هدية : منبَر الإسلام - يُصدِرها المجلِس الأعلَى للشئون الإسلامية - القاهرة - السنة ٣٣ - العدَد ١ - المحرَّم ١٣٩٥ - يناير ١٩٧٥.

(٢٤) عبد الله حسين : التعليم العرَبِيّ والجامِعِيّ - مطبعة التوفيق بمصر - القاهرة (بدون تاريخ).

(٢٥) عِزّ الدين عَبّاس : «التعليم فى الإسلام» - الرائد - مجلة المعلّمين - السنة السابعة - العدَد الخامس - مارس ١٩٦٢.

(٢٦) قرآن كريم.

(٢٧) لين بُول : آفاق العِلم - ترجمة الدكتور سيّد رمضان هَدّارة - مراجعة وتقديم الدكتور إبراهيم حِلمى عبد الرحمن - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٠.

(٢٨) الدكتورة مَحاسن رِضا أحمد : «الجامعة المفتوحة، ونُظُم التعليم فى البلاد العرَبية» - تعليم الجماهير - مجلّة متخصّصة، تصدُر عن : الجِهاز العرَبِيّ لمحو الأمية وتعليم الكبار - المجلّد الأول - السنة الأولَى - العدَد ١ - القاهرة - سبتمبر ١٩٧٤.

(٢٩) محمد عطيّة الأبراشى : التربية فى الإسلام - رقم (٢) مِن (دراسات فى الإسلام) - يُصدِرها المجلِس الأعلَى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف - القاهرة - ١٥ رمضان ١٣٨٠ - ٢ مارس ١٩٦١.

(٣٠) محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب : أوضَحُ التفاسير - الطبعة الخامسة - المكتبة التجارية الكُبرَى - القاهرة - شعبان ١٣٧٥ - مارس ١٩٥٦.

(٣١) الدكتور محمود حُبّ الله : «موقِف الإسلام مِن المعرِفة والتقدُّم الفكرِيّ» - الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة - مجموعة البحوث التى قُدِّمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية - جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة (بدون تاريخ).

(٣٢) الدكتور مُحيى الدين صابر : «علامات على الطريق : تعليم الكبار فى الإسلام» - تعليم الجماهير - مجلّة متخصّصة، تصدُر عن الجِهاز العرَبِيّ لمحو الأمية وتعليم الكبار - السنة الثانية - العدَد ٢ - القاهرة - يناير ١٩٧٥.

(٣٣) الدكتور مصطفَى السباعِيّ : اشتراكية الإسلام - دار ومطابع الشعب - القاهرة - ١٩٦٢.

(٣٤) مصطفى محمود : الماركسية والإسلام - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٧٥.

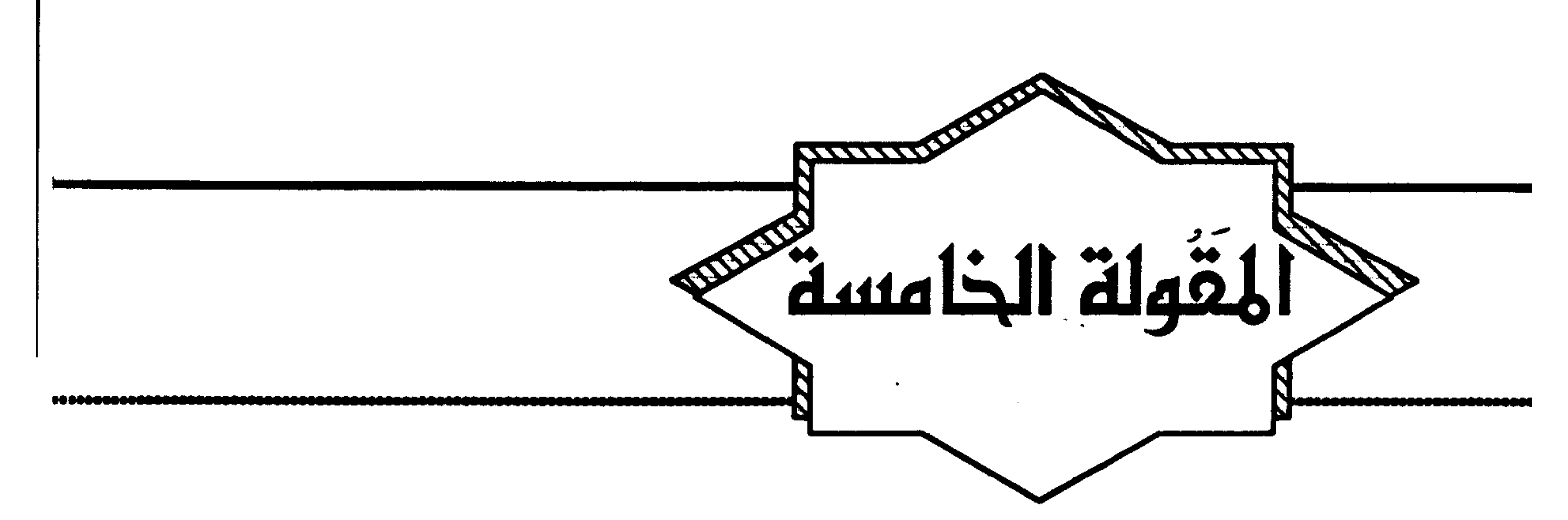
(٣٥) هـ. أ.ل. فِشَر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩ - ١٩٥٠) - تعريب أحمد نجيب هاشم، ووديع الضبع - (جمعية التاريخ الحديث) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٥٨.

(٣٦) الدكتور يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة وهبه ـ القاهرة ـ ١٩٧٣.

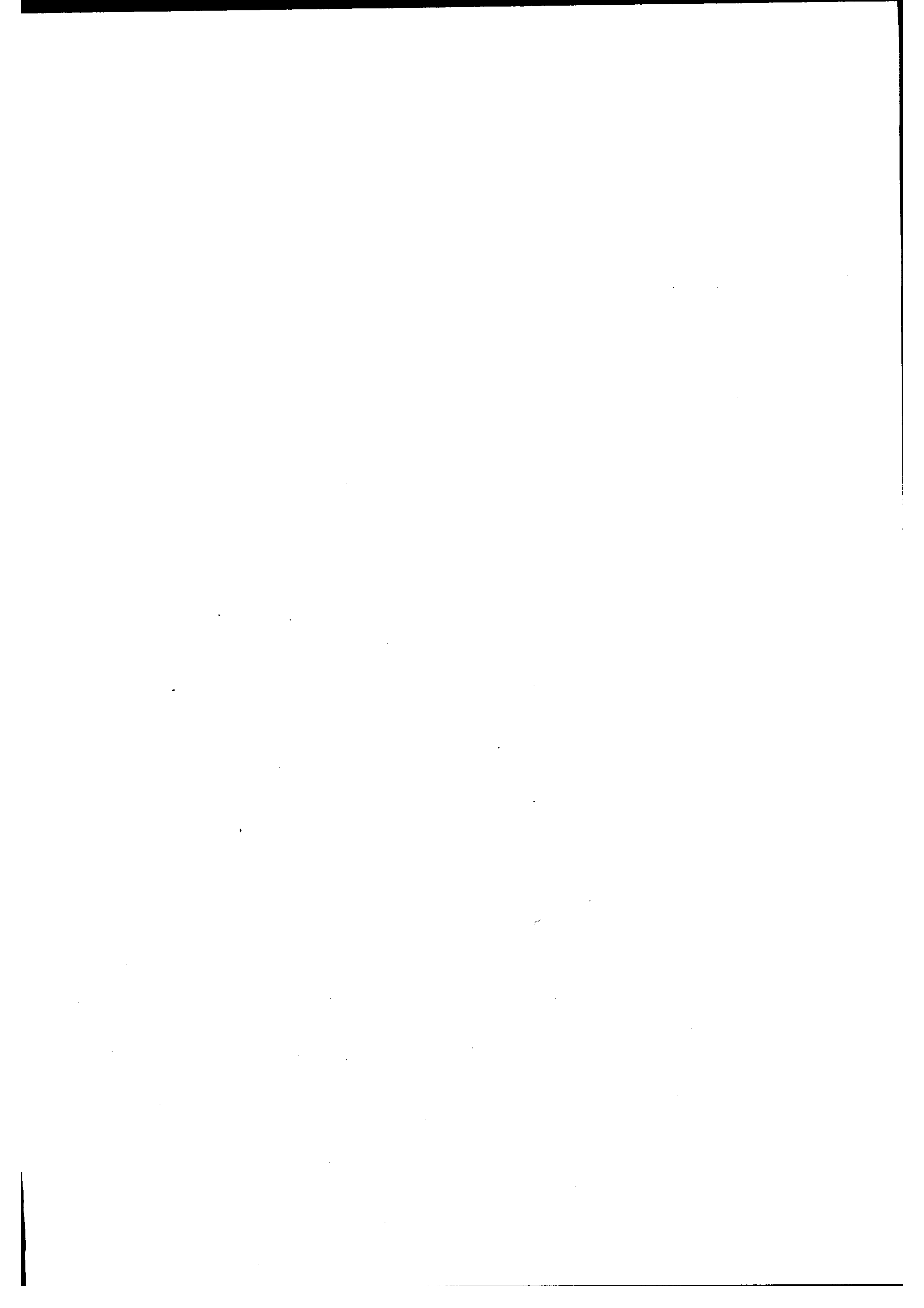
(37) ALI, ABDULLAH YOSUF : **The Hloy Qur-an, Text, Translation, And Commentary**, Volume Two; The Murray Printing Company, Cambridge, Massachusetts, New-York , 1946.

(38) GIBB, H.A.R. and J.H. KRAMERS. : **Shorter Encyclopaedia of Islam**; E.J. Birll, Leiden, 1953.

(39) RADWAN, ABU AL-FUTOH AHMAD : **Old and New Forces in Egyptian Education, Proposals For The Re-construction of The Program of Egyptian Education, In The Light of Recent Cultural Trends**; Bureau of Publications, Teachers College, Columbia Universty, New-York, 1951.



الواقِع .... والمستقبَل



أرَى أن نختِم المقَولات بهذه المقَولة، التى تنقل التربية الإسلامية كما هى فى إطارِها النظَرِىّ، وكما كانت فى العصور الإسلامية الأُولَى، إلى الواقع الحَىّ الذى يعيشه المسلمون اليوم.

والمقَولَةُ ذاتُ ثلاث شُعَب، تمهِّد الشعبة الأُولَى للواقع بمدخَل تاريخىّ، وتحلِّل الشعبة الثانية الواقع الثقافِىّ للتربية الإسلامية المعاصِرة، ثم تختَصُّ الشعبة الثالثة بتقديم خطوط عريضة لتربية عرَبية إسلامية معاصِرة، تناسب تُراثَنا الإسلامِىّ، وواقِعَنا الثقافِىّ، ومتغيِّرات العصر.

والمقَولة، بشُعَبِهَا الثلاث، هى الباب الثالث (الفصول السابع والثامن والتاسع) مِن كتاب (نَحْوَ فلسَفة عَرَبِيَّة للتربية)، الذى اشترك معى فى تأليفه الدكتور عبد الغنى النورىّ، ونشرته لنا دار الفِكْر العَرَبِىّ فى مطلع ١٩٧٦، وتحتلّ هذه المقَولة الصفحات مِن ٢٦٥ ـ ٣٥٩ مِن الكتاب. وقد أبقَيتُ على عناوين الفصول كما هى، ووضعت (أولا) مكان الفصل السابع، و(ثانيا) مكان الفصل الثامن، و(ثالثا) مكان الفصل التاسع، ثم أجريتُ تغييرا فى نظام المراجع، بما يناسب الانفصال عن الكِتاب الأصلِىّ، حيث كانت هناك مراجع كُتِبَ أمامها (مرجع سابق)، لأنها قد سبق ذِكرُها فى الكتاب الأصلِىّ، بينما هى ترِدُ فى المقَولة لأوّل مرّة، وهكذا.

ثم أنهيتُ المقَولة ـ كالمعتاد ـ بثبت للمراجع التى استُخدِمَت فيها.



أولا : مدخل تاريخيّ لفلسفة التربية الغربيّة

تقديم :

فى ضوء الدراسة النظرية أو الفلسفية، التى كان موضوعها البابان الأوّل والثانى عن (فلسفة التربية) عموماً، يصعُب الحديث عن (فلسفة التربية فى العالَم العربىّ)، دون تمهيد لها بالقُوَى أو العوامل الثقافية التى أثَّرت وتؤثِّر فيها، وذلك لأنها فلسفة تربوية وليدة لمجتمع مُعَيَّن، له ظروفُه الخاصّة، التى تختلف عن تلك الظروف التى تُحيط بمجتمعات أُخرَى، فى الشرق والغرب، معاصِرة لنا، اختلافَها عن تلك الظروف التى أحاطت بمجتمعات أُخرَى قديمة.

ويُعتَبر العامِل التاريخِىّ، مِن أخطر القُوَى أو العوامل الثقافية التى أثَّرت - وتؤثِّر - فى فلسَفة التربية وأهدافها ونظامها فى أىّ مجتمع مِن المجتمعات، (فالشخصية القومية)، التى تقف وراء فلسَفة التربية فى مجتمع مِن المجتمعات، لابُدَّ لها «أن تمتدّ بجذورها إلى الماضى السحيق، حتى ولو كانت هذه النظُم وليدة حُكومات ثورية، أقامَتها عن قصد، لتطوير وإصلاح النمَط الموروث للأمة أو الشعب، ذلك لأنّ التراثَ الماضِىَ للشعوب يصعُب التغلُّب أو القضاء عليه بسرعة، بل إن أشدَّ الحركات الثورية عُنفا، كان عليها أن تكيِّف مبادئها وأفكارَها الجديدة، للظروف التاريخية والحضارية القائمة. وعلى هذا، فإن النظُم القومية للتعليم تضرب بأغوارها فى الماضِى البعيد، وتصل ذلك بالحاضر والمستقبَل»(١).

ولذلك يرَى كانْدِل I.L. Kandel، أن كُلاًّ مِن التربية المقارنة (المهتمّة منهجيا بالكشف عن الشخصية القوميّة التى تقف وراءَ نُظُم التعليم)، وتاريخ التربية، يقوم «بالكشف عن القُوَى والعوامل الثقافية، التى تقف وراءَ نُظُم التعليم فى كُلّ مجتمع»(٢). وأنه - لذلك - «يمكن اعتبار التربية المقارنة، استمرارًا بتاريخ التربية إلى الوقت الحاضر»(٣).

---

(١) الدكتور محمد منير مرسى : الاتجاهات المعاصِرة فى التربية المقارنة - عالَم الكُتُب - القاهرة - ١٩٧٤، ص ٤٧.

(2) I.L. KANDEL : "The Study of Comparative Education" - EDUCATIONAL FORUM; Vol. XX, November 1955, p. 5.

(3) I.L. KANDEL : "The Methodology of Comparative Education" - INTERNATIONAL REVIEW OF EDUCATION; Vol. 3, 1959, p. 273.

وليس غريبا - لذلك - أن يعزو كازاميّاس وماسيالَس بقيّة القُوى الثقافية المؤثرة فى نُظُم التعليم، حتى ما يتّصل منها بالجانب الحضاريّ، إلى العامل التاريخىّ(1)، فالتاريخ فى نظرهما يشمل القُوى الثقافية الأخرى، ومن خلال هذه القُوى الثقافية التى شكّلها التاريخ، تبدو لنا (الشخصية القومية)، التى تؤثر فى نُظُم التعليم.

ومِنْ ثَمَّ يكون التمهيد بهذا المدخَل التاريخىّ - موضوع هذا الفصل - لفلسفة التعليم فى العالَم العرَبىّ المعاصر، أمراً ضرورياً، سواء لفهم القُوَى الثقافية المؤثّرة فى (الشخصية القومية العرَبية المعاصرة)، وسواء لفهم فلسفة التربية - أو فلسفاتها - فى العالَم العرَبىّ المعاصر.

وقد مرَّ العالَم العرَبىّ المعاصر بفترات - أو تراكُمات - تاريخية عديدة، كان لها على نحو من الأنحاء أثرُها فى (شخصيته القومية)، وفى فلسفته التربوية، ومِنْ ثَمَّ كان لابُدَّ مِن العَرْض التاريخىّ لتطوُّر فلسفة التربية العربية، مِن خلال هذه الفترات.

فلسَفة التربية فى العالَم العرَبىّ قبلَ الإسلام :

كانت المنطقة العرَبية - بوضْعِها الراهن - ممزَّقة قبل الإسلام، بينَ إمبراطوريّتَىْ الفُرْس والرومان، أكبر إمبراطوريّتين فى ذلك الوقت، وتمكّن الإسلام مِن تحطيم دعائمهما بعدَ ظهوره بسنوات قليلة.

أما الجزيرة العرَبية، مهبط الرسالة الإسلامية، فقد كانت تعيش فى ذلك الوقت بمنأًى عن ذلك الصراع بين الإمبراطوريّتين، فلم يكن فيها - فى ذلك الوقت - ما يُغرِى بأن تضمّها تلك الإمبراطورية أو تلك، وإنما كان يكفِى كُلَّ واحدة منهما، أن تتّقِىَ شرَّ (الأعراب) المهاجِمين لأطرافها، ومِنْ أجل ذلك أُقِيمَت إمارةُ

(1) ANDERAS M. KAZAMIAS, and BYRON G. MASSIALAS : Tradition and Change in Education, A Comparative Study, (Foundation of Education Series); Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, N. J., 1965, p. 32.

(المَنَاذِرَة) العَرَبية، على الحدود العَرَبية الفارسية، وإمارة (الغَسَاسِنَة) العَرَبية، على الحدود العَرَبية الرومانية، لتكون كُلٌّ منهما بمثابة (منطِقة عازلة) بين الأعراب، وبقيّة أنحاء الإمبراطورية.

ورغمَ ذلك، كانت الرحلات التجارية لا تنقطع بين أعراب البادية والإمبراطوريّتين، ولعل أشهر هذه الرحلات، هى رحلات الشتاء والصيف، التى أشارَ إليها القرآن الكريم بقوله سبحانه :

- ﴿لإيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ، وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[1].

وكانت فلسفة التربية فى البلاد التى صارت بعدَ الإسلام عرَبية، تختلف من بلَد عربىّ إلى آخَر، حسبَ الظروف الخاصّة بكل بلد، والإمبراطورية التى تسيطر عليه. أما فى الجزيرة العربية ذاتِها، فقد كان الأمرُ مختلفاً. لقد كان عرَب الجزيرة العرَبية على اتصال بهذه البلاد جميعاً، فقد كان المجتمع العرَبىّ الجاهلِىّ مجتمعاً (مفتوحاً)، بُنِىَ «مِن الناحية الاقتصادية والاجتماعية على تبادُل المنافع مع العالَم الخارجىّ إلى أبعد حَدّ»[2]، ومِنْ ثَمَّ فقد تأثَّر أبناؤه - عن طريق التجارة - بما فى هذه المجتمعات العرَبية - فى ذلك الوقت - مِن ثقافات وفلسفات.

ولعلَّ ذلك هو السبَبُ الذى مِن أجلِه ذهب بعضُ الدارسين، إلى أنَّ العرَب الجاهليّين كانوا أساتذة العالَمِ فى الحضارة، وعنهم أخذ الإغريقُ بعدَ ذلك، «فلم تكن هناك صِناعة مِن صناعات السّلْم، لم يتتلمَذ فيها الإغريق، على أُمّة مِن سلالة الجزيرة العرَبية، أو لم يكونوا فيها لاحقين على أثَر سابقين».

«وخُلاصَةُ ما تَقَدَّم، أن الأوربيّين تتلمَذُوا على أبناء الجزيرة العرَبية فى مسائل العقيدة، ومسائل الحضارة والمعيشة اليومية، قبل أن تأخُذَ أورَبّة مبلَغَ المعلِّم لغيرِه فى أمر مِن الأمور»، و«أنه مهما يكُن الظنّ بالابتكار فى أطواره

---

(١) قرآن كريم : سورة قُريش - ١٠٦ : ١ - ٤.

(٢) الدكتور أحمد سُويلم العمرى : بحوث فى المجتمَع العرَبىّ - مِن سلسلة (دراسات سياسية) - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٠، ص ٨٨.

الأُولَى، فالطابَع الساميّ ظاهِرٌ على أوَّلِ ما اقتبسه الأوربيّون مِن دروس الفَلَك والكتابة والحِكْمَة الروَاقيَّة، وبعض أسباب التجارة والملاحة والعِمارة»[1].

ويَغْلِبُ على الظنّ، أن فلسفة التربية فى الجزيرة العرَبية - على نحو ما سنَرَى - كانت ذاتَ تأثير أيضاً على فلسفات التربية فى العالَم الذى احتَكَّ به العرَب، وعن عرَب الجزيرة العرَبية أخذَ الإغريقُ بعدَ ذلك فلسفَتهم التربوية أيضاً، أو تأثَّروا بها على الأقلّ.

وإذا كانت فلسفة التربية فى أىّ مجتمع تُسْتَمَدُّ مِن فلسفة المجتمع، فقد كان المجتمع العرَبىّ الجاهِلىّ مجتمعاً (قَبَلِيّاً)، يقوم على التنافُس والصراع بين القبائل، ويقوم على التعصُّب القَبَلِىّ، وفى إطار القبيلة (تذُوب) شخصيات الأفراد - كُلّ الأفراد، وفى إطار مصلَحتها، تذوب المصالح الفردية.

كما كان هذا المجتمع - على قَدْرِ انفتاحِه - مُغْلَقاً على نفسِه فكرياً، فقد كان يقوم على التعصُّب الجِنْسىّ، فكلّ قبيلة تؤمن بأنها خَيْرُ القبائل، وبأنها خُلِقَتْ لتسود وتحكُم وتسيطر، ومِن أجل ذلك كانت الحروب تشتعل لأتْفَهِ الأسباب، وكان بَدْءُ الحرب سهلاً، أما وَضْعُ حَدّ لها، فقد كان صعباً صعباً.

وبسبَب الحروب واستمرارها، وُجِدَت مشكلة (العبيد) وشاعت.

ولم يعدَم مثل هذا المجتمع الجاهِلىّ مفكّرين وثُوَّارا، يدعُون إلى السلام، وينبذون حياة الجاهلية تلك، لعلّ مِن أشهرِهم الشاعر الجاهِلىّ (زُهَيْر بن أبى سلْمَى)، الذى عاصَرَ حربَ (دَاحِس والغَبْراء)، بين قبيلتى عبس وذُبْيَان، وهما أبناء عُمُومة، وقد دامت هذه الحرب أربعين عاماً، وتمزَّقت فيها كُلُّ أواصر القَرَابة وروابط المحبّة بين الأهل، لأتْفَهِ الأسباب.

وفى إطار هذا المجتمع العرَبىّ القَبَلِىّ الجاهِلىّ، المُنْفَتِح مِن جانب، والمُنْغَلِق مِن جانب آخَر، «عُرِفَتْ حُرِّيَّة البَدَاوة على أتَمّها قبلَ الإسلام، ولكنها الحُرِّيَّة التى

---

(1) عباس محمود العقاد: أثر العرب فى الحضارة الأوربية - الطبعة الرابعة - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٥، ص ٢٦، ٢٧.

لاتصدُر عن مبدأ، ولاعن فكرة، ولا عن تعريفات الحقوق الإنسانية، وهى حُرِّيَّةٌ واقعيةٌ غيرُ الحُرِّيَّةِ الديمقراطية»[1] التى نعرفها نحن اليوم.

وإلى جانب هذه الحُرِّيَّات، عرَفت الجزيرة العرَبية «قبل الإسلام ضروبا مِن الطغيان والاستبداد، لاتقلّ عن ضُروبه المشهورة التى عُرِفت فى الشعوب الأُخرَى»[2].

وهو امر قريب مِمَّا كان موجوداً فى بلاد اليونان القديمة، حيث اجتمعت أثينا واسْبَرْطَه، على ما بينهما مِن تناقض أيديُولُوجِىّ، تحت سَماء واحدة.

ومِنْ ثَمَّ دارت فلسفة التربية فى الجزيرة العرَبية - قبلَ الإسلام - حولَ هذا الإطار الأيديُولُوجِىّ - الفردِىّ الاجتماعِىّ، فكان الفرد حُرًّا إلى ابعَدِ حُدود الحُرِّيَّة، على ان تكون حُرِّيَّتُه هذه فى إطار اجتماعِىّ - أى فى إطار مصلحة القبيلة وأهدافها وآمالها، لاتتعدَّاها.

فلم تكن تلك الحُرِّيَّة فيها فوضَى كحُرِّيَّة أثِينا، ولم يكن الحُكْمُ فيها - إلَّا فيما نَدَرَ - استبدادياً كالحُكمِ فى اسبَرْطَة، وإنماكان وَسَطا بين النقيضين، وإن مالَ فى عُمومه إلى الحُرِّيَّة الأثِينيَّة، وقَلَّما مَالَ إلى الاستبداد الاسْبَرْطِىّ.

ولم تكن هناك مَدارس فى الجزيرة العرَبية قبل الإسلام، كما لم يكن هناك تعليم نظامِىّ على نحو مِن الأنحاء، وذلك لأن هذا التعليم النظامِىّ لايتَّفق مع طبيعة التنقّل والترحال، اللذين فُرِضَا على العرَب الجاهليِّين. ولذلك كانت الأُمِّيَّة منتشرة فى الجزيرة العرَبية قبلَ الإسلام.

وكل الدلائل تُشير إلى انه «لم تكن فى بلاد العرَب كتاتيبُ منتشِرة، يذهَب إليها الصبيان، وأن الذين عرفوا القراءة والكتابة، هم بِضْعَةُ نَفَرٍ مِن الطبَقة الرفيعة، تعلَّموا الكتابة بحُكْمِ صِلَتهم بغيرهم مِن الدول المُجاوِرَة، كالفُرْس والروم، ولحاجتهم فى التجارة، وذلك فى مَكاتب، مُعْظَمُ الروايات تدلّ على انها كانت لليَهُود»[3].

---

(1) عبّاس محمود العقّاد: الديمقراطية فى الإسلام - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٧١، ص ٢٨.
(2) المرجع السابق، ص ٢٩.
(3) الدكتور احمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام - مِن سلسلة (دراسات فى التربية) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٨، ص ٧٧.

كانت التربية العَرَبية الجاهلية إذَنْ تربية عَمَلية، تتمّ فى المنزل وفى المجتمع - مجتمَعِ القبيلة، هدَفُها تطبيعُ الصغار بالطابَع الاجتماعِىّ، وإكسابهم المهارات المختَلِفة، العِلْمية والعَمَلية، الموجودة لدَى هؤلاء الكبار.

كان الابن يلازم أباه، ويتعلّم منه الصيد والركوب وفنون القَتْل والقِتَال، وكانت البنتُ تلازم أمَّها، وتتعلّم منها أعمالَ المنزِل ومعاملة الرجال، وأخلاقِيّات الحياة بالنسبة للمرأة - بنتا وزوجة وأُمّاً.

أما العبيد، فكانوا يُنَشَّأوُنَ نفسَ التنشئةِ الاجتماعية، فيتعلّمون - أولاداً وبنات - كيف يُطِيعون السادة، ويَرْعَوْن قُطعانهم، وينفّذون أوامرهم، فلم يُخْلَق العبيدُ فى هذا المجتمع للحرب، وإنما خُلِقُوا لِخِدمة السادة ورَعْيِ القطعان.

ولم يكن الوضع هكذا فى غير الجزيرة العَرَبية - فى مصر والشام والعراق، حيث كان الرومان والفرس - كما سبَق. ولنضرِب على ذلك مَثَلا مِن مصر، وما يُقال عن مصر يمكن أن يُقال بشكل أو بآخَر عن البلاد الأُخرَى، التى كانت واقعة تحتَ تأثير الإمبراطوريّتين.

وصلت مِصر الفرعونية إلى دَرَجة كبيرة مِن التقدُّم والازدهار، كما سبَق فى مواضع مختلِفة مِن الفصول السابقة، انعكَسَ على التربية بها، وفلسفة هذه التربية.

وقبلَ ظهور المسيحية، يبدأ عصر سيادة الثقافة الإغريقية فى مصر، «بدخول البطالِسَة مِصرَ سنة ٣٢٣ق.م، وينتهِى سنة ٣١١م، أىْ نحوَ أوائل القرن الرابع الميلادِىّ، وبَدْءِ عصر الاعتراف بالمسيحية كدين رسمِىّ مِن أديان الدَولة». وقد «تميّزت بأنّ الأغريقية فيها كانت لغةَ الدولة الرسمية، ولغةَ الصلاة والتأليف، ولغةَ التفاهُم بين الطبقات الراقية مِن المصريين»(١).

وفى هذه الفترة، نلاحظ أن التربية كانت تسير «على خَطّ مزدوج :

(١) سُليمان نَسيم : تاريخ التربية القِبْطية - بإشراف دكتور أبو الفُتوح رضْوان - تقديم دكتور باقُور لَبيب - دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع - القاهرة - ١٩٦٣، ص ٦٩، ٧٠.

(أ) الخطّ الأوَّل : خطّ التربية القَوْميَّة.

(ب) الخطّ الثانِى : خطّ التربية الإغْرِيقيَّة.

وكان هذا الازدواجُ فى خطّ التربية، نتيجةً حتميَّة للازدواج فى الثقافة. فقد جاء الإغْرِيقُ إلى مصر، وجاءوا معهم بثقافتهم المتميّزة، ليفرضوها على المصريِّين، فأقاموا مُدُناً، وأنشأوا أحياء خاصَّة بهم، وأسَّسُوا المدارس والأكاديميَّات، ثم شَجَّعوا الإغريقَ على الهجرة إلى مصر، وبذلوا الكثير فى سبيل ضَمِّ المصريِّين إليهم، فأغدَقُوا عطاياهم وامتيازاتهم على العائلات والأفراد المُتَأغْرِقين، فكان طبيعياً أن تَقْوَى شوكةُ ثقافتهم، وتنتَشِرَ لُغَتُهم.

«ولم يتغيَّر الوضعُ بعدَ دخول الرومان سنة ٣٠ق.م، فقد بَقِىَ المصريُّون على مَوْقِفِهم، وكانت الحضارة الإغريقيّة قد أخذَت فى الضعف والأُفُول، لولا اتجاهُ روما إلى دراستها، ودراسة أصول آدابها وفنونها، مِمَّا أجَّلَ انكماشَ نُفُوذِها وسيادتها»[1].

وهكذا ظَلَّ هذا الازدِوَاجُ، الذى وصل إلى حَدِّ الصراع، فى التربية المصرية وفلسفتها قبل الإسلام- بين الأهداف الأجنبية الاستعمارية الواردة، والأهداف القومية - حتى جاء الإسلام، فأخذ «الأقْبَاطُ يُقْبِلون على الإسلام، وتعلُّم العَرَبية، فكان هذا التحوُّل للإسلامِ والاستعرابِ حاسما فى تاريخ مصر، بدأَتْ به فترةً جديدة، تختلف فى طابَعها عن الطابَع الفرعونىّ والمسيحِىّ السابق». «وكان تحوُّل المصريين إلى الإسلام هادئاً، ولم يتبَعه تضحيات واستشهاد، كما حدَث عندَ اعتناق المسيحيّة. كذلك كان دخول المصريِّين فى الإسلام أسرَعَ مِن دخولهم فى المسيحية، بحيث أنَّ مصر كانت مِن أكثر الأقاليم التى فتحها العَرَبُ إقبالا على اعتناق الإسلام. وصَحِبَ جيشَ الفتح العربىّ عَدَدٌ مِن الصحابة والتابعين، كانوا هم النُّوَاةَ الأُولَى للدراسات الإسلامية التى عُرِفَت فى مصر»[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٢.

(٢) دكتور سَعيد إسماعيل عَلِىّ : الأزهَر على مسرَح السياسة المصرية، دراسة فى تطوُّر العلاقة بين التربية والسياسة - دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة - ١٩٧٤، ص ٥٠، ٥١.

أىْ أنَّ فلسفة التربية فى الجزيرة العرَبية قبلَ الإسلام، كانت ذاتَ طابَع واحد، هو تدعيم فَرْدية الفرد فى إطار الجماعة (القبيلة)، والاعتماد على الكبار عموماً فى هذه التربية، بينما كانت فلسفة التربية فى البلاد التى صارت بعدَ الإسلام عرَبية، ذاتَ طابع مزدوج، أحَدُهما قَوْمِىٌّ أصيل، هدَفه المحافظة على الثقافة القومية، والثانى دخيل وارد مع قُوَّات الفاتحين الفُرْس واليونانيّين والرومان، هدَفُه إذابةُ كُلّ إقليم فى الشخصية القومية للدولة المستعمِرة الفاتحة.

وظَلَّ هذا الصراع بين الفلسفتين منعَكِساً على التربية، حتى ظهور الإسلام، وفُتِحَتْ هذه البلادُ، فزَالَ الصراع، وذابت الثقافات كُلّها فى بَوْتَقَة الثقافة الأُمّ ـ الثقافة الإسلامية.

فلسَفة التربية العرَبية بعدَ الإسلام :

وَسْطَ خليط عجيب مُتناقِض مِن الأفكار عن الذات الإلهية، ظَهَرَ الإسلامُ فى الجزيرة العرَبية فى القرن السادس الميلادِىّ، وكان هَمُّهُ الأوّل هو إظهار هذه الذات الإلهية كما يجب أن تَظْهَر وتستقرّ فى النفس البشرية، لتدور مِن حولها ـ كنُواة ـ بعدَ ذلك ـ فِكرة الإسلام عن الفرد، وفِكرته عن المجتمع، ثم لتظهَر ـ بعدَ ذلك ـ الأيديولُوجْيا الإسلامية مُتكامِلة، بعدَ سنوات قليلة مِن ظهور الإسلام، وليبدأ أكْبَرُ انقلاب فى (مَوَازِينِ القُوَى) فى العالَم بعدَ ذلك، قُوِّضَت به دعائمُ اكبَرِ إمبراطُورِيّتين فى ذلك الوقت، وهما إمبراطوريّتا الفُرس والروم، وأُقِيمَت على أنقاضهما دولةٌ جديدة فَتِيَّة، هى دولة الإسلام، المُقامَة على العدل والخير والحقّ وكرامة الإنسان، لا على البطش والكَبْت والإرهاب، كما تعوَّدت الدُّوَلُ الفاتحة أن تَقُوم.

كان عرَب الجزيرة العرَبِيّة يعبُدُون الأوثان، وكان لكُلّ قبيلة صَنَمُها، الذى تتوجّهُ إليه صباحَ مساء، لقضاء الحاجات الفردية، وحاجات القبيلة كُلّها. وبجانبِ عبادة الأوثان، كانت هناك عبادة النارالفارسية، والمَجُوسِيّة.

وبجانب هذه الديانات أو العقائد الوثَنِيّة، كانت هناك عقائد أُخرَى دينيّة : يهودِيّة ومسيحِيّة.

ويرَى المرحوم عَبّاس محمود العقّاد، أنه قد «مضَى على مولِد السيِّد المسيح، نحو ستّة قرون قبلَ ظهور الإسلام، تشعّبَت فى خلالِها المذاهب المسيحية، بين قائل بطبيعة واحدة للسيّد المسيح، وقائل بطبيعتين اثنتين، هما : الإنسانية والإلهية. وبين مؤلّه للسيدة مريم، ومُنْكِر لهذا التأليه».

«فلمّا ظَهَرَ الإسلامُ فى الجزيرة العَرَبيّة، كان عليه أنْ يُصَحِّحَ أفكاراً كثيرة، لافِكرة واحدة، عن الذات الإلهية، وكانَ عليه أن يجرّد الفِكرة الإلهية مِن أخلاطٍ شتّى مِن بقايا العبادات الأُولَى، وزيادات المتنازعين على تأْوِيلِ الديانات الكِتَابيّة»(١).

حتى الديانات السماوية ـ قبلَ الإسلام ـ كانت قد دَخَلَهَا الخَلْطُ حولَ الذات الإلهية، ومِنْ ثَمَّ كان ظهورُ الإسلام ضرورة لتصحيح الفِكرة عن الذات الإلهية، فإذا صَحَّت تلك الفِكرة، سارت الحياة كُلُّها كَمَا أرادها خالقُ الكون ـ فى طريق الحقّ والخير والعدل.

وقد رأينا ـ عِندَ حديثنا عن (الأصول النفسية للتربية فى الإسلام) فى الفصل الرابع(٢) ـ كيف صُحِّحَت هذه الفِكرة، فأتت كاملة متكامِلة، وحولَها انتظمت فِكرة الإنسان وفِكرة الكون كُلّه، بحيث صار الإنسان خليفة لِلّه فى الأرض، إن هو سار فى طريق اللّه الذى رسمه له، واجتَنَبَ طريقَ الشيطان، الذى أخرج أبويه مِن الجَنّة.

كما رأينا ـ عندَ الحديث عن (الطبيعة الإنسانية وانعكاساتها التربوية) فى الفصل الثالث(٣) ـ أنَّ الطبيعة الإنسانية فيها إمكانيات الخير والشرّ معا، وأنَّ الإنسانَ ـ بطبيعته ـ مُزوَّد بكُلّ مِن هذه الإمكانيّات وتلك.

ورسالةُ الإنسان ـ فى الإسلام ـ رسالة حَضَارية، وتحضيرية تعميرية، وهو ـ بهذه الرسالة وحدَها، وبِمَا حَبَاهُ اللهُ مِن عقل ـ يكون قادرا على أن يكون ـ بحقّ ـ خليفة لِلّه فى الأرض :

---

(١) عبّاس محمود العقّاد : الله ـ مطابع الأهرام التجارية ـ القاهرة ـ ١٩٧٣، ص ١٣٢، ١٣٣.

(٢) ارجع إلى ص ١٥٢ ـ ١٥٧ مِن الكِتاب الأصْلِيّ.

(٣) ارجع إلى ص ٩٦، ٩٧ مِن الكِتاب الأصْلِيّ.

- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً، فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(١).

- ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا، وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢).

- ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾(٣).

وفي ضوء هذه الفلسفة الإسلامية - الفردية الجماعية الاجتماعية، التي تحترم الفردَ ذاته، وترفَعُه إلى درجة مِن القُدسية لم يصل إليها مِن قبل، وتعتبره مسئولا عن الجماعة كلّها، مسئوليةَ الجماعةِ كُلّها عنه - تَطوَّرت فلسفةُ التربية الإسلامية بعدَ ظهور الإسلام.

«ولم يكن ضَعْفًا في القرآن، انه لم يحدّد منهَجا سياسيًا، ولم يرسم دستوراً مُحدّداً، وإنما كان ذلك احدَ آيَاتِ قُوَّته وإعجازه. فقد اراد اللهُ أن يفتح سبيلَ الاجتهاد، والأخذ بالعلوم، واستنباط المناهج والأحكام، مِن الظروف المتغيّرة، دونَ تكبيل بمنهَج سماوِيّ جامد محدّد، واكتفَى القرآن في موضوع السياسة والحُكم، بإصدار توصيات عامّة، لها صِفَةُ الأزليّة وعدم التغيُّر عَبْرَ العصور ... وقال إنَّ هذه التوصيات يكون بها الحُكْمُ مثاليًا.

ماذا كانت التوصيات ....

أولا : حُرّيّة الفرد وكرامته وأمْنُه.

والفرد في الإسلام هو أمّة، بل عالَمٌ باسرِه، بل الإنسانيةُ كُلُّها في قِيمَتِه».

---

(١) قرآن كريم : سُورة المُلك - ٦٧ : ١٥.
(٢) قرآن كريم : سُورة النَّحل - ١٦ : ١٤.
(٣) قرآن كريم : سُورة المائدة - ٥ : ٨٨.

«فشَـرطُ الحُكْمِ الأَمْثَل أن يحتَرِم حُرِّيَّة الفرد وأَمْنَه وسـلامته، وألاّ يضحَّىَ به مِن أجل إصلاح مادّىّ، مهما بلغَ ذلك الإصلاح.

أما الشرطُ الثانِى - فهو العَدالة الاجتماعية».

«وإذا بات فردٌ جائعا، فالأُمَّة كُلُّها مسئولة».

«أما الشرطُ الثـالث - فى الحُكْم الأَمْثَل - فهو الشُّـورَى، والشُّورَى تكون مِن الحاكم للصَّـفْوَة مِن أَهْلِ الرأى، لاينفرِدُ بالسلطة ولايتجبَّر»[1].

ولايسـتطيع الإنسـان - فى الإسـلام - أن يقـوم بمسئـوليّته المتشعّبة هذه، نحوَ نفسه، ونحوَ مجتمعه الذى يعيش فيه، إلا إذا سار فى طريق (العِلم)، الذى به يصقُل (عقلَه)، الذى به تستقيم حياته كإنسان مكرَّم عند الله، ويجب أن يكون مُكَرَّمـا عندَ النـاس، والذى به يسـتطيع أن يقـوم - كمـا أراد له رَبُّه - برسـالته الحضـارية، والتحضـير التعـميرية، فيميّز بينَ الخير والشـرّ، ويعرِفَ الطريق إلى صيانة كرامته، ورفع شأن مجتمعه، ويساهم فى إرساء دعائم العدل والخير به.

ومِنْ ثَمّ كـانت أُولىَ آيات القرآن التى تَنَزَّل بها الوَحْىُ على قلبه (ﷺ) أمراً بالقراءة، كما رأينا عندَ حديثنا عن (الأصـول النفسـية للتربية) فى الإسـلام فى الفصل الرابع[2].

والقراءة - كما يقولون - هى مِفتاحُ باب المعرِفة.

والقراءة التى أمَرَ بها الإسلام - والعِلم والمعرِفة الناتجان عنها - هى وحدَها التى تضمَن التحرُّر الحقيقىّ للإنسان، لأنَّ الإنسان يتحرَّر مِن الداخل - مِن داخل نفسِه - قبل أن يتحرَّر بِحُكْم القوانين التى (تُفْرَض عليه) مِن خارج نفسِه.

وكَمْ مِن أحرارٍ يعيشـون بينَ قُضبـان السـجون، وكم مِنْ عبيد - للمال أو للسلطان - يتحرَّكون بيننا كُلَّ لحظة مِن لحظات الليل والنهار، يملَئُون الدنيا مِن حولِهم ضجيجـا، وتتطلَّع الرقابُ إليهم إعجابا، وتَنْحَنِى الرءوس لهم احتـرامـا، وتُسَلَّطُ عليهم الأضواءُ مِن كُلّ مكان.

(١) مصطفى محمود: الماركسية والإسلام - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٧٥، ص ١٨ - ٢١.

(٢) ارجع إلى ص ١٥٣ - ١٥٦ مِن الكِتاب الأَصْلِىّ.

وكـان الأمـرُ بالقـراءة، وبالسـيـر فى طريـق العِلـم والمعـرفـة، بأوْسَع مفهوماتهما ـ هما المِحْوَر الذى دارت حولَه فلسفة التربية الإسلامية.

ومِن ثَمَّ كان هذا العِلم وتلك المعرِفة امرين متَّصلين (بحاجة) الإنسان المسلم، وهذه الحاجة (حاجة فردية)، تتَّصل به كإنسان،لارِفْعَةَ له ولا تَحرُّرَ بدون العِلم، كما أنها (حاجة) جماعية، تتَّصل به كعُضو فى جماعة، عليه نحوَها واجب، لابدَّ أن يقوم به.

ومِنْ ثَمَّ كان مفهوم العِلم فى الإسلام «هو العِلم بمفهومه الشامل، الذى ينتَظِم كُلَّ ما يتَّصل بالحياة، ولايقتَصِر على عِلم الشريعة أو العِلم الدينِىّ، كما يتبادَر إلى بعض الأذهان، أو ما ذاع فى عهود التخلُّف عن القرآن، فقد دعا إلى النظَر فى ظواهر الوجود ومظاهر الحياة»، و«جعل مِن الكون كِتاباً للمعرِفة، ووَجَّه القلوبَ والعقول والأبصار إلى بدائع صُنْع الله فيه، ودعا إلى التفكُّر فى آياته، واستِكْناهِ أسراره، وفهم نُظُمه ونواميسه، ففتَح بهذا العَرْضِ والتوجيه بابَ العِلم، وحَرَّر العقول والتفكير مِن أَسْرِ الجُمود والجهل، وأغرَى بالبحث والدراسة والعِلم»[1].

ومِنْ ثَمَّ ـ أيضا ـ كان العُلماء ـ فى الإسلام ـ هم «ورَثة الأنبياء»، وكان «مَنْ سَلَكَ طريقا يطلُب به عِلماً، سهَّلَ اللهُ له طريقا إلى الجنّة»[2] ـ على حَدّ تعبير الرسول الكريم.

وصحيحٌ أن (عِلمَ الدين) يُعتَبر ـ فى الإسلام ـ أشرَفَ العلوم على الإطلاق، وذلك «لاتّصاله بتصحيح العبادات والمعاملات، مِمَّا يؤدّى إلى الاستقامة فى الحياة الدنيا، والنجاة فى الآخِرة»، ولذلك «يُطْلَبُ تعَلُّمه وُجوباً مِن كُلّ فَرْد مُكَلَّف، ولايُعذَر أحدٌ فى الجهلِ به»[3].

ولكنَّ العِلْم فى الإسلام لايقتَصِر على (عِلم الدين) وحدَه، رَغْمَ شَرَفِه

---

(١) محمد شديد : منهَج القرآن فى التربية ـ مكتبة الأنلب ومطبعتها بالجَمَامِيز ـ القاهرة، ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

(٢) صحيح البُخَارِىّ، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبّه البُخَارِىّ الجَعْفِىّ ـ الجزء الأوّل ـ دار ومطابع الشعب ـ القاهرة، ص ٢٦ ، ٢٧.

(٣) الدكتور مصطفى السباعى : اشتراكية الإسلام ـ دار ومطابع الشعب ـ القاهرة ـ ١٩٦٢، ص [illegible].

ووجـوبه على كُلّ مُسلِم ومُسلِمة، وإنما هو يتعدّاه إلى (عِلم الدنيا) أيضاً، لأنّ المسلم ـ بهذا العِلم ـ يستطيع أن يقوم برسالته التحضيرية ـ كما سبق.

وهذا العِلم ـ في الإسلام ـ لايَتوَصّل إليه الفرد المُسلِم ـ والمجتمع المُسلِم ـ بدون تربية، ومِنْ ثَمّ كانت التربية مِن الأهداف الأُولىَ التى سعىَ إليها الإسلام، على أساس أنها الطريق إلى ذلك التغيير الأيديُولُوجيّ الهائل، الذى أحدَثَه فى نفوس (أعراب) مَكّة والمدينة، ثم أعراب الجزيرة العرَبية كلّها، ومِن خلال ذلك التغيير تَكَوّنت دولة الإسلام، بعدَ سنَوات قصيرة مِن ظهور الإسلام.

وكانت أُولىَ المؤسّسات التربوية التى ظهرت فى الإسلام هى (دارُ الأرقَم بن أبِى الأرقَم) فى مَكّة، التى فَتَحت أبوابَها سِرّاً فى أيام الإسلام الأُولىَ، لمن آمنوا بالرسالة والرسول، وسطَ إرهاب زُعَماء مَكّة.

وعندما هاجَر المسلمون مِن مكّة إلى المدينة، فُتِحَت ثانِى (مدرَسة) فى الإسلام، وهى (المسجِد).

وعندما تطلّبت الدراسة فى المساجد لوناً مِن ألوان الدراسة، التى تُعِدُّ لَهَا وتمهّد، كانت (الكتاتيب) بأنواعها المختَلِفة، ابتداء مِن العصر الأموِىّ.

وعندما تعقّدت أحوال المجتمع الإسلامىّ وتعقّدت حضارته، فى العصر العبّاسِىّ الثانِى، ظهر النظام المدرَسِىّ، شبيهاً بالنظام المدرَسِىّ الحديث، بكلّ تعقيداته.

وظلّت فلسفة التربية فى الإسلام طوالَ هذه العصورِ الإسلامية الأُولىَ ـ عصورِ القُوّة التى امتدّت حتى القرن الخامس الهجرِىّ ـ تدور حولَ نفس الهدَف : تحريرِ الفردِ مِن الداخل، وإطلاق طاقاته المُبْدِعَة، ليكون قادرا على خِدمة نفسه، وعلى التمييز بينَ الخير والشرّ، وليكون قادرا ـ أيضا ـ على المساهمة النشطة البنّاءة فى حياة مجتمعه، وفى ازدهاره.

وفى ضوء هذه الفلسفة الكُبرَى، تطوّرت التربية الإسلامية، مِن عصر إلى عصر، تبعا (للمتغيّرات) التى فرضتها ظروفُ الحياة فى كُلّ عصر.

كانت (الحاجة) فى عصر الرسول الكريم تستدعى الإعداد العقائدىّ للرجال، لأن (الفكرة الإسلامية) كانت لاتزال جديدة، ومِنْ ثَمَّ كانت محتويات المناهج - فى دار الأرقم، ثم فى المساجد والكتاتيب - كلّها دينية، لاتتعدّى تعليم آيات القرآن التى يتنزّل بها الوَحْىُ، وشرحها وتفسيرها، وأحاديث الرسول الكريم، يقولها فى المناسبات المختلفة.

وكانت حياته - ﷺ - الخاصّة والعامّة - تجسيداً حيّاً لما يعلّمه من آيات القرآن، ولما يقول مِن أحاديث، ومِنْ هُنَا كان رَبْطُ العِلم بالعَمَل فِكرة إسلامية أصيلة، التزَمَ بها الرسول فى تربيته لصحابته، والتزم بها الصحابة مِن بعدِه فى تربيتهم لتلاميذهم - قبلَ أن يقولَ بها الغرب أو الشرق، بأكثرَ مِن ثلاثةَ عشرَ قرناً مِن الزمان.

وعندما انتقل المعلّم الأعظَمُ إلى الرفيق الأعلَى، وانقطع الوَحْىُ، واحتكَّ العَرَبُ بغيرهم مِن الشعوب ذاتِ الحضارة القديمة، فى مصر والشام والعراق، و«جرَى الناسُ وراءَ عُقولهم، واسترسَلُوا فى التساؤُل، بعد أن كانوا فى حياة الرسول يسلّمون بما جاء به الوَحْىُ مِن نُصوص، ويؤمنون به إيمانا قاطعا»(1) - بدَت (الحاجَة) ماسّةً فى عهد عُمَر بنِ الخَطّاب، ثانِى الخُلَفاء الراشدين، تستدعى لونا مِن ألوان الدراسة، لم يكن مألوفا فى عهد الرسول، ولافى عهد خليفته أبى بَكْر، وهو دراسة «الفلسَفة والمنطِق». «وهكذا تألّفت نُواةُ الحَرَكة العِلمية، التى ترَعْرَعَت وزَهَت بعدَ حين فى بغداد، عاصمةِ العبّاسيّين»(2).

وفى العصرِ الأمَوِىّ، اكتَمَلَ للدولة الإسلامية كيانها، واستقرَّت حَرَكة الفتوح وهدأت، وبدأ الاحتكاك يزيد بينَ العرَب الفاتحين، وأبناء البلاد المفتوحة، وبدأ الاحتكاك بين الثقافتين العرَبية وغيرِ العرَبية، كما بدأ (التفاعُل) بين هذه الثقافات، ومِنْ ثَمَّ باتت (الحاجَة) تستدعِى أن تُوضَع نُواةُ العلوم-كُلّ العلوم.

(1) الدكتور محمد بيصار : العَقِيدة والأخلاق، وأثرُهما فى حياة الفرد والمجتمع - الطبعة الثانية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - 1970، ص13.

(2) عُمَر أبو النصر : عَلِىّ وعائشة - دار إحياء الكُتُب العربية - القاهرة - 1947، ص 61.

كان لابُدَّ مِن وضع علوم القرآن والحديث، وعلوم اللغة والأدب والتاريخ، ليتعلَّمها أبناءُ البلاد المفتوحة، بعد أن دخلوا فى الإسلام، وكان مِن حقّهم أن يتعلَّموا علومَه، وليتعلَّمها أبناءُ العرَب أنفسهم، بعد أن (فسدَ) لسانُهم العربىّ، وذوقُهم الأدبىّ وحِسُّهم الفَنّىّ، بحياتهم بين (الأعاجم).

وكان لابُدَّ - كذلك - مِن وضع علوم (الفلسَفة) - بأوسَع معانيها فى ذلك الوقت - كما سنرَى - ليتعلَّمها العَرَب والمسلمون، بعدَ أن صارت - بحُكم احتكاكهم بأبناء البلاد المفتوحة - جُزءاً مِن حياتهم.

ومِنْ ثَمَّ ظهرت - إلى جانب تلك الحرَكة الدينية - فى العصر الأموِىّ «حَرَكةٌ فى التاريخ والقصَص والسيَر ونحوها، وحَرَكة فلسَفية، فى منطِق وكيمياء وطبّ وما إليها»(١).

وكان الطبّ هو المدخَل الذى دخل منه المسلمون ساحة العلوم الفلسَفية فى العصر الأموِىّ، وذلك «لأن الناس فى حاجة مادّيّة إليه، ولأنه أبعَدُ العلوم الأجنبية عن أنْ يؤثّر فى الدين، ولهذا لم يتحَرّج مِن إجازة الترجَمة فيه أتقَى بنِى أُمَيَّة، عمر بن عبد العزيز»(٢).

وكان مجرّد ولوج باب (العلوم الفلسَفية)، هو المنطَلَق الذى انطلَق منه العرَب والمسلمون فى العصر العبّاسِىّ، إلى ساحة هذه العلوم كُلّها.

ولم يكن للمسلمين عِلم بهذه العلوم الفلسَفية، ولكن(حاجتهم) إليها وَجّهتْهم إلى حيث توجد،ومِنْ ثَمَّ كان العصر العبّاسِىّ هو عصر الترجَمة. وكانت الترجَمة قد بدأت فى العصر الأُمَوِىّ، إلا أنها كانت فى هذا العصر (عَمَل أفراد)، بينما صارت فى العصر العبّاسِىّ (عَمَل أمّة). أو بعبارة أُخرَى: كانت محاولات الترجمة فى العصر الأُمَوِىّ «محاولات فردية، تموت بموت الأفراد القائمين بها»، أما فى العصر العبّاسِىّ، فقد «كان فى الدولة العباسية مدرَسة كبيرة للترجَمة، لايَضِيرُها موتُ فردٍ أو أفرادٍ منها»(٣).

---

(١) أحمد أمين: فَجر الإسلام - الجُزء الأول (فى الحياة العقلية) - الطبعة الثالثة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٣٥، ص ١٧٨.
(٢) أحمد أمين: ضُحَى الإسلام - الجُزء الأول - الطبعة الأُولَى - مطبعة الاعتماد - القاهرة - ١٩٢٣، ص ٢٧١.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٧١.

ومِن أجل الترجَمة، أُنشِئَت (دارُ الحِكمة) فى بغداد، لجَلْب المخطوطات، والإشراف على ترجَمتها، ثم تحولت بعدَ ذلك إلى جامعة للتدريس والتأليف العِلميّ، فكانت - على حَدّ تعبير هانز Hans - «أوّلَ جامعة إسلامية»(1)، وذلك عندما أدَّى استيعابُ العلوم المترجَمة إلى خلق (حاجة) جديدة، نشأت فى المجتمع الإسلامِىّ، وهى الحاجة إلى البحث والتأليف العلميّين.

وكانت (النهضة) العِلمية والحَضارية العَربية والإسلامية الكُبرَى فى العصور الوسطَى، التى قامت على أكتافها نهضةُ الغرب الحديثة، عن طريق (مَعابِر الحضارة) المختلِفة مِن الشرق إلى الغرب، وعلى رأسها الأندَلُس وصقلّية، والرحلات التجارية والعِلمية، والحروب الصليبية، وآلافُ الكُتُب العَربية المترجَمة إلى اللاتينية، وغيرها، مِمَّا مكَّن الغرب (المتخلّف) مِن أنْ يقف على حضارة الشرق (المتقدّم).

وهكذا، كانت فلسَفة التربية العَربية بعد الإسلام تدور حول تنمية الفرد مِن مختلف جوانبه، ورعاية نُمُوّه بحيث يكون هذا النمُوّ متكاملا، يقدِر به أن ينفَع نفسه، ويستمتع بحياته، ويساهم فى بناء مجتمعه - فكانت تلك الانتفاضة الحضارية الكُبرَى.

فلسَفة التربية العرَبية فى عصور التفرُّق العرَبِىّ :

يبدَأ التفرُّق العرَبِىّ فعلا بانفصال مصر عن الخلافة العبّاسيّة فى بغداد سَنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م)، على يد أحمد بن طُولُون، الذى أسَّسَ الدولة الطولُونيّة، حيث تلا هذا الانفصالَ، انفصالُ ولايات أُخرَى عن الخلافة فى بغداد، وتأسيس دويلات عرَبية مستقلّة، فى أوقات مختلفة، لعلّ مِن أشهرها الدولة الطولُونية فى مصر، والدولة الحَمْدَانِيّة فى العِراق والشام، والدولة الفَاطِمِيّة فى شمال أفريقيا، والدولة الأَيُّوبية فى مصروالشام، والدولة البُوَيْهِيّة فى فارس، والدولة السلْجُوقيّة فى فارس وما وراءَ النهر - هذا بالإضافة إلى الدولة الأُمَويّة الموجودة فى الأندَلُس، منذ بَدْءِ الخلافة العبّاسيّة.

(1) NICHOLAS HANS: Comparative Education, A Study of Educational Factors and Traditions; Routledge and Kegan Paul Limited, London, 1958, p. 101.

وقد انتهى هذا التمزّق فى الكيان العربىّ، بسقوط عاصمة الخلافة فى بَغْدَاد، على يَدِ التَّتَار سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، ليبدأ حُكْمُ المماليك فى العالَمِ العربىّ.

ولهذا التفرّق أو التمزّق جذوره الضاربة فى صميم الدولة العبّاسيّة، منذُ أيام المعتَصِم، فى النصف الأوّل مِن القرن الثالث الهجرىّ.

كانت الإمبراطورية الإسلامية تضُمُّ بينَ جوانبها ثلاثَ جنسيّات رئيسية، دخلت فى الإسلام، هى الجنسيّة العربية، والجنسية الفارسيّة، والجنسيّة التُّركيّة.

وكان الأُمويّون يُقِيمُون دولتهم على العرَب، فقد كانوا متعصّبين للعُنصُر العربىّ، حتى أنهم كانوا يُسَمُّون غيرَ العرب (بالموَالِى)، مِمَّا أحنَق عليهم غيرَ العرَب، وخاصّة الفُرْس، فلمّا قامت الدولة العبّاسيّة سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م)، كان الفُرْسُ هم مَوْضِع ثِقَتِهَا، ومِنْ ثَمَّ استعان الخُلَفَاءُ العبّاسيّون بالخُراسانيّين (الفُرْس) فى حماية الدولة، وحراسة الخُلَفاء، وظَلَّ الفُرْس عمادَ الدولة العبّاسيّة طوالَ قرنٍ مِن الزمان، حيثُ جاء المعتَصِم، فمال للأتراك لسببَين، أوّلُهما أنَّ أمَّهُ تركية، فاعتبرهم عَصَبًا له، وثانيهما أن الفُرْسَ كانوا يُشَايِعُون العبّاسَ بنَ المأمون فى صِراعه معه على الخِلافة، ومِنْ ثَمَّ فَقَدَ ثِقَتَهُ فيهم، بعدَ أخذه الخلافةَ مِن العبّاس.

ونتيجة لذلك، بدأ المعتَصِم بعدَ تَوَلِّيه الخِلافَةَ سنة ٢١٨هـ (٨٣٤م)، يستغنى عن خدمات الفُرْس، ليحِلّ محلَّهم الأتراك، حتى زاد عددُهم فى بغداد زيادة ضايقت أهلَها، فبنَى لهم مدينة خاصّة بهم، هى مدينة (سُرَّ مَنْ رَأَى).

ولم يكن الأتراك يشكّلون فى عصر المعتَصِم خَطَراً على الدولة (أو الخِلافة) العبّاسيّة، لأنَّ قُوَّةَ شخصيته ـ وقُوَّة الخلافة العبّاسيّة عموماً ـ كانت أقوَى منهم، فقد كانت مَهِيبَة فى النفوس، بل على العكس مِن ذلك كان هؤلاء الأتراك يُعتَبرون عونا للخِلافة، بحُبِّهم للفروسية، وميلهم للحرب، و«بسَبَبِهم ـ على الأكثر ـ يرجع انتصارُهم على الروم فى عَمُّوريّة سنة ٢٢٣م، فكانت القيادة فى يد الأتراك»(١).

---

(١) أحمد أمين : ظُهر الإسلام ـ الجزء الأول ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٦، ص ٥.

غير أنه بموتِ المعتصم سنة ٢٢٧هـ (٨٤٣م)، بدأ (مصرَعُ) الخلافة العبَّاسيَّة، حيث زاد نفوذُ الأتراك، وبدءُوا يتدخَّلون فى أعمال الخُلَفاء، ويمارسون الضغط عليهم، حتى أنهم قتلُوا الخليفة المتوكّل سنة ٢٤٧هـ لطُولِ معارضته لهم، حتى يكون عِبرة لكل خليفة يأتِى بعدَه، و«كان قَتْلُ المتوكّل أوّلَ حادثة اعتداء على الخُلَفاء العبّاسيّين»، «وكان فى قتِله حياةُ الأتراك»، و«كانت هذه الحادثة مَصْرَعَ الخِلافة، ومَجْدَ الأتراك، فكان الخليفةُ بعدَهُ خاتماً فى إصبَعِهِم، أو أقلَّ مِن ذلك»[1].

لقد نَصَّبَ الأتراكُ الخليفةَ المنتَصِرَ بعدَ قتلِهم الخليفةَ المتوكّل، فمات بعدَ خلافته بستّة أشهُر، قبلَ أن يستَخْلِفَ خليفةً مِن بعده، فاختاروا أحمد بن المعتَصِم، ولقَّبُوه بالمستَعِين، ولَمَّا لم يُذْعِنْ لهم، دبّروا المؤمرات له، ففَرَّ مِن سَامِرَّا (سُرَّ مَنْ رَأَى) إلى بغداد، فولّوا الخليفة المنتَصِر بالله، و«دخلوا بغداد منتَصِرين، وخلعوا المستَعِين ثم قتَلُوه، فكانت هذه خطوة أُخرَى فى سبيل سيادة الأتراك»، «ومع هذا، سَرعانَ ما ضيّقوا على المعتَزّ، وشَعر منهم بالشرّ»، ولكنهم «خلَعُوه وقتلُوه»[2].

ولم تَعْدَمْ الخِلافة العبّاسيّة، فى هذه الفترة المُظلِمة مِن تاريخها، رَجُلا شُجَاعاً قويّاً، كالخليفة المهتَدِى، الذى تَولَّى الخِلافة بين سنتى ٢٥٥ و٢٥٦هـ، والذى جمع أعيانَهم وهدَّدهم، ونقَلَ الخلافة «مِن سَامِرَّا، وهى حِصنُ الأتراك، إلى بغداد، وفيها عناصرُ كثيرة، تُريد أن تَحْمِىَ الخِلافة مِن شرورهم»[3]، ولكن ذلك ألجأ الأتراكَ إلى اختيار خُلَفاء صِبْيَة، يحكُمُون باسمهم، كاختيارهم الخليفة «المقْتَدِر، صَبِيًّا فى الثالثة عشرة»[4].

وكان ضَعْفُ الخِلافة العبّاسيّة، ولَعِبُ الأتراك بها على هذا النحو، مقدّمة الانتكاسة العربيّة الكُبرَى، التى لايزال العرَبُ والمسلمون يعانُون آثارَها حتى

(١) المرجع السابق، ص ١١.
(٢) المرجع السابق، ص ٢١، ٢٢.
(٣) المرجع السابق، ٢٤، ٢٥.
(٤) المرجع السابق، ص٢٩.

اليوم، لأنه هو الذى أدّى إلى تلك الحـرَكة الانفصـالية الكُبرَى، التى بدأت باستـقلال الطولُونـيّين بمصـر، وانتـهت بسـيطَرة المـماليك على البـلاد العـرَبـية كُلّهـا، بعدَ سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م).

وقد بدأ العصـر العبّاسىّ، حيث بدأت الـدويلات العـرَبية تستـقلّ عن الخلافة فى بغداد ـ نِعمةً على العِلم والأدب، فإن «كثيرا مِن الأقطار الإسلامـية كانت بعدَ استقلالها عن الخلافة فى بغداد، خيرًا منها قبلَه، فيظهَرُ لى أنَّ مِصرَ تحتَ حُكمِ الطولُونيِّين والإخْشيـديِّين والفـاطِميِّين، كـانت حالـتُهـا أسْعَدَ منها أيامَ وُلاة بغداد قبلَ الطولُونيِّين»، وذلك لأن مجال الشهـرة كان بغداد وحدَها، «فلمـا استـقلّت الأقطار، أصبحَت كلّ عاصمة قُطر مركزًا هامّا لحرَكة عِلمية وأدبية، فأمَراء القُطر يُعطُون عطَاءَ خُلَفـاء بغداد، ويُحلُّونَ عـاصمـتَهم بالعُلَمـاء والأدباء»، «فبدَلَ أن كان للعِلم والأدب مركَز واحد هامّ، أصبحت لهما مراكز هامّة متعدّدة»[1].

وكانت المنافسة بين الدويلات العـرَبية مِن أسباب ازدهار العِلم والأدب، فى العصـر العبّاسىّ الثانى.

يُضَـاف إلى ذلك أنَّ عـدَم اسـتـقرار الحـالة السـيـاسـية فى تلك الدويلات، كان مُغرِيًا للطامحين والنابهين مِن العَرَب والمسلمين بالسـيـر فى طريق العِلم، ففى السير فى طريقه مهرَب مِن السياسة ومَخَاطِرِها.

ويُضَـاف إلى الأمـرين الـسـابقين، أنَّ الانفـصـال الـسـياسىّ بـينَ الدويلات العـرَبية، لم يؤدِّ إلى (قطيعة) بـين أبناء الأمّة الـعرَبية والإسلامـية، فظلّ الـتعـاوُن والاتّصـال بينَ أقطار العـالَم الإسلامىّ كمـا هُمَـا، فـلازال هناك ـ بعدَ الانفـصـال ورَغْمَهُ ـ «تزاوُر وانتقال، للدراسة،بينَ مراكز المعرفة»[2]، وذلك لأن «هذا الانقسام السياسىّ الظاهرىّ، ظَلَّ يتـضمَّـن فى باطِنه وحدة إسلامـية عرَبية عميـقة الجذور، واستمـرّت هذه الدويلات العـديدة تؤلّف مـا أسمـاه المَسْعُودِىّ (مملَكة الإسلام)،

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٣ ـ ٩٥.

(٢) دكتور سعد مُرسى أحمَد : تطوُّر الفِكر التربَوىّ ـ عالَم الكُتُب ـ القاهرة ـ ١٩٧٠، ص ١٤٤.

وهى المملكة التى امتدّت مِن الهند والمحيط العربىّ شرْقاً، حتى المحيط الأطلسىّ غرباً.

وبعبارة أُخرَى، فإن «الوحدة الإسلامية ظلّت قائمة، لاتتقيّد بالحدود السياسية الجديدة، فكان المسلم يستطيع أنْ ينتقلَ فى سهولة داخلَ حدود هذه المملكة الفسيحة، فى ظِلّ دينه ولغته، وفى جميع تلك البلْدان»[1].

واكثرُ مِن ذلك ان الحُكومات - رغمَ ما كان بينَها مِن تنافُس حيناً، وصراعٍ احياناً - كانت تشجّع حَركة الانتقال هذه تشجيعَها للحرَكة العِلْمِيّة، فقد «كان مِن أهمّ مظاهر الحَركة العِلمية، التى تدعو إلى الإعجاب فى هذا العصر، الرحلات، فقد أصبح تقليدا للعَالِم ان يرحَل، ويُلاقِىَ العُلَماء، ويأخُذ منهم، ويروِىَ عنهم، مع عناء السفَر، وفقر العُلَماء غالبا»، «والحكوماتُ مِن جانبها تُنْشِئُ الطرُق، وتُقِيمُ الرباطات والمخَافِر و ...»، «فكان العُلَماء فى رحلاتهم ينتَفِعُون بهذه المزَايا»[2].

ونتيجة لذلك كُلّه، يلاحَظُ ان «الحالة العِلمية فى أواخر القرن الثالث، وفى القرن الرابع، كانت أنْضَجَ منها فى العصر الذى قبْلَه، أخَذَ عُلَماء هذا العصر ما نقله المترجمون قبلَهم، فشرَحُوه وهضَمُوه، وأخذُوا النظريات المبْعثَرَة فرتّبوها، وورِثُوا ثروةَ مَنْ قَبْلَهم فى كُلّ فرع مِن فروع العِلم، فاستغلّوها»[3].

وإلى هذا العصر تعود قِمّة العِلم العرَبِىّ الإسلامِىّ، كما أخذه الأوربيّون، فأحدَثَ ببلادِهم ما أحدَثَ مِن ثورات، أدّت بالغرب إلى ما يتربّعُ عليه مِن قِمّة فى عالمِنَا المعاصِر.

غيرَ أنّ الوضع لم يستَمِرّ على هذا النحو مِن التنافُس الشريف، والتعاوُنِ العِلْمِىّ البنّاء، بينَ الدويلات العرَبية والإسلامية، إذْ سرعانَ ما تحوّل إلى صُوَرٍ مِن

(١) دكتور سعيد عبد الفتّاح عاشور : المدَنِيّة الإسلامية وأثرُها فى الحضارة الأوربية - الطبعة الأُولَى - دار النهضة العرَبية - القاهرة - ١٩٦٢ ، ص ٣٣.

(٢) احمد امين : ظُهر الإسلام - الجزء الأول (مرجِع سابق)، ص ٢١٥، ٢١٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٧.

«التآمُر والتنافُر، والتنافُس»[1]، أدّت إلى تخريبٍ للموارد، وانصراف عن العَمَل الجادّ، وضِيقٍ بالحياة، كان مِن نتيجتِه أن بدأت البلاد العَرَبية والإسلامية تُصْبِحُ مطمَعَ الطامعين، سواء القادمون مِن الغرب على يد الصَّليبيّين، والقادمون مِن الشرق على يد التّتَار.

وبدأت تلك البلاد، بعدَ سيطرة المماليكِ عليها، تتردّى أحوالُها، إذ انتقلت مِن صراع العصَبيَّات على الحُكْم فيها، إلى صراع المماليك على السُّلْطَة في كل بلَد مِن بلادها، وظلّ هذا الصراع الدامِي بينَ المماليك ثلاثةَ قرون، مِن القرن الثالثَ عشرَ إلى القرن السادِسَ عشَرَ، حيث سيطَرَ الأتراكُ العُثمانيّون على البلاد الإسلامية، فعادت للبلاد العَرَبيَّة الإسلاميّة وحدَتُها مِن جديد، ولكن بروح جديدة، انعكست على فلسَفة التربية بها، كما سنراها فيما بعد.

وهكذا عاش المسلمون - مُنذُ مَوْتِ المعتَصِم - بدايةِ مَصْرَعِ الخِلافةِ الإسلاميّة في الرُّبْعِ الأَوّل مِن القرن الثالث الهِجرِيّ (التاسع الميلادِي)، وحتى نهاية عصر المماليك في الربع الأوّل مِن القرن العاشر الهِجريّ (السادس عشر الميلادِيّ)، أَيْ حوالَيْ سبعة قرون مِن الزمان - عاشوا في تخلُّف وجمود، ينظُرون إلى الحياة بضيق وألَم، بعدَ أن صاروا مِن ضحايا هذه الحياة.

وبدأ المسلمون - بعدَ طول ما ذاقوه تحتَ حُكْم المماليك والأتراك مِن ذُلّ وهَوَان - ينظُرون إلى الحياة، وكأنهم ينتَظِرون تلك اللحظة، التي تنتهِي فيها هذه الحياة.

وتوقّفت بالنسبة لهم رسالةُ الإسلام الحضارية والتحضيرية، وأصبح الإسلام - في نظَرهم - قُرآنا يُقْرَا - ولايُفْهَم، وصلاة تؤدّى في حركات فَقَدَت جوهَر الصلاة، وصوما لايزيد على امتناعٍ الطعام والشراب، لايتعَدّاه.

وصار الزهدُ مطلَبَ الحياة أمامَ المسلمين، والتصوُّفُ طريقَ تلك الحياة.

---

(١) الدكتور أحمد سُويلَم العمَرِيّ (مرجع سابق)، ص ١١٥.

وكان الإمام الغَزَالِىُّ قد وضع لهذا التصوُّف فلسَفته فى العصر العبَّاسِىّ الثانِى، ولم يكن يقصِدُ به الانصرافَ عن الحياة، كما فُهِمَ فيما بعد، وإنما كان يقصِد به الردّ على أولئك الذين يرون (العقل) وحدَه سبيلا إلى الحقيقة، ليقول لهم : إن بجانب العقل قلبا، وبجانب المادة روحا، وبجانب الحياة الدنيا حياة آخرة، لها فَلْيَعْمَلِ العَامِلُون.

لقد أراد الغَزَالِىُّ أن يُحْدِثَ توازُناً فى الفِكر التربَوِىّ الإسلامِىّ الذى ارتمَى فى أحضان العقل والمادّة.

ولكن الميزان تحَوّل بعدَ سبعة قرون مِن الضغط والكبت والإرهاب، إلى جانب القلب وحدَه.

وحولَ القلب، والحياة الآخِرة، دارت فلسَفة التعليم فى عصور التفرُّق العرَبِىّ بعدَ الإمام الغَزَالِىّ (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ = ١٠٥٩ ـ ١١١٢م). وكان القلبُ والحياةُ الآخِرة هدَفَ الغَزَالِىّ فى فلسَفته عن عِلم واقتدار، ولكنهما صارا هدَفَ التربية بعدَه عن جهل وجُمُود وتَخَلُّف.

وفى عصر المماليك، زاد عَدَدُ المدارس والكتاتيب والمساجد، وزادت الأوقاف الموقوفة عليها، وكان للمَمَاليك أنفُسِهم دور كبير فى هذه الزيادة العَدَدِيّة، ولكن فلسفة التعليم الإسلامِىّ فى هذه المؤسَّسات التعليمية تحولَّت تحوُّلا جِذريا، لتتَرَدَّى، بعيدًا عن روح الدين الإسلامِىّ، كما رأيناها مِن قبل، بُعْدَها عن حاجات المسلمين الحقيقية، وبُعْدَها عن ضغوط العصر ومُتَطَلَّبَاته.

وهكذا بدأت عصور التفَرُّق العرَبِىّ هذه مِن قِمَّة عالية، كان العَرَب والمسلمون قدوصلوا إليها، عَبْرَ ثلاثة قرون طويلة مِن العمل الجَادّ، فى ضوء فلسفة الإسلام، عن فهم حقيقِىّ لها، ليتَرَدَّى المسلمون والعرَب بعدَها إلى قاع.

وواكبت فلسفةُ التربية العرَبية الإسلامية مسيرة الحياة العرَبية الإسلامية العامّة هذه، مِن قِمَّتها العالية، تلك التى كانت عندَها مع بداية هذه العصور، إلى ذلك القاع الذى تردَّت إليه فى نهايتها، قبل أن تصل إلى ذلك الحَضِيض الذى تَرَدَّت

إليه تحت حُكْمِ العُثْمَانِيِّين، فى القرون الثلاثة التالية ـ مِن القرن السادسَ عَشَرَ، إلى القرن التاسعَ عشَر.

وصارت فلسَفة هذه التربية ـ كما كانت فى أوربّا فى العصور الوُسطَى ـ قتل الشهَوات، والانصراف عن الحياة الدنيا وملَذَّاتها، وعَدَم الثقة فيما يتمخَّض عنه العقلُ مِن نتائج، ووضع الثقة كُلّها فى كلام السلَف ـ فيما لايتَّفق منه مع قِيَمِ العصر ومتطلَّباته، لافى كُلِّ ما قاله السلَف.

وبين فلسفة هذه التربية، وتلك التى رأيناها فى العصر السابق، بَوْنٌ شاسع بطبيعة الحال.

فلسَفة التربية العَرَبِيَّة فى العصر العُثْمَانِىّ:

بدأ ظهورُ الأتراك العُثمانيّين على مسرَح الأحداث فى المنطقة العرَبية الإسلامية، معَ بداية ضعف الأُمَّة العرَبية، ضعفاً أدَّى ـ فيما أدى إليه ـ إلى زحف المَغُول مِن أواسط آسيَا، على أطراف العالَم الإسلامِىّ، مِن جهة الشرق. لقد ترَتَّب على هذا الزحف تحرُّكُ كثيرٍ مِن القبائل التركية المُقِيمَة بتُرْكِسْتَان، مِن مواطنها، إلى الغرب، فى جهات متفرّقة مِن آسيا.

وكان مِن بين هذه القبائل التُرْكِسْتَانِيَّة، قبيلةٌ يتزعَّمها أبو عثمان أَرْطُغْرُل، الذى تنتَسِبُ إلى الدولة العُثْمانية.

ويُقَالُ إنْ أَرْطُغْرُلْ شَهِدَ ـ أثناءَ تنقُّله بقبيلته ـ معرَكة فى غربِ آسيا الصُّغْرَى، بينَ أَحَد السلاطين السَّلاَجِقَة، وجماعة مِن المَغُول، فانحازَ إلى جانب السلطان السَّلْجُوقِىّ، وبفضله انتصَرَ السلطان على المَغُول، فكافَأهُ بأن أقطَعَهُ قِطعة أرض تستقرّ بها القبيلة، فى الطرف الغَرْبِىّ لدولته، ومنها أخذ أَرْطُغْرُل يُوسّع هذه القِطعة من الأرض، على حساب البِيزَنطيّين.

وقد أعْلَنَ عثْمَان أَرْطُغْرُل (١٢٨٨ ـ ١٣٢٦م) استقلالَه فى مستَهلّ القرن

الرابعَ عشَر، بعدَ زوال دولة السَّلاجقة، ووسَّعَ أرضَه، بمهاجمة أملاك البيزَنطيّين، والاستيلاء على أجزاء منها.

وخَلَفَ عُثْمانَ هذا سلاطينُ أقوياء، حَوّلوا الإمارة الصغيرة، إلى إمبراطورية ضخمة، بما أخذوه مِن أملاك البيزنطيّين، بما فى ذلك القُسطنطينية ذاتها، سنة ١٤٥٣، وبما فى ذلك ـ بعدَ ذلك ـ كُلّ بلاد البَلْقان.

وما أن انتهَى العُثمانِيُّون مِن حلّ مشاكلهم مع البيزنطيّين غرباً، حتى بَدَءوا يتّجهون جنوبا، حيثُ المماليك، الذين تمكَّنَ السلطان سَلِيم مِن هزيمتهم بقيادة الغُورِى فى مَوْقِعَة مَرْج دَابِق سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م)، ثم بقيادة طُومَانْ بَاىْ فى صحراء الرَّيدَانِيَّة (العَبَّاسِيَّة) سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م).

وبتحطيم قُوَّة المماليك فى الشام ومصر والحِجاز واليَمَن والعِراق وغيرها مِن البلاد العرَبية، تَمَّ للأتراك العُثمانيّين السيطرةُ على البلاد العرَبية والإسلامية طوالَ ثلاثة قرون مِن الزمان.

وهكذا، بدأ الأتراكُ يظهَرُون على مسرَح الأحداث فى المنطقة، فى النصف الأوَّل مِن القرن التاسع الميلادِىّ ـ عندما استعانَ بهم المعتَصِم، وكان السرُّ فى ظهورهم هو ما تحَلَّوْا ـ ويتحَلَّون ـ به مِن قُوَّة عسكَرية، ثم بدا نجمُهم يلمَع، لنفس السبَب ـ القُوَّة العسكَرية، التى بها «تحَوَّلُوا إلى قُوَّة حقيقية»[1]، مع مطلَع القرن الثانِى عشر الميلادِىّ، استطاعت أن تبتلع العصبِيَّات الأُخرَى، التى تملأُ المنطقة، كالدَّيْلَم والعَجَم والتَّتَار والمَغُول ... والعَرَب.

ويرَى ألدُّومِيِلّى، أنه قد صاحَبَ ارتفاعَ سلطان الأتراك العُثمانِيّين السياسِىّ، فى مطلَع القرن السادسَ عشرَ الميلادِىّ، و«انهيارَ السُّلْطَانِ العَرَبِىّ السياسِىّ، انهيارُ صَرْحِ الفِكْر والعِلْم، المُسَمَّى بالعِلْم العَرَبِىّ»[2].

---

(١) الدُّوميِلّى : العِلْم عند العَرَب، وأثَرُه فى تطَوُّر العِلم العالَمِىّ ـ نَقَلَه إلى العَرَبية : الدكتور عبد الحليم النجّار، والدكتور محمد يوسف مُوسَى ـ قام بمراجعته على الأصل الفرنسِىّ : الدكتور حسين فوزى ـ جامعة الدول العَرَبية ـ الإدارة الثقافية ـ الطبعة الأولَى ـ دار القَلَم ـ القاهرة ـ ١٩٦٢، ص ٢٨٣.

(٢) المرجِع السابق، ص ٢٨٥.

ذلك أن الأتراكَ لم تكن لهم مَدَنِيَّة وحضارة قديمة، إذْ كانوا «بَدْواً أو أشْبَه بالبَدْو، فلم يكن شأنُهم عندما اندمَجُوا فى المملَكَة الإسلاميّة شأنَ الفُرْس»، الذين «أعطَوا وأخذوا»، وانتَفَع بهم المسلمون مِن ناحية الثقافة»، «أمَّا الأتراك»، «فكانوا مِن ناحية الحضارة والثقافة قَابِلين، لافاعِلين»[1].

ويلتقِى الأتراكُ فى بَداوتهم، مع مَنْ سبَقُوهم فى حُكْم العالَمِ العَرَبِىّ، وهم المَماليك، غير أن بداوةَ المَماليك كان يُخَفِّفُ مِن ضَرَرِها أنهم كانوا يحاولون التقرُّب إلى الأهالِى، ليستميلوهم فى حروبهم مع بعضِهم البعض، ومِنْ ثَمَّ كانوا يشجِّعون العِلم وأهلَه، أما بَداوَةُ الأتراك فقد كانت بَداوة مدمّرة، مِلؤُها الغرور وحدَه، ويزيد مِن خطورتها قُوَّة عَصَبِيَّتهم، وتحجُّر عقولهم، بفِعل البَداوة التى سيطَرت عليهم.

ولم يكن غريباً ـ لذلك ـ أن تستمرّ الحَرَكة العقلية ـ ولو بصورة أخَفّ ـ فى عصر المَماليك، وأن يتمخَّض لنا هذا العصر عن العَلَّامة الموسُوعىّ عبدِ الرحمن بنِ خَلْدُون (١٣٣١ ـ ١٤٠٥م)، بينَما لايتمخَّض لنا العصر العُثْمانِىّ عن عَالِم واحد ذِى شأن.

وفى ظِلّ حُكْمِ المَماليك، استمرَّت اللغة العَرَبية ـ لغةُ القرآن الكريم ـ قَوِيّة، وتحت وطأة الأتراك، كادت هذه اللغة أن تَمُوت، بفَرْضِ اللغة التركية لغةً رسميّة ـ لولا الأزهرُ فى مصر، والزيتونة فى تونس، وغيرُهما مِن الجامعات الإسلامية، التى اهتمَّت بدراسة القُرآن، ومِن هنا كان اهتمامها باللغة العَرَبية أيضاً.

وأدَّت الحياة العَرَبية الإسلامية فى ظِلّ الاستبداد التركِىّ الذى كان يقوم على القَهْر، إلى «انتشار الجَهْل والفَقْر»[2] بين العَرَب والمسلمين، الذين صاروا يعيشون ـ لذلك ـ «فى ظُلْمَة حالكة»[3].

(١) أحمد أمين : ظُهر الإسلام ـ الجُزء الأول (مرجِع سابق)، ص ٤٤، ٤٥.
(٢) أحمد أمين «الوحدة والتفكّك» ـ فيض الخاطِر ـ الجُزء الثانِى ـ مطبعة لجنة التأليف والترجَمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٠، ص ١٥٩.
(٣) أحمد أمين : «زُعَماء الإصلاح الإسلامِىّ فى العصر الحديث» ـ فيض الخاطر ـ الجُزء الخامس ـ مطبعة لجنة التأليف والترجَمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٤، ص ١٨٧.

ونتيجةً لذلك، «كان الشرقُ كُفُؤاً للغَرْب مِن الناحية الحربية والعلمية والاجتماعية فى عهد الحروب الصليبيّة، بل كان الشرق يَفُوقُ الغَرْبَ فى كُلِّ هذه النواحِى، بدليل انتصار الشرق فى هذه الحروب، وبدليل أنّ دُعَاةَ الغَرْب كانوا يحثّون مواطنيهم على الاستفادة مِن الشرق، والاقتباس مِن عِلمه ونُظُمه». «ومنذُ ذلك الحين، أخَذَ الغرب يتقدّم شيئا فشيئا، والشرق واقِفٌ على ما كان عليه منذُ الحروب الصليبيّة، بل تراجَعَ إلى الوراء شيئاً فشيئاً، بفساد حُكّامه، وانتشار الفقر والجهل بين أبنائه، وجاء زمان، انقطعت فيه العلاقات بينَ الشرق والغرب، فلم يَدْرِ الشرقُ ما يصنَعُ الغرب، ولا الغرب ما يصنَعُ الشرق»[1].

ثم عاد اللقاء بينَ الشرق والغرب مِن جديد، فى «السنوات الأخيرة مِن القرن الثامن عشر، والسنوات الأولى مِن القرن التاسع عشر، عندما حدثَ لقاءٌ دَمَوِىٌّ آخَر بين الشرق والغرب»[2]، وكان هذا اللقاء هو أخطَر هذه اللقاءات على الإطلاق، وأبعَدها تأثيرا فى حاضر العالَم العرَبِىّ والإسلامِىّ - كما سنرَى.

ذلك أن الغربَ فى هذه القرون الثلاثة، التى انقطعت فيها صلته بالشرق - بعدَ الحروب الصليبيّة - كان - بعدَ ثورة الإصلاح فيه سنة ١٥١٥ - «دائمَ التغيير والتبديل فى أوضاعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، كانَ مِنْ نتيجتِه أنْ تَجمّعَتْ له عناصِرُ القُوّة، التى سيستخدِمُها فى القرن التاسع عشر، للسيطرة على العالَم»[3]، بينما كان الشرق - كما سبَقَ - يتردَّى تحتَ حُكْمِ الأتراك.

دليلُ هذا التردِّى أنّ النظرة إلى (الإنسان) - موضوعِ التربية - وكذلك النظرة إلى المجتمع، صارت نظرة مختلفة، أبسَطُ ما توصَفُ به هو (الجَهْل)، فلا

---

(١) أحمد أمين : «الوحدة التعدّد» (المرجع السابق)، ص ١٥٩.

(٢) الدكتور سلامة حَمَّاد : «أثَرَ الشرق فى الغرب، وأثَرَ الغرب فى الشرق» - صحيفة التربية - تُصدِرها رابطة خرّيجى معاهد التربية بالقاهرة - السنة الثامنة - العدد الثالث - القاهرة - مارس ١٩٥٦، ص ٦١.

(٣) الدكتور أحمد عِزّت عبد الكريم : «العلاقات بين الشرق العرَبىّ وأوروبا بينَ القرنين السادس عشر والتاسع عشر» - دراسات تاريخية فى النهضة العرَبية الحديثة - الإدارة الثقافية بجامعة الدول العرَبية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ، ص ٢٥٥.

هى تَتَّفق مع نظرة الإسلام إليهما، كما رأيناها فى عصور الإسلام الأولى، ولا هى تَتَّفق مع نظرة المجتمعات الحديثة إليهما فى ذلك الوقت.

وقد كانت «طريقة التعليم القائمة فى معاهد التعليم» «مِمَّا يمكن أن نسمّيه (بالطريقة السالبة)، حيث يَقِف المتعلّم أمامَ ما يقرأ أو يسمَع موقِفًا سلبيًّا بَحْتا، لا فاعلية له، إلا استقبال المعلومات واختزانها فى ذاكرته، حتى يأتِىَ الوقتُ المناسب لاستظهارها واستِعَادَتِها»(١).

وإيجابيةُ المتعلّم، وشخصيته المستَقِلَّة التى يجب أن تنمَّى، ورأيُه فيما يقرَأ ويسمَع .. صارت كُلُّها مسائل لاوُجودَ لها فى طُرُق التدريس، وذلك لأن سلبِيَّة (الإنسان) فى الحياة العامة، لانحطاطِ قَدْرِه، تحتَ بطش الإرهاب التركِىّ، صارت تنعكس على تربيته.

وكان هذا التعليم حُرًّا، «ومعنَى أنه حُرّ، أنه لاتتولاه سُلْطَة حكومية، ولكنه يسير على نظام موروث مُفَصَّل، لايَحِيدُ عنه المعلّم ولا المتعلّم، فهو ليس بالحُرّ»(٢).

ذلك أن فلسفة الحُكْم العُثْمانِىّ كانت تقوم على «أن تتخَفَّف الدولةُ بقدر ما تستطيع مِن أعباء الحُكْم المباشِر، فتَتْرُكَ الرَّعِيَّة يدبّرون شئونهم بأنفُسِهم، طالما ظَلُّوا على ولائهم لها.

فإذا احتاجوا - مثلا - إلى شئ مِن تعليم، التَمَسُوهُ عندَ بعض مَنْ يُحْسِنُونه أو قد لايُحْسِنُونه، وإذا استبدَّ بهم داء، التَمَسُوا له الطبّ عندَ بعض العارفين أو الجاهلين، وأُمورُ الزراعة يدبّرها أهلُ الفِلاحة مع مُلْتَزِمِيهِمْ، وأمورُ الصناعة تجرِى على ما يرسم أَهلُ الحِرَفِ فى طوائفهم، والتعليمُ فى الأزهر والمساجد يسير على مألوف ما اعتاده العُلَمَاء والمُجَاوِرُون مِن الطّلاّب. يجرِى هذا

---

(١) دكتور سعد مُرسِى أحمد، ودكتور سعيد إسماعيل عَلِىّ : تاريخ التربية والتعليم - عالَم الكُتُب - القاهرة - ١٩٧٢، ص ٢٧٨.

(٢) محمد شفيق غُربال : العوامل التاريخية، فى بناء الأُمَّة العَرَبية على ما هى عليه اليوم - محاضرات ألقاها على طلَبة معهَد الدراسات العرَبية العالية - القاهرة - ١٩٥٧/١٩٥٨، ص ١٠٩.

كُلُّه، دونَ أن تتدخَّل الدولةُ لترسم سياسة مُعَيَّنة لشئون الزراعة أو الصناعة أو التعليم أو التطبيب، إلى غير ذلك مِمَّا تنهَض به الدول الحديثة»(١).

وفى ظِلّ هذا الجَوّ، انكمَش التعليم، وانكمَشت مناهجه، فصارت قاصرة على «علوم الوَسائل، وهى اللغة والحساب والمنطِق، وعلوم المقاصِد وهى علوم الدين، كالحديث والتفسير والفِقه. وكانت الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسَفية اختفت مِن نظام التعليم منذُ القرن السادسَ عشرَ، أىْ منذُ سيطَر الأتراكُ على البلاد، وورِثُوا الثقافةَ العرَبية بأدْمِغَتِهِمْ المتخلّفة، ولسانِهم الذى لم يعرِف العرَبية فى يوم مِن الأيام»(٢).

وكانت علوم الوَسَائِل وعلوم المقَاصِد هذه، تُدَرَّس بطريقة متخلّفة، لاتحقّق الهدَف مِن تدريسها كما أُرِيدَ فى الإسلام، وإنما تُدَرَّس مِن زوايا خاصّة، وبطُرق خاصّة، تحقّق (سلبية) الفرد المتعلّم، وتشلّ قُدرته على التفكير المنطِقىّ، المستقيم مع منطِق الحياة، ومع منطِق الدين على السواء، وذلك (بتقديس) لون مِن ألوان التراث القديم، لاينفَع المسلم فى حياته، ولايجعله يفكّر فى إصلاح هذه الحياة، بل فى التخلّى عنها وهَجْرِها.

وهو أَمْرٌ شَبِيهٌ بما كان يحدُث فى أوروبا المسيحيّة فى العصور الوسطَى، قبل أَنْ تتفجَّر بها ثورة الإصلاح الدينىّ سنة ١٥١٥.

والغريبُ أن (وزارة المَعَارِف) العُثمانية كانت تُحِسُّ بعدَم كفاية هذا التعليم القديم، وعدَم قُدرته على توفير مُتَطَلَّبَاتها مِن القُوَى البشَرية، اللازمة لحاجاتها الدفاعية، التى تحفَظ كيان الإمبراطورية فى معترَك الحياة الدولية على الأقلّ، ولذلك شرَعت فى «إنشاء (مدارس جديدة)، مستقِلّة عن المدارس القديمة»، وذلك «وَفْق (الترتيب العَمَلِىّ)، الذى ينبَثِق عن تَطَوُّرات الحياة الاجتماعية، والذى يتبَع

(١) الدكتور أحمد عِزَّت عبد الكريم: «مصر» - دراسات تاريخية، فى النهضة العرَبيّة الحديثة - الإدارة الثقافية بجامعة الدول العَرَبية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ص ٥٢٧.

(٢) الدكتور أبو الفتوح رضوان: «البُعد عن الحياة، مُشكلة التعليم الثانوىّ» - الرائد - مجلّة المعلّمين - السنة السادسة - العدد الثالث - القاهرة - نوفمبر ١٩٦٠، ص ٣.

تَكَوُّنَ (الشعور بالحاجة)، تحتَ تأثير تلك التطوُّرات»، لا «وفْقَ (الترتيب المنطقيّ)، الذى يخطُر بالبال، عند التفكير فى الأمر تفكيرا مجـرَّدا عن الاعتبارات الاجتماعية وتقاليدها»[1].

ولذلك كانت مُعْظَم هذه المدارس المُنْشَأة حديثا مِن نوع المدارس العَسْكَرِية، وكانت المدارس المَدَنِيَّة - أو المَلَكِيّة - فى خِدمة هذه المدارس العَسْكَرية بالدرَجة الأُولَى.

ومِمَّا يلفِت النظرَ أن الهيئات التبشيرية والدوَل الأجنبية، قد وجدت الفرصة سانحة (لسَدّ الفَرَاغ) القائم فى العالَم العرَبِىّ والإسلامِىّ تحتَ سيطرة العُثمانِيِّين، ومكَّن لها مِن هذه الفُرصة ضعفُ الإمبراطورية العُثمانية، فشرعت فى سَدّ ذلك (الفَرَاغ) بإنشاء المدارس - الطائفيّة والأجنبية، التى سمَحَت لها السُّلطات العُثْمانية بإنشائها وإدارتها، دون تَدَخُّل منها فى شئونها.

فأمَّا المدارس الطائفية، فقد كانت - فى بادئ الأمر - مِن نوع المدارس الدينية حقيقة، غيرَ أنها تطوَّرت بعدَ ذلك بسرعة، وتحَوَّلت إلى (معاهد تعليمية عَصْرِية) بكل معنَى الكَلِمة»[2].

وكانت لغة التعليم التى اختارتها هذه المدارس هى اللغة العرَبية، التى تتمكَّن بها مِن تأدية رسالتها التبشيرية، «ولهذا السبب، انتشَرَ (التعليم العرَبىّ الحديث)، بينَ المسيحيين قبلَ المسلمين. ولهذا السبَب أيضا، كان مُعْظَم الكُتَّاب والمؤلِّفين والخُطَباء، الذين ظهروا فى الولايات العرَبية فى العهد العُثْمَانِىّ، مسيحيِّين، بالرغم مِن قِلَّة عدَد هؤلاء بالنسبة إلى المسلمين»[3].

وأما المدارس الأجنبية، فقد سارت فى نفس الطريق، الذى سارت فيه المدارس الطائفية، وذلك لأن رسالة النوعين مِن المدارس واحدة، ولذلك «أخذت تَهْتَمّ

---

(1) أبو خلدون ساطع الحُصَرِىّ: حَوْلِية الثقافة العرَبية - السنة الأولَى - جامعة الدول العرَبية - الإدارة الثقافية - القاهرة - ١٩٤٩، ص ٤.

(2) المرجع السابق، ص ١١.

(3) المرجع السابق، ص ١٢.

باللغة العربية، بغْيَةَ اجتذاب أبناء الشعب مِن جهة، وتسهيل التأثير فيهم مِن جِهَةٍ أُخرى، وبما أنَّها كانت - فى بادِئ الأمر - مِن نوع المَدارِس التبشيرية عامّة، كانت تأخُذ طُلاَّبها مِن غير المسلمين، وصارت تساعد بذلك على انتشار التعليم العرَبِىّ بينَ هؤلاء، أكثرَ مِن انتشاره بينَ المسلمين»[1].

وهكذا لم تكن هناك فلسَفة تربويّة واضحة مُحَدَّدة فى العالَمِ العرَبِّى تحت الحُكْمِ العُثْمانِىّ، وإنما كانت هناك (فلسَفات) تربوية متعدّدة، خلَقَتها تلك البَداوة، التى فُرِضَتْ على هذا العالَم فى العصر العُثْمانِىّ، فكانت هناك فلسَفة للتربية فى الأزهَر والمعاهِد الدينية المُلْحَقَة به، وفلسَفة أُخرَى للتربية فى مَعَاهِد الدولة الحديثة، التى اضطُرَّت إلى إنشائها تحتَ ضغوط العصر الحديث، وفلسَفة للتربية فى المدارس الطائفية والأجنبية، التى أُنشِئَت فى ذلك العصر، وفلسَفة للتربية فى نظام الطوائف[2]، الذى بدأ يزدَهِرُ منذُ قرون، فى عصر المماليك ... وهكذا.

ويمكن أن تجتمع هذه الفلسَفات التربوية جميعُها تحتَ فلسَفة واحدة كبيرة، هى فلسَفة (التخلُّف)، التى تَركَت معاهد التربية ومؤَسَّساتها المختلفة، كُلّ تَسِيرُ حسبَ هَواها، لاتنتَظِمُها جميعًا فلسفةٌ واحدة، تُشْتَقُّ منها أهدافُ التربية فِى كُلّ منها.

---

(١) المرجِع السابق، ص ١٢.

(٢) هو النظام الذى خلَقَته ظروف الحياة فى العصر الملوكِىّ، حيث توزَّعَت الأُمّة فى طوائف، لكل طائفة منها كِيانُها وتقاليدها وزَعامتها، فهناك نظام للنجّارين، وآخَر للحدّادين، وثالث للبنّائين، وكانت كل طائفة تأخُذ المنتَمِينَ إليها بفُنون مِن التأديب والتهذيب، وهو شبيه بنظام (التلمَذة الصناعية) فى العصر الحديث، وبما يتمُّ الآن فى وِرَش النجَّارين وغيرها مِن الحرف الفَنّيّة، حيث يلتَحِق الطفل بها صغيرا، ويتعلّم فنونَها بحياته مع المتخصّصين فيها.

فلسفة التربية فى مَطلَع النهضة العَربية الحديثة :

لم تكُن العلاقات بين الشرق العربىّ والإسلامىّ مِن جانب، وبلاد الغرب المتقدّمة، مِن جانب آخَر، مقطوعةً تماما فى فترة الحُكْم التركىّ، بل كانت هناك علاقات، ولكنها كانت محدودة، كما أنها كانت «تجرى مِن وراء ظَهْر الدولةِ صاحبةِ السيادة»(١)، وهى تركيا ـ على حَدّ تعبير الدكتور أحمد عِزّت عبد الكريم ـ لتحقيق أهداف عديدة، ليس هنا مجال ذِكرها.

إلّا أنَّ هذه العلاقات كانت على أيّةِ حال محدودة، ومحدودة الأثَر فى الوقت ذاتِه.

وكان مِن نتائج هذه العلاقات، وما نتَجَ عنها مِن اتصالات، ظهورُ طائفة مِن المفكّرين الإسلاميّين، الذين يدْعُون إلى «إحياء الإسلام، فى بَساطته (العربيّة) الأولَى، وتخليصِه مِن شوائب البِدَع، التى دخل أكثرُها على أيدى المسلمين مِن غير العرَب»(٢)، فى عصور الضعف والتخلُّف، التى فُرِضَتْ على المسلمين فرضا(٢)، ومِن هؤلاء المفكّرين الإسلاميين : محمد بن عبد الوهّاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ = ١٧٠٣ ـ ١٧٩١م)، الذى نُسِبَتْ إليه (الحَركة الوهّابيّة) فى الحِجاز، والذى كان يتّخذ مِن مَوْسِم الحَجّ فُرصَة لنَشْرِ آرائه فى العالَم الإسلامىّ كُلّه، عن طريق الحُجّاج، ومِنْ ثَمَّ تَعدّى تأثيرُها الحجاز، إلى العالَمِ الإسلامِىّ كُلّه.

ومِن هؤلاء المفكّرين أيضا : أحمَد خَان (١٨١٧ ـ ١٨٩٨م) فى الهند، وعلى يديه تَتَلْمَذَ الزعيم الباكستانِىّ محمّد إقْبَال (المتوفّى سنة ١٩٣٨م).

وبتأثير هذه المدرسة الفِكرية الإسلامية الكُبرَى، كان ما ظهر مِن حرَكات إسلامية بعدَ ذلك فى الشرق الإسلامِىّ، مثل «الحَرَكة السلَفيَّة» فى مصر على يد

---

(١) الدكتور أحمد عِزّت عبد الكريم : «العلاقات بين الشرق العرَبىّ وأوربا بينَ القرنين السادس عشر والتاسع عشر» (مرجع سابق)، ص ٢٤٨.

(٢) للمزيد مِن المعلومات عن هؤلاء المفكّرين، وما دعوا إليه ـ ارجع إلى :

ـ أحمد أمين : «زُعَماء الإصلاح الإسلامِىّ فى العصر الحديث» ـ فيض الخاطر ـ الجُزء الخامس (مرجع سابق).

(جَمَال الدين الأَفْغَانىّ) (المتوفَّى سنة ١٨٩٧)، و(محمَّد عبدُه) (المتوفَّى سنة ١٩٠٥)»، وكذلك «مدرسة (أحمَد خَان) (الذى وُلِدَ سنة ١٨١٧)، وتزعَّمَها مِن بعدِه (محمَّد إقْبَال) (المتوفَّى سنة ١٩٣٨)» فى الهند، و«الحَرَكة السَّنُوسيَّة»[1] فى ليبيا، وغيرها وغيرها.

ولم يكن الأزهَر فى مصر، والزيتونة بِتُونس، وغيرُهما مِن الجامعات الإسلامية الكُبرَى فى العالَم الإسلامِىّ، بمَعْزِلٍ عن ذلك كُلّه، رَغْمَ ما كان يسودُها مِن جمود.

ولكنَّها - كمؤسَّسات - كانت تقترب مِن هذه الحرَكات والأفكار، بحذَر شديد، وربّما تَقِفُ منها مَوْقِفَ العَدَاء فى بعض الأحيان.

دليلُ ذلك أن الحكومة المصرية عندما ارادت أن تُدْخِلَ العلوم الحديثة فى بَرامج التعليم - كما سنرَى عندَ حديثنا عن عصر محمّد عَلِىّ فى مصر بعدَ قليل - كانت «تخشَى مِن الرأى العامّ فى تعليم الرياضة والطبيعة، فتستَفْتِى شَيْخ الأزهَر، الشيخ محمد الإنْبَابِىّ (هل يَجُوزُ تعليمُ المسلمين العُلومَ الرياضية، كالهندَسة والحساب والهيئة والطبيعيات، وتركيب الأجزاء - المعبَّر عنه بالكِيمْياء - وغيرها مِن سائر المَعَارف». فيُجيب الشيخ «فى حَذَر : (إنَّ ذلك يَجُوز، مع بيان النفع مِن تَعلُّمها)»[2].

ولم يتَعَدَّ دورُ هذه المدارس الفِكرية - على أية حال - مجرَّد التنبيه الهادئ الرقيق، فقد كان رَمَادُ الغفلة المتراكِم كثيفا، وكان النومُ تحتَه عميقا.

وجاء التنبيهُ العنيف، الذى هَزَّ العالَمَ العرَبىّ والإسلامِىّ، مِن بعيد عَبْرَ البِحار، على أصوات المدافع، تقتحم بها قُوّاتُ الاستعمار الحديث جُدْرَانَ الصمت الرهيب، الذى فرضه على هذا العالَم تَخَلُّفُ الأتراك، وذلك فى السنوات الأخيرة مِن القرن الثامن عشر، وقد جاءت تَدُقّ أبوابَ مصر أَوّلَ الأمر، ثم تدقّ كُلَّ الأبواب بعدَ ذلك.

---

(١) الدكتور محمد البَهِىّ : «اتّجاهات الفلسَفة الإسلامية، وكيفية مُجابهة الأفكار الحديثة فى المجتمعات الإسلامية» - الثقافة الإسلامية والحَياة المُعَاصِرة - مجموعة البحوث التى قُدّمت لمؤتمر برنِستُون للثقافة الإسلامية - جَمْع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ص ١٩٢.

(٢) أحمد أمين : «زُعَماء الإصلاح الإسلامِىّ فى العصر الحديث» (مرجع سابق)، ص ١٨٧.

وبرزت فى العالم العربىّ والإسلامىّ قياداتٌ تتصدّى لِرَدّ العُدوان، فرضها (منطِق الأحداث)، لعلَّ أسبقَها إلى الظهور قيادة محمد عَلىّ لمصر، وكانت هذه القيادات ـ فى الغالب ـ تستمدّ تأييدَها مِن علُماء الدين، وإن تنكَّرت لهم بعد أنْ استَتَبَّ لها الأمرُ بعدَ ذلك.

وكانت الحضارة الغربية، ونقلُها إلى الشرق النائم، هدَفَ هذه القيادات، وكان ذلك هو الخطأ الأكبَر الذى وقعَت فيه، فجنت على بلاد الشرق جِناية لايزال يدفَعُ ثمنها حتى اليوم.

وزاد مِن هذه الجِناية، أنَّها اضطُرَّت إلى أن تصطَدِمَ بالقيادات الدينية، التى أيَّدَتْها وآزَرَتْها أوَّل الأمر، لأنها سلكت فى النهضة طريقا مُعاكِسا لذلك الطريق الذى رأته تلك القيادات، مِمّا أدّى إلى (الازدواج) الفِكْرِىّ، وما نتَجَ عنه مِن صدام بين أبناء الأُمّة الواحدة.

كانت القيادات الدينية ـ كما سبَقَ ـ ترَى طريقَ النهضة هو العودة إلى الإسلام فى إشراقته الأُولَى، وإلى التربية الإسلامية للشعب، تربيةً تستنير بها العقولُ التى علاها الصَّدَأُ، وتُسْتَشْفَى بها القلوبُ التى أعماها ضلالُ التقليد الباطل، فتُوضَع الأقدامُ ـ بعدَ ذلك ـ على طريق التغيير المادّىّ المنشود، وكانت القيادات السياسية تُرِيدُ اختصارَ الطريق، بالبدء بالتغيير المادّىّ.

ولما كانت السلطة فى يد القيادات السياسية، فقد فَرَضَت إصلاحَها الذى رأته، وفشلت فيما سعت إليه مِن إصلاح، فجرّت على البلاد ويلات كبيرة، وضيّعت مَوَارِدَها وبدّدتها، وكانت النتيجةُ أنَّ بلادَ الشرق العرَبِىّ والإسلامِىّ لازالت تتعثّر فى طريقها إلى اليوم، ليسبِقَهَا على طريق التقدُّم، بلادٌ نهضَت بعدَها بعشرات السنين، كاليابان، والاتّحاد السوفييتّى، والصين.

وحولَ هذا الازدواج، بين التنمية المادّيّة، والتنمية الروحية والفكرية، دارت فلسَفة التعليم فى البِلاد العرَبية والإسلامية، فى هذه الفترة المبكّرة مِن تاريخ النهضة الحديثة.

ولنضرب مثلا على ذلك بما حَدَث فى مصر، التى وَجَدَت نفسَها - مُنْذُ سنة ١٧٩٨ - عُرْضَة لتيَّارات الغزو الأجنَبِىّ الاستعمارِىّ، الفرنسِىّ الإنجليزِىّ، والتى اختارت قيادتُها الوطَنية الدينية، وعلى رأسها السّيد عُمَر مَكْرَم - مُحَمَّد عَلِىّ، قائدَ الفرقة الألبَانِيَّة فى الجيش العُثْمَانِىّ، للقيادة السياسية، فتَوَلّاها فِعلا سنة ١٨٠٥، وبدأ بها يُحْدِث التغيير.

وكان أوّل ما اتَّجه إليه مُحَمَّد عَلِىّ، حينَ وَصَل إلى السلطة، وبعدَ قضائه على المماليك، هو الجيش، الذى «(استَولَى على كُلّ شىء) - على حَدّ تعبيره»، «حينما استولَى على مصر»، «حتى يستطيعَ أن يُنْشِئ جيشا قويًّا، ينفّذُ به مآربَه، وأغراضَه»[1]، ثم اتَّجه بعدَ ذلك إلى الجهاز الحُكُومِىّ، ليجعَل منه جهازا عَصْريا، قادرا على النهوض بما يُراد للدولة أن تنهَض به مِن أعباء، فى حماية هذا الجيش القَوِىّ.

وحَوْلَ (حاجات) الجيش والدولة، تركَّزَت فلسفة التربية فى مصر فى عهد مُحَمَّد عَلِىّ، ففى ضوئها كانت السياسة التعليمية تُحَدَّد، والمدارس تُفْتَح، والمناهج تُقَرَّر، ولخِدمتها كانت الإدارة التعليمية تَعْمَل، والأموال المُخَصَّصة للتعليم تُقَرَّر، وهكذا.

وكان مُحَمَّد عَلِىّ (يتعجَّلُ) النهضة، بعد أن صارت النهضة جزءا مِن (أَمْنِ) مصر، التى دخلت مُعْتَرَك الحياة الدولية، وصارت جُزءا فى الصراع الدولِىّ على المستعمَرات، خاصَّة ذلك الصراع بين انجلترا وفرنسا - دخلَتْهُ رَغْمًا عنها.

وصارت هذه (العَجَلَة) جُزءا لايتجزأُ مِن فلسفة التربية فى عهد محمّد عَلِىّ.

ولم يكن أمامه مِن معاهد العِلم سِوَى الأزهَر، والمدارس المُلْحَقة به، ولم يكن الأزهَر - بوضعِه فى ذلك الوقت - بحيث يساعده فى تحقيق أهدافه، التى تتلخّص

---

(١) محمد خَيْرى حَرْبِى، والسّيد محمّد العزَّاوى : تطوُّر التربية والتعليم فى (إقليم مصر) فى القرن العِشرين - وزارة التربية والتعليم - إدارة الشئون العامة - مركَز الوثائق التربوية - القاهرة - ١٩٥٨، ص ٨.

فى توفير مَنْ «يقُومون بالأعمال الفَنّية والإدارية فى الجيش والمَصالح الحكومية المختلِفة»[١]، ومِنْ ثَمَّ كان عليه ان يتَّجِهَ أحَدُ اتّجاهات ثلاثة، فهو إمّا انْ يُصْلِحَ الأزهَر، ودُونَ ذلك أهوال، فالرأى العامّ الأزهَرِىُّ لايرضَى عن هذا التغيير، ويَعُدُّه إفسادا للأزهَر، وإفساداً للدين، والرأىُ العامّ الشعبِىّ يتبَعُه ويؤيّده»[٢] - وإما أن يترُك الأزهَر وشأنَه، ويُنشِئَ المدارس المدَنيَّة، يقلّد «فيها المدارس الأوربية، ولايكون لهذه المدارس أية صِلة بالأزهَر»[٣] - وإما أن يُنْشِئَ هذه المدارس المدَنيَّة الحديثة، ويأتى بمعلّمين أورُبّيّين، على أن يجعَل «هذا ضرورة، نتخَلَّصُ منها فى أقرَبِ وقت»، «وعلى هذا الرأى الأخيرِ استَقَرَّ الرأى»[٤].

وهكذا خُلِقَ (الازدِوَاجُ التعليمِىُّ) فى مصر، فى مَطلَع نهضتها الحديثة، خَلَقَتْهُ الظروفُ التى أحاطت بمحمَّد عَلِىّ، فقد اضطُرَّ إلى أن يُنْشِئَ نِظامه التعليمِىّ الحديث، جنبا إلى جنب مع النظام التعليمِىّ القديم - فى الأزهَر والمساجِد الجامعة والكتاتيب.

وأكثَرُ مِن ذلك، أنه أنشَأَ نِظامَه التعليمِىَّ الحديث، على سياسة (الهَرَمِ المقلوب)، بمعنَى أنَّه بدَأَ مِن القِمَّةِ فى بنائه، فقد بدأ بإرسال إحدَى عشرة بعثة إلى أوربا[٥] - أرْسَلَها إلى بلاد الإنجليز وبلاد إيطَالْيَا وبلاد النِّمْسَا وألمانيا»[٦]، كما بدأ بإنشاء (المدارس الاختصاصية) - أى العُلْيَا، مثل مدرَسة الطبّ والمهنيسْخَانة والبحرية والزراعة والألْسُنِ الأجنبية والصنائع والحِرَف والموسيقَى، فضلا عن العلوم العسكَرية، وقد اختار طُلّابها مِن بينِ طَلَبة الأزهَر[٧].

---

(١) المرجِع السابق، ص ٨.
(٢) أحمد أمين : «الشيخ رفاعة رافع الطهطاوىّ، مُؤَسِّس النهضة العِلمية الحديثة» - فيض الخاطر - الجُزء الخامس - مطبعة لجنة التأليف والترجَمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٤، ص ٧٣.
(٣) المرجِع السابق، ص ٧٣.
(٤) المرجِع السابق، ص ٧٤.
(٥) الدكتور محمد بديع شَرَف : «اليقَظة الفِكرية والسياسة فى القرن التاسع عشر» - دراسات تاريخية فى النهضة العَرَبية الحديثة - الإدارة الثقافية بجامعة الدول العَرَبية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ص ٢٩.
(٦) على باشا مُبَارك : الخُطَط التوفيقية الجديدة، لمصر القاهرة، ومُدُنها وبلادها القديمة والشهيرة - الجُزء الأوَّل - الطبعة الأولَى - المطبعة الكبرَى الأميرية ببولاق مصر المحْمِيَّة - القاهرة - سنة ١٣٠٦ هجرية، ص٨٨.
(٧) المرجع السابق ، ص ٨٨.

ثم وَجَدَ أنَّ هذا النوع مِن التعليم العالِى يحتاج إلى إعداد أو تجهيز خاصّ، فأنشأ لهذا الهَدَف (المدارس التجهيزية) - أى الثانوية، ثم أنشأ بعدَ ذلك المدارس الابتدائية.

وكان هدَفُ المدرسة الابتدائية هو إعداد المتعلّمين للمرحَلة الثانوية، وهدَف المرحَلة الثانوية هو إعداد المتعلّمين للمرحلة العُلْيَا، وهدَف المرحَلة العُليَا، هو إعداد ضُبّاط الجيش وموظّفى الحُكُومة.

وهكذا وُلِدَ نظامُ التعليم المصرِىُّ الحديث مَيْتًا، فكان عِبئا على نهضة مصر الحديثة، أكثرَ مِمَّا كان عَوْنا لها، وذلك لأن فلسَفته قامت على فَرْضِيَّة خاطئة مِن أساسها، وهى أنَّ النهضة يمكن أن تتحقّق على يد (قِلَّة)، تتلقَّى هذا التعليم الحديث، وتُدِيرُ به مَرَافِقَ البلاد، بينما الكثرة الغالبةُ تتلقَّى التعليم القديم فى الأزهَر، أو لاتتلقَّى تعليما على الإطلاق.

ثم إنَّ هذا التعليم الحديث ارتبَطَ بالجيش والحكومة، ولم يرتبط بالهَدَف الأكبَر، الذى كان لابُدَّ أن يرتبط به، وهو (التشكيل الأيديُولُوجِىّ) لنفوس المصريين، حتى يستطيعوا - بهذا التشكيل الجديد - تَقَبُّلَ النهضة واحتضانها، ومِنْ ثَمَّ أصابَ هذا النظامُ التعليمِىُّ الحديثُ ازدهارا ملحوظا بينَ سنتى ١٨٣٦ ، و ١٨٤٠ ، حيث «استكمَل (النظام التعليمِىّ) كِيانَه»[١]، ثم سرعان ما انهار، حتى فى حياة مُحَمَّد عَلِىّ نفسه، خاصّة بعد تَسْوِيَة ١٨٤١ ، التى فرضَتْها إنجلترا، متحالِفة مع تركيا، على مصر، حيث لجأت الحكومة «إلى سياسة الاقتصاد فى تدبير مَرَافِق البلاد، وفى مقدّمتها الجيش، فاضطُرَّت إلى إلغاء بعض المدارس، وضمّ بعضِها إلى البعض الآخَر»[٢]، حتى انخَفَض عَدَدُها سَنَة وفاته، مِن ٦٣ مدرَسة، إلى ٨ مدارس، وانخَفَض عَدَدُ الطُّلَّاب مِن أكثر مِن عشرة آلاف طالب، إلى ٢,٩٨٩ طالبا[٣].

---

(١) الدكتور أحمد عِزَّت عبد الكريم : «مصر» (مرجِع سابق)، ص ٥٦٢.
(٢) المرجِع السابق، ص ٥٦٢،
(٣) أبو خلدون ساطع الحُصَرِىّ : حولِيَّة الثقافة العربية - السنة الأولَى (مرجِع سابق)، ص ٣٦٠.

وهكذا عاشَ نظامُ التعليم المصريّ الحديث «قَلِقًا، مُعَلَّقًا فى الهواء، لم تمتدّ جذورُه إلى باطن التربة المصرية، فكان مِن ذلك ما نعرفه مِمَّا أصابه مِن الاستقرارِ حينا، والترنُّحِ حينا، ومن التوسُّع حينا، والانكماشِ حينا آخر»[1]، حسبَ المِزاج الخاصّ بكُلّ خليفة مِن خُلَفائه.

ففى عصرى عبّاس الأوّل وسعيد، أُغلِقَت المدارس، وانهار النظام التعليميّ، وفى عصر إسماعيل، عادت إلى النظام التعليميّ الحياة، ولكنها الحياةُ (المشوَّهة) التى توفّرت له فى عصر مُحَمَّد عَلِىّ، ومِنْ ثَمَّ انتهَى حُكم إسماعيل «فى سنة ١٨٧٩، وما زالت الخُطّة التى رُسِمَت فى سنة ١٨٧٦، واللوائح التى وُضِعَتْ فى سنة ١٨٧٤، حَظُّهَا مِن النجاحِ والتنفيذِ ضئيلٌ»[2].

وانتهَى حُكْمُ إسماعيل بإغراق مصر بالديون، وبالتدخُّل الأجنَبِىّ فى شئونها، ثم انتهَى - أخيرا - بعزله واحتلال الإنجليز لها سنة ١٨٨٢.

وصارت فلسَفة التعليم فى عصر الاستعمار الإنجليزِىّ تقوم على (حَصْره فى أَضْيَقِ الحُدود)، وعلى تدعيم (الازدواج) الذى وُلِدَ مُصابا به، وعلى رَبْطِه بحاجات الحُكومة إلى موظّفين.

ومِنْ ثَمَّ كان عَصْرُ الاستعمار الإنجليزِىّ عَصْرَ انتكاسة تعليمية، تدعَم نِقَاطَ الضعف التى وُلِدَ مُصابا بها، وتُغْلِقُ البابَ فى وجه الاصلاحات التى سعَى المُصْلِحُون المصريّون إلى تحقيقها فى عصر إسماعيل.

وحصلت مصر على الاستقلال والدستور - بعدَ كفاح طويل - سنة ١٩٢٣، ولكنها ضَيّعت ثمارَهما معا، بما سارت عليه الحكومات المصرية المتعاقِبَة،

---

(١) الدكتور أحمد عِزّت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر، مِن نهاية حُكْم محمّد عَلِىّ، إلى أوائل حُكْم توفيق (١٨٤٨ - ١٨٨٢) - الجُزء الأول - عصر عبّاس الأوّل وسعيد (١٨٤٨ - ١٨٦٣) - وزارة المعارف العمومية - القاهرة - ١٩٤٥، ص ١٥.

(٢) الدكتور أحمد عِزّت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر، مِن نهاية حُكْم محمّد عَلِىّ، إلى أوائل حُكْم توفيق (١٨٤٨ - ١٨٨٢) - الجُزء الثانى - عصر إسماعيل، والسنَوات المتّصلة به مِن حُكم توفيق (١٨٦٣ - ١٨٨٢) - وزارة المعارف العمومية - القاهرة - ١٩٤٥، ص ١٩.

مِن سياسات قصيرة النظَر فى التعليم، كان مِن نتيجتها أنّ مُشكِلاَتِها التعليمية بعدَ الحرب العالمية الثانية، رغمَ أنها لم تشترك فى الحرب، كانت ـ على حَدّ تعبير أحمد نجيب الهِلاَلِىّ ـ «أخَفّ مِن مُشكلات الدول المحارِبة مِن بعض النواحِى، ولكنّها أفدَحُ منها مِن نَواحٍ أُخرَى كثيرة»(١).

وكان هذا (التخَبُّط) فى السياسة التعليمية، هو الذى يقف وراءَ ما تعانيه مصرُ مِن مُشكلات تعليمية اليوم.

وهذا الذى حدَث فى مصر، حدَث فى العراق أيضا.

فقد مَرَّ نِظامُ التعليم فى العراق ـ بعدَ سقوط بغداد مثلا ـ بأربعة عصور تاريخية، هى : العصر العُثمانِىّ، الذى انتهَى بها سنة ١٩١٤، تلاه عصرُ الاحتلال الإنجليزِىّ، ثُمَّ الحُكْم الوَطَنِىّ الملَكِىّ، ثم العهد الجُمْهُورِىّ، الذى بدَأ بها بعدَ ثورة تَمُوز (يُولْيُو ١٩٥٨).

و«النظامُ التعليمِىّ فى العهد الجمهورِىّ، فى جوهره، ما هو إلا امتدادٌ طبيعِىٌّ للنظام التعليمِىّ، الذى كان سائدا فى العهد الملَكِىّ، وإبقاء عليه، مِن حيثُ التطبيقاتُ العَمَلية للفلسَفة والأهداف والمحتَوَى والوسائل.

وإنَّ ما حَدَثَ مِن تغييرات وإصلاحات،كانت جُزْئِيَّة، غيرَ شاملة»(٢).

وما حَدَثَ فى مصر والعِراق، يمكن أن نراه ـ بصورة أو بأُخرَى ـ فى كُلّ بَلَد عَرَبِىّ آخَر، فالتخَبُّطُ فى السياسة التعليمية ـ لأسباب عديدة سنراها فى الفصل التالِى ـ عندَ الحديث عن الأصول الثقافية لفلسفة التربية العربية المعاصِرة ـ هو السِّمَة البارزة لفلسَفة التربية العَرَبِيّة المعاصرة.

---

(١) أحمد نَجيب الهِلاَلِىّ : تقرير عن إصلاح التعليم فى مصر ـ وزارة المعارف العمومية ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٠، ص ٩.

(٢) الدكتور مُسَارِع حَسَن الراوِى : نَحْوَ استراتيجية جديدة للتعليم فى العراق ـ مطبعة التقدُّم ـ القاهرة ـ ١٩٧٤، ص ٩٥.

ثانيا : الأُصول الثقافيّة لفلسفة التربية العرَبيّة المُعَاصِرة

تقديم :

تخلَّصت البلاد العرَبيّة مِن حُكْم الأتراك العُثمانيّين المتخلِّف، فى فترات مختلفة، وكانت أسبق البلاد العرَبيّة إلى التخلُّص مِن هذا الحُكم - كما سبق فى الفصل الماضى - هى مصر، التى تخلَّصت منه مع مطلع القرن التاسعَ عشر. وبعدَ أكثرَ مِن قرن مِن الزمان، تخلَّصت منه البلاد العرَبية الأُخرَى.

وبذلك بدأ (احتكاك) العرَب بالحضارة الغربية الحديثة فى أوقات مختلفة.

وتخلَّصت البلاد العرَبيّة مِن تخلُّف الأتراك، لتقع فى براثن الاستعمار الغربىّ الحديث، فى فترات مختلفة أيضا، وكانت أسبق البلاد العربية إلى الوقوع فى هذه البراثن هى مصر أيضا، ثم تحرَّرت البلاد العرَبية مِن قبضة هذا الاستعمار الغربىّ، فى فترات مختلفة أيضا، بعدَ الحرب العالَمية الثانية.

وخرجت البلاد العرَبية مِن قبضة الاستعمار مُنْهَكَة القُوَى ممزَّقة، ودخلت كل منها عهد الاستقلال بآمال وتطلُّعات، أكبرَ مِمَّا تُطيق إمكانيّاتها ومَواردها - المادّيّة والبشَرية، شأنُها فى ذلك شأنُ غيرِها مِن بلاد العالَم الثالث، وكانت النتيجة سِلسِلة مِن الإخفاق والفشَل، وعدَم قدرة على مجابهة الحضارة العالَمية الراهنة، ومِنْ ثَمَّ (ازدواج) فى التفكير، تختلف حِدّته مِن بَلَد عَرَبىّ إلى آخَر، ولكنه يكاد أن يقضِىَ على كل خُطوة فى سبيل الإصلاح عموما، والإصلاح التعليمىّ بصفة خاصّة.

وتفجَّر الذهَبُ الأسود فى كثير مِن أجزاء العالَم العرَبىّ، فحوَّل فقرها إلى غِنىً، وضِيقَها إلى رخاء، وصحراءها إلى جنَّات وعيون، وبَيْدَاءَها إلى مُدُن جديدة عِملاقة.

ولكن هذا الذهَب الأسود لم يستطع - حتى الآن - أن ينقل إلى الأرض التى

تفَجَّر فيها أصول الحضارة الغربية، وإن نقل إليها مَظاهرها، متمثّلة فى العمارات الشاهقة، والسيَّارات الفخمة، ووسائل الاتصال الحديثة، وغيرها مِن الأمور التى هى نتيجة مِن نتائج الحضارة الغَرْبية، ولكنها ليست هى تلك الحضارة، إذ أصول الحضارة تكمُن فى (الإنسانِ)، القادر على خَلْقها، لا الإنسانِ (المستهلِك) لها.

وهكذا مع (الازدواج) الفكرِىّ، كان الاتصالُ بالغرب المتقدّم مِن موطن الضعف، لامِن موطِن القُوَّة، ولعل هاتين الظاهرتين أن تكونا هما السمتين الأساسيتين اللتين تَتَّسم بهما فلسفةُ التربية العربية المعاصِرة، فتخلقان المشاكل المختلفة للتربية فى العالَم العرَبِىّ، وتَعُوقان الخُطُوات المحدودة المُمْكِنة للتقدُّم التعليمىّ فى هذا العالَم.

وسوف نرَى - بشئ مِن التفصيل - انعكاسَ هاتين السمَتين، على الأصول الثقافية لفلسَفة التربية العربية المعاصِرة، فى هذا الفصل، الذى نضع به - بذلك - يَدَنا على الداء، ليسهُل بعدَ ذلك - فى الفصل التالِى والأخير - تشخيصُ الدواء.

١ - الأصول التاريخية لفلسَفة التربية العرَبيَّة المعاصِرة :

وتُعتَبر هذه الأصول التاريخية هى المسئولة - بالدرَجة الأُولىَ - عن السمتين - الأساسيّتين، اللتين رأيناهما أوضحَ سمات فلسفة التربية العرَبية المعاصرة، وهما الازدِواج الفِكرىّ، والاتّصال بالغرب المتقدّم مِن موطِن ضعف، كما تُعتبَر - فى الوقت ذاتِه - هى المكوّن الأساسىّ (للشخصية القومية) العرَبية المعاصرة، أو بعبارة أُخرَى، هى التى تلوّن غيرَها مِن القُوَى الثقافية الأُخرَى - كما سنرَى.

ولقد مرّت الأُمّة العرَبية بفترات تاريخية عديدة، منها تاريخُها قبل الإسلامِىّ، ومنها تاريخُها الإسلامِىّ، بعهوده وعصوره المختلفة، سواء فى ذلك عصور القوّة، حتى العصر العبَّاسِىّ الثانِى، وعصور الضعف، ابتداء مِن سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م)، وحتى اليوم.

فمع سقوط بغداد، بدأت الأُمّة العرَبية تسير فى طريق الضعف والتفكُّك، والجمود والتخلُّف، وبدأت العناصر غير العرَبية تتحكّم فى مُقَدَّراتها، وتفرِض عليها العُزلة والجمود، حتى فُرِض عليها - مع نهاية القرن الثامن عشر - أن تتَّصل بالعالَم الغرْبِىّ، غازيا لها، طامعا فى خيراتها، مزوّدا - هذه المرّة - بالمُعِدّات الحديثة، التى توصل إليها الإنسان الغربىّ بعدَ ثورة الإصلاح الدينىّ فى أوربا سنة ١٥١٥م.

وبدأت الأُمّة العرَبية تتعامَل مع الجديد الذى فُرِض عليها بأنماط قديمة، ومِنْ ثَمَّ بدأ (الازدواج) فى شخصيتها، وبدأ - فى الوقت ذاتِه - نظرُها إلى ما توصّل إليه الغرب، على أنه (هدَف) فى حَدّ ذاته، بِغَضّ النظَر عن مدَى ملاءمته لنا، أو مساهمته فى تحقيق تقدُّمنا.

كان ذلك يحدُث فى عصر استعمار دُوَل الغرب للعالَم العرَبِىّ عن قصد[1]، تحطيما (للشخصية القومية) العرّبية، وإذابةً لها فى بوتقة الدولة الغربية المستعمِرة، وقد استمرّ يحدث فى عصور الاستقلال والتحرُّر، تعجُّلا للنهضة، على يد الحكومات الوطنية، تعجُّلا يضيّع الجهود ويبدّد الموارد، على نحو ما سنرَى فيما بعد، وعلى نحو ما رأيناه فى الفصل الخامس، عندَ حديثنا عن الأصول الثقافية لفلسَفة التربية فى بلاد العالَم الثالث عموما[2].

ومعنَى ذلك أن السياسات القومية التعليمية العرَبية، لم تكن فى عهود الحكومات الوطَنية، خيْراً - بكثير - منها فى عهود حكومات الاستعمار.

---

(١) بلغت هذه السياسة الاستعمارية - التى تقوم على إذابة المستعمَرات فى شخصية الدول المستعمِرة - مداها فى ظل الاستعمار الفرنسِىّ، الذى أقام سياستَه الاستعمارية على أساس الفَرْنَسَة والكَثْلَكَة، أىْ فرض اللغة الفرنسّية والمذهَب الكاثُوليكِىّ المسيحِىّ، على المستعمَرات، ولعل ما فعله بالشمال الأفريقِىّ واضح للعيان أمامنا اليوم، حيث تبذُل بلادُه العرَبية الكثير لتعريبه مرّة ثانية.

وقريب مِن هذه السياسة الاستعمارية الفرنسية - السياسة الهُولندية فى إندونِسّيا.

وذلك على عكس السياسة الإنجليزية التى تقوم على اللامركزية - لا على الدمج - وإن قامت - أيضا - على فَرْض اللغة الإنجليزية على المستعمرات، إلى جانب اللغة القومية أحيانا.

(٢) ارجع إلى ص ١٩٠ - ١٩٤ مِن الكتاب الأصلِىّ.

والفرقُ بينَ العهدين ـ العهدِ الاستعماريّ والعهدِ الوطَنِىّ ـ فرقٌ فى الدافع إلى هذا التخبُّط فى السياسة التعليمية، وبُعْد فلسفة التعليم عن واقع الأُمَّة العَربية.

كان هذا الدافع فى العهد الاستعمارِىّ، هو تحطيم مقوّمات الأُمَّة العربية، ضمانا لاستمرار تبعِيَّتها للاستعمار والحُكْم الأجنبِىّ الدخيل، ومَسخاً (للشخصية القومية) العرَبية، بإذابتها فى (الشخصية القومية) للدولة المستعمِرة، بينما صار هذا الدافع فى عهد الحكومات الوطَنية هو (تعجُّلُ) النهضة القومية، وتعجُّلُ النهضة لايؤدّى بالضرورة إلى النهضة، بل قد يؤدّى إلى الانتكاسة تِلْوَ الانتكاسة.

وكانت النتيجة واحدة، فالفلسَفة التعليم فى العالَم العرَبِىّ اليوم، لاتزال بعيدة عن (الشخصية القومية) العرَبية، لأنها إما فلسفة قديمة بالية، لاتتَّصل بالدين الإسلامِىّ، وإن ادّعت اتّصالها به ـ وإما فلسَفة حديثة ـ غربية أو شرقية ـ لا تتَّصل بواقع الأُمَّة العربية الحالِىّ.

وقد أحسَنَ الدكتور محمد فاضل الجَمَالى، التعبيرَعن هذه الحقيقة بقوله: «تُجابه الأُمَّة العربية اليوم مَشاكل عديدة، بعضُها نَاتِجٌ عن تخلُّفها عن السير فى ركب الحضارة العالَمية عِدَّة قرون، حتى أواخِر القرن الماضِى، ثم يقَظَتها أمامَ عالَم تَسُوده القومِيَّات والعلوم والمختَرَعات والتنظيم الحديث. بينما يعيش مُعظم أبنائها فى عقلية القرون الوُسطَى، ويحيَا نَفَرٌ قليل منهم حياة قبَلِيّة. يُضَاف إلى ذلك مشاكل نجمت عن احتكاك العَرَب بالحضارة العالِمَية الجديدة، التى تحمِل فى طَيَّاتها مشاكل كُبرَى، داخلية وخارجية.

والحقيقة أن الأُمَّة العَرَبية تمثّل اليوم قافلة تسير مقدّمتها فى عصرنا الحاضر، أى فى سنة ١٩٥٥، ومؤخّرتها فى القرون الوسطَى. وإن شِئْتَ فَقُلْ: فى الحياة القَبَلية، التى ترجِع إلى ما قَبْلَ أَلْفَىْ سنة»[1].

---

(١) الدكتور محمد فاضل الجَمَالى: آفاق التربية الحديثة فى البلاد النامية ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس ـ ١٩٧٢، ص ١٠١، ١٠٢.

وعندما تنفصل فلسَفة التعليم عن واقع الأمة على هذا النحو، فإن النتيجة تكون واحدة، وهى فَشَلُ السياسة التعليمية، وعجزُها عن تحقيق أهدافها[1].

ويكفى تدليلا على هذا الفشَل، انه رغم الجهود الكبيرة التى تُبْذَل للقضاء على الأُمّيّة فى العالَم العربِىّ، فإن عَدَد الأمّيّين العرَب يزيد عاما بعدَ عام، حيث «تُشير الإحصاءات الدولية عن الأمّيّة، ان نسبة الأُمّية فى مجموع البلدان العَربية، وإن كانت قد هبطت مِن ٨١,٧٪ سنة ١٩٦٠، إلى ٧٣٪ سنة ١٩٧٠، فإن عَدَد الأُمّيّين قد ارتفع فى نفس المدّة، مِن ٤٣ مليون إلى ٥٠ مليون». و«إذا سارت جهود محو الأُمّيّة بنفس المعدّل، فإن عَدَد الأميين يُتَوقَّع ان يكون ٦٧,٧ مليون نسمة، ونسبتهم إلى مجموع الكبار (سن ١٥ فما فوق) ينتظر الا تقلّ عن ٥١,٥٪ سنة ١٩٩٠. ومعنَى هذا استمرار حِدّة القضية ونتائجها»[2].

وهذا الذى نراه فى مجال محو الأُمّيّة، نراه بصورة أوضَح فى نواحى التعليم الأُخرَى فى العالَم العرَبىّ[3]، ومرجِعُه كله عدَم ارتباط فلسَفة التعليم الحالية فى العالَم العربىّ بأهداف الأُمّة العرَبية وواقعها الذى تعيشه، بسبَب ما مرّ به مِن ظروف تاريخية ـ كما سبَق.

٢ ـ الأُصول الجُغرافية لفلسَفة التربية المعاصرة:

وهى تختلف مِن بلَد عرَبىّ إلى آخَر. فهناك بلاد عرَبية زراعية، وبلاد عرَبية صحراوية، وبلاد عرَبية ساحلية، وبلاد عرَبية جَبَلية .... وهكذا.

---

(١) ارجع إلى بعض مظاهر هذا الفَشَل فى:

ـ دكتورة نازلى صالح احمد: «التعليم فى الوطَن العربى» ـ الباب الخامس مِن: فى التربية المقارنة ـ الطبعة الأولَى ـ عالَم الكُتُب ـ القاهرة ـ ١٩٧٤، ص ٣٢٣ ـ ٣٤٤.

(٢) الدكتور محمد احمد الغنّام: «استراتيجية التربية فى العالَم العرَبىّ» ـ التربية مِن اجل التنمية ـ المؤتَمر التربوى لتطوير التعليم ما قبل الجامعىّ، المنعَقِد بدمشق فى ٣ ـ ٨ آب ١٩٧٤ ـ الجمهورية العربية السورية ـ وزارة التربية ـ دمشق، ص ٢٣٤.

(٣) ارجع إلى (السمات العامّة للتعليم فى البلاد العربية) فى:

ـ دكتور عبد الغنى عبود: الأيديولوجيا والتربية، مدخَل لدراسة التربية المقارنة ـ الطبعة الأُولَى ـ دار الفكر العرَبى ـ القاهرة ـ ١٩٧٦، وذلك ضمن الفصل التاسع، بعنوان: (الأيديولوجيا والتربية فى العالَم العرَبىّ).

وسوف نتعرَّض لهذه السمات سريعا، بعد حديثنا عن (الأصول الحضارية لفلسفة التربية العرَبيّة المعاصرة)، فى نهاية هذا الفصل.

ومن ناحية أُخرَى، نجد بلاداً عرَبية يميل جوُّها إلى البرودة، وبلاداً عرَبية أُخرَى يميل جَوُّها إلى الحرارة، وبلاداً عرَبية أمْيَل إلى الاعتدال.

وكذلك نجد بلاداً عرَبية قريبة - بحُكم موقعها الجُغرافِىّ - مِن مراكز الحضارة العالمَية، كبلاد الشمال الأفريقىّ ومصر والشام، وبلاداً أُخرَى - بحُكم موقعها الجغرافِىّ أيضاً - بعيدة عنه.

وأكثرَ مِن ذلك أننا نرَى تفاوُتا فى ذلك كله فى داخل البلَد العرَبىّ الواحد، فالجزءُ الشمالى مِن دلتا النيل فى مصر - مثلا - معتَدِل، قريبٌ مِن مركز الحضارة العالَمية، ساحِلىّ أو زِرَاعِىّ، وعلى العكس منه، الأجزاءُ الجنوبيةِ مِن صعيد مصر.

وهذا التنوُّع فى البيئة الجغرافية، ليس أمرا قاصراً على العالَمِ العرَبىّ، وإنما نراه فى بلاد أُخرَى كثيرة، خاصّة تلك البلاد التى تضمّ عدَداً مِن الأقاليم أو الجمهوريات، أو ما إلى ذلك، كما هو الحال فى الهند والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتّى السابق.

وهو - فى الوقت ذاته - لايُعتَبر نُقطة ضعف فى العالَم العرَبىّ، بقدر ما يُعتَبَر نُقطة قُوَّة فيه، لأنه يعنِى أن هذا العالَم - لو اتَّحدت أجزاؤه التى فَتَّتَتْها عهودُ التخلُّف، وزكَّى تفتُّتَها الاستعمارُ الحديث، والنزَعات القبَلية والاستبدادية، التى سيطَرَت على مُقدَّراته بعدَ تحرُّره مِن الاستعمار - فإنه سيصير قُوَّة كُبرَى، يمكن أن تحقق لونا مِن ألوان الاكتفاء الذاتِىّ، تفتقِر إليه كثير من المجتمعات المعاصرة، ذات الكيانات الصغيرة، المتقاربة مِن حيثُ الظروفُ الجغرافية.

وتفرِض هذه الأصولُ الجغرافيةُ للبلاد العرَبية ألا تكون هناك (فلسَفة) واحدة للتعليم فى البلاد العرَبية، تفرِض نفسَها على بَدْوِه وحَضَره، أو على ريفه ومُدُنه، أو على شواطئه وجباله، بل تكون هناك (فلسفات) للتعليم، تنبُع مِن واقع أهل هذه البيئة وحاجاتهم، ومستوَى تفكيرهم، وأنماط حياتهم، وغيرها.

وليس معنَى ذلك أننا دُعاة تفرِقة بين أبناء الوطَن العَربىّ الواحد، ولكن معناه أننا ندعو إلى أن يكون لفلسَفة التعليم، فى كل بيئة جغرافية عرَبية - وظيفة.

ثم إن فلسفة التعليم هذه، لابد أن تُشْتَقَّ مِن الخطوط العريضة للفلسَفة التعليمية الأُمّ، التى تختارها الأمة العرَبية لنفسها، والتى تعبّر عن واقع الأمة العرَبية ككُلّ، وعن أهدافها القريبة والبعيدة.

فهى إذن فلسفات (إقليمية) للتربية، فى إطار فلسفة تربوية عرَبية كُبرَى.

ورغم ذلك، فإن (تمزُّق) فلسَفة التربية فى العالَم العرَبىّ - بسبَبِ ما مَرَّ به مِن ظروف تاريخية - كما سبق - بين تربية حديثة وتربية قديمة، وبين فلسَفة فرنسية للتربية، وفلسفة أمريكية أو إنجليزية لها - قد أدّى إلى بُعد فلسَفات التربية فى عالَمنا العرَبىّ المعاصر، عن حاجات وواقع الأقاليم العرَبية فى داخل البلَد العرَبىّ الواحد، بُعْدَها عن حاجات وواقع كُلّ بَلَد عرَبِىّ، وبُعدَها عن حاجات وواقع الأمَّة العرَبية كلها.

لقد صارت فلسفة التربية بكلّ بلَد عرَبىّ - نتيجة لبُعْدِها عن واقعه وحاجاته، وارتباطها بفلسفات التعليم فى البلاد المتقدّمة - مَسْخاً مُشوَّهاً.

وكان هذا (المَسْخُ المُشَوَّه) هو الذى يقف وراءَ تخلُّف نُظُم التعليم فى البلاد العرَبية.

٣ - الأُصول الاقتصادية لفلسَفة التربية العربية المعاصرة :

وهى تختلف مِن بلَد عربىّ إلى آخَر، باختلاف الظروف الجغرافية لكل بلَد، ودرجة تقدُّمه الحَضَارِىّ، فبه الأرض الزراعية، وبه المعادن التى يزخَر بها باطن أرضه، وبه الشواطئ الممتدّة، وبه المصانع أيضاً.

فإمكانياتُ التكامُلِ الاقتصادىّ بينَ البلاد العرَبية متوافرة، ولكن انعدامَ الثقة وسُوءَ الظنّ بينَ سَاسَتِه، حالَ دُونَ تحقيق هذا التكامُل، وترَكَ تلك الثروات نَهْباً للشركات الأجنبيّة، التى تُعتَبر موضِع ثقة العرَبِىّ، لأن أمواله عندَها مضمونة مأمونة، بينما هى عندَ العربىّ الآخَر عُرضة للتأميم والمصادرة.

يُضافُ إلى ذلك أن الإمكانيّات الفنّيّة والبشَرية، القادرة على استغلال هذه المصادر الطبيعية للثروة، محدودة مع أن كثيرا مِن الإمكانيّات الفَنّيّة يمكن شراؤها مِن البلاد المتقدّمة، وكثيراً مِن الإمكانيات البشَرية يمكن الحصول عليها إما مِن الخارج، وإما مِن الخِبرات العَرَبية ذاتها، التى تَستنزِفُها البلاد المتقدّمة، خاصّة الولايات المتحدة وإنجلترا، والتى تهرَب مِن البلاد العربية - بلادِها - إما فى سبيل الفُرصة الأحسَن، أو فى سبيل البحث عن الأمن والاستقرار، أو فى سبيل البحث عن جوّ العمَل العِلميّ الخَلّاق.

ولن تستطيع البِلاد العرَبية استغلال مصادر الثروة الطبيعية بها، إلا إذا زُرِعت الثقة فيما بينها مِن جانب، وفى قلوب أبنائها مِن جانب آخَر، والمجال هنا واسع لتقوم (الجامعة العربية) بدور خَلّاق، تضمَن فيه (للإنسان) العرَبىّ حُرِّيَّتَه وكرامتَه وأمنَه ومستقبَله، وتُنَسّق لتحقيق التكامُل الاقتصادِىّ بين البلاد العرَبية، بحيث يكون (خيرُ العرَب للعرَب).

وعلى مستوَى الجامعة العرَبية يجب إنشاء (بنك للعقول العرَبية)، يُدَّخَر فيه العقل العرَبِىّ، الذى يستنزفه الغرب المتقدّم بطرُق شَتَّى، و(جامعة للعقول العرَبية)، تُعَدّ فيها هذه العقول إعدادا قومِيًّا، ترتبط فيه بالأُمَّة العرَبية وإمكانياتها، وتقتصر الدراسة فيها على درجتى الماجستير والدكتوراه، بإمكانيات عرَبية، وفى بيئة عرَبية، وعلى يد أساتذة عرَب، ويُستَعان فيها بالخبرات والأساتذة الأجانب، إن استدعَى الأمرُ ذلك - وهو لابُدَّ أن يستدعِىَ ذلك بالفِعل.

وعلى مستوَى الجامعة العرَبية كذلك، يجب أن يقوم جهاز للتخطيط الاقتصادِىّ، على مستوَى الأُمَّة العرَبية كلها، يخطّط لتحقيق ذلك التكامُل الاقتصادِىّ بينَ البلاد العرَبية، ويخطّط لاستغلال موارد الثروة الطبيعية لدَى كُلّ بلَد عرَبِىّ.

وعلى مستوَى الجامعة العرَبية - قبلَ ذلك وبَعدَه - يجب رسم فلسَفة عربية للتربية، تلتزم بها البلاد العرَبية كُلّها، على غرار ما حدث فى ميثاق الوحدة العرَبية الثقافية، الذى أقَرّه وزراءُ التربية العرَب فى بغداد سنة ١٩٦٤، ثم أقرّته

الجامعة العَرَبية بعد ذلك، والذى لاتزيد بنوده على أن تكون كلاماً إنشائياً، أُحسِنَت صياغتُه، ولكنه لم يتعدَّ الورَق الذى صيغ عليه حتى الآن.

على أنه يجب أن تكون هذه الفلسَفة العَرَبية للتربية، مجرّد خطوط عريضة، تتحرّك فى إطارها فلسَفة التربية فى كُلّ بلَد عرَبىّ، حتى تكون تلك الفلسَفة نابعة - فى حدود هذا الإطار العامّ - مِن واقع كُلّ بلَد عرَبىّ.

ومِنْ ثَمّ تكون هناك أصول اقتصادية لفلسَفة التربية العربية - كما يجب أن تكون.

أما التربية العَرَبية الراهنة، فإنها لاتستند فلسَفتُها إلى تلك الأصول الاقتصادية، وذلك بسبَب ارتباط فلسفة التعليم فى كُلّ بلَد عرَبىّ - كما سبق فى أكثَر مِن مناسبة - بفلسَفات تعليمية فى بلاد أُخرَى - متقدّمة، للتربية فيها أصول اقتصادية، تختلف عن تلك الأصول الموجودة فى العالَم العرَبىّ.

ومِنْ ثَمّ كان التعليم فى العالَمِ العرَبِىّ بعيداً عن ذلك العالَمِ.. العرَبِىّ.

وهذا الذى قِيلَ عن مصادر الثروة الطبيعية، كجانب مِن جانبين للأصول الاقتصادية للتربية فى العالَمِ العرَبِىّ، يمكن أن يُقَال عن النظَرِيّة الاقتصادية - الجانب الآخَرِ مِن هذين الجانبين.

وبالبلاد العَرَبية نظَرِيّات اقتصادية مختلفة، فَبِهَا نُظُم رأسمالية، وبها نُظُم اشتراكية متطرّفة، وبها نُظُم اشتراكية معتَدِلة، وبها - بالإضافة إلى ذلك - نُظُم اقطاعية متخلّفة.

بيد أن هذه النظَرِيّات - أو النظُم الاقتصادية بتعبير أصحّ - لاتنعكس بصورة واضحة على فلسَفات التعليم فى البلاد العَرَبية، فـفلسَفة التعليم ومشكلاته فى بلَد رأسمالِىّ متطرّف، مثل لبنان، قريبة مِن فلسفته ومُشكلاته فى بلد يَسَارِىّ متطرف، كاليَمَن الجنوبية الديموقراطية (عَدَن سابقا).

ذلك أن هذه النظَرِيّات - أو النظُم - الاقتصادية العَرَبية، ليست ناتجة عن

حَرَكة شعب عرَبِىّ، بقدر ما هى ناتجة عن اجتهادات شخصية لحُكّام عرَب أفراد، ومِنْ ثَمَّ لم تصل إلى حَدّ النظريّات الاقتصادية، كما تُعرَف فى الشرق أو فى الغرب، ولم يكن لها انعكاس مباشِر على فلسَفات التعليم وأهدافه، وبالتالى يصعُب اعتبارُها أصولا لفلسفة التربية فى هذا البلَد العرَبِىّ أو ذاك.

فهناك إرادة عرَبية شعبيَّة حُرَّة، ورغمَ كل الظروف والضغوط، تَحُول دونَ الانطلاق فى طريق الشرق أو الغرب، أو الاندفاع فى أحضانهما، وهذه الإرادة العرَبِيَّة الشعبية الحُرَّة تفرض النظام الإسلامِىّ إطاراً عاماً، يتحرَّك فيه النظام الاقتصادِىّ، أرادت الحكومات أمْ لم تُرِدْ، واقترب هذا النظام الاقتصادِىّ مِن النظام الإسلامِىّ أمْ لم يقترب.

وهذه الإرادة العرَبِيَّة الشعبية - بالإضافة إلى ذلك - مُقَيَّدة بأغلال التخلُّف والجمود، بسبَب ما فُرِض مِن ظروف تاريخية، ومِنْ ثَمَّ فهى - فى كثير مِن مسالكها الاقتصادية - تبتعد عن الإسلام وتقترب منه، بقدر ما تبتعد عن الحضارة الحديثة وتقترب منها.

وهذا التخلُّف والجمود بدوره ينعكس على الأصول الاقتصادية لفلسَفة التربية العرَبية المعاصرة، فنراها - بسبَب تقليدها لفلسفات التربية فى البلاد المتقدّمة - بعيدة عن هذه الأصول بالفعل.

٤ - الأُصول السياسية لفلسَفة التربية العرَبيّة المعاصرة:

تختلف نُظمُ الحُكْم فى البلاد العرَبية، فهناك الملَكِيّات، وهناك الإمارات، وهناك الجُمهوريات، وهناك الحُكْمُ الصالح، الذى يحقّق مصلَحة الشعب، ويحترم كرامة (الإنسان)، وهناك الحُكْم الاستبدادِىّ، الذى يكتُمُ أنفاسَ الشعب، ويفرض نفسه بقُوَّة الحديد والنار. وهناك الحُكْم الذى أتَى إليها بتزييف الانتخابات، والحُكْمُ الذى فَرَضَ نفسَه بانقلاب عسكَرِىّ.

وهذا الاختلاف فى نُظُم الحُكْم فى البلاد العرَبية أمر طبيعيّ، لما بينَ البلاد العرَبية مِن اختلافات جغرافية وتاريخية وحضارية، وهو لايمكن أن يكون سبَبا مِن أسباب التفرقة بينَ تلك البلاد. كما رُفِعت الشعارات فى العالَم العرَبىّ فى يوم مِن الأيام، فكثيرا ما كانت المصالحات وأسباب التفاهُم والتعاوُن أقوَى بين نظامين، أحدُهما مَلَكىّ والآخَرُ جُمهورى، مِمَّا هى بين نظامين جمهوريين أو ثوريين (كما يحلُو للبعض تسميةُ النظام الجُمْهُورِىّ). فليس المهمّ نظام الحُكْم، بقدر ما هو مدَى تمثيل هذا الحُكْم أو ذاك لشعبه، وتجسيده لآمال الأمة العرَبية، واحترامه لكرامة (الإنسان)، وصَوْنه لها، وبقدر ما هو الاستعداد للتعاوُن مع الشقيقات العرَبيَّات، أو فرض الوصاية عليها.

ونُظُم الحكم فى البلاد العرَبية عموما يغلب عليها الطابَع القَبَلِىّ، وذلك بسبَب الظروف التاريخية، التى مرَّت - وتمُرّ - بها البلاد العرَبية، وما فُرِضَ عليها مِن تخلُّف وأمّيّة، يجعل الممارسة الديمقراطية الحقيقية - فى كثير مِن الحالات - ضربا مِن ضروب المستحيل.

ثم إنَّ الظروف التاريخية، التى مرّت بها البِلاد العرَبية تحتَ حُكْمِ الاستعمار، بأنواعه المختلفة، وكونها بلاداً حديثة العهد بالاستقلال، يفرِض على حُكوماتها - حفاظاً على الاستقرار بها - الاعتماد على النظُم البوليسية، بشكلٍ لافتٍ للنظَر حيناً، وخافٍ عن الأنظار حيناً آخَر، وذلك لأن البلاد الآخذة فى التقدُّم - بدون الاستقرار - لن تستطيع أن تتقدَّم.

ويلخّص الدكتور فاضل الجَمَالى، مشكلات الحُكْم فى البلاد العرَبية، فى أنه «لايخلو أىُّ نوع مِن أنواع الحُكْمِ هذه مِن مواطن الضعف، ومِن المشاكل. ولو تساءلنا : لِمَ يقوم الحُكم العسكَرِىُّ فى بعض البلاد العرَبية ؟ لكان جوابنا فوراً أنه نتيجة لمرَض الجسم المدَنِىّ، فلوصَحَّ الجسم المدَنِىّ فى بلَد ما، لَمَا تعرَّض إلى رَجَّات عسكرية مِن الداخل، ولَمَا خرَج الجنود مِن ثُكناتهم، لممارسة السياسة». «ومِن المشاكل التى نعانيها فى البلاد العرَبيةِ ذاتِ الحُكْمِ المدَنِىّ، المركزية،

والبيروقراطية، وقلّة الكفاءة والمقدرة لدى رجال الحُكم». «ولعلَّ أكبر مشكلة من مشاكل الحُكم فى البلاد العربية هى قلّة الاستقرار، فتبدُّل الوزارات، وتغيير الفئات الحاكمة، سريع فى البلاد العربية، بدرجة تتضرّر معها المشاريع الإنشائية، وتضعُف المسئولية، ويكثُر الاستغلال»(١).

ويُعتبر عدم الاستقرار السياسيّ هذا، من أكبر أسباب فشل السياسات التعليمية فى البلاد العربية، ومن أكبر العوائق التى تحول دون وجود فلسفة تربوية عربية لكُلّ بلد عربىّ، لأن كُلّ وزير للتربية يأتى ليهدم جهود السابقين، ويبدأ ـ لا من حيث انتهَوْا، بل من حيث بدءوا، حتى يأتىَ غيرُه، فيسيرَ سيرَه، وهكذا.

كذلك تُضطرُّ البلاد العربية ـ نتيجة لظروف تخلّفها التى فُرضت عليها، واضطرارها إلى أن تخوض غِمارَ التقدُّم فى مختلف المجالات ـ إلى أن تجعل أولويات إمكانياتها المحدودة لأمور أُخرَى غير التربية، كالتصنيع، وإنشاء المؤسّسات الحديثة، وغيرها، وهى تقع هنا فى خطأ تضطرُّها إليه ظروفُها، كما تقع فيه غيرُها من بلاد العالَم الثالث، كما سبق ورأينا عندَ حديثنا عن العوامل التاريخية فى الفصل الخامس من الكتاب(٢).

وثَمّةَ أوْلَويّة تفرض نفسها على كُلّ الأوْلَويّات فى البلاد العربية، خاصّة تلك البلاد التى تقع على حدود إسرائيل، كمصر وسوريا ولبنان والأردن، وهى أوْلَويّة التسليح، الذى يستنزف موارد البلاد العربية منذ سنة ١٩٤٨ ـ أى منذُ قيام دولة إسرائيل، بمُيُولها العُدوانية التوسُّعية.

فالتسليح يمتصّ جُزءاً كبيراً من الأموال المخصّصة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، ومن الأموال المخصّصة للتربية والتعليم، على حدّ سواء، وهو أمر يعطّل نهضة البلاد العربية، ولكنه أمر مفروض عليها، لاحِيلةَ لها فيه.

---

(١) الدكتور محمد فاضل الجَمَالى : آفاق التربية الحديثة فى البلاد النامية (مرجع سابق)، ص ١٠٤ ـ ١٠٦.

(٢) ارجع إلى ص ١٩٠ ـ ١٩٤ من الكتاب الأصليّ.

وكل ما تُلاَم عليه فى هـذا المجـال، هـو انهـا تعـيش مِن حـول كـيـان عُـدْوَانِىّ توسُّـعِىّ اسـتـعـمـارِىّ، تسـانده قُـوَى الاسـتـعـمـار، وقُـوَى الحِـقـد والشـرّ، التى طالما تكالَبَت عـلـى الأُمَّة الـعـرَبية فـى كل فـتـرة ضـعـف ـ ولـم تسـتـطـع ان تكيّف لنفـسـهـا فلسَـفـة تربوية، وتخلّق لهـا سـياسـة تعليـمـية، تتّـفق وهـذا الواقـع الجـديد والقـديم معاً.

فالطفل الإسـرائيلىّ يُنَشَّـا ـ كـما كـان الطفل الاسـپرْطىّ القـديم يُنَشَّـأ ـ وكـما كان الطفـل الألمانِىّ يُنَشَّـأ فى عـهـد هِتْلَر ـ على أنه جُندِىٌّ فى دولة يُرَادُ لهـا أن تضع يديهـا على العالَم الـعرَبىّ كُلّه، ومنهـا ينطلق ليـسيطر عـلـى العالَم كُلّه، وحـول هـذا الهـدَف تدور فلسَـفة الـتربية الإسـرائيلية، تمامـاً كمـا كـانت تدور فلسـفة التـربية الاسپَرْطِيَّة، أو فلسـفة التربية الألمانية النازِيَّة.

والطفل العرَبِىُّ يُنَشَّأ بلا فلسَـفة تربوية واضـحة محـدَّدة، وأكثرُ مِن ذلك أنه متروك للتـأثير الأكبر فى تربيتـه يتلقَّاه مِن الأسـرة أو الشـارع، حـيثُ الجـهلُ عادة، أو يتلقَّـاه مِـن وسـائل الإعـلام، تعلّمـه الخُنُـوثة والنعُـومـة والميُـوعـة، ولاتعلّمـه أىَّ مـعـنًى مِن مـعـانِى الرجـولـة، إلا مِن خـلال مـواعظ وحِكَم وإرشـادات، إن وُجِدَت، فهـى ثقيلة الظلّ منفّـرة، تدعو إلى السـخرية والنفور، أكثَرَ مِمَّا تدعو إلى الاحترام والتوقير.

أى أن العالَم الـعـرَبىّ يقابل عـسـكرية إسـرائيل، أو اسـپـرطة القـرن العـشرِين، بتـسـيُّب أثِينَا، ولـم يظـهَـر حتـى اليوم أفْلاطُـون عَرَبِىّ، يُفَلْسِـفُ التـربية العـرَبية، بحيث تُعِدّ العرَب لمواجهة الخطَر المحْدِق بهم.

٥ - الأُصول الدينية لفلسفة التربية العربيَّة المعاصِرة :

وقد كان الدين الإسلامىّ - ولايزال - الدينَ الغالب لأبناء الأُمَّة العرَبية، ولم تكن غلبَتُه بكثرة المؤمنين به مِن العرَب، ولابفرض هذه الكثرة ذلك الدينَ وقِيَمَه على غير المؤمنين به، وإنما كانت بسماحة ذلك الدين، وقُدرته على توفير الحماية والأمن للأقلّيّات الدينية التى تعيش فى كَنَفِه، وفى (ذِمَّة) المؤمنين به، فقد وَجدت هذه الأقلّيّات فى ظِلّ المسلمين مِن حُرّيّة العقيدة، ومِن الأمن على يومها وغَدِها، ما لم تجده فى ظِلّ حُكَّامها الذين يتبعون مِلَّتها - فلم يجد أقباطُ مصر ومسيحيُّو الشام مَثَلا، فى ظل الكنيسة البِيزَنْطِيَّة، ذلك الأمنَ وتلك الحُرّيّة الدينية، اللذين وجدوهما فى ظِلّ الإسلام.

ثم إن وَسَطِيَّة الإسلام، بين مادّيّة اليهودية ورُوحَانِيّة المسيحية، قد مكَّنته مِن أن يكون ذا تأثير على المسيحيين واليهود على السواء، وكان هذا التأثير اختيارياً صِرفاً، سعوا إليه - ولم يُفْرَض عليهم.

ومع ذلك، فقد كانت الظروف التاريخية، التى مرّت بها الأُمَّة العرَبية، منذُ سقوط بغداد فى القرن السابع الهجرِىّ (الثالثَ عشَر الميلادِىّ)، هى التى دفعت بالمسلمين إلى أن يأخُذوا مِن الإسلام جانبَه الروحِىّ، تاركين جانبَه المادّىّ، الذى تدورمعظم تعاليمه حولَ إصلاحه، للحُكَّام الفاسدين والمُفْسِدين، الذين توالوا على الأمّة العرَبية، مِمَّا باعَد بين المسلمين وأصول دينهم، ودفع بهم - وبمجتمعاتهم - فى طريق الضعف والتخلّف، «فحالة الضعف التى نجد المسلمين عليها، هى نتيجة حتمِيَّة لانصراف بعض الحُكَّام المسلمين إلى شُؤُون الدنيا، وتغليب القُوَّة الظالمة، والسياسة الخَرْقاء، على الحقّ، الأمر الذى أدَّى إلى إهمال تعاليم الإسلام، وإخضاع رجال الفِكر وعُلَماء الدين إلى توجيهات السلطان، ومنعهم عن أداء واجبهم الدينِىّ، فى تثقيف المسلمين بحقائق دينهم، فاضْطُرّ هؤلاء إلَّا مَنْ عَصَمَ الله، إلى مُمَاشَاةِ السلطة الغاشمة، التى طغت عليها مصالِحُها وشَهَواتُها، فأهملوا تنبيه المسلمين إلى الأخطار المُحْدِقَة بهم، كما أهملوا دعوة المسلمين إلى الأخذ بوسائل القُوَّة، والدفاع عن النفس»(١).

(١) الدكتور محمد فاضل الجَمَالىّ : آفاق التربية الحديثة فى البلاد النامية (المرجع السابق)، ص ٣٢.

ولذلك نجد الأُصول الدينية الإسلامية - شأنُها في ذلك شأنُ الأصول الدينية المسيحيّة واليهوديّة - في التربية العربية، محدودة الأثَر، لاتتعدّى آيات مِن الكُتُب المقدّسة الثلاثة، تُحفَظ وتُستظهَر، وقد يُفهَم معناها وقد لايُفهَم، وهي تُرَدّد بشكل أو بآخَر في دُورِ العبادة، وفي برامج الإذاعة والتليفزيون، ولكنها لايُتاح لها أن تَتحوَّل إلى سلوك عَمَلِيّ، لا في المدرسة، ولا في المنزِل، ولا في الشارع، إلا فيما نَدَر.

ويَزيد مِن انعدام فاعلِيّتها، أنّ واقع العالَمِ العرَبيّ - وتلك حقيقةٌ يجب أن نُجابِهَهَا - بعيدٌ كُلَّ البُعْدِ عن الدين، فقد سيطرت المادّيّة عليه، وصار الصراع على المادّة الشُّغْلَ الشاغِلَ للناس، فالقادرون يتكالَبون عليها زيادة في الثراء الفاحش، والمُعْدِمُون - وهُم الكَثْرة - يتكالَبون عليها، حِفاظاً على الحياة، وينعكس التكالُب عليها على نفوس الصغار، فتفسَد آثارُ الآيات المحدودة مِن الكُتُب المقدّسة، التي تُفْرَض على المتعلّمين الصغار في المدارس.

كما يزيد مِن انعدام فاعليّتها، أنّ برامج الدين في الإذاعة والتليفزيون، والأعمدة المخصّصة له في الصحُف، محدودة، لاتتعدّى قَطَرات في بحور مِن الرذائل، متمثّلة في البرامج والأغنيات والتمثيليات والأفلام، التي تُفْسد النفس، والتي تشمَئِزُّ منها نفوس الكِبار، ولكنها تتّخذ لها مجرًى عميقاً في نفوس الصغار.

٦ - الأُصول الحضَارية لفلسَفة التربية العربية المعاصِرة :

ويستطيع الإنسان أن يؤكّد أنه إلى الأصول التاريخية، وإلى الأصول الحضارية، لفلسَفة التربية العرَبية المعاصرة، يعود ذلك (الانفصام) بين فلسَفة التربية العرَبية المعاصرة، وبين أصولها الثقافية.

ذلك أن البلاد العرَبية - نتيجةً لما مَرّ بها مِن ظروف تاريخية - تُعتَبر اليوم متخلّفة حضَارياً، وإن كانت تتفاوَت فيما بينها في مدَى هذا التخلّف. وكانت نتيجة هذا التخلُّف، ما رأيناه مِن تطلّع دائم إلى مستوَى ونُظُم وفلسَفات

ومؤسّسات البلاد المتقدّمة حضارياً، وعدَم استقرار فى السياسة التعليمية والعامّة، وعدَم ارتباط بينَ فلسفة التعليم وواقع هذه البلاد.

وقد انعكس هذا التخلُّف الحَضَارِىّ على فلسَفة التعليم وأهدافه فى البلاد العَرَبية، كما انعكس ـ نتيجة لذلك ـ على (كُلّ شئ) فى السياسة التعليمية، على نحو ما سنرَى.

ـ فالدولة فى البلاد العرَبية هى المسئولة عن التربية، وهى تُشرِف عليها مِن خِلال أجهِزة متعدّدة، كوزارة التربية، ووزارة التعليم العالِى، ووزارة الأوقاف، ووزارة الثقافة، ووزارة الإعلام، ووزارة الداخلية، ووزارة الحَرْبية، ووزارة الشئون الاجتماعية، وغيرها.

ومسئولية الدولة عن التربية فى البلاد العرَبية أمر منطقِىّ، يتّفق مع ما مرَّت به البلاد العرَبية مِن ظروف تاريخية، إلا أنه يُلقِى على الدولة ـ مَاليًا وإدارياً ـ أعباء مُضاعفة، لا تُطِيقها إمكانياتها المحدودة ـ المادّيّة والبَشَرية.

كذلك تؤدّى مسئولية الدولة عن التربية فى البلاد العرَبية إلى ارتباط سياسة التربية وفلسَفاتها وأهدافها (بالقِمّة)، بدَلا مِن ارتباطها (بالقاعدة)، وتؤدّى ـ بالتالِى ـ إلى خضوعها لهزّات عنيفة وجِذرية مستمرّة، بسبَب عدَم الاستقرار السياسِىّ فى البلاد العرَبية عموماً.

وتؤدّى مثل هذه الهزّات، إلى عدَم التمكُّن مِن بَلْوَرة فلسَفة تربوية عرَبية، وإلى لجوء الحُكومات العرَبية المتعاقِبة ـ فيما يتّصل بالتعليم ـ إلى أسرَع الحلول و(أرخَصِها)، وهو (استيرادها) مِن الخارج، وتتوقّف جهة الاستيراد هذه ـ بطبيعة الحال ـ على المِزاج الخاصّ لكل وزير، وعلى اتجاهاته وميوله، وعلى لون ثقافته.

وتكون النتيجة بطبيعة الحال فَشَل السياسات التعليمية، على نحو ما رأينا مِن قبل، مِمَّا يزيد فى درَجة التخلُّف الحضارِىّ، وفى اتّساع (الهُوّة) بينَ البلاد العرَبية والبلاد المتقدّمة، وهو أمر يؤدّى إلى فُقدان الثقة بالنفس، وإلى هِجرة الأموال والخِبرات والعقول العرَبية الطامحة إلى الخارج، طالما كان الحال فى البلاد العرَبية يسير مِن السيّئ إلى الأسْوَأ.

ـ وتدَّعِى البلاد العرَبية أنَّها ـ لأسباب كثيرة ـ تجاهد للقضاء على الأُمّيّة، بينما نُظُم التعليم بها هى التى تساهم فى استمرار هذه المشكلة، بحيث يُتَوَقَّعَ أن يرتفع عَدَد الأُمّيّين العرَب ـ بسبَب فَشَل نُظُم التعليم فى البلاد العرَبية فى تحقيق أهدافها ـ مِن ٤٣ مليون أُمّىّ سنة ١٩٦٠ إلى ٥٠ مليون سنة ١٩٧٠، ويتُوقَّع أن يزيد هذا العَدَد إلى ٦٧,٧ مليون سنة ١٩٩٠ ـ كما رأينا مِن قبل، عندَ حديثِنا عن الأصولِ التاريخية لفلسَفة التربية العرَبية المعاصرة، فى هذا الفصل[1].

والقضاءُ على الأُمّيّة يُعتَبَر ضَرُورَة مُلِحَّة مِن ضرورات الأمّة العَرَبية، إذا هى أرادت أَنْ تتقدّم وتنهَض، وللقضاء عليها استراتيجِيّات متعدّدة، يلخّصها الدكتور مُحْيِى الدين صابر، رئيسُ (الجِهاز العرَبِىّ لمَحْوِ الأُمّيَّة وتعليم الكِبار)، فى (استراتيجِيَّة القَدْرَة)، التى اتبعتها البلاد الغربية المتقدّمة والولايات المتحدة، والتى اعتمَدَت على تعميم التعليم الابتدائِىّ، وإطالة مُدَّته ـ و(استراتيجِيَّة الطَّفْرَة)، التى اتبعَهَا الاتحاد السوفْيتِّىّ والصين الشعبية وكُوبا، والتى قامت على الحَمَلات القومية الملتَزِمة، وذلك بربط تعليم القراءة والكتابة، بالأهداف السياسية والاقتصادية ربطا عُضْوِيا ـ (واستراتيجِيَّة الحَيْرة)، التى تَتَّبِعُها اليوم البلاد النامية، مُضطرّة إليها، لأنها «غيرُ قادرة، لأسباب كثيرة، منها عامل الزمَن، وعامل القُدرة المادّيّة والفنّيّة»[2] ـ على مَحْوِ الأُمّيّة.

وواضح أَنَّ البلاد العرَبية تعتمد على الاستراتيجِيَّة الثالثة، التى تزيد المشكلة، ولكنَّ كثيراً منها قادرٌ على الاعتماد على الاستراتيجِيّتَين الأُخْرَيَين، لو صدقت النّيّات، وصحّت العزائم، كما أنها قادرة على الاعتماد عليهما، لو تَمَّ بين البلاد العرَبية تعاوُن صادق فى هذا المجال، تقوم فيه (الجامعة العرَبية) بالدور الأساسِىّ.

فلم يكن لدَى الاتّحاد السوفْيِتّى ـ بعدَ ثورته البَلْشَفِيَّة سنة ١٩١٧ ـ ما لَدَى البلاد العرَبية اليوم مِن إمكانيات، مادّيّة وبشَرية، وكذلك لم يكن لدَى الصين أو

(١) ارجع إلى ص ٣١٢، ٣١٣ مِن الكِتاب الأصلىّ.
(٢) الدكتور محيى الدين صابر: «حوار حول قضايا مَحْو الأُمّيّة ـ ١» ـ تعليم الجماهير ـ مجلّة متخصّصة، تصدُر عن الجهاز العرَبى لمحو الأُمّيّة وتعليم الكبار ـ المجلّد الأول ـ السنة الأولَى ـ العدَد ١ ـ القاهرة ـ سبتمبر ١٩٧٤، ص ٢٤، ٢٥.

كوبا هذه الإمكانيات ـ ومع ذلك فقد استطاعت هذه البلاد ـ بصِحَّة العزيمة وصِدقها ـ أن تفعَل ما يُشْبِه المُعْجِزة.

ـ وكُلُّ دولة عربية ـ بعدَ تحرُّرها مِن الاستعمار ـ وحصولها على الاستقلال ـ تدَّعِى أنَّ مِن أهدافها الأُولَى تحقيق مبدأ تكافُؤ الفُرَص التعليمية بين أبنائها، تعويضاً للكادحين عمَّا حُرِمُوه أيام الاحتلال مِن فُرَص التعليم، ومع ذلك فإن واقع التعليم فى البلاد العرَبية يَدُلّ على عكس ذلك تماماً، فالتعليم فى البلاد العرَبية مُرَكَّز عادة فى المدُن، ومِنْ ثَمَّ فالفُرَص التعليمية المتاحة للمدينة غيرُ مُتاحة للقُرَى والصحراوات، وذلك أمر يتناقَض تماماً مع مبدَأ تكافُؤ الفُرَص التعليمية، وإن كان موجوداً حتى فى البلاد المتقدّمة ذاتها[١].

كذلك نجد واقع التعليم فى البلاد العرَبية، يدلّ على أن فُرَص التعليم، لايستفيد بها الاستفادةَ الكاملةَ كُلُّ أبناء المدُن، وإنما أبناء القادرين منهم فقط، وذلك بسبَب تخلُّف النظام التعليمىّ عُمُوماً فى كثير مِن البلاد العرَبية، وانعدام الخِدمات التعليمية، التى تحقّق استفادة كُلّ التلاميذ مِن فُرَص التعليم، كالخِدمات النفسية والصحّيّة والاقتصادية وغيرها.

ـ كذلك لايتحقّق فى البلاد العرَبية عُموماً ذلك التوازُن الذى يجب أن يكون موجوداً بين أنواع التعليم ومَرَاحِله، وذلك أمرٌ تتَّفِق فيه بلادُ العالَم الثالث عموماً، فالاهتمام بالتعليم الابتدائىّ محدود، ويكفِى أنَّ كثيراً مِن البلاد العرَبية لم يتحقّق فيها استيعاب المُلْزَمين فِعلا، رغم مرور أكثر مِن عشرين عاما ـ فى المتوسّط ـ على حصولها على الاستقلال، وفى الوقت ذاته تُنْفِق هذه البلاد على مؤسّسات التعليم العالِى، أكثَرَ مِمَّا تَتَطلَّبه حاجات مؤسّساتها إلى خِرِّيجى هذا النوع مِن التعليم، رغمَ ما تعانيه مِن نقص واضح فى الأساتذة الجامعيّين.

واهتمامُها بالتعليم النظَرِىّ، الثانوِىّ والعالِى، أكبَرُ مِن اهتمامها بالتعليم العَمَلِىّ والفَنّىّ، الذى تتطلّبه حَرَكة الحياة فيها بالفِعل، وذلك لأنَّ سياسة التعليم فى العالَم العرَبىّ عموماً، لاتقوم على أساس خُطَّة تعليمية، مرتَبِطة بخُطَّة

---

(١) تُعتَبَر الولايات المتّحدة الأمريكية مِن أكثر البلاد المتقدّمة إهمالا لمبدَأ تكافُؤ الفُرَص التعليمية هذا، وذلك بسبَب إدارتها التعليمية المتطرّفة فى اللامركزية.

التنمية، الاقتصادية والاجتماعية، وإنما هى تقوم - بسبب ضعف السياسة العامّة - على استرضاء الناسِ، والناسُ يطلُبون لأبنائهم ذلك التعليم الأكاديميّ، الموصِّل إلى الجامعة، لأن الشهادة الجامعية هى هدَف الأهداف فى حَدّ ذاتها، أمامَ المتعلّمين وأولياء أُمورِهم على السواء.

- وأكثَرُ مِن ذلك أنَّ الجانب النظَرِىّ يغلُب على التعليم، حتى فى ذلك التعليم الفَنّىّ والعَمَلِىّ، وذلك بسبَب النقص فى المعَامِل والوِرَش، أمام التوسُّع الكبير فى قبول الطُّلَّاب.

ونتيجةً لذلك يقوم التعليم - حتى فى هذه المدارس والكُلّيّات الفَنّيّة والعَمَلية - على الحِفظ والاستظهار، لاعلى الممارَسة العَمَلية والابتكار.

كما يقوم التعليم الجامِعىّ فى هذه البلاد، على الحِفظ الاستظهار هو الآخَر، ولا يقوم على البحث العِلمِىّ - قِوامِ الحياة الجامعية.

- كذلك لازال (الازدواج) قائمـا فى المدارس والجامعات وفى التفكير، فلا زال التفكير القديم يعيش جنباً إلى جنب مع التفكير الحديث، ولازال النظام التعليمِىّ القديم، ممثّلا فى الكتاتيب، والمدارس والمعاهد التى تقوم على الدراسات الدينية واللغوية، يعيش جنباً إلى جنب مع المدارس والمعاهد، التى تقدّم الدراسات الحديثة - فى كثير من البلاد العَرَبية، دون ما حاجة إلى هذا الازدواج، لأن المعاهد القديمة ليست مَعاهد دينية، تمثّل روح الإسلام، بِخُلُوِّهَا مِن الدراسات الحديثة، ولأنَّ المعاهد الحديثة ليست المطلَب الوحيد والأساسِىّ للبلاد العَرَبية فى مرحلة نُمُوِّها، وإنّما هى تحتاج - لتتقدَّم - إلى اللونين مِن التعليم - التعليم الدينىّ، على أن يمثّل بحقّ روح الدين الإسلامىّ، والتعليم المَدَنىّ - على أن يكون نابعا من ظروف البلاد العَرَبية وحاجاتها، ومُلَبِّيا لهذه الحاجات.

ويبدو هذا (الازدواج) واضحاً حتى فى داخل المؤسَّسة الواحدة، فالمدرَسة الواحدة تضمّ المدرّس المُحَافِظ، إلى جانب المُدَرّس المتحرّر، والمدرّس اليَمِينىّ إلى جانب المدرّس اليسارِىّ، والإذاعة تقدّم البرنامج الدينىّ، يتلوه على الفور برنامج

(متحرّر)، أو أغنية رقيقة أو رقيعة، والتليفزيون يدعو إلى الفضيلة حينا، وإلى الرذيلة أحياناً، وبجانب عمود الصحيفة الذى يتحدّث عن الدين، ويدعو إليه، عمود آخَر به صورة عارية، ودعوة - ولو مُقَنَّعَة - إلى الرذيلة - وهكذا.

كذلك لازال التخطيط للتعليم فى البلاد العَرَبية بِدَائِيّاً أو شِبْهَ بدائِىّ، ولا زال غير قادر - لما به مِن قصور - على أن يُتَرْجَم إلى واقع حَىّ.

وهناك أعذار كثيرة، ينتَحِلُها المسئولون لفَشَل برامج التخطيط هذه، وبعضُها مقبول، ولكنه قليل، وأكثرُها مُماحَكَات فارغة، لاتتَّصل بالواقع، وإنما هى تدلّ على الفَشَل، لأن هناك (حدوداً) للخطأ الذى يمكن أن يقع فيه التخطيط، أما أن يكون هذا الخَطَأ بلا حدود، فذلك هو الأمر الذى لايُقْبَل على الإطلاق.

وتشترك البلاد العَرَبية مع غيرها مِن بلاد العالَم الثالث، فى هذا القصور فى التخطيط للتعليم، وذلك بسبَب النقص فى أجهزة التخطيط وأدَواته ومُعِدّاته وخُبَرائه.

ولكنَّ البلاد العَرَبية، تختلف عن غيرها مِن بلاد العالَم الثالث، فى أنَّ لديها فُرَصاً أوسَعَ مِمَّا لدَى بلاد العالَمِ الثالث الأُخرَى، لتكون لديها أجهزةٌ تخطيط دقيقة، لو اتَّحدت فيما بينَها، تحت راية (جامعة الدول العرَبية) مثلاً، فلدَى بعضها خبراء التخطيط، الذين تستنزفهم البلادُ المتقدّمة، ولدَى بعضها الآخَر المالُ الوفير، الذى تشترِى به أدوات التخطيط الحديث ومُعِدَّاته، ويمكن لجامعة الدول العرَبية - لو صحَّت النيَّات - أن تجمَع هذا وذاك، لتكوّن جهازاً عَرَبياً مركَزِياً للتخطيط، تستفيد به كُلّ البلاد العرَبية.

- وبعبارة أُخرَى، إن التخلُّف الحَضَارِىّ للبلاد العرَبية عموماً، قد أدَّى إلى تطلّع البلاد العرَبية الدائم إلى البلاد المتقدّمة حضَارياً، تنقُل عنها - دونَ حاجة - نُظُمَها ومؤسَّساتها، ناسية تلك (الهُوَّة) التى تفصِلها عنها، بسبَب الظروف التاريخية التى فُرِضَت عليها، طوالَ ستة قرون مِن الزمان، والتى باعدت بينها وبين ركب الحضارة العالَمِية.

ونَسِيت البلاد العربية نفسها وواقعَها، في غمرة هذا التطلُّع إلى البلاد المتقدّمة، وراحت تستورد منها الأفكارَ والنظُم، ناسية أن تُراثَها يضمّ مِن الأفكار والنظُم، ما لعله يُغْنِيَها إن هي فَتَّشَتْ فيه.

وانعكس هذا التطلُّع إلى البلاد المتقدّمة حَضَارياً على فلسَفة التعليم وأهدافه، وبالتالِي على سياساته، فكانت فلسفة التعليم في البلاد العَربية - بسبَب تخلّفها الحَضَارِيّ - بعيدة عن واقعها، ومِنْ ثَمّ كانت غيرَ معبِّرة عنه.

ولذلك لم يكن غريباً، أن يكون مَدَارُ مقتَرَحاتنا - في الفصل التالِي - هو رَبْط هذه الفلسَفة التربوية بواقِع العالَم العَرَبيّ، لا بواقع بلد آخَر متقدّم - في الشرق أو في والغرب.

ثالثا : نَحْوَ فلسَفة تربوِيَّة عرَبِيَّة

تقديم :

يرَى المرحوم عبد الرحمن الرافِعِىّ، أن «النزعة الاستعمارية فى الدُّوَل الغربية» ، التى كانت «فيما مضَى، سببا لسيطرتها السياسية والاقتصادية على العالَم» ، «ستكون مصدَر ضعفِها واضمحلالها» بعدَ أن «تنبَّه العالَم إلى التحرُّر مِن هذه السيطرة» ، وبذلك «فإن روح الاستعمار ستكون وَبالا على الغرب، لأنَّ تمسُّكَه بها يكبِّده الخسائر الهائلة فى الأرواح، وفى اقتصاديّاته وميزانيّاته» . «وفى الغرب مصدر آخَرُ للضعف والتراجُع، وهو أن ما ابتزَّه الاستعمار مِن خيرات الشعوب الشرقية وأموالها، قد زاد مِن تَرَف الغرب، وتخطَّى الترَف حدودَه المعقولة والمقبولة، فانتشرت الإباحِيّة» ، «وكثيراً ما تكون هذه الآفات نتيجة للتوسُّع فى الفتح والسلطان، وازدياد الثروة والرخاء» .

«فالدور الذى تسير فيه الدول الاستعمارية، يشبه أن يكون كدور التراجُع والانحلال، الذى أصاب الإمبراطورية الرومانية فى أواخرِ عهدِها»(١).

كما يرَى ـ فى الوقت ذاتِه ـ أن الشرقَ «بتحرُّرِه مِن العبودية والاستعمار، قد حطَّم العقباتِ والعَراقِيلَ، التى كانت تَحُول دونَ تقدُّمه، وبتحطيمها ينفَسِحُ المجال أمامه لينهَضَ ويقوَى، وينال المكانة الرفيعة التى هو محقِّقها وواصِلٌ إليها بالجِدّ والدأب والمثَابَرة.

يُضاف إلى ذلك أن مصادر الثروة الطبيعية، وفى مقدّمتها البترول، ليست فى الغرب، بل هى متوافِرة أكثَرَ ما يكون فى الشرق الأوسط، ووجودُها فى البلدان الشرقية، سيجعَل لها مع الزمن التفوُّقَ والمَنَعَة، ويجعل الغرب عالة على الشرق مِن هذه الناحية»(٢).

---

(١) عبد الرحمن الرافِعِىّ : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، تاريخُنا القَوْمِىّ فى سبع سنَوات (١٩٥٢ ـ ١٩٥٧) ـ الطبعة الأُولَى ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٩، ص ٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨٨.

ومع أن كُلَّ الشـواهد تدلّ على صِدق هذا القـول، فـإننا لا نريد أن نُطلِق الكلام على عَوَاهِنِه على هذا النحو، لأن فناء الأُمَم وقيامها لا يتمّ بجَرَّة قَلَم، ولا بمجَرَّد وجود أخطار تتهدَّدها مِن خارجها، أو نِيَّات حسنة تُحِيط بها، وإنما هو رَهْنٌ (بديناميكِيَّات) الحياة في كُلّ أُمَّة.

فقد تتهدَّد الأخطار الأُمَّة مِن الخارج، فإذا بها تخلَع ثياب الضعف، لترتَدِيَ ثياب القُوَّة، كما حدَث قبل ذلك للمجتمع الإسلامِيّ في عهده الأوَّل، أيامَ كانت تتربَّصُ به دولتا الفُرْس والرومان، فإذا به يقضِي على الدولتين معا، ويرث عنهما أملاكَهما الشاسعة، وكما حدث بعدَ ذلك بقرون لألمانيا في مطلع القرن التاسع عشر، حيث شطرها نابليون شطرين، التهم أحدَهما، وهدَّد الآخَر.

وديناميكيّات الحياة في المجتمع الغربيّ المعاصر، تدلّ على أنه في طريق التحلُّل فعلا، بسبَب ما وصل إليه مِن رفاهية ومستَوَى اقتصاديّ رفيع، وحُرّيّة - وهذا هو الأهمّ - أقربَ إلى الفوضَى، شبيهة بتلك الحُرِّيَّة التي أودت مِن قبلُ بأثينا، على يد اسبَرْطَه.

وديناميكيّات الحياة في المجتمعات الشيوعية المعاصرة، تدلّ على أنها في طريق التحلُّل أيضاً، بسبَب ذلك (النظام)، الذي قتل روح (الإنسان)، والحياةُ في المجتمع لاتقوم إلا على (الإنسان).

ولقد أدَّى (النظام) بمجتمعات قديمة وحديثة، إلى الفوز على حساب (الإنسان)، ولكنه أدَّى بها في النهاية إلى الفَنَاء.

حدث ذلك في اسبَرْطَه في القديم، ثم حدَث قريبا في اليابان العسكَرية، وألمانيا النازِيّة، وإيطاليا الفاشِيّة، وهو على وَشَك أن يحدُث في المجتمعات الشيوعية - والعسكَرية عموماً - المعاصرة[1]، إن لم يعد إلى (الإنسان) في هذه المجتمعات احترامُه وتقديرُه .... وإنسانيته.

وديناميكيّات الحياة في العالَم العرَبي لاتدلّ على خير هي الأُخرَى، ولكنها لاتدعو إلى اليأس، إن استَفادَ أبناؤها مِن عِبَر التاريخ القديم، ومِن أحداث التاريخ

(١) وقد حدَثَ لها بالفعل مع بدايات العَقْد الأخير مِن هذا القرن، حيثُ انفرَط عقْدُ المجتمع الشيوعيّ تماما، وزالَتْ دولة الشيوعية إلى الأبد تقريبا.

الحديث، وحوّلت مَرارةُ خَلْق إسرائيل على يد أعدائها، ومرارةُ التخلّف الذى فرضه هؤلاء الأعداء عليها ـ إلى طاقة تُشْحَذُ بها الهِمَم، وتعود بها إلى الطريق ... نفسِ الطريق الذى سار فيه الأجداد مِن قبل، فحقّقوا للإنسانية حضارة، لولاها ما كانت حضارة القرن العشرين، بكل سِحرها وروعتها.

ولن يكون للعَرَب ذلك، إلا إذا كانت لهم (فلسَفة)، نابعة مِن واقع حياتهم، ومِن تراثهم الثقافىّ، ومِن مواردهم المُتَاحة، تنعكس على تربيتهم لأبنائهم، فتخلُق فلسفة تربوية عَرَبية أصيلة، تحفَظ للإنسان العربىّ كرامتَه، وللأمة العَرَبية قُوّتها، وللمستقبل العرَبىّ وَضَاءَته وإشراقه، وتُحيل ضعفَ العرَب قُوّة.

ولن يكون للعَرَب هذه (الفلسفة)، التى تخلق المجتمع العرَبىّ المنشود،إلا إذا كانت مشتقّة مِن ثقافتهم، معبّرة عن أيديُولُوجيّتهم، قائمة على أساس مِن تراثهم العَرَبىّ والإسلامِىّ، الذى تحطّمت على جَنَباته ـ فى إشراقته الأُولَى ـ كُلّ مؤمرات الأعداء مِن الخارج، وكُلّ عوامل الضعف والتخلّف مِن الداخل.

الإطار العامّ لفلسَفة التربية العرَبية المعاصرة:

على (أكتاف) الإنسان العرَبىّ، قامت الحضارة العرَبيّة فى ظِلّ الإسلام فى العصور الوُسطَى، كما رأينا فى المدخَل التاريخِىّ لفلسفة التربية العربية فى الفصل السابع،وعلى (أنقاض) ذلك الإنسان، الذى حطّمه تسلّط غيرُ العَرَب عليه، زُرِعت بذور التخلّف فى العالَم العرَبِىّ.

ولن تقوم للعَرَب قائمة، إلا إذا (أُعِيدَ بناء) هذا الإنسان العرَبىّ، بحيث يكون ـ كما كان فى عصور الازدهار العرَبِىّ، وفى ظِلّ التصوُّر الإسلامِىّ للإنسان ـ مُعجِزة هذا الكون، وسِرّ اقتدار رَبّه وخالقه، وخليفته فى هذه الأرض.

وفى الغَرْب فلسفات للتربية تهتمّ (بالفرد) وتدور حولَه، وتتفاوَت فيما بينها فى هذا الاهتمام بالفرد. وتلتَقِىُ هذه الفلسَفات التربوية الغربية بعضَ

التفاتٍ إلى (الجماعة)، ولكنها تتفاوَت فيما بينها أيضا فى هذا (الالتفات) إلى الجماعة، بينَ الاهتمام الشديد بها، كما نراه فى فلسَفة التربية فى فرنسَا، بحُكْمِ ظروفها التاريخية التى مرّت بها بعد الثورة الفَرَنسيّة، وانشطار المجتمع الفَرَنْسِيّ - بالثورة - إلى قِسمين، قِسم كاثوليكِيّ دِينِيّ، وقِسم مَدَنِيّ ثَوْرِيّ[1] - وبينَ الإهمالِ الشديد، الذى نراه فى فلسَفة التربية فى الولايات المتّحدة، بسبَب ظروف تكوينها[2] - وبين التوازُن بين الاهتمام الشديد بالمجتمع، والإهمال الشديد له، كما نَرَى فى إنجلترا، بحُكْمِ ظروفها التاريخية والجغرافية، التى نَزَعت الثقة والطمأنينة فى قلوب الحاكِمين والمحكومين فيها، منذُ أقدَمِ العصور[3].

ولكن فلسَفة التربية فى الغرب - رغمَ ما بينَها مِن تفاوُت - يجمَع بينها ميلُها إلى (الفرد)، عن حساب (الجَمَاعة)، حتى فى فرنسا، التى تزيد مِن اهتمامها بالجماعة، فليس هذا الاهتمام بالجماعة فيها على حساب الفرد - كما قد يبدو للوَهْلة الأُولَى.

وفى الشرق فلسَفة للتربية تهتمّ (بالجماعة)، وتدور حولَها، وتعتبر الفرد مجرَّد (حيوان اجتماعِيّ)، «فلا إرادةَ للفرد ولا اختيار ولا طموح، لأن ذلك سبيل ما عُرِفَ عنه مِن طُغْيَان وفَسَاد، وانقضاض على حقوق غيره، أو حقوق الجماعة، كُلَّما أُتيحت الفرصةُ له .. وعلى ذلك يجب أن يجرَّد مِن هذه النزعات الخطرة، وألّا يُعترَف له بأىّ بناء معنَوِيّ، أو كِيان (فردِيّ)، يقوم على الإرادة والاختيار والطموح ونحوها، وأن يكون مجرَّد (آلة حَيّة)، تعمَل فى الإنتاج العامّ، على وَفْقِ

---

(١) للتفصيل، ارجِع إلى :
- عبد الغنى سيد أحمد عبّود : دراسة مقارنة لتمويل التعليم، فى الجمهورية العربية المتّحدة، والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، وفرنسا، وانجلترا - رسالة مقدمة إلى كلية التربية جامعة عين شمس، للحصول على درجة الماجستير - قسم التربية المقارنة (كلية التربية جامعة عين شمس) - القاهرة - ١٩٦٥، ص ١١١ ، ١٨٢.

(٢) للوقوف على المزيد عن ظروف تكوين الولايات المتّحدة هذه ، ارجع إلى :
- دكتور عبد الغنى عبود : «الأيديُولُوجْيا والتربية» - الباب الرابع مِن : فى التربية المقارنة - الطبعة الأُولَى - عالَم الكُتُب - القاهرة - ١٩٧٤، ص ٢٤٩، ٢٥٠.

(٣) للتفصيل ، ارجع إلى :
- عبد الغنى سيد أحمد عبّود : دراسة مقارنة لتمويل التعليم (مرجِع سابق)، ١٨٨ - ١٩٢.

ما تُوَجَّه إليه أو تُساق،دون إرادة لها أو اختيار. فإنَّما الإرادة والاختيار للسائق وحده، وهو الدولة»(١).

و(فَرْدِيّة) الغرب، (وجَمَاعية) الشرق، قد تتَّفق كُلّ منهما مع مجتمعها، وثقافة ذلك المجتمع، وهى - اتَّفقت أو لم تتَّفق - تنعَكِس على فلسفة التربية فى كُلّ منهما، كما رأينا فى مواضع متعدّدة مِن الكتاب.

وكُلّ منهما كان مقصودا بها أن تحقّق للناس الأمنَ والطمأنينَة والاستقرار، وللمجتمع التقدُّم والازدهار، ولكن كُلًّا منهما فى الوقت ذاتِه «قد أخفَقَت فى أن تهَب لأهلِها ثِقَة الاستقرار والطمأنينة»، فإنهم «لايُحِبُّون من نُظُمِهم سِوَى استمرار القلق، والخوف، والمَلَلِ الناشِئ مِن ظَمَأ الروح»(٢).

وبينَ يدينا نحنُ وسائل إشباع ذلك الظمَأ الرُّوحِىّ، فى كُتُب الله الثلاثة، التى تجمَّعت كُلُّها فى القرآن الكريم، كما سبق، وبجانبه نجد فيها النظرة الصحيحة إلى الفرد والمجتمع، التى لاتطلق لحُرّيّة الفرد عنَانَها، كما يفعَل الغرب، ولاتقتُل حُرّيّات الأفراد، كما يفعَل الشرق، وإنما هى تُطلِق للفرد حُرّيّته فى إطار مصلَحة الجماعة، وتُلقِى على الجماعة أعباء ومسئوليات ووظائف، تكون بها فى خِدمة كُلّ فرد مِن أفرادها، لاسيفًا مسلَّطا على رقابهم.

ومِن الغريب أن يكون بينَ أيدينا ذلك التراث الحَضارِىّ الضخم، الذى يتمثَّل - فلسفةً - فى كتاب الله الكريم، والذى تَمَثَّل مِن قبلُ واقعا حضارِيًّا فى دولة الإسلام الكُبرَى، التى استمرَّت ستة قرون كاملة، مِن القرن السادس الميلادِىّ، حتى القرن الثانِى عشرَ الميلادِىّ، والذى بدونه ما كانت حضارةُ الغرب اليوم، فعلى أكتافِه قامت تلك الحَضَارة، منذُ ثورة الإصلاح الدينِىّ فى أوربا فى مطلَع القرن السادسَ عشر - مِن الغريب أن يكون بينَ أيدينا ذلك التراث الحَضارِىّ الشامخ، ومع ذلك نتطلّع إلى الغرب أو الشرق، نأخُذُ قَطرة مِن هنا، وقَطْرَة مِن

---

(١) البهى الخولى: الاشتراكية فى المجتمع الإسلامى، بين النظرية والتطبيق - مكتبة وهبه - القاهرة، ص ١١١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨، ١٩.

هناك، فإذا بالقطرات لاتكوّن فى أرضنا بُحَيْرة أو جَدْوَلاً يفيض حياة، بل تتحوّل مياهاً آسِنَة، تنشُر بيننا الوباء، ولاتأتى بإشباع يُذكَر لما نعانيه مِن ظَمَأ.

وذلك أمرٌ طبيعىّ، أن يتطلّع العالَم العربىّ - المتخلّف - فى مطلع نهضته الحديثة إلى الغرب - المتقدّم، فقد تطلّعت إليه مِن قبلُ اليابانُ والاتّحاد السوفْيِتّى والصين، وعلى أساس تطلّعها إليه، نهضت كُلٌّ منها، ولكنّ غير الطبيعىّ هو أن يظلّ التطلّع إليه إلى الأبَد، رغم النكسات والانتكاسات التى نَتَجت عن هذا التطلّع.

لقد أخذت اليابان والاتحاد السوفْيِتّى والصين مِن الغرب ما شاءت، ولكنها لم تأخُذه كما هو، بل أخذته على نحوٍ مَا يناسبها، ويناسب (التُّرْبَة) الوطَنية، ثم انطلقت وَفْقَ ظروفها وثقافاتها إلى المستقبل الذى اختارته كُلّ منها، وكان يجب، على العَرَب أن يُفيقوا مِن هول الصدمة الأُولَى - صَدْمَة اللقاء مع الغرب، مِن منطِق الضعف والتخلّف - فى أسرَعِ وقت، ليعودوا إلى أنفسهم، وإلى تُراثهم، وعلى أساسه يأخُذون مِن الغرب والشرق على السواء ما يناسبهم، ويناسب ذلك التراث.

ولو أنَّ البلاد العَرَبية سارت على ضوء تُراثها العرَبىّ والإسلامىّ، لكان لها فى عالَمِ اليوم شأن آخَر، ولكنها اختارت الطريق الذى رأته أقرَبَ وأقصَر، فبدّدَت مَوارِدَها، وضيّعت مِن عُمرها وعُمر شعوبها وأبنائها سنوات غالية طويلة، عليها أن تعوّضها فى مستقبلها القريب - إذا أرادت - بحقّ - أن تلحَق بركْب الحضارة العالَمية.

وما كان يجب أن نفعَله منذُ أكثر مِن قرن مِن الزمان ولم نفعَله، علينا أن نفعَله اليوم، فيجب ألا تكون الصورة التى يعيش فيها عالَمُنا العرَبىّ «عاملَ تثبيط وإحباط، بل بالعكس، يجب أن تكون دافعا للتحدّى والتصدّى، لأنَّ أوّل خُطوة فى طريق التغيير الجِذرِىّ، هى فى دراسة وتحليل النظام التعليمىّ واتّجاهاته ومشاكله، والتعرُّف على مواطن القُوَّة والضعف فيه»[1].

---

(١) الدكتور مُسارِع حَسَن الراوى (مرجع سابق)، ص ٨.

على أن فلسَفة التربية فى العالَم العرَبىّ يجب أن تُعالَج كجُزء مِن فلسفة عامّة للمجتمع العرَبى، لابمعزِل عنها، بحيث تكون التربية جُزءا مِن حَركة مجتمع، يتحرَّك إلى الأمام، له أهداف معيَّنة، تحدّدها فلسفته العامّة هذه، وبذلك يكون لهذه الفلسفة التربوِيَّة وظيفة، وتكون لها فى (تُرْبَة) الأرض العرَبية (جذور)، توفّر لها أسبابَ الحياة، وتوفّر للمجتمع العرَبِىّ - فى الوقت ذاتِه - وسائلَ تحقيق أهدافه العامّة، وأهداف كل قُطْر مِن أقطاره، فى ضوء فلسفته العامّة هذه، وفلسفة كُلّ قُطْر مِن أقطاره، المشتَقّة هى الأُخرَى مِن هذه الفلسَفة العامّة أيضا.

ولابُدَّ أنْ تُراعِىَ هذه الفلسَفة العامّة - والفلسَفة التربوية - أنَّنا «عَرَب، والعُروبة ماضٍ وحاضر ومستقبَل. إنها تُراث وخصائص، إنها مِيزات ونقائص، إنها حقوق وواجبات، إنها عقيدة وسلوك». وهى «لا تنفَصِل عن الإسلام، وإنَّ الإسلام عِزُّ العروبة.

لذلك فإنَّ تربيتنا لاتستطيع أن تَغُضَّ الطرفَ عن تُراثنا العَرَبِىّ الإسلامِىّ، بل إنَّ مِنْ واجبها أن تحرِص عليه وتُفاخِر به، وتعمَل على المحافظة على ما فيه مِن قِيَم ماديّة ورُوحية باقية على الدهر، وعليها بعدَ ذلك أن تُعْمِلَ النظَر فى هذا التراث، فتحتفظ بالصالح منه، وتترُك الطالح، غيرَ آسِفَة ولا وَجِلة»(١).

والدين الإسلامِىّ - عِزّ العروبة - ليس مجَرَّد عقيدة - تعمُر القلب، ولكنه عقيدة تترجَم إلى سلوك، يغيّر مِن نَظرة الإنسان نحوَ نفسه ومجتمعه، ونحوَ الكون وخالقه، ولهذا الدين «خصائصُ أساسية، يمتاز بها، أوَدُّ الإشارة إليها باختصار، لما لَها مِن علاقة مباشِرة بالتربية فى العالَم الإسلامِىّ :

الإسلام دين كُلِّىّ شامل، يشمَل الحياة كُلّها، فهو يشمَل حياة الإنسانَ مِن جميع وُجوهها، ماديّة كانت أم مَدَنِيَّة أم اقتصادية أم أخلاقية أم روحية».

---

(١) الدكتور فاخر عاقل : «نحوَ إصلاح تربوِىّ جِذرِى» - التربية مِن أجل التنمية - للمؤتمر التربوِىّ لتطوير التعليم ما قبل الجامعِىّ، المنعقِد بدمشق فى ٣ - ٨ آب ١٩٧٤ - الجمهورية العربية السورية - وزارة التربية - القاهرة، ص ١٩١.

«والإسلام يدعو إلى الاعتدال» ، وهو «ينمّى الأُخوّة الإنسانية بين الشعوب، كما يرعى الحقوق الأساسية للإنسان» و«يؤكّد كثيرا على النزاهة والعِفّة فى السلوك الشخصىّ للإنسان» ، و«يؤكّد كثيرا على تحصيل العِلم، وإعمال الفِكر»، كما «يعترف بالمزايا القومية للشعوب»[1].

وهو «لايفصِل الدينَ عن الدولة، ولا الدينَ عن العِلم، ولا العِلم عن الأخلاق.

فالدولة والعِلم والأخلاق والعَمَل، يجب أن تتفاعَل كُلُّها، وتتَّحد وفقَ قوانين طبيعية وأخلاقية، ذات مصدَر إلهىّ»[2].

وبالإضافة إلى ذلك، فإن التربية ـ كما رأيناها فى الباب الأوّل مِن الكتاب، وكما هى بالفِعل فى الإسلام ـ ليست قاصرة على المدرَسة، فهى تتمّ فى كُلّ مكان فى المجتمع، ومِنْ ثَمَّ وَجَبَ أن تكون جُزءا مِن حَرَكة المجتمع العرَبىّ فى انطلاقته، وأن تشمل التربية النظامية وغير النظامية.

ويرى الدكتور عبد الله عبد الدائم أنه «للتربية، على نحو ما نعرِفها حتى الآن ـ حتى فى إطارها التقليدىّ ـ أشكالٌ ثلاثة، لانُعْنَى فى الواقع إلاّ بشكل واحد منها.

فهناك التربية التى يمكن أن نسمّيها نظامية».

«وهنالك، إلى جانب التربية النظامية هذه، التربيةُ التى يمكن أن ندعُوها بالتربية غير النظامية، ونعنِى بها كُلّ ما يكتسبه الفرد، بشكل غير منظّم مِن مواقف وقِيَم ومهارات ومعارف، تأتيهِ مِن تجاربه اليومية، ومِن أُسرته، ومِن مُحيطه، ومِن مِهنته، ومِن وسائل البَثّ الجماعية وسِواها».

«وإلى جانب هذين الشكلين مِن التربية، يقوم شكل ثالث لعلّه فى منزِلة بين المنزِلتين، يمكن أن ندعُوَه باسم التربية شِبه النظامية. ونعنِى به أىّ شكل مِن أشكال النشاط التربوىّ، التى نُقيمها خارج إطار التربية النظامية، مِن مِثل مراكز

(١) الدكتور محمد فاضل الجمَالى : آفاق التربية الحديثة فى البلاد النامية (مرجع سابق)، ص ١٢٩ ـ ١٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٥.

التدريب، أو مؤسّسات مكافحة الأمّيّة، أو منظّمات الكشّافة، أو نوادِى المزارعين، أو الجمعيات الثقافية أو الرياضية أو سِواها»(١).

وتلك كُلّها يجب أن تكون متضمَّنة ضِمنَ فلسفة التربية المقترَحة.

وفى ضوء هذا الإطار العامّ لفلسَفة التربية المقتَرحة، يجب أن يدور الحديث، ليشمَل الإنسان العرَبِيّ كما نتصوَّره ونرجوه، والمجتمع العرَبِيّ، ومصادر الثروة الموجودة بهذا المجتمع، والتخطيط لاستغلال هذه المصادر، بحيث يعود الإنسان العرَبِيّ ـ كما كان ـ صاحبَ رسالة، وتعود الأرض العرَبية ـ كما كانت ـ أرضَ حضارة، ويكون ذلك الإنسان قادرا ـ كما كان دائما ـ على أن يقود العالَم إلى العدل والحقّ والخير، التى افتقدها فى ظِلّ الحضارة الغربية الحديثة ـ التى أقامت نفسَها على المادّة، وعلى الشرّ والعدوان، فأوشكت أن تحطّم نفسَها بنفسِها، لتترُك فَراغا رهيبا، نأمُل أن يكون الإنسانُ العرَبِيُّ هو القادر على سَدّه.

الإنسان العرَبِيّ فى فلسَفة التربية العربية المعاصرة:

أتىَ على الأُمّة العرَبية وقتٌ كان يُنظَر إلى الإنسانِ العرَبِيّ فيه على أنه مُسيَّر، لا مُخيَّر، وعلى أنه شِرّير بطبعه، ومِنْ ثَمَّ يجب توجيهه، وتربيته بحيث يكون متلقّيا للأوامر، مستعِدّا للاستجابة لها، وعلى أنه يجب أن يعمَل للآخِرة، تاركا الحياة الدنيا للحُكّام الفاسدين المستَبِدّين، يستمتعون بها نيابة عنه.

ولم تكن هذه النظرة لتتّفق مع الفِكرة الإسلامية عن الإنسان، كما رأيناها فى مواطن مختلفة مِن الباب الأوّل، ولذلك تسرَّبت هذه الفلسَفة إلى التربية الإسلامية فى عصور الضعف والتخلّف، لا فى عصور الازدهار الإسلامِىّ الأُولَى.

وكانت هذه الفلسَفة التربوية على ذلك منطقية مع فلسَفة الحُكْم فى البلاد العرَبية فى ذلك الوقت، فقد كان هذا الحُكم يقوم على البطش والكبت والإرهاب، و(وَأْد) كرامة الإنسان، وشلّ فاعلِيّته، حتى يسهُل استسلامُه للطغاة والمستَبِدّين والمستعمِرين.

---

(١) الدكتور عبد الله عبد الدائم: «التربية فى مرحلة التعليم الإلزامى وما قبلَها، ودورها فى تحقيق أهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية» ـ التربية مِن أجل التنمية ـ المؤتمر التربوىّ لتطوير التعليم ما قبل الجامعِىّ، المنعقِد بدمشق فى ٣ ـ ٨ آب ١٩٧٤ ـ الجمهورية العربية السورية ـ وزارة التربية ـ دِمَشق، ص ١٧١، ١٧٢.

وقد (قفز) إلى الحُكم فى بعض البلاد العَرَبية حُكّام، رفعوا شعارات، تدور حولَ حمل السلاح على أعداء الإنسان العَرَبىّ، وحولَ عودة الكرامة إلى الإنسان العَرَبىّ، رأس مال هذه الأُمَّة العَرَبية، ولكن أسلوبهم فى الحُكم كان أشدَّ عُنفا، وأعنف وطأة على (الإنسان)، مِن أساليب المستعمرين - أنفسهم - أعداءِ هذه الأُمّة.

ومِن ثَمَّ ظلَّت فلسَفة الحياة - المنعكسة على فلسفة التربية - فى عهدِهم، تقوم على نفس المبادئ التى قامت عليها فى العصور السابقة، فارتَدَّ الحُكم الوَطَنىّ بالبلاد العَرَبية، التى مارست هذا الأسلوب مِن الحُكم عشرات السنين إلى الوراء، بدلا مِن أن تخطو بها يوما واحدا إلى الأمام.

وعندما (انفتح) العالَم العَرَبىّ على الغرب، مع مطلَع القرن التاسع عشر، كان عِلم النفس الحديث - كما رأينا عندَ الحديث عن الأصول النفسية للتربية اليوم، فى الفصل الرابع[1] - قد بدأت دعائمه تستقرّ على مناهج البحث الحديثة فيه، والقائمة أساسا على التجريب، والقائمة فى الوقت ذاته - كما سبق - على (تفتيت) النظرة إلى الإنسان.

وأتت هذه النظرة (المفتَّتة) إلى الإنسان مِن الغرب، وهى لاتتّفق مع النظرة العَرَبية والإسلامية إليه، كما رأينا فى نهاية الفصل الرابع، ولكن إعجابنا بكل ما يَرِدُ إلينا مِن الغرب، كان يدفَعنا إلى الأخذ به، بكُلّ ما به مِن نقائص.

وكان مِن مدارس عِلم النفس، التى لاقت - ولازالت تلاقِى - رواجا فى عِلم النفس فى العالَم العَرَبىّ، مدرسة التحليل النفسىّ، التى أَسَّسها سِيجْمُونْد فرُويد S.Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩)، اليهودىّ الصهيونىّ المتعَصِّب الذى «خَرَج على اليهودية كعقيدة بذِهنه، ولكنه ظلَّ وَفيًّا لها كأيديُولُوجْيا بوِجدانه، ومِنْ ثَمّ يُصبح إلحادُه «إلحادا زائفا»، لأنه «ترَكه بعدَ ذلك متشبّثا باليهودية الصهيونية، وفيّا لها، سائرا فى طريقها، منفّذا لمخطّطاتها»[2] - تماما كما فعل بِنْ جُورْيُون، أوّل رئيس وزراء لإسرائيل، وأَحَد كبار مؤسّسيها.

---

(١) ارجع إلى ص ١٧٠ وما بعدَها مِن الكتاب الأصلىّ، حتى نهاية الفصل الرابع، ص ١٨٦.

(٢) دكتور صبرى جرجِس : التراث اليهودىّ الصهيونىّ والفكر الفرويدىّ، أضواء على الأصول الصهيونية لفكر سِيجْمُوند فرُويد - الطبعة الأولى - عالَم الكُتُب - القاهرة - ١٩٧٠، ص ٢٢١.

وقد أقامَ فرويد نظرته إلى الإنسان على أساس نظرية الغَرائز، وعلى رأسها الغريزة الجنسية، التى يراها المفسِّر الأساسىّ لسلوك الإنسان، الظاهر والباطن، فهو يُقيمها «فى نِطاق الافتراض بأن الإنسان حَيوان بشَرِىّ، وأن الذى يقرِّر سُلوكه إلى حَدّ كبير هو الأساسُ البيُولُوجِىُّ لتكوينه. وطاقة الجنس فى هذه الغرائز أى اللِّبيدُو، هى القُوَّة الغالبة، الطاقةُ الكُبرَى والمحرّكة للحيَوَان البَشَرِىّ نحوَ النشاط والتحقيق، فى كُلّ ما يُعرَف مِن وجوه النشاط، وكُلّ ما يمكن أن يصل إليه مِن ضروب التحقيق» ـ حتى تلك التى تتَّصل «بوجوه النشاط الفَنّىّ، والاهتمامات الروحية، والانشغالات الذهنية»، و«ضروب الخَلْق والإبداع، ومِن خُطوات التقدُّم والنهوض»، وذلك عن طريق «هذه العَمَلِية التى تُعْرَف (بالتسَامِى)، أو الإعلاء»[1].

وبنَظَرِيّته هذه، التى رَوَّجت لها أجهِزةُ الدعاية الإعلامية الكثيرة، التى يسيطر عليها اليهود والصهيونيون، استطاعت الصهيونية أن تزرَع فى المجتمعات الغربية جُرثومة فنائها، بما شاع فيها مِن انحلال خُلُقِىّ. وعن طريق المجتمعات الغربية، انتقلت إلينا النظَرِيّة، بكل مساوِئها وشرورها، ولسنا هنا فى مَجال الرّدّ عليها أو على غيرها مِن نظريات عِلم النفس، فقد أفَضْنَا فى الحديث عنها فى الفصل الرابع، عندَ حديثنا عن (الأصول النفسية للتربية)، ولكن هدَفَنا هو أنْ نؤكّد ما ردّدناه كثيرا فى فصول هذا الكتاب، مِن أنَّنا لابُدَّ أنْ نعود إلى (تُراثنا)، ومِن خلاله ننظُر إلى (الإنسان العرَبِىّ)، الذى يجب أن تدور حولَه فلسَفة التربية العرَبية المعاصِرة، أما أن نبحَث عن هذا (الإنسان) فى فِكر غربى، بعيدٍ عن تُراثنا وديننا وأيديُولُوجِيَّتنا، بعيدٍ عن ثَقافتنا، يسعَى لتدميرنا قبل أن يسعَى لتدمير المجتمعات الغربية، بل إنه يستغِلُّ هذه المجتمعات الغربية لتدميرنا، وهو يستغلّها ـ بمختلف الوسائل ـ لتمكين الصهيونية مِن السيطرة على العالَم ـ فهو الأمرُ غيرُ المعقول وغيرُ المقبول[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥٠، ٢٥١.
(٢) أقامَ فرويد تحليلَه النفسىّ فيما أقامه أيضا على شِعار (مُعَادلة السامية). يقول الدكتور صبرى جرجس: «كان شعار (مُعادلة السامية) هو الشعار الذى وقع عليه اختيار اليهودية الصهيونية، مع شعار الاضطهاد، ليكون موضِع المزايَدة والاستثمار الإعلامىّ والسياسىّ، ثم مع الأسَف (الوطنى) أيضا، للمخطّط الصهيونىّ، فى السيطرة على العَقل الغربِىّ. وكان خليقا أن تكفِى الإشارة إلى هذا الشعار فى التعريف به، لولا أنه لقى، دون جميع ألوان التفرِقة ـ

والإنسـان العرَبىّ لـيس حيـوانا بيـولُوچِيًّا، كـما أنه لـيس حـيـوانا اجتـمـاعيـا، وإنما هـو مُـعجِـزة العالَم العـربى، وهـو الذى رفـع على أكـتافِـه رسالةَ العـدل والخـير والجـمال، ونشَـرَها فى عالَم العصـور الوُسطَى، وحماها للناس جمـيعا، وهـو الذى رفـع على أكـتـافه حـضـارة العـصـور الوُسـطَى، مِن القرن الـسادس إلى القـرن الثـانى عشر الميلاديّين، وهـو الذى إذا أُتيحت له الفُرصـة يستطيع أن يُنجِز الكثير، ويحقّق الكثير، وهـو بالفِعل اليوم يُنجِز الكثير ويحـقّقه، فى أنحاء كثيرة مِن العالم الغربى ذاته.

وحـولَ هذا (الإنسـان) المُعـجِـز، يجب أن تدور فلـسَـفـة التـربيـة العـرَبيـة المعاصرة.

والإنسان العـرَبىّ المعُجِز، الذى يجب أن تدور حولَه فلسَـفة التـربية العـربية المعـاصرة، لابُدَّ أن يكون إنسـانا غـيرَ الإنسـان العـرَبىّ المعاصـر، الذى تكالَبَت عليـه الأحـداث، فـزرعت فى نفـسـه رُوحَ القَـدَرية والتـواكُل والتكاسُل - إنسـانا كـذلك الإنسان العرَبىّ الذى حَمَل على أكتافه حضـارة عظمى ، طوالَ سِتة قرون - إنسانا مؤمنا متّصلا بالله، عاملا جادّا نشيطا متسائِلا باحثا، إيجابيّا خَلّاقا.

وبدونِ أن تحـقق التـربيـة العـرَبية هذا الهـدَف العـزيز فـى الإنسـان العـرَبىّ، سيظلّ العـرَب أقزاما، فى وقت تتوفّر لديهم كُلّ الفُرَص ليكونوا عَمالقة.

والإنسـان العرَبىّ المُعـجِز المـنتظَر، الذى يجب أن تدور حولـه فلـسَـفـة التربيـة العـرَبية المعـاصـرة، لن يكون مُعـجِـزا، إلا إذا اتّصل الله، وبدون هـذا الاتّـصـال بالله، يكون حـيـوانا بيـولُوچِيًّا، علـى رأى سِـيـجْمُنْد فـرُويد، أو حـيـوانا اقـتـصـاديا أو اجـتمـاعيا، على رأى الشـيوعـيين، ومـدارس عِلم النفس الحـديث فى الغـرب، أمـا إذا اتّصل هـذا الإنسـان بـالله، فـسـيكون ذا هدَف وذا رسـالة، وسـتـكون لحـيـاته قِـيـمـة ومعنًى.

- العنصُرية التى يكون ضحيتها غير اليهود، مِن اهتمام فـرويد وأصحاب مدرَسته، ما يُثِيرُ الريبة فى حقيقة الأهداف التى رمَى إليها التحليل النفسىّ الفرويدىّه مِن تكرار الحديث عن مُعاداة السامّية، «ارجع إلى المرجِع السابق، ص ٢٠٣).

ومِنْ ثَمّ فإن الإنسانَ العربيّ محتاج فى تربيته إلى (الإيمان) - الإيمان «بأنّ فى الكون نِظاما، وأن هذا النظام منبعِثٌ عن قصْدٍ كَوْنِيّ، وهذا القصْدُ الكونىّ هو مَشِيئَةُ اللهِ خالقِ الكون»، «ثم الإيمان بأن الإنسانية هى أسمَى ثمرة نعرِفها مِن ثَمَرات النشوء والارتقاء»، و«الإيمان بالأُمة العرَبية»، و«الإيمان بأن للفردِ قِيمَته الروحية، وقُدْسِيّته المعنوية»، ثم «الإيمان بقُدْسِيّة الحُرّية، على أن تكون الحُرّية واسطة لإظهار المواهب الكامنة فى الفرد، لخِدمة المجتمع، وأن تكون مقرونة بالشعور بالمسئولية الاجتماعية»، و«الإيمان بالمبدأ الديمُقراطىّ»[1].

وهذا (الإيمان) المتشعّب المتعدّد النواحِى، الذى يستظلّ بالإيمان بالله، ربّ الناس وربّ هذا الكون، هو الطاقة الخلاّقة المُبدِعة، التى تخلُق ذلك الإنسان المعجِز، وتُطهّر مجتمعَه مِن الشوائب التى عَلِقَتْ به بفِعل التاريخ الطويل المُؤْلِم، والتخلّف الشديد، وحملات الحِقد والكراهية المُظلِمة ضِدّه، مِن الطامعين فيه، والحاقدين عليه، منذُ القرن الثانِى عشر الميلادِىّ، وحتى اليوم، مِن الشرق والغرب على السواء.

وهذا (الإيمان) لابُدّ أن يمارَس عَمَلِيّا، ليتحوّل إلى سلوك عَمَلِىّ، يغيّر بالفعل وجهَ الحياة على الأرض العرَبية، ويقدّم للعالَم الحائر المضطرِب، نموذجا جديدا للحياة الفُضْلَى، قَدّمَهُ مِنْ قَبْلُ فى فراغ رُوحِىّ عاشَه العالَم، شبيهٍ بالفراغ الذى يعيشه اليوم.

ولن يكون هذا (الإيمان) المنشود، ولن تكون ترجَمته إلى سلوك عمَلِىّ، إلاّ إذا كانت التربية العرَبية تربية شاملة ومستمِرّة، وتهتمّ بجوانب الشخصية العرَبية المختلفة، ولاتقتصر على الجانب المعرِفىّ وحدَه، كما تمتدُّ مدَى الحياة، ولاتقف عندَ حَدّ التخرّج من المدرسة، بل تستمرّ «(مِن المهد إلى اللحد)»، بحيثُ «ينبغِى للشخص الذى تخرّج فى المدارس على اختلاف مستَوَياتها، أن يشعُر

---

(١) الدكتور فاضِل الجَمالى : «فلسَفة تربوية متجدّدة، أهمّيّتها للبلدان العربية» - فلسَفة تربوية متجدّدة ، لعالَم عربىّ يتجدَّد - دائرة التربية فى الجامعة الأميركية فى بيروت - مطابع دار الكشّاف - بيروت - ١٩٥٦، ص ٤٦، ٤٧.

تماما بالحاجة إلى تنمية تعليمه، وأنْ يواصله معتمِدا على نفسه»(١)، بالإضافة إلى الدور الذى تلعَبه وسائل التعليم غير المباشِر بطبيعة الحال، مِن إذاعة وتليفزيُون وصَحافة ودُور كُتُب ومَتاحف ودَور عِبادة ومؤسَّسات اجتماعية مختلفة، وغيرها، بحيث يكون هذا النمُوّ جُزءا مِن حَرَكة مجتمع بأكملِه، ينمُو ويتحرَّك.

ولايعنِى هذا (الإيمان) الذى لابُدَّ مِن زرعه فى نفس الإنسان العرَبىّ المنتَظَر - (فرضَ) المعتَقَدات المطلوبة عليه، وبالتالِى (وأد) حُرّيّته، و(قتل) شخصيته، فما هكذا كان الإيمان العرَبِىُّ الإسلامِىّ، كما رأينا فى الفصلين السابع والثامن، اللذين قدَّمنا بهما لهذه المقترَحات، وإنما كان هذا الإيمان دائما إيمانا (متفتّحا)، يقوم على حُرّيّة الاختيار، وعلى الاقتِناع، وبالتالِى على تنمية الشخصية الفردية - ليناسب عصرَ العِلم الذى نعيش فيه، وليتَّفق مع الإيمان الذى يريده الإسلام بحقّ.

ومعنىَ ذلك أن فلسفة التربية العربية المعاصرة لابُدّ أن «تكون دراسةُ المواريث (فيها) سائرةً على خُطَى دراسة أُخرَى، وذلك أن تخضَعَ دراستها للطريقة العِلمية، فتُعْرَض عرضا نزيها، وتُناقَش مناقشة حُرَّة، بقصدِ الوصول إلى نتيجةٍ تقبَلها العقول»(٢).

وما دمنا فى عصر العِلم، الذى سعَى العرَب ويسعون ليقتَحِمُوه، فإن فلسفة التربية يجب أن تدور - إلى جانبِ الدين - حول العلومِ الحديثة، على أن تأخُذ البلاد العرَبية مِن هذه العلوم ما يلائم حاجاتها النامية المتطوّرة، لا ما هو موجود ببلاد الغرب المتقدّمة، فقد اقتحمت علومُ الفضاء مثلا مناهج العلوم فى البلاد المتقدّمة، خاصّة الولايات المتّحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتّى، ولكن إقحام هذه العلوم فى مناهجنا الدراسية يكون عَبَثا، فى الوقت الذى تحتاج فيه البلاد

---

(١) كلِنتُون فَارْتلِى جراتَن : البحث عن المعرفة، بحث تاريخىّ فى تعلُّم الراشِدين - ترجمة عُثمان نُويه - تقديم صلاح دُسُوقِىّ - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٣، ص ٢١.

(٢) الدكتور محمد فريد أبو حديد : «فلسَفة تربوية متجدّدة، وكيفية تطبيقها فى المنهَج والأسلوب، والتقييم والامتحان» - فِلسَفة تربوية متجدّدة، لعالَم عرَبِىّ يتجدّد - دائرة التربية فى الجامعة الأميركية فى بيروت - مطابع دار الكشّاف - بيروت - ١٩٥٦، ص ٨٠.

العَرَبية إلى العلوم الزراعية والصناعية والصحّية، التى تخدُم حاجات الأمّة العرَبية الراهنة، حتى إذا أُتيحَ لها فيما بعدُ أن تقتَحِمَ مجال الفضاء،كان دخولُ علومه برامجَ التعليم العرَبية ضرورةً مُلِحّة.

أما اليوم، فإن العلوم المتّصلة بالزراعة والصحّة والتعدين والبترول وغيرها، هى الضرورة المُلِحّة، التى يجب أن تفرض نفسها على برامج التعليم ومناهجه فى العالَم العرَبىّ.

وكذلك يجب أن تفرِض (التربية العسكرية) - بمعناها الواسع - نفسَها على تلك البرامج، حتى يكون الإنسان العرَبىُّ قادرا على أن يعيش فى مجتمع الذئاب، الذى نعيش فيه اليوم - ذئبا، يستطيع أن يَحْمِىَ حضارته التى ينشُدها، وخيرات أرضه التى وَهَبَهُ الله إياها، بعدَ أن عاش ستة قرون حَمَلاً وديعا، تتخطّفه الذئاب، وتنهَب خيراتِه، وتزرَع له فى قلب أرضه فى النهاية جسما غريبا عنه، يتجسَّدُ فيه حِقدُ الغرب كُلّه على ذلك (الإنسان) العرَبىّ منذُ ظهور الإسلام - وذلك الجسم الغريب هو إسرائيل.

وبهذا الاتّصال بين برامج التعليم التى تقدَّم لهذا (الإنسان) العرَبىّ، والتى تتَّصل بروحه وبواقعه، تكتسب تلك البرامج حَيَوِيَّة، حيث «ترتبط المواقف التعليمية بحياة الفرد»، وبذلك تتمكّن مِن «قَدْح قُدْرات الفرد وتنميتها»(١).

وسوف تكتسب برامج التعليم حيويّة أكثَر، إذا هى انتقلت مِن مجرَّد نقل المعلومات، واستيعاب التلاميذ لها، إلى تطبيقها عَمَليا - رغم ما يعترض ذلك من صعوبات عَمَليّة(٢).

وبالإضافة إلى أن هذا الاتجاه (العَمَلىّ) فى التربية، هو أَحَد الاتجاهات العالَمِيّة المعاصرة فى التربية، فى الغرب والشرق على السواء، فإنه هو جوهَر

(1) PAUL R. MORT : **Principles of School Administration, Mc Graw-Hill Book Company, Inc., New-York, 1946, p. 61.**

(2) **International Year book of Education,** UNESCO, **International Bureau of Education, Geneva, 1949, p. 65.**

التربية الإسلامية فى عصور ازدهارها، وهو يمثّل روح الإسلام كما يُفهَم مِن القرآن الكريم والحديث الشريف، وهو القادر - وحده - على انتزاع تلك النزعة - غير العربية وغير الإسلامية - التى فرضها التخلُّف الطويلُ الذى فُرِض على التاريخ العربىّ والإسلامىّ، كما فرضها على تاريخ بلاد العالَمِ الثالث كلّها - وهى النظرة إلى العَمَل اليدَوِىّ نظرةَ احتقار وازدِراء.

المجتمع العربىّ فى فلسفة التربية العربية المعاصرة:

وأتىَ على الأُمّة العربية - كذلك - وقت كان يُنْظَر إلى المجتمع العربىّ فيه على أنه يجب أن يعيش مُمَزَّقةً أوصالُه، ينشغل فيه كُلّ فرد بنفسه، وتنشغل كل جماعة بنفسها، ويعيش كُلُّ قُطْر مِن أقطاره مُشْكِلاته، وذلك ليسهُل على حُكّامه المسيطِرين عليه نهبُ خيراته، والتحكُّم فيه، والتهام أجزائه جُزءا جُزءا. ولم تكن تلك النظرة مُتّصلة بالإسلام، ولا بما خَلّفه مِن ثقافة فى الأُمّة العربية، كما لم تكن لتخدُمَ آمال الأُمّة العربية، ولا لتحقّق أهدافَها، ولكنها كانت تخدُم الحُكّام الفاسدين المفْسِدين، الذين حَكَموا هذه الأُمّة بعدَ ضعف الخلافة العبّاسيّة فى بغداد، ابتداءً مِن القرن الثالث عشر الميلادىّ مِن مَماليك وعُثْمانِيّين واستعمار حديث.

وبعدَ تحرُّر البلاد العربية مِن الاستعمار الحديث، بدا كُلُّ بلَد يعالج مشكلاتِه فى إطار محلّىّ، لا فى إطار قَوْمىّ عربىّ، فدعّمت - فى عهد التحرُّر والحكومات الوطنية - الفُرقة التى زُرِعَت فى العالَم العربىّ مِن قبل، فى ظِلّ الحكومات الأجنبية.

وفى ظِلّ الضغوط التى مُورِسَت على البلاد العربية، نَبتت فِكرة (الجامعة العربية)، وأُنشِئَت بالفِعل سنة ١٩٤٥، ولكنها كانت جامعة (حُكومات)، ولم تكن جامعة (شُعوب)، ومِنْ ثَمّ لم يُتَحْ لها أن (تجمَع) بينَ البلاد العربية إلا فى إطار ضيّق تماما، حدّدته ظروفُ هذه الحكومات، وما بينَها مِن علاقات، أكثرَ مِمّا حدّده ميثاقُ الجامعة العربية بالفِعل.

وفى حياة الجامعة العربية، تمزّق العالَم العربىّ تحت حُكوماته الوطَنية، إلى بلاد ثَوْرية وبلاد تقليديّة، وإلى نُظم رَجْعيّة ونُظم تقدّميّة، وكان ذلك كُلّه جُزءا مِن تفكّك كبير بين الحُكومات العربية، مرجعُه أنّ كُلّ حُكومة مِن حُكوماته كانت ترَى نفسها هى وحدَها الجديرةَ بأن تكون (الزعيمة) للعالَم العرَبىّ الممزّق، وكان رَدُّ فِعل ذلك هو التوجُّس والخِيفة، والحَيْطة والحَذَر، مِن جانب الحكومات الأُخرَى.

ولعلّ ذلك هو الذى حَكَم على محاولات الوحدة الدستورية بين البلاد العربية بالفَشَل.

وقد تعدَّى الأمرُ الحرب الكَلامية والإعلامية بينَ الدول العرَبية، إلى الحرب المسلَّحة، كما حدث فى اليَمَن سنة ١٩٦١.

ولم يُتَحْ للعَرَب أن يتَّحدوا حقيقة، إلاّ أمام الخَطَر الداهم، الذى تجَسَّد أمامَ أعيُنهم بعدَ عُدوان يونيو ١٩٦٧، وكان ذلك هو الذى أتاح لهم أن يحقّقوا بعضَ النصر فى معارك رمضان ١٩٧٣، ولكنه مجرّد بداية، لابُدَّ أن يتّخذ منها العرَب منطلَقا نحوَ الوحدة العرَبية الشاملة - على أىّ نحو مِن الأنحاء، يحمِى مصالح الأُمّة العربية، ويحفَظ كرامة (الإنسان) العربىّ، ويُطلِق طاقاته المُبدِعة، ويمكّنه مِن استغلال إمكانيات نفسِه، وإمكانيات أرضِه - قبل أن يَحْمِىَ مَصَالِحَ حُكّام أفراد، راغبين فى السيطرة والتحكُّم.

وكانت التربية فى كل بلَد عرَبىّ تَدْعَمُ هذه الفُرقة، فقد كانت تدور حولَ تمجيد الحاكم الفرد، وحول تدعيم (الشعُوبيّة)، التى خلَقَها أعداءُ العَرَب فى جسم الأُمّة العرَبية، حتى مَزَّقُوها.

ويرَى الدكتور محمد فَاضِل الجَمَالِى أن «أسبابَ التخلُّف فى المجتمع العرَبىّ الإسلامىّ» - فيما يراه «خير الدين باشا التونُسِىّ» - هى :

(أ) الاستبداد بالحُكم.

(ب) الانقسامات الداخلية، وما يرافقها مِن صراع دَاخِلىّ ومؤامَرات.

(جـ) التعصُّب الأعمَى، والقضاء على حُرِّيَّة الفِكر.

أمراضٌ اجتماعية ثلاثة، كُلّ واحد منها قَتَّال، ومَاحِقٌ للمجتمع الإنسانِيّ الكريم، ولكن هذه الأمراضَ لم تكن لتستَفْحِل، لو لم يتسرَّب ضعفٌ عامٌّ فى جِسم الأمَّة، هو الضعفُ الروحِيُّ والأخلاقِيّ، «وما يرافقه مِن أطماع، وإشباع شهَوات، كُلُّها أدَّت إلى اضمحلال القواعد الأساسية التى قام عليها المجتمع العرَبِىّ الإسلامِىّ، بحيثُ أصبح فريسة هَيِّنَة للغزو الأجنَبِىّ والاستعمار»[1].

ومعنَى ذلك أن المجتمع العرَبِىّ - ككُلّ - شأنُه فى ذلك شأنُ كُلّ قُطْرٍ مِن أقطاره، لابُدَّ أن يقوم على الأخلاق العرَبية الإسلامِيّة، إذا أُرِيدَ له أن يتقَدَّم وينهَض، يَجِبُ أن يقومَ هذا المجتمع على الحقّ والعدل والخير، وعلى إرادة الحُرّيّة لكل فرد مِن أفراده، فالمجتمع القَوِىُّ لاينهَضُ علىِ أشلاء أبنائه، وإنما هو يعلُو على أكتافهم، فلتَدْعَمْ هذه الأكتافُ، ولتسقُطْ كُلّ القُوَى التى تعمَل على إضعافها.

ويجب أن (ينفَتِحَ) هذا المجتمع العرَبِىُّ - بعدَ ذلك - على نفسِه أوَّلَ الأمر، ليكتشف إمكانيَّاتِه، ثم لينفَتِحَ على العالَم الخارِجِىّ، يأخُذ منه ويُعطِيه، كما كان دائما، محتَفِظا لنفسِه بشخصيّته المستقلّة، التى ميَّزته عَبْرَ تاريخِه الحَضَارِىّ الطويل، الذى عُرِفَ فيه بأنه «مجتمع أُسِّسَ على الإيمان بالله»، وبأنه «مجتمع أخلاقِىٌّ قبلَ كُلّ شىء»، وبأنه «فى أصالته مجتمع ديمُوقراطِىّ، يُحْتَرم الإنسانُ الفردُ فيه، ويُصان شرَفُه وكرامَتُه، وتُحْمَى حياتُه وعِرْضُه ومَالُه»، وبأنه «فى أصالته يأخُذ بالعِلم الصحيح، وينفَتِح على كُل الحضارات، مقتَبِسا منها كُلّ ما هو حقّ وخَيْر»، وبأنه «مجتمع يهضِم كُلّ ما تُنْتِجُه عبقَرِيَّة الإنسانِ الخَلَّاقة، حيثُما كانت»، وبأنه «هو مجتمع الإخاء الإنسانِىّ»، وبأن حضارته «تتَّسم بالشمول»، «فهى حضارة روحية وأخلاقية، كما أنها حضارة عُمْرانية وصناعية وتجارية، كما أنها حضارة قانونية وفلسَفية وعِلمية وأدَبية فى الوقت نفسِه»[2].

---

(١) الدكتور محمد فاضل الجَمَالِى : نَحْوَ توحيد الفِكر التربَوِىّ فى العالَمِ الإسلامِىّ - الدار التونسيّة للنشر - تُونس - ١٩٧٢، ص ١٥، ١٦.

(٢) المرجِع السابق، ص ١٣ - ١٥.

وإذا كان هذا هو الإطار الأيديُولُوجِىّ للحياة فى المجتمع العرَبِىّ الإسلامِىّ، فإنه يُغنِينا - كعرَب - عن الجرى وراءَ أنماط للحياة فى الغرب أو الشرق، تختلف عنا أيديُولُوجِيًّا، ولا تتَّفق أنماطُ الحياة فيها مع مقدَّساتنا وتُراثنا وثقافتنا.

ففى فترة مِن الفترات، كانت (الديمُقراطية الغربية)، التى تتَّسم بتعدُّد الأحزاب، والصراع بينها مِن أجل السُّلْطة، هى النمَط السياسِىّ الأوحَد للحُكْم، فى العالَم العرَبِىّ، وفى ظِلِه (احتكَرَت) السُّلْطَةَ فى يد (قِلَّة) مِن الأغنياء، ترتبط أسماؤها بهذه الأحزاب.

وعندما ظهر فشل النظام الحِزبى فى العالَم العرَبِىّ، أتت فترة أُخرَى كانت بمثابة رَدّ فِعل لها، صارت فيها (الديمُقراطية الشرقية)، التى تقوم على الحِزب الواحد، هى النمَط السياسِىّ للحُكْم فى بعض البلاد العرَبِيّة، وفى ظِلّه (احتُكِرَت) السُّلْطَة فى يد (قِلَّة) مِن المغامرين والمنافقين، استطاع الأوَّلُون أن يقفِزُوا إلى السُّلْطَة، واستطاع الآخَرُون أن يقتَرِبُوا منها.

وفى النمَطين الغريبين عن عُروبتنا وإسلامنا، ضُيِّعَت الديمُوقراطيّة، وافتُقِدَت الشُّورَى، وبُدِّدَت الموارد، وتَمَّ (وَأْد) كرامة الإنسان العرَبِىّ، فكانت نكَسَاتُه المتتالِية فى تاريخه المعاصِر، قبل أن يهبّ مِن جديد، بعدَ حرب رمضان ١٩٧٣، ليُعلِنَ عن وجوده، ويرفَع صوتَه، ويطالب بحقّه فى أن يقول : (لا).

وآنَ الوقت الذى يجب على الجامعة العرَبية فيه أن تُعلِن عن وجودها أيضا، لتطالب بحقّها فى الحياة - الحياة الحقيقية، التى تُمارِس فيها وظائفَها، التى مِن أجلها أُقِيمَت، وبذلك تبرّر استمرارَها، قبلَ أن يُقَالَ لها : لقد صِرْتِ عِبْئاً علينا.

عليها أن تَضَعَ إطارا عامّا (ثقافيّا) تلتزِم به بلادَ الوطَن العرَبِىّ، يشمَل التربية والتعليم والثقافة والإعلام، وكُلّ وسائل تشكيل المواطن، بحيث تتحرَّك كُلُّ البلاد العرَبِيّة فى حدوده، وعليها أن تَضَع إطارا عامّا (اقتصاديا)، يضمَن أن يكون (خيرُ العرَب للعرَب)، تتحرَّك كُلُّ البلاد العرَبِيّة فى حدوده، وعليها أن تضع إطارا عامّا (أخلاقيّا)، تسعَى نحوه أخلاقيّات المُوَاطِن العربِىّ، فى كُلّ مكان،

كما تقوم عليه أخلاقيات الحُكومات العَرَبيّة فى تعامُلها مع رَعاياها مِن جانب، وفى تَعامُلها مع بعضِها البعض مِن جانب آخَر. وهكذا.

على الجامعة العَرَبية اليومَ أن تجمَع الشمل، وأن تساهم فى تدعيم الوحدة (الداخلية) فى كُلّ بَلَدٍ عربىّ، مِمَّا يمهّد لإقامة الوحدة العربيّة الكُبْرَى بعدَ ذلك، تِلقائيا، بلا مُؤامَرات ولا فِتَن ولادسائس.

عليها أن تُزيلَ (الحُدود)، التى فُرِضت على البلاد العَربيَّة فى عصر الاستعمار، بألوانه المختلفة، ثم دَعمَت (الحُكُومات الوطَنِيَّة) ـ للأسَف ـ وُجودَها لأسباب كثيرة، على رأسها التشبُّث بالسُّلْطَة فى كُلّ بَلَد عربىّ، وانعدامُ الثقة بينَ كُلّ حُكومة عربيّة وأُخرى، وعليها ـ لذلك ـ أن تَخلق (هَدَفا) عربيّا واحدا، يتحرّك العالَم العَربىّ للوصول إليه، فتتمّ الوحدة عَمَليا على طريق هذا الهدَف.

وحُرِّيَّة الوطَن العربىّ، وكرامة المُوَاطِن العربىّ، وتقدُّم الأُمَّة العربيّة لتَحْتَلّ مكانتَها الجديرة بها ـ هى خيرُ الأهداف. وطريق تحقيق هذا الهدَف هو التعليم، فلتَكُنْ له خُطَّة قومية، تضطَلِعُ بتخطيطها وتنفيذها الجامعةُ العربية، على أن تستَوْحِىَ أهدافَ الخُطَّة مِن واقع العالَم العربىّ، ومِن إمكانياته المُتَاحَة، ومِن خِبراته المتوفّرة، وهى كثيرة كثيرة.

وسوف تكون مُشكلة (التمويل)، مِن أوّل المُشْكِلات، التى تعترِضُ طريقَ أيَّةَ خُطَّة عربية للنهوض بالتعليم العربىّ، ولكنَّ تلكَ المُشْكِلات يُمكِن حَلُّها لو وُضِعَت خُطَّة عربية مُحْكَمَة، تستفيد بالإمكانيات المُتَاحة فعلا، ووُضِعَتْ فى ضوئها خُطَّة إقليمية لكُلّ بلَد عربىّ، وأُنشِئ (بنك عربىّ) للتنمية العربية، العلمية والتعليمية، يستفيد بالأموال العربية، المُودَعَة فى بنوك الغرب، وسوف يرحّب أصحابُ هذه الأموال باستغلالها على هذا النحو، لو زُرِعت الثقة بينَ الحُكّام العرَب، وقام الحُكْمُ العربىُّ على أساس (خير الشعوب) ـ وتلك هى مُهِمَّة الجامعة العربية فى مرحَلَتِها القادمة.

فلسفة التربية العربية المعاصرة بين الانفتاح والانغلاق :

وقد يُفهم مِن هذا الكلام أنّنا ننادِى (بالانغلاق) على النفس، بحثاً عن فلسفة تربويّة عربيّة إسلامية، تكون نابعة مِنّا.

وتلك حقيقة أساسية تعتمد عليها مقترحاتُنا، التى نراها فى ضوء القوَى الثقافية المؤثّرة فى العالَم العربىّ، كما رأينا فى الفصل الماضِى. ولكنها فى الوقت ذاته أبعَدُ ما تكون عن الحقيقة المُطلَقة التى ننشُدها، فالانغلاق يُؤدّى إلى التحَجُّر والجُمُود، ولسنا دُعاةَ تَحجُّر وجُمُود.

إلا أنّ (الانفِتاح) بغير حدود هو الآخَرُ يؤدّى إلى (مَسْخِ) الشخصيّة العربية، وقد أدّى ـ بالفعلِ إلى (مَسْخِهَا)، كما نرَى فى واقعِنا اليوم.

ومِنْ ثَمّ كان لابُدّ مِن (الانغلاق) على النفس، و(الانفتاح) على العالَم الخارجِىّ فى نفس الوقت، على أن يقوم بينَ النقيضين (توازُن) معقول، وإلا ارتَدّ العالَم العرَبِىُّ إلى أَحَدِهِمَا، فخَسِرَ ثمارَهُما معاً، وجَنَى المضارّ وحدَها. وبعبارة أُخرَى، يجب أن تقومَ سياستُنا التربويّة على (الانفِتاح)، على أن يكون (انفِتَاحا) على النفس أوّلا، ثم يتلوه (الانفِتاح) على العالَم.

وقد كان هذا الجمعُ بينَ (النقيضَين)، هو جَوْهَر التربية الإسلامية، وعلى أساسِها تطوَّرت هذه التربية ونَمَت طوالَ سِتّة قرون، مِن (المسجِد) وحدَه، إلى نظام تربية مُتكامِل، يبدأ مِن (الكُتّاب) عندَ القاعدة، وينتهِى (بالجامعة)، و(مراكز البُحُوث) على القِمّة ... كما تطوَّرت ونمَت مِن نِظام بِدائِىّ بسيط، إلى نِظام رسمِىّ مُعقّد، متكامِل، شبيهٍ بنُظُم التعليم الحديثة، كما رأينا فى التطوُّر التاريخِىّ للتربية الإسلامية فى الفصل السابع[1].

ومع (الكُتّاب)، نما الفِكر التربوىّ الإسلامِىّ، أو فلسَفة التربية الإسلامية، حتى اكتملت على يد الغزالىّ وابنِ خلدُون.

---

(١) ارجِع إلى ص ٢٧٩ ـ ٢٨٢ مِن الكتاب الأصلِىّ.

وكان هذا النمو فى مؤسسات التربية، وفى الفكر التربوى أو فلسفة التربية - كان قائما على (أيديولوجيا الإسلام)، متأثرا - فى الوقت ذاته - بما وصل إليه الفكر الإنسانى فى خارج مملكة الإسلام.

إلا أن المسلمين «لم يكونوا مجرد (متلقين) للحضارات الأجنبية التى وقعوا تحت تأثيرها، ولم يكونوا مجرد سلبيين فى موقفهم منها، وإنما كانوا إيجابيين فى تعاملهم معها، ومن ثم صبغوها بالصبغة الإسلامية، وأخضعوها لأيديولوجية الإسلام، ومن ثم صارت هذه العلوم فى النهاية علوما إسلامية، تشكل جزءا لا يتجزأ من حضارة إسلامية متميزة». «وما يقال عن الحضارة والعلوم، يمكن أن يقال عن التربية، فالمسلمون لم يأخذوا نظريات التربية التى وجدوها، ولم ينقلوا مؤسساتها ونظمها، ولم يفعلوا ما فعله الرومان من قبلهم، حين أخذوا كل شئ فى نظامهم التعليمى عن اليونانيين، ولا ما فعله الغربيون من بعدهم فى العصور الوسطى، حين فعلوا ما فعله الرومان، وإنما هم تأثروا بنظم التعليم الأجنبية، وطوروا هذه النظم وفق (حاجات) المجتمع الإسلامى النامية المتطورة»(١).

فالتأثر بالحضارات والثقافات الأجنبية جزء من حضارتنا العربية الإسلامية، وجزء من تراثنا، ومن ثقافتنا .. إلا أنه ليس تأثرا مطلقا، أو (متسيبا)، وإنما هو رهن بمدى موافقة الفكر الأجنبى لتراثنا وتقاليدنا وثقافتنا.

وكان هذا (التأثر) بالدخيل، بشرط موافقته (للتربة) الوطنية، هو الذى دفع بالولايات المتحدة إلى الأمام، وكان هو الذى دفع الاتحاد السوفيتى، ثم باليابان والصين بعد ذلك، إلى ما وصلت إليه كل منها من تقدم حضارى فى العصر الحديث، ولولا (الجمع) بينهما فى (توازن)، ما تقدم بلد من هذه البلاد على النحو الذى تقدمه.

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود: «الأيديولوجيا والتربية فى الإسلام» - الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس - بأقلام نخبة من أساتذة التربية وعلم النفس - دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة - ١٩٧٦، ص ٤٣، ٤٤.

ويرَى الدكتور محمد أحمَد الغَنَّام، أن «المستقبَل، مَهْمَا كانت توقُّعاتُنا له، وآمالُنا عليه، لاينبُع مِن عَدَمٍ أو فَراغ - كما قدَّمنا - وإنما مدخَله الرئيسيّ هو الحاضِر بماضِيه. ومِن هنا فإن السؤال أو الأسئلة التي تطرَح نفسَها هنا، توطِئةً للدخول في المستقبل، هي :

ما واقع التربية في البلدان العرَبية، وما اتجاهاتها ؟ ماذا أنجزَت ولم تُنْجِزْ ؟ ماذا يُوحِي به هذا الإنجاز أو عَدَمُه، وماذا تُوحِي به الاتِّجاهات في المستقبَل ؟»(١).

وتُعتَبر الإجابة على هذه التساؤُلات، هي المنطَلَق الذي يجب أن تَنْطَلِق منه التربية العربية.

كما يرَى «أن البلدان العرَبية - بإمكانياتها الاقتصادية الراهنة والمحتَملة، وبديناميَّات سُكَّانها، وبإنجازاتها التربوية» - «هي اليوم أمام اختيارات عديدة، بشأن مستقبَلها التربويّ» :

- «الاختيار الأوّل : أن تُواصِلَ التربيةُ نُمُوَّها في البلدان العرَبية، مركّزة على التوسُّع الخَطِّيّ وزيادة الأعداد»، «مع تعديلات أو تحسينات هامِشيّة، وملاءَمات سَطْحية (لايلبَثُ أن يبطُلَ مفعولُها أو تضعُف قيمَتُها، أمام المتغيِّرات التي تطرَأ على التربية مِن الداخل والخارج). وهذا الاختيار يمكن تسميتُه استراتيجِيَّة التقليد، أو الاستمرار على القديم».

- «الاختيار الثانِي : أن تواصل التربية نُمُوَّها في البلدان العرَبية، مع تحوُّل الاهتمام مِن الكَمّ إلى الكيف»، «ولكن وفقَ المفاهيم والمعايير والممارسات والأدوات الدارجة»، «مع بعض الملاءمات والمراجعات الجُزئية. وهذا الاختيار يمكنُ تسميتُه : استراتيجِيَّة التجويد التربَوِيّ (أو الإصلاح الجُزْئِيّ مِن داخل نُظُم التعليم)».

- «الاختيار الثالث : أن تواصل التربية نُمُوَّها في البلدان العربية، مركّزة

---

(١) محمد أحمَد الغَنَّام : «مستقبَل التربية في البلدان العرَبية - الجُزء الأول - : النظرية والواقع» - التربية الجديدة - مجَلّة فَصْلِية، تصدر عن شؤون التخطيط والتجديد في التربية - السنة الأُولَى - العدد الثانِي - بيروت - نيسان (أبريل) ١٩٧٤، ص ٦.

على كِفايتها الخارجية، التى تحصُرها فى الملاءمة بين ناتج النظُم التربوية، واحتياجات البلاد مِن العِمَالة الماهرة على شتَّى المستويات (وفْق تصوُّرات ضيِّقة للعَمَل والعِمالة). ويمكن تسمية هذا الاختيار : **استراتيجيّة الكِفاية الخارجية (الضيّقة) للتربية، (أو الإصلاح الجُزْئيّ مِن خارج التعليم)**».

- «الاختيار الرابع : أن تخضَع التربية - وهى تَسِير - لمراجعة جِذْرِيَّة شاملة فى البلدان العرَبية، بحيثُ تُصبحَ بالفِعل تربية عرَبية للجميع، تربية متقدّمة، تربية مُنْتِجَة، تربية ديمُقْرَاطِيَّة، تربية مستَدِيمة، وبحيث يَتمّ إدارتها على أُسُس عِلْمِيّة، ضِمْنَ إطار عَرَبِيّ مُوحَّد، وهذا الاختيار يمكن تسميته : **استراتِيجيَّة التجديد التربَوِيّ الشامل**»(١).

وحَوْلَ هذا الاختيار الرابع - كما يبدُو - يجب أن تدور جُهودُنا، وله فَلْيَعْمَل العاملون.

إلا أنه دُونَ هذا الاختيار صعوبات وصعوبات .. ولكنها ثَمَنُ المستقبَل، الذى يجب أن يدفَعَه رجالُ التربية العَرَب، إذا أرادوا التقدُّم للوطَن العرَبِيّ، الذى لابُدَّ أن يتمتَّعوا ويتمتَّع أبناؤهم مِن بعدِهم بثمرة ازدهاره وتقدُّمِه.

وحولَ هذه (الصعُوبات)،ستكون كلمتُنا الأخيرة - باختصار.

كلمة أخيرة :

إذا كان (الانفِتاح) هو الطريق الذى يجب أن تقوم عليه فلسَفة التربية العرَبية، على أن يكون هذا (الانفِتاح) (انفِتاحا) على النفس أوّلا، يتلوه (الانفِتاح) على الغير، فإن معنَى ذلك ن (التربية الإسلامية) يجب أن تكون هى الهدَف.

وصعوبات البحث فى التربية الإسلامية عديدة، منها أن الفِكر التربَوِيّ

---

(١) محمد أحمد الغَنّام : «مستقبَل التربية فى البلدان العرَبية - الجُزء الأوَّل - : النظرية والواقع» - التربية الجديدة - مجَلَّة فصلية، تعالج شئون التخطيط والتجديد فى التربية - السنة الثانية - العدد الرابع - بيروت - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٤، ص ١٠.

الإسلامىّ لايبدُو فى تكامُله، بحيث يمكن الاستفادة به، إلا فى القرآن الكريم والحَديث الشريف، وفى فِقْه الفُقَهاء وكتابات الفلاسفة والمتكلّمين، وأدَب الأُدَباء، ومِنْ ثَمَّ فهذا الفِكر التربوىّ الإسلامِىّ يحتاج إلى عِلم إسلامِىّ موسوعِىّ شامل، وهو ما يفتقِرُ إليه رجال التربية العَرَب المعاصِرون، لا لشئ إلا لأنَّ مُعظَمهم قد تعلّم فى مدارس ومعاهد (مَدَنِيَّة)، وأتمَّ تعليمَه وإعدادَه فى معاهد أجنبية، فمعرِفتهم بالإسلام محدودة.

ورجالُ الدين المسلمون أُعِدُّوا إعدادا (دينيا) خالصا، يعرِفون به الحَلال والحَرام، وأُصولَ الإسلام، ومعلوماتُهم عن التربية ـ كعِلم ـ محدودة، تماما كمعلوماتهم عن الكيمياء والطبيعة والطبّ وما إليها.

ولن يمكن جَنْىُ الثمَرة فى ظروفنا الراهنة إلا بتكوين (فريق بحث)، يضُمّ هؤلاء وهؤلاء، ويجمَع الفِكر الإسلامِىّ الأصيل، إلى جانب الفِكر التربوىّ الحديث، ليتمّ (اللقاح) بينَ الفِكرين، الأصيل والحديث.

ولما كانت هذه القضيّة قضيّة عَرَبيّة بالدرجة الأُولَى، فإن ذلك يجب أن يتمّ تحتَ رعاية (الجامعة العَرَبية)، و(المجلس الأعلَى للشئون الإسلامية)، أو (المؤتمَر الإسلامِىّ).

وثمّة فُرصة ـ أو فُرَص ـ يجب استغلالها، وهى الرسائل العلمية، التى تسجّل فى الجامعات العَرَبية، للحصول على درجات الماچستير والدكتوراه، فهى يجب أن تتّجه هذا الاتّجاه، فتدرُس الفِكر التربَوِىّ الإسلامِىّ والتربية الإسلامية، وتدور حول (الإسلام وتحدّيات العصر)، بَدَلا مِن أن تدور بعيدا عن المشكلات المُلِحّة للأُمّة العَرَبية، فتخلُق باحثين يدورون فى فراغ، أو فى إطار غريب عنا، لسنا اليوم فى حاجة إليه، بقدر ما نحن فى حاجة إلى أن نعرِف أنفسَنا وتُراثَنا و(شخصيّتنا القومية)، ومقوّمات حياتنا، وتُراثنا التربوِىّ.

ولو نجحت الجامعات العربية فى إعداد بعض الباحثين الذين يعرِفون : كيف يتناوَلون تُراثنا التربَوِىّ، وكيف يعالجونه، وكيف يتعامَلون معه، وكيف

يستفيدون به، فسنكون ـ ولا شَكَّ ـ قد فتحنا البابَ على مصراعيه نحوَ مستقبَل، نستطيع أن نتعامَل فيه مع الأفكار التربوية الأجنبية، دون ما خوف مِن أن ننقُلها كما هى ـ كما نفعَل اليومِ ـ إلى نُظُمِ التعليم العرَبية، لأنها فى هذه الحالة ستعرِف طريقَها إلى التأقلُم والتكَيُّف، وَفْقَ ... فلسَفة عرَبية للتربية، تخدُم مجتمعا عرَبيًا ناهضا، عرف قدرَ نفسِه، فعرف الآخَرُون قَدْرَه.



مراجع المقولة الخامسة

١ - الدكتور أبو الفتوح رضوان : «البعد عن الحياة، مشكلة التعليم الثانوى» - الرائد - مجلة المعلمين - السنة السادسة - العدد الثالث - القاهرة - نوفمبر ١٩٦٠.

٢ - أبو خلدون ساطع الحصرى : حولية الثقافة العربية - السنة الأولى - جامعة الدول العربية - الإدارة الثقافية - القاهرة - ١٩٤٩.

٣ - أحمد أمين : «الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى، مؤسس النهضة العلمية الحديثة» - فيض الخاطر - الجزء الخامس - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٤.

٤ - أحمد أمين : «الوحدة والتعدد» - فيض الخاطر - الجزء الثانى - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٠.

٥ - أحمد أمين : «زعماء الإصلاح الإسلامى فى العصر الحديث» - فيض الخاطر - الجزء الخامس - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٤.

٦ - أحمد أمين : ضحى الإسلام - الجزء الأول - الطبعة الأولى - مطبعة الاعتماد - القاهرة - ١٩٣٣.

٧ - أحمد أمين : ظهر الإسلام - الجزء الأول - الطبعة الثانية - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٦.

٨ - أحمد أمين : فجر الإسلام - الجزء الأول (فى الحياة العقلية) - الطبعة الثالثة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٣٥.

٩ - الدكتور أحمد سويلم العمرى : بحوث فى المجتمع العربى من سلسلة (دراسات سياسية) مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٠.

١٠ - الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : «العلاقات بين الشرق العربى وأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر» - دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة - الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة (بدون تاريخ).

١١ - الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر، من نهاية حكم محمد على، إلى أوائل حكم توفيق (١٨٤٨ - ١٨٨٢) - الجزء الأول - عصر عباس الأول وسعيد (١٨٤٨ - ١٨٦٣) - وزارة المعارف العمومية - القاهرة - ١٩٤٥.

١٢ـ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر، مِن نهاية حُكم محمد على إلى أوائل حُكم توفيق (١٨٤٨ ـ ١٨٨٢) ـ الجُزء الثانى ـ عصر إسماعيل، والسنوات المتَّصلة به مِن حُكم توفيق (١٨٦٣ ـ ١٨٨٢) ـ وزارة المعارف العمومية ـ القاهرة ـ ١٩٤٥.

١٣ ـ الدكتور أحمد عِزَّت عبد الكريم : (مصر) ـ دراسات تاريخية فى النهضة العَرَبية الحديثة ـ الإدارة الثقافية بجامعة الدول العَرَبية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة (بدون تاريخ).

١٤ ـ الدكتور أحمد فؤاد الأهوَانِىّ : التربية فى الإسلام ـ مِن سِلسلة (دراسات فى التربية) ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٨.

١٥ ـ أحمد نجيب الهِلالىّ : تقرير عن إصلاح التعليم فى مصر ـ وزارة المعارف العمومية ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٠.

١٦ ـ البَهِىّ الخُولى : الاشتراكية فى المجتمع الإسلامى، بينَ النظرية والتطبيق ـ مكتبة وهبه ـ القاهرة (بدون تاريخ).

١٧ ـ الدوميلى : العِلم عند العَرَب، وأثَرُه فى تطوُّر العِلم العالَمى ـ نقله إلى العَرَبية : الدكتور عبد الحليم النَّجار، والدكتور محمد يوسف موسَى ـ قام بمراجعته على الأصل الفرنسىّ : الدكتور حسين فوزى ـ جامعة الدول العَرَبية ـ الإدارة الثقافية ـ الطبعة الأُولَى ـ دار القَلَم ـ القاهرة ـ ١٩٦٢.

١٨ ـ دكتور سعد مُرسى أحمد : تطوُّر الفِكر التربوِىّ ـ عالَم الكُتُب ـ القاهرة ـ ١٩٧٠.

١٩ ـ دكتور سعد مُرسى أحمد، ودكتور سعيد إسماعيل عَلِىّ : تاريخ التربية والتعليم ـ عالَم الكُتُب ـ القاهرة ـ ١٩٧٢.

٢٠ ـ دكتور سعيد إسماعيل عَلِىّ : الأزهَر على مسرَح السياسة المصرية، دراسة فى تطوُّر العلاقة بين التربية والسياسة ـ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ـ ١٩٧٤.

٢١ ـ دكتور سعيد عبد الفتَّاح عاشور : المدَنِيَّة الإسلامية، وأثرُها فى الحضارة الأوربية ـ الطبعة الأُولَى ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦٣.

٢٢ ـ الدكتور سلامة حَمَّاد : «أثَر الشرق فى الغرب، وأثَر الغرب فى الشرق» ـ صحيفة التربية ـ تُصدِرها رابطة خرِّيجى معاهد التربية بالقاهرة ـ السنة الثامنة ـ العَدَد الثالث ـ مارس ١٩٥٦.

٢٣ ـ سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ـ إشراف دكتور أبو الفتوح رضوان ـ تقديم دكتور باهور لبيب ـ دار الكَرْنَك للنشر والطبع والتوزيع ـ القاهرة ـ ١٩٦٣.

٢٤ ـ دكتور صَبْرِى جرجس : التراث اليَهُودِىّ الصهيونِىّ، والفكر الفرُويدِىّ، أضواء على الأصول الصهيونية لفكر سِيجْمُنْد فرُويد ـ الطبعة الأُولَى ـ عالَم الكُتُب ـ القاهرة ـ ١٩٧٠.

٢٥ ـ صحيح البُخَارِىّ ، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة بن بردزبّه البُخَارِىّ الجعفى ـ الجُزء الأول ـ دار ومطابع الشعب ـ القاهرة (بدون تاريخ).

٢٦ ـ عبّاس محمود العَقّاد : أثَر العرَب فى الحضارة الأوروبية ـ الطبعة الرابعة ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٥.

٢٧ ـ عبّاس محمود العَقّاد : الديمقراطية فى الإسلام ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٧١.

٢٨ ـ عَبّاس محمود العَقّاد : الله ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٧١.

٢٩ ـ عبد الرحمن الرافِعىّ : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، تاريخُنا القومىّ فى سبع سنوات (١٩٥٢ ـ ١٩٥٩) ـ الطبعة الأُولَى ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٩.

٣٠ ـ دكتور عبد الغنى النورِىّ، ودكتور عبد الغنى عَبُّود : نحوَ فلسَفة عرَبية للتربية ـ الطبعة الأُولَى ـ دار الفِكر العرَبىّ ـ القاهرة ـ ١٩٧٦.

٣١ ـ عبد الغنى سيّد أحمد عَبُّود : دراسة مقارنة لتمويل التعليم، فى الجمهورية العرَبية المتحدة، والولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفْيتّى، وفرنسا وإنجلترا ـ رسالة مقدمة إلى كلية التربية بجامعة عين شمس، للحصول على درجة الماجستير ـ قِسم التربية المقارنة (كلية التربية ـ جامعة عين شمس) ـ القاهرة ـ ١٩٦٥.

٣٢ ـ دكتور عبد الغنى عَبُّود : «الأيديولوجيا والتربية» ـ الباب الرابع مِن : فى التربية المقارنة ـ الطبعة الأُولَى ـ عالَم الكُتُب ـ القاهرة ـ ١٩٧٤.

٣٣ ـ دكتور عبد الغنى عَبُّود : «الأيديولوجيا والتربية فى الإسلام» ـ الكِتاب السنَوِىّ، فى التربية وعِلم النفس ـ بأقلام نُخبة مِن أساتذة التربية وعِلم النفس ـ المجلّد الثالث ـ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ـ ١٩٧٦.

٣٤ ـ دكتور عبد الغنى عَبُّود : الأيديولُوجْيَا والتربية، مدخَل لدراسة التربية المقارنة ـ الطبعة الأُولَى ـ دار الفِكر العرَبىّ ـ القاهرة ـ ١٩٧٦.

٣٥ ـ الدكتور عبد الله عبد الدائم : «التربية فى مرحلة التعليم الإلزامىّ وما قبلَها، ودورها فى تحقيق أهداف التنمية الاقتصادية الاجتماعية» ـ التربية مِن أجل التنمية ـ المؤتمَر التربوىّ لتطوير التعليم ما قبلَ الجامعىّ، المنعَقِد بدمشق فى ٣ ـ ٨ آب ١٩٧٤ ـ الجمهورية العربية السورية ـ وزارة التربية ـ دمشق(بدون تاريخ).

٣٦ ـ عَلِىّ باشا مبارك : الخُطَط التوفيقية الجديدة، لمصر القاهرة، ومُدُنها وبلادها القديمة والشهيرة ـ الطبعة الأُولَى ـ المطبعة الكبرَى الأميرية، ببولاق مِصر المحمِيَّة ـ القاهرة ـ سنة ١٣٠٦ هجرية.

٣٧ ـ عُمَر أبو النصر : عَلِىّ وعائشة ـ دار إحياء الكُتُب العرَبية ـ القاهرة ـ ١٩٤٧.

٣٨ ـ الدكتور فاخر عاقل : «نحوَ إصلاح تربوىّ جِذرِىّ» ـ التربية مِن أجل التنمية ـ المؤتمَر التربوىّ لتطوير التعليم ما قبلَ الجامعىّ، المنعَقِد بدمشق فى ٣ ـ ٨ آب ١٩٧٤ ـ الجمهورية العربية السورية ـ وزارة التربية ـ دمشق (بدون تاريخ).

٣٩ ـ الدكتور فاضل الجَمَالى : «فلسَفة تربوية متجدِّدة، أهمِّيتها للبلدان العرَبية» ـ فلسَفة تربوية متجدِّدة، لعالَم عرَبىّ يتجدَّد ـ دائرة التربية فى الجامعة الأميركيّة فى بيروت ـ مطابع دار الكَشّاف ـ بيروت ـ ١٩٥٦.

٤٠ ـ قرآن كريم.

٤١ ـ كلِنتُون هارتِلى جرَاتان : البحث عن المعرفة، بحث تاريخىّ فى تعلُّم الراشدين ـ ترجَمة عُثمان نويه ـ تقديم صلاح دسوقى ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٢.

٤٢ ـ الدكتور محمد أحمد الغَنّام : «استراتيجية التربية فى العالَم العرَبىّ» ـ التربية مِن أجل التنمية ـ المؤتمَر التربوىّ لتطوير التعليم ما قبلَ الجامِعىّ، المنعَقِد بدمشق فى ٣ ـ ٨ آب ١٩٧٤ ـ الجمهورية العربية السورية ـ وزارة التربية ـ دمشق (بدون تاريخ).

٤٣ ـ الدكتور محمد أحمد الغَنّام : «استراتيجية التربية فى البلدان العربية ـ الجزء الأول ـ النظرية والواقع» ـ التربية الجديدة ـ مجلّة فصلية، تعالج شؤون التخطيط والتجديد فى التربية ـ السنة الأُولَى ـ العدد الثانى ـ ـ بيروت ـ نيسان (أبريل) ١٩٧٤.

٤٤ ـ محمد أحمد الغَنّام : «استراتيجية التربية فى البلدان العربية ـ الجُزء الأول ـ النظَريّة والواقع» ـ التربية الجديدة ـ مجلّة فصلية، تعالج شؤون التخطيط والتجديد فى التربية ـ السنة الأُولَى ـ العدَد الثانى ـ بيروت ـ نيسان (أبريل) ١٩٧٤.

٤٥ ـ محمد أحمد الغَنّام : «مستقبل التربية فى البلدان العربية ـ الجُزء الثالث : اختيارات المستقبَل التربوىّ» ـ التربية الجديدة ـ مجلّة فَصلية، تعالج شؤون التخطيط والتجديد فى التربية ـ السنة الثانية ـ العدد الرابع ـ بيروت ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٤.

٤٦ ـ الدكتور محمد البَهِيّ : «اتجاهات الفلسفة الإسلامية وكيفية مجابهة الأفكار الحديثة فى المجتمعات الإسلامية» ـ الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ـ مجموعة البحوث التى قُدِّمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية ـ جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة (بدون تاريخ).

٤٧ ـ الدكتور محمد بديع شَرَف : «اليَقظة الفِكرية والسياسية فى القرن التاسع عشر» ـ دراسات تاريخية، فى النهضة العَرَبية الحديثة ـ الإدارة الثقافية بجامعة الدول العَرَبية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة (بدون تاريخ).

٤٨ ـ الدكتور محمد بِيصَار : العقيدة والأخلاق، وأثرُهما فى حياة الفرد والمجتمع ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٠.

٤٩ ـ محمد خَيرى حَرْبِىّ، والسيّدمحمد العَزَّاوى : تطوُّر التربية والتعليم فى «إقليم مصر» فى القرن العشرين ـ وزارة التربية والتعليم ـ إدارة الشئون العامّة ـ مركَز الوثائق التربوية ـ القاهرة ـ ١٩٥٨.

٥٠ ـ محمد شديد : منهَج القرآن فى التربية ـ مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ـ القاهرة (بدون تاريخ).

٥١ ـ محمد شفيق غُربَال : العَوامل التاريخية، فى بناء الأمة العَرَبية على ما هى عليه اليوم ـ محاضرات ألقاها على طلبة معهَد الدراسات العَرَبية العالية ـ القاهرة ـ ١٩٥٨/١٩٥٧.

٥٢ ـ الدكتور محمد فاضل الجَمَالِىّ : آفاق التربية الحديثة فى البلاد النامية ـ الدار التونسية للنشر ـ القاهرة ـ ١٩٧٢.

٥٣ ـ الدكتور محمد فاضل الجمالى : نحوَ توحيد الفِكر التربوِىّ فى العالَم الإسلامِىّ ـ الدار التونسية للنشر ـ القاهرة ـ ١٩٦٨.

٥٤ ـ الدكتور محمد فريد أبو حَديد : «فلسفة تربوية متجدِّدة، وكيفية تطبيقها فى المنهج والأسلوب والتقييم والامتحان» ـ فلسَفة تربوية متجدِّدة، لعالَم عرَبِىّ يتجدّد ـ دائرة التربية فى الجامعة الأميركية فى بيروت ـ مطابع دار الكَشّاف ـ بيروت ـ ١٩٥٦.

٥٥ ـ الدكتور محمد مُنير مُرْسِىّ : «الاتجاهات المعاصرة، فى التربية المقارنة» ـ عالَم الكُتب ـ القاهرة ـ ١٩٧٤.

٥٦ ـ الدكتور محيى الدين صابر : «حوار حول قضايا محو الأمية» ـ تعليم الجَماهير ـ مجلّة متخصّصة، تصدُر عن : الجهاز العَرَبِىّ لمحو الأمية وتعليم الكبار ـ مطبعة التقدُّم ـ القاهرة ـ ١٩٧٤.

٥٧ ـ الدكتـور مسارع حَسَن الراوى : نحوَ استراتيجيّة جديدة للتعليم فى العراق ـ مطبعة التقدُّم ـ بغداد ـ ١٩٧٤.

٥٨ ـ الدكتـور مصطفى السبَاعىّ : اشتراكية الإسلام ـ دار ومَطابع الشعب ـ القاهرة ـ ١٩٦٢.

٥٩ ـ مصطفى محمود : الماركسية والإسلام ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٧٥.

٦٠ ـ دكتـورة نازلى صالح أحمد : «التعليم فى الوطَن العَربىّ» ـ الباب الخامس مِن : فى التربية المقارنة ـ الطبعة الأولَى ـ عالَم الكُتُب ـ القاهرة ـ ١٩٧٤.

61 - HANS, NICHOLAS : **Comparative Education, A Study of Educational Factors and Traditions** ; Routledge and Kegan Paul, Limited, London, 1958.

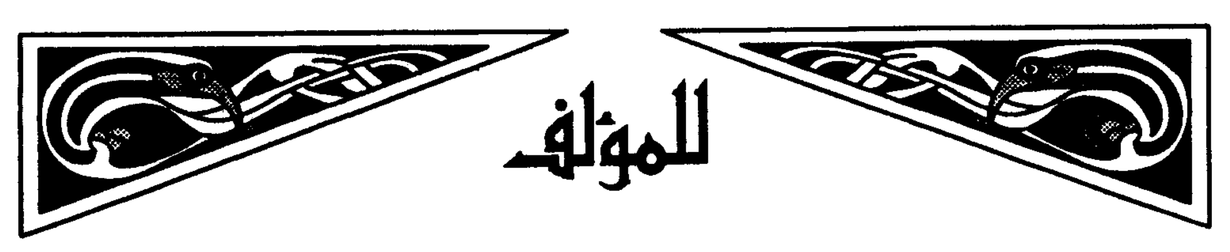
62 - **International Yearbook of Education,** UNESCO; International Bureau of Education, Geneva, 1949.

63 - KANDEL, I. L. : "The Methodology of Comparative Education" - **INTERNATIONAL REVIEW OF EDUCATION;** Vol. 3, 1959.

64 - KANDEL , I. L. : "The Study of Comparative Education" **EDUCATIONAL FORUM;** Vol. xx, November 1955.

65 - KAZAMIAS, ANDREAS M. and BYRON G. MASSIALAS : **Tradition and Change in Education, A Comparative Study** (Foundation of Education Series); Prentice - Hall, Inc., Englewood Cliffs, N. J., 1965.

66 - MORT, PAUL R. : **Principles of School Administration** : Mc-Graw- Hill Book Company, Inc., New-York, 1946.



للمؤلف

أولا : من كُتُب التربية - تأليفا مستقلّا

١ - الأيديولُوجْيَا والتربية، مدخل لدراسة التربية المقارنة - دار الفكر العربيّ - القاهرة - الطبعة الأُولَى ١٩٧٦، والطبعة الثانية ١٩٧٨، والطبعة الثالثة ١٩٨٠، والطبعة الرابعة ١٩٩٠.

٢ - فى التربية الإسلامية - الجُزء الأول - دار الفِكر العربيّ - القاهرة - الطبعة الأُولَى ١٩٧٧، والطبعة الثانية ١٩٨٥.

٣ - فى التربية الإسلامية - الجُزء الثانى - دار الفِكر العربيّ - القاهرة - ١٩٩١.

٤ - دراسة مقارنة لتاريخ التربية - دار الفِكر العربيّ - القاهرة - ١٩٧٨.

٥ - إدارة التربية، وتطبيقاتها المعاصرة - دار الفِكر العربيّ - القاهرة - الطبعة الأُولَى ١٩٧٨، والطبعة الثانية ١٩٨٢، والطبعة الثالثة ١٩٩٠.

٦ - البحث فى التربية - دار الفِكر العربيّ - القاهرة - ١٩٧٩.

٧ - التربية ومُشكِلات المجتمع - دار الفِكر العربيّ - القاهرة - الطبعة الأُولَى ١٩٨٠، والطبعة الثانية ١٩٩٢.

٨ - الفِكر التربويّ عند الغزَالىّ، كما يبدو من رسالته (أيُّها الولَد) - دار الفِكر العربيّ - القاهرة - ١٩٨٢.

٩ - التربية الإسلامية، والقرن الخامس عشر الهِجْرىّ - دار الفِكر العربيّ - القاهرة - ١٩٨٢.

١٠ - فى التربية المستمرّة، ومحو الأمّيّة، وتعليم الكِبار - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٩١.

١١ - التربية الاقتصادية فى الإسلام - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٩٢.

١٢ - إدارة التربية، فى عالَم متغيّر - دار الفِكر العربيّ - القاهرة - ١٩٩٢.

١٣ - التربية المقارنة فى نهايات القرن، الأيديولُوجْيَا والتربية من النظام إلى اللانظام - دار الفِكر العربيّ - القاهرة - ١٩٩٢.

ثانيا : من كُتب التربية - تاليفا مشتركا

١- فى التربية المقارنة - عالَم الكُتب - القاهرة - ١٩٧٤ (مع الدكتورة نازْلى صالح).

٢- نحو فلسفة عربية للتربية - دار الفِكر العربىّ - القاهرة (مع الدكتور عبد الغنى النورى) - الطبعة الأُولَى ١٩٧٦، والطبعة الثانية ١٩٧٩.

٣- فى التربية المعاصرة - دار الفِكر العربىّ - القاهرة (مع الدكتور إبراهيم عِصْمَتْ مطاوع) - الطبعة الأُولَى ١٩٧٧- والطبعة الثانية ١٩٨٥.

٤- فلسفة التعليم الابتدائىّ وتطبيقاته (مع الدكاترة : حَسَن عبد العال، وعَلِىّ خليل، وشَوقى ضيف) - دار الفِكر العربىّ - القاهرة - الطبعة الأُولَى ١٩٨٢م، الطبعة الثانية ١٩٩٣.

٥- التربية المقارنة منهج وتطبيقه (مع الدكتورين أحمد حِجّى وبَيّومى ضَحَاوى)- مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٩.

٦- التربية الإسلامية وتحدّيات العصر (مع الدكتور حَسَن عبد العال) - دار الفِكر العربىّ- القاهرة - ١٩٩٠.

٧- إدارة المدرسة الابتدائية (مع الدكاترة أحمد حِجّى، وأحمد غانم، والسيّد البهوَاشِىّ)- مكتبة النهضة المصرية - القاهرة- ١٩٩١.

ثالثا : كتب سلسلة (الإسلام وتحدّيات العصر) وتُصدرها كُلَّها : دارُ الفِكر العربىّ

١ ـ العقيدة الإسلامية، والأيديُولُوجيّات المعاصرة – الطبعة الأُولَى ١٩٧٦، والطبعة الثانية ١٩٨٠

٢ ـ الله والإنسان المعاصر – الطبعة الأُولَى ١٩٧٧، والطبعة الثانية ١٩٨١.

٣ ـ الإسلام والكون – الطبعة الأُولَى ١٩٧٧، والطبعة الثانية ١٩٨١.

٤ ـ الإنسان فى الإسلام والإنسان المعاصر – يناير ١٩٧٨.

٥ ـ اليوم الآخر، والحياة المعاصرة – يونية ١٩٧٨.

٦ ـ أنبياء الله، والحياة المعاصرة – سبتمبر ١٩٧٨.

٧ ـ قضيّة الحُرّيّة وقضايا أُخرَى – يناير ١٩٧٩

٨ ـ الأسرة المسلمة والأسرة المعاصرة – يونية ١٩٧٩.

٩ ـ الملامح العامّة، للمجتمع الإسلامىّ – يونية ١٩٨٠.

١٠ ـ ديناميات المجتمع الإسلامىّ – يونية ١٩٨٠.

١١ ـ الحضارة الإسلامية، والحضارة المعاصرة ـ فبراير ١٩٨١.

١٢ ـ الدولة الإسلامية، والدولة المعاصرة ـ يونية ١٩٨١.

١٣ ـ اليهود، واليهودية، والإسلام ـ يونية ١٩٨٢.

١٤ ـ المسيح، المسيحية، والإسلام ـ يناير ١٩٨٤.

١٥ ـ المسلمون وتحدّيات العصر ـ مايو ١٩٨٥.

رابعا : كُتُب يقدّم لها المؤلف
(سلسلة مكتبة التربية الإسلامية)
(وتُصدرها : دارُ الفِكر العربيّ)

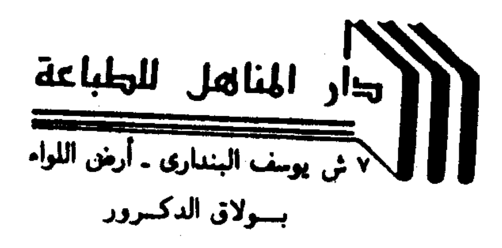
١ ـ التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرىّ، تأليف الدكتور حَسَن عبد العال ـ ١٩٧٨.

٢ ـ فلسفة التربية الإسلامية فى القرآن الكريم، تأليف الدكتور عَلِىّ خليل ـ الطبعة الأُولَى ١٩٨٠، والطبعة الثانية ١٩٨٥.

٣ ـ نظام التربية الإسلامية، فى عصر دولة المماليك فى مصر، تأليف الدكتور عَلِىّ سالِم النبَاهين ـ ١٩٨١.

٤ ـ تاريخ التعليم فى الأندَلُس، تأليف الدكتور محمد عِيسَى ـ ١٩٨١.

٥ ـ فلسفة التربية الإسلامية، فى الحديث الشريف، تأليف الدكتور عبد الجواد السّيد بَكْر ـ الطبعة الأُولى ١٩٨٣، والطبعة الثانية ١٩٩٠.



دار المناهل للطباعة
٧ ش يوسف البندارى ـ أرض اللواء
بـولاق الدكـرور